خُوان داثِيُو

مُعْجم الباباوات

نقله إلى العربيّة
أنطوان سعيد خاطِر



لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ٢٠٠٠/١١/٢١

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٩٤٦-١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-4952-4

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب. ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٤٨٥٧٩٣/٤/٥ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: Libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب في نسخته الفرنسيّة بعنوان:
Dictionnaire des Papes
par Juan Dacio
Editions France-Empire, Paris, 1963

مقدمة الناشر

هذا الكتاب تأريخ للباباوات في شكلٍ معجم. لقد آثر المؤلِّف الترتيب الزمنيّ على الألفبائيّ ليوفّر للقارئ رؤيةً شاملة موحَّدة، تسهِّل تتبّع الأحداث وترابطها. ولقد فضّل كلمة «معجم» على عبارة «تاريخ موجز»، ليبيِّن أنّ كلًّا من النبذ الواردة قائمة بذاتها ولها مدلولاتها الخاصّة بها. وممّا لا شكّ فيه أنّ مَن يطالع سلسلة التراجم هذه، على إيجازها، يدرك بُعد الكنيسة الشامل والمسكونيّ واستمرار أهدافها على مدى الزمن، ألا وهي الإنسان الحيّ بمعزل عن التحالفات الآنيّة والمصالح السياسيّة الضيّقة التي غالبًا ما تسيِّر الدول وحكوماتها.

لقد قام بترجمة الكتاب عن النسخة الفرنسيّة مشكورًا الأستاذ أنطوان سعيد خاطر، وإليه يعود الفضل في تكملة سيرة البابا بولس السادس (ص ٣٦٩) وإضافة سيرتَي يوحنّا بولس الأوّل ويوحنّا بولس الثاني (ص ٣٧٨ و٣٨٠).

كما أنّ المترجم وضع عددًا من الحواشي بغية الإيضاح أحيانًا ولزيادة فائدة الاختصاصيّين.

ولتسهيل العمل على الباحثين، رُقِّمت النبذ من العدد (١) إلى العدد (٢٦٣)، وجُعِل في آخر الكتاب فهرس ألفبائيّ بأسماء الباباوات.

وإنّنا لنأمل أن يوفِّر هذا الكتاب للمؤمنين وسيلةَ عمل سهلةَ التداول، ومرجعًا علميًّا مفيدًا مستساغًا. والله سبحانه من وراء القصد.

١ - بُطْرُس

كان اسمه أوّلًا سمعان (بالآرامية شمعون بَريونا = سمعان بن يونا). ولد في بيت صيدا على الضفّة الشماليّة من بحيرة جنّاشر، إلّا أنّه كان يسكن قرية كفرناحوم مع أخيه أندراوس، وكان كلاهما صيّادين. دعاه المسيح صخرًا (بالآراميّة **كيفا**، وباليونانيّة **پتْرُس**). كان من تلاميذ يوحنّا المعمدان الذي أرسله إلى **المعلّم**. عندما أنشأ المسيح مجموعة الاثني عشر، كان سمعان بطرس أوّل المدعوّين. وباسمه تبدأ دائمًا لائحة الرسل الاثني عشر في الأناجيل الثلاثة الأوائل: «أوّلهم سمعان الذي يقال له بطرس...» (متّى ١٠/٢). وبعد أن أنكر المعلّم ثلاث مرّات في أيّام الأسبوع المقدّس المأساويّة، كان سمعان بطرس أوّل الرسل الذين ظهر لهم يسوع.

يروي كتاب **أعمال الرسل** قصّة عمله التنظيميّ حتّى السنة ٥٠. فبطرس هو الذي عيَّن خليفة ليهوذا الإسخريوطيّ الذي كان شنق نفسه، وهو أنشأ مجموعة الشمامسة السبعة واضعًا بذلك أسس الكنيسة كمؤسّسة منظّمة. وامتاز بطرس بكونه نشيطًا وإنسانيًّا، ذا مبادرة وعزم، وقد وجّه خطاه دائمًا حبُّ يسوع إلى أن مات شهيدًا. وفي أثناء السنين القليلة الفاصلة بين موت يسوع على الجلجلة وموت أوّل الرسل، نشر بطرس التعليم الجديد في أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، وبنى على الصخرة أساس الكنيسة الجامعة العتيدة وفقًا لكلام إلهه: «أنت صخر وعلى الصخر هذا سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (متّى ١٦/١٨-١٩).

والتأمت الجماعة حول الرسل الاثني عشر وعلى رأسهم بطرس. وبعد حلول الروح القدس عليهم يوم العنصرة، بدأ بطرس يتكلّم علانية ويقوم بنشاطه التبشيريّ. تحدّث أيضًا عن محاكمة يسوع، فانتقد بشدّة قرار الذين حكموا على المعلّم بالموت. وهو، هو، بطرس الذي صنع أوّل أعجوبة حين شفى مُقعَدًا على باب الهيكل (أعمال ٣/١-٨). وبطرس كان، مع يوحنّا، أوّل مَن قبض عليه مجلسُ اليهود. وفي السنة ٤٢، اضطهد أغْرِيبّا الأوّل[1] المسيحيّين ووضع بطرس في السجن، لكنّه أخرِج منه بأعجوبة واستطاع الهرب (أعمال الرسل، ١٢).

يتكلّم القدّيس بولس على مجموعة الصفا أو حزبه في قُورنتُس (أولى قورنتس ١/١٢)، ممّا يبعث على الاعتقاد أنّ بطرس كان قد بدأ يسافر إلى خارج فلسطين. ومن رسالة بعث بها أوّل الرسل إلى تلاميذه في البُنْط، وغَلاطِية، وقبّدُوقِيَه، وآسِيَة، وبِيتينِيَة[2] يظهر أنّه قام، بدون شكّ، برحلة إلى هذه المناطق.

أمّا وصوله إلى رومة فتتوافر لنا فيه عدّة شهادات. وبطرس لم يكن أوّل مَن خاطب يهود رومة بشأن التعليم الجديد، إلّا أنّه، هو مَن نظّم الجماعة الأولى فيها. ففي سنة ٤١، أصدر الإمبراطور قلُودِيُوس منشورًا لصالح اليهود، إلّا أنّ اضطرابات أثارها بعد عشر سنوات تلاميذ المسيح، أي المسيحيّون الأوّلون، بحسب رواية المؤرّخ

(١) أو «هِيرُودُس أغرِيبّا»، ابن أخي هيرودُس أنطيباس الذي قتل يوحنّا المعمدان وسخر بيسوع... تولّى الحكم في ٤١ وتوفّي في ٤٤م». **العهد الجديد**، دار المشرق، بيروت.

(٢) **أولى بطرس ١/١.**

سُوِيتُونيُوس، دفعت قلودِيوس إلى طرد اليهود جميعًا، مسيحيّين كانوا أم غير مسيحيّين.

أمّا التمييز بين يهود ومسيحيّين فقد وضعه نِيرُون سنة ٦٤ عندما اتّهم المسيحيّين بالتسبّب بالحريق الذي هدم عاصمة الإمبراطوريّة، فحكم عليهم بأشدّ العقوبات قساوة فرماهم أمام الحيوانات المفترسة، وجعل منهم مشاعل ملتهبة. ويصف تاقِيطُس (Tacite) في **مجرياته** (١٥/٤٤) هذه المأساة الجماعيّة التي هلك فيها ألوف الأبرياء. ولعلّ بطرس كان من أولئك الضحايا أيضًا. ويُلمِح بطرس إلى موته القريب في إحدى رسائله إلى تلاميذه البعيدين. إلاّ أنّنا لا نستطيع تأكيد ما إذا كانت الرسالة قد كُتبت سنة ٦٤ أو سنة ٦٧. وأوسابِيُوس القيصريّ يجعل استشهاد القدّيس بطرس وموته في السنة ٦٧، أمّا القدّيس هِيرُونيمُس فيجعله في السنة ٦٨. ولعلّه صلب على رَبْوة الڤاتيكان حيث دُفِن. وفي موضع استشهاده، أقام البابا أناكليطس نُصبًا تذكارًا للقدّيس بطرس، وهناك بنى الإمبراطور قسطنطين كنيسة حيث تقوم حاليًّا كنيسة القدّيس بطرس المشيَّدَة وفقًا لتصاميم برامانتي ومِيكال أنجلُو.

٢ - لِينُس (٦٧-٧٦) (؟)

بعد انتحار نيرون الذي أعلنه مجلس الشيوخ عدوًّا عامًّا، عاشت رومة مرحلة هدوء واستطاعت الكنيسة أن تنظّم شؤونها فراحت تزدهر. وتُثبت جداول أساقفة رومة التي وُضِعت في القرن الثاني أنّ القدّيس بطرس هو أوّل الباباوات، كما تذكر القدّيس لينس خليفة له، إلّا أنّها لا تورد أيّة تفاصيل تتناول سيرته.

٣ - قلِيطُس أو أناقْلِيطُس (٧٦-٨٨) (؟)

تبعًا للجدول الذي وضعه القدّيس إيرِيناوُس في أواخر القرن الثاني، نجد بابا واحدًا يحمل اسم أناقليطس وليس اثنين كما ظنّ بعضهم. على أنّنا لا نملك عن القدّيس قليطس، شأنه شأن القدّيس لينس، معلومات أو أخبارًا دقيقة.

٤ - إقْلِيمَنْضُس الأوّل (٨٨-٩٧) (؟)

كانت حبريّة البابا الرابع مَفْصِلًا حاسمًا في تطوّر الكنيسة وانتشار المسيحيّة. ففي رسالة تعود إلى السنة ٩٦ وجّهها إلى جماعة المؤمنين في قورنتس، يحاول أن يهدّئ الذين كانوا يهدّدون بتدمير نظام الجماعة، فيظهر في موقفه هذا رئيسًا حقيقيًا للمنظّمة الدينيّة [الكنيسة]، وبهذه الصفة يتوجّه بخطابه إلى هؤلاء المؤمنين. وممّا يؤكّده في رسالته أنّ النظام هو ناموس الكون، وهو مبدأ المجتمع الإنسانيّ، وبالتالي، هو أيضًا مبدأ المجتمع المسيحيّ. وعلى المؤمنين أن يطيعوا الأوامر كما يطيعها عساكر الجيش الرومانيّ. والوفاق والطاعة هما المبدآن اللذان يجب أن يوجّها حياة المؤمنين في قورنتس.

كان أثر تلك الرسالة بالغًا وثابتًا. فبعد سبعين سنة من تلقّي مؤمني قورنتس إيّاها، كانوا يستمعون إليها، كلَّ أحد، في جوّ من التقوى التي امتازت بها الجماعات الأُوَل. ورسالة القدّيس إقليمنضس هذه ذات أهمّيّة أيضًا لأنّها تُرسي مبدأ تنظيم الكنيسة التراتبيّ، وهو المبدأ الذي أكّده كلٌّ من القدّيس إغناطيوس، أسقف أنطاكية، وخَلَفُه إفُودِيُوس، في رسائله. وتعود هذه الرسائل إلى أوائل القرن الثاني، وتتحدّث بوضوح عن الأسقفيّة وعن سيامة الكهنة

كنظام عاديّ قائم. والقدّيس إغناطيوس الإنطاكيّ أوّل مَن وصف الكنيسة بأنّها «كاثوليكيّة»، أي جامعة.

ولعلّ القدّيس إقليمنضس حضر استشهاد القدّيسين بطرس وبولس. والقدّيس يوحنّا الرسول لقِيَ عذابات الاستشهاد في أيّام حبريّته. ويؤكّد طِرطِليانُس أنّ القدّيس يوحنّا تحمّل عذاب الزيت الغالي لكنّه نجا منه بأعجوبة، ثمّ نُفِيَ إلى جزيرة بَطْمُس حيث كتب إنجيله.

٥ - إيڤارِسْطُس (٩٧-١٠٥)

يُعرف عنه فقط أنّ أصله من بيت لحم وأنّه كان يونانيًّا.

٦ - إسْكَنْدر الأوّل (١٠٥-١١٥) (؟)

في أيّام حبريّته، حوالى السنة ١١٠، استشهد القدّيس إغناطيوس، أسقف أنطاكية، الذي أُلقِيَ به إلى الوحوش المفترسة في الكُولِيزِه، وهو الملعب الكبير الذي بناه الإمبراطور ڤِسْپاسِيانُس.

٧ - سِكسْتُس الأوّل (١١٥-١٢٥) (؟)

يكاد لا يُعرف عنه إلاّ أنّ اسمه كُتب سِكسْتُس كما ورد بصيغة أخرى وهي كسيسْتُس.

٨ - تِلِسْفُورُس (١٢٥-١٣٦) (؟)

كان من أصل يونانيّ. وبحسب رواية القدّيس إيريناوس، استشهد استشهادًا مجيدًا في عهد الإمبراطور أدريانُس.

٩ – هِيجِينُس (١٣٦-١٤٠) (؟)

كان ابن فيلسوف من أثينا. لا نملك أيّة معلومات عن حبريّته.

١٠ – بِيُوس الأوّل (١٤٠-١٥٥) (؟)

عرف المسيحيّون في أثناء حبريّته فترة من الاضطهادات والاستشهادات التي أطلقها ضدّهم مباشرة الإمبراطور أدريانُس. وقد بدأ روح الجماعة في ذلك العهد يتهاوى، خصوصًا في رومة، بفعل الضربات القاسية التي تلقّتها من الاضطهادات، أو بفعل البدع الأُوَل التي ظهرت كبدعة الأدريّين الذين كانوا «يفسدون خدّام الله» بتأكيدهم أنّ التوبة لا فائدة منها، وأنّ العماد وحده يصلح لغفران الخطايا. وقد انتشر في هذه الفترة بين المؤمنين كتاب مهمّ عنوانه **الراعي** قد يكون ألّفه أَخٌ للبابا بيّوس الأوّل. هدف الكتاب الدفاع عن التوبة، وقد وُضع بصورة حوار بين امرأة ترمز إلى الكنيسة، وملاك التوبة نفسه. والمرأة والملاك كلاهما يبسطان فكرة المؤلّف. والكتاب وثيقة مهمّة لتقدير الحالة التي كانت الكنيسة تعيشها في أواسط القرن الثاني.

في أيّام حبريّة بيّوس الأوّل بُنيت كنيسة القدّيسة پُودانْسيان (عفيفة)، وهي أقدم كنيسة في رومة.

١١ – أنِيقِيطُس (١٥٥-١٦٦) (؟)

في حبريّة هذا البابا، قَدِمَ إلى رومة القدّيس پُولِيقَرپُس، تلميذ القدّيس يوحنّا الرسول، ليناقشه في المسائل التي كانت ما زالت تقسم الجماعات المسيحيّة. وأهمّ هذه الانقسامات كان سببها تاريخ

الاحتفال بعيد الفصح، إلّا أنّ هذه المسألة حلّها، بعد سنوات، البابا ڤكتور الأوّل.

وقد وقف البابا أنيقيطُس ضدّ بدعة المدعوّين مُونْطانيّين باسم مؤسّسهم المدعوّ مونطانس الذي نشر تعليمه خصوصًا في الشرق الأوسط.

في السنة ١٦٣، على عهد الإمبراطور مَرْقُس أورِيليوس، قطعت السلطات رأس أحد أهمّ المدافعين عن الكنيسة الأولى، وهو القدّيس يُسْطِينُس. وكتابا هذا القدّيس: **حوار مع تريفون** و**الدفاعات** إنّما هما تعظيم للمسيحيّة وردّ على المفترين عليها. والقدّيس يسطينس واحدٌ من أوائل المفكّرين المسيحيّين، عرف أن يوفّق بين مصطلحات الفلسفات القديمة وأسلوبها ومقتضيات العقيدة الجديدة.

١٢ – سُوتِير (١٦٦-١٧٥) (؟)

أهمّ ما يُعرف عنه أنّ أشدّ اضطهاد أنزله الإمبراطور مَرْقس أوريليوس بالمسيحيّين حصل في أيّام حبريّته.

١٣ – إلِفْتيريوس (١٧٥؟-٨٩)

كان من أصل يونانيّ، وهو البابا الثالث عشر، وبه تختم أقدم لائحة للباباوات، تلك التي وضعها القدّيس إيريناوس. ففي السنة ١٧٧، قصد إيريناوس، أسقف ليون، رومة ليعلن اعترافه بسلطة أسقفها التعليميّة العليا. ويعتبر هذا الاعتراف أحد الأسس في عقيدة أوّليّة بابا رومة، نظرًا إلى أنّ إيريناوس كان يمثّل كنيسة آسية وكنيسة غاليا (فرنسا). وفي السنة ١٧٧، عندما حصدت

الاضطهادات القسم الأكبر من رجال كنيسة ليون، اختار المؤمنون القدّيس إيريناوس ليدير شؤون الكنيسة الشهيرة، فمضى إلى رومة حيث أقام بضع سنوات.

١٤ - فِكْتُورْ الأوّل (١٨٩-١٩٩)

من مواليد إفريقيا. في عهده، هزّ الكنيسة خطر أوّلِ انشقاقٍ بسبب الخلاف على الاحتفال بعيد الفصح. فالآسيويّون كانوا يحتفلون به في الواقع في ١٤ نيسان، أي في اليوم الرابع عشر لقمر آذار؛ في حين أنّ مسيحيّي الغرب كانوا يحتفلون به في الأحد التالي. وحين دعا البابا ڤكتور المجامع الإقليميّة إلى الانعقاد، أراد أن يفرض على أساقفة آسية، وعلى رأسهم بوليقراطُس الأفسُسيّ، أن يعتمدوا، لاحتفالهم بالفصح، التاريخ الذي يعتمده الغربيّون، فكان الصدام بين التقليدَيْن عنيفًا، إلّا أنّ النزاع تمّ اجتنابه بفضل القدّيس إيريناوس الذي طلب إلى البابا أن يرجع عن عزمه على إنزال الحرم بالشرقيّين. فزال شبح الانشقاق.

وفي عهد البابا ڤكتور الأوّل وأسلافه المباشرين نشأت بدعة الغُنوصيّة[٣] وانتشرت. والغُنوصيّة التي ما زالت تلوح في بعض الأشكال الأدبيّة والفنّيّة، جمعت بين الطابعين الفلسفيّ واللاهوتيّ، وقد وصفها دانيال - رُوپْس بأنّها «شذوذ عقليّ»، وهدفها كان أن تجمع في سلّة حكميّة واحدة الفكر

(٣) الغُنوصيّة، من اليونانيّة وتعني المعرفة (الأَدْرِيَة)، واحدة من البدع التي ظهرت في القرون الثلاثة الأوائل للمسيحيّة. تعترف بالثنائيّة: المادّة مرادفة للشرّ وعائق للخلاص، ومعرفة الحقائق الإلهيّة الخاصّة ببعض المختارين.

المسيحيّ، والهلّينيّ، والشرقيّ. وكانت عبادتهم تقوم على السحر وعلى طقوس سرّيّة. والله، في راي الغنوصيّين، لا يدركه الإنسان، ويقيم في عالم من الكمال ليس عالمنا صورةً أمينةً له. وتقوم بين الله والناس سلسلة من «الإيُونات»، والله الذي خلقنا إنّما هو «إيون» متمرّد دفعه طموحه إلى محاولة التساوي بالله. إلّا أنّه فشل فحُكِم عليه أن يعيش في كون متوسّط، وخارج العالم الروحيّ. هذا الإله، الذي هو إله العهد القديم، خلق الإنسان ويدعى «الصانع» أو صانع الكون. فليس الإنسان، بالتالي، كائنًا شرّيرًا بطبيعته لأنّه صورة عن الألوهة، إلّا أنّ ذنبه أنّه موجود. فالوجود هو الشرّ، والشرّ هو الحياة. فالذين يقنعون بالوجود، أي الكائنات «المادّيّة»، محكوم عليهم بالهلاك، أمّا «الروحيّون» فيستطيعون أن يخلصوا بواسطة «المعرفة» ويقتربوا من الله. والذين يخلصون نهائيًّا، أي «الروحيّون»، هم المتفوّقون في المعرفة، أو الأَدْرِيُّون الحقيقيّون.

والملاحَظ، أنّ المسيح لا يظهر في البدعة الغُنوصيّة، وإذا ظهر أحيانًا فيُرى واحدًا من «الإيونات».

ولا مجال في تعليم الغنوصيّة لعقيدة الفداء المسيحيّة ومثاليّتها، بل يحلّ محلّها نوعٌ من النرڤانا البوذيّة.

وانتشرت العقيدة الغنوصيّة بفضل مؤلّفات بارعة التصنيف بصورة قصائد ميتافيزيقيّة (ما ورائيّة) تتحدّث عن الحبّ والإيمان، وعن الابتعاد عن المادّيّات، والارتقاء بالروح إلى الكمال. وقد حقّقت الغنوصيّة نجاحًا باهرًا. فرغم الهجمات التي أطلقها عليها پاپياس (Papias) أسقف هيراپُوليس،

والقدّيس يُسْطينُس، انتشرت هذه البدعة في جميع الأوساط المسيحيّة. وبين السنة ١٨٠ والسنة ١٩٠، وضع القدّيس إيريناوس مؤلّفه المشهور وعنوانه **كشف القناع عن الغنوصيّة الفاسدة ودحضها**. وكتب يقول: «إنّ الغنوصيّة الحقيقيّة هي عقيدة الرسل ودستور الكنيسة الأوّل».

وظهرت بدعة أخرى في تلك الحقبة هي المَرْقِيونيّة المتحدّرة من الغنوصيّة، طلع بها ونشرها مَرْقِيون[٤] الذي استمرّت كنيسته المبتدعة حتّى القرن السادس. وقد حاربها أيضًا القدّيس يُسطينُس.

١٥ - زِفيرِينُس (١٩٩-٢١٧)

١٦ - كالِسْتُس الأوّل (٢١٧-٢٢٢)

بعد الحكم على كالِسْتُس بسبب إيمانه وإرساله إلى مناجم سردينية، صدر عن الإمبراطور كُومُودُس العفو عنه، فعاد إلى رومة حيث عيّنه البابا زفِيرِينُس شمّاسًا أوّل. ثمّ عُهِدَ إليه بإدارة المدافن المعروفة «بمدافن كالِسْتُس» التي دفن فيها باباوات القرن الثالث جميعهم. حارب البدعتَيْن المعروفتين إحداهما بالتَّبَنِّيَة والأخرى بالصابلّيّة. وقد هاجمه بشدّة القدّيس هِيبُولِيطُس[٥] الذي اتّهمه بإدخال عادات في الكنيسة تهدف إلى التراخي في

(٤) مرقيون وُلد في البُنطُس، قدم إلى رومة في حوالى ١٤٠. قال بثنائيّة مبنيّة أساسًا على تعارض بين الخالق في العهد القديم والإله العطوف في العهد الجديد. «كان مرقيون يستخلص من ذلك مسيحانيّة ظاهريّة وأخلاقيّة مفرطة في التقشّف».

(٥) هيبوليطس، كاهن رومانيّ عالم، قاوم البدعة المونارخيّة. أدّى نزاعه مع البابوين زفيرينس وكالِسْتُس إلى انفصال... فأصبح... أسقف جماعة رومانيّة منشقّة. توفّي شهيدًا في ٢٣٥.

الأخلاقيّات بسبب موقفه المبالغ في التساهل مع الخطأة.

ويبدو أنّ كالِسْتُس مات ميتة طبيعيّة بخلاف أسلافه الذين ماتوا شهداء.

١٧ - أُرْبانُس الأوّل (٢٢٢-٢٣٠)

إضطرّ البابا أُربانس، مثله مثل سَلَفه، إلى مقاومة هجمات القدّيس هيبُوليطس القاسية، إذ أحدث موقفه النقديّ أوّل انشقاق في تاريخ الكنيسة. فقد انفصلت كنيسة إفريقيا عن الكنيسة الرومانيّة، إلّا أنّ النزاع فُضَّ سريعًا بفضل السلطة المتنامية التي كسبها مَن يسمّيه طرطِلْيانُس «أسقف الأساقفة»، أي خليفة القدّيس بطرس.

١٨ - بُونْطيانُس (٢٣٠-٢٣٥)

قُبِض على بُونْطيانُس في عهد مَكْسِيمِينُس الطراقِيّ يوم قُبِض على البابا المنافس هيبوليطس، وأُرسل إلى المناجم في سَرْدِينية. استقال من منصبه ومات من سوء المعاملة التي لقيها.

١٩ - أَنطيرُس (٢٣٥-٢٣٦)

دامت حبريّته بضعة أشهر، من تشرين الثاني/نوڤمبر إلى كانون الثاني/يناير.

٢٠ - فابِيانُس (٢٣٦-٢٥٠)

إستفاد فابيانس من فترة الهدوء النسبيّ الذي عقب موت مَكْسِيمِينُس العنيف، فنظّم شؤون الكنيسة، وقسم رومة إلى مناطق أربع وعهد بكلّ منطقة إلى شمّاس. نقل إلى رومة رفات بونْطيانُس

وهيپوليطُس اللذين كانا قد تصالحا في سردينية قبل وفاتهما، ودفنهما في قبر مسيحيّ في ديامِيس كالِسْتُس حيث اكتُشِفَ ناووس فابيانُس نفسه في سنة ١٩١٥. مات شهيدًا في أثناء اضطهادات ديقيوس. ومن جرّاء تلك الاضطهادات العنيفة ظلّ الكرسيّ البابويّ شاغرًا طوال ثلاثة عشر شهرًا.

٢١ - قرنيليوس (٢٥١-٢٥٣)

في حين كان داقِيوس بعيدًا عن رومة في حروبه مع القوط، التأم جَمْعُ الكهنة لاختيار بابا، فانتخبوا كاهنًا مشهورًا بفضائله الرفيعة: قرنيليوس.

عقد هذا البابا في رومة في السنة ٢٥١ مجمعًا حَرَمَ أتباع الكاهن القرطاجيّ نوڤاطيانُس المشهور باسم «الأطهار» أو «الكَتار». كان في رومة، في عهد حبريّته، ٤٧ كاهنًا، و٧ شمامسة، و٧ شدايقة. وهذه المعلومات متوافرة من رسالة بعث بها قرنيليوس إلى أسقف أنطاكية، فابيانُس. ولأنّ البابا قرنيليوس رفض المشاركة في الصلوات التي أمر الإمبراطور غَلُّس بتنظيمها للتوسّل إلى الآلهة الأوثان - والإمبراطور كان يلازمه كابوس الطاعون والجوع -، فقد أوقِف ونُفِيَ إلى قرب المدينة القديمة (Civitavecchia) حيث توفّي.

٢٢ - لُوقِيُوس الأوّل (٢٥٣-٢٥٤)

ما إن انتُخِب للكرسيّ البابويّ حتّى نُفِيَ. إلّا أنّه ما عتّم أن عاد في ظلّ الهدوء الذي عقب موت الإمبراطور غلّس. ولم يطل به الأمر حتّى مات ميتة طبيعيّة.

٢٣ - إسْطفانُس الأوّل (٢٥٤-٢٥٧)

في مناظرة مع قِبْريانُس أسقف قرطاجة، دافع عن صحّة العماد الذي يقوم به المبتدعون (الهراطقة).

٢٤ - سِكْسْتُس الثاني (٢٥٧-٢٥٨)

كان رفيقًا للقدّيس قِبريانس. وتصالحت كنيسة رومة وكنيسة إفريقيا بسبب الاضطهادات المرعبة التي أطلقها الإمبراطور ڤاليريانُس. قبض على البابا فيما كان يحتفل بذبيحة القدّاس وقُطِع رأسه في مقبرة. وقد احتاط رئيس الشمامسة لورِنْتيوس لئلّا تؤمَّم ممتلكات الكنيسة، فوزّعها على الفقراء، فحكم عليه وأحرق حيًّا. وهلك شهداء كثيرون في تلك السنة. وقد خلّد فرا أنجيليكو في الجدرانيّات الشهيرة في معبد نقولا الخامس، في الڤاتيكان، حياة سِكسْتُس ولورِنْتيوس وأعمالهما. وفي المعبد السكسْتي في الڤاتيكان، رسم للبابا سكسْتُس الثاني بريشة بوتيتشيللي.

٢٥ - دِيُونيسِيُوس (٢٥٩-٢٦٨)

ظلّ الكرسيّ البابويّ شاغرًا سنةً تقريبًا في إثر وفاة البابا سِكسْتُس بسبب عنف الاضطهادات، إلى أن أعاد الإمبراطور غليانُس إلى المسيحيّين أموالهم المصادرة، فأعاد ديونيسيوس تنظيم الكنيسة. فأنشأ ٢٥ وظيفة كهنوتيّة في رومة، وأسّس مدافن جديدة، وساعد المعوزين. وافتدى العديد من الأسرى الذين اعتقلهم القوط في قبّدوقية. وفي مجمع عُقد في رومة سنة ٢٦٢، حدّد عقيدة الثالوث التي كان قد أفسدها ديُونِيسِيُوس الإسكندريّ.

٢٦ - فيلِكْس الأوّل (٢٦٠-٢٧٤)

قليلة هي المعلومات عن حبريّته. ما تجدر الإشارة إليه أنّ الاضطهادات كانت قد توقّفت.

٢٧ - أُوطِيخِيانس (٢٧٥-٢٨٣)

إكتُشِفَ قبره في ديامِيس القدّيس كالِسْتُس. على أنّه تفوتنا أخبار مفصّلة عن حبريّته.

٢٨ - قايُس (٢٨٣-٢٩٦)

في رواية غير وثيقة، بين قايُس وديوقْلِتيانُس قُربى. ويلاحظ أنّ سلسلة من الباباوات الفاضلين والقدّيسين تعاقبوا على كرسيّ رومة بفضل الطمأنينة النسبيّة التي وفّرها الأباطرة للمسيحيّين.

٢٩ - مَرْقِلّينُس (٢٩٦-٣٠٤)

إنفجر اضطهاد الإمبراطور ديوقلِستيانُس. والمؤسّسات التي أنشأها أوغسطُس كان قد عفّى عليها الزمن، وتحوّلت الإمبراطوريّة التي يدير شؤونها إمبراطور يدعمه الجيش دولة شموليّة. أمّا ديوقلِستيانُس، فلكي يتلافى الصراعات التي يثيرها عصيان الفرق العسكريّة وانتفاضها، وهي التي كانت ترشّح الطامحين إلى العرش، فقد أقام نظام حكم رُباعيًا[٦] ضمَّ في مَن ضمَّهم مَكسيمْيانُس الذي وَكل إليه القسم الغربيّ من الإمبراطوريّة وقاعدته ميلانو. واستقرّ ديوقلِستيانُس في نيقوديمية وهو مركز إستراتيجيّ مهمّ. وقد حمل الإمبراطوران لقب «أُوغسْطس»، أمّا لقب «قيصر» فقد حمله

(٦) وهو نظام يقسّم الإمبراطوريّة الرومانيّة بين أربعة أباطرة.

مساعداهما: غاليرُس، أصله من داقية وجعل مقرّه في سِرْمِيُوم، بالقرب من بلغراد الحاليّة؛ وكونْسطانس كلُور الذي استقرّ في تريفِيس. وانفجر الاضطهاد الذي استُخدِم وسيلةً للحفاظ على وحدة الإمبراطوريّة الروحيّة التي ما كانت أسسها الشموليّة لترضى بوجود «الهرطقات». وتميّز غاليرس باندفاعه ضدّ المسيحيّين، إلّا أنّه ارتدّ إلى المسيحيّة وهو على فراش الموت.

وفي عهد ساوِيرُس، خليفة كونْسطانس كلور، بصفته «قيصرًا» على الغرب، عاش المسيحيّون الغربيّون في سلام، في حين أنّ مكسيمِينُس دايا، خليفة غاليرس في الشرق، تابع سياسة سلفه. على أنّ قسطنطين وليقِينيُوس كانا يعدّان الطريق إلى التسامح.

وفي أيّام حبريّة مَرْقلّينُس، اضطرّت الكنائس إلى أن تسلّم الكتب المقدّسة إلى السلطات فأحرقتها.

٣٠ - مَرْقِلُّس الأوّل (٣٠٨-٣٠٩)

بقي الكرسيّ الرسوليّ شاغرًا طيلة أربع سنوات بسبب الاضطهادات. وناهض مَرْقلُّس الجاحدين الذين تركوا إيمانهم إبّان الاضطهادات وحاولوا الرجوع من بعد إلى الكنيسة بدون أن يقوموا بواجب التوبة. فحصلت في رومة اضطرابات كان وراءَها هؤلاء الجاحدون. ومات مرقلُّس في المنفى.

٣١ - أُوسابِيُوس (٣٠٩-٣١٠)

كان عهد حبريّته مضطربًا. وزاد البلبلة خطورة أنّ منافسًا له يدعى هِرَقْلِيُوس انتُخبَ بابا في الوقت نفسه. توفّي في صقلّية.

٣٢ - مِلْقيادِس (٣١١-٣١٤)

ظلّ الكرسيّ البابويّ شاغرًا إلى أن انتُخِب الإفريقيّ مِلْقيادِس. في ٢٨ تشرين الأوّل/أكتوبر ٣١٢، انتصر قسطنطين على مَكْسانس في معركة جسر مِلْفِيُوس بالقرب من رومة. وظلّت الإمبراطوريّة مقسومة بين اثنين: قسطنطين، إمبراطور الغرب، وليقِينيوس، إمبراطور الشرق. وفي منشور ميلانو في السنة ٣١٣ أقرّ القيصران الصفة الجامعة للكنيسة الرومانيّة. وحارب مِلْقيادِس البدعة الدوناطيّة[٧] التي كانت قد أفْرَخت في إفريقية.

٣٣ - سِلْفِسْتْرُس الأوّل (٣١٤-٣٣٥)

كان قيام قيصر مسيحيّ على رأس الدولة حسنةً للكنيسة وخطرًا عليها في آن. فالإمبراطور يستطيع أن يتدخّل في شؤون الديانة الجديدة كما كان قد تدخّل في شؤون الديانة القديمة. والنزاع بين السلطتين الروحيّة والزمنيّة الذي هَيْمن على تاريخ العصر الوسيط، إنّما تعود جذوره إلى تدخّل إمبراطور رومة في الشؤون الكنسيّة، وهو تدخّل شرع فيه قسطنطين نفسه. وقد وصف أحد مؤرّخي الكنيسة المرحلة الجديدة التي دخلتها في هذه الفترة بهذه الكلمات: «ما إن تحرّرت الكنيسة من الضغط ومن الاضطهادات، حتّى واجهت خضوعَها لمحنة أشدّ وطأة عليها من العداء، محنة حماية الدولة لها، وهي غالبًا ما تكون ثقيلة» (جاك زايلر).

(٧) نسبة إلى دُوناطُس، أسقف قرطاجة. نفاه الإمبراطور قسطنطين في ٣١٦. رفض سلطة الأسقف الذي عُيّن بدلًا عنه لأنّه اتّهمه بالتسليم للسلطة السياسيّة. أُجهِز مبدئيًّا على الانشقاق في ٤١١ بإدارة القدّيس أوغسطينس.

بعد سقوط ليقينيوس، أُعلن قسطنطين إمبراطور الغرب والشرق. وفي السنة ٣٢١ أعلن يوم الأحد يوم عطلة رسميّة. وفي السنة ٣٢٤، أمر ببناء كنيسة لاتران، وكنيسة الڤاتيكان حيث أودع رفات القدّيس بطرس. وفي السنة ٣٢٥، دشّن أوّل مجمع مسكونيّ في نيقية. وهو المجمع الذي أعلن تساوي الآب والابن في الجوهر خلافًا لتأكيدات آريوس الذي كانت بدعته، الأريوسيّة[٨]، قد استمالت عقول الكثيرين في الشرق. وما زال النصّ الذي وُضع في نيقية أساسًا لإيمان الكنيسة، وهو المعروف بـ**قانون الإيمان النيقاويّ** الذي يلخّص فكر ٢٥٠ مندوبًا شاركوا في ذلك المجمع.

في ١١ أيّار/مايو ٣٣٠، دشّن قسطنطين عاصمة الشرق الجديدة، القسطنطينيّة، أي بيزنطية القديمة، التي حملت اسمه وكانت سببًا لانقسامات أخرى في ما بعد. أربعون ألف أسير من القوط عملوا طوال ستّ سنوات، فتحوّلت المدينة اليونانيّة القديمة إلى عاصمة رائعة. نُزِعت من الهياكل القديمة أعمدتها وكنوزها لتستخدم في بناء القسطنطينيّة، أي مدينة قسطنطين. ورمزًا لتحوّل أمور المدينة وأوضاعها روحيًّا وماديًّا، فقد ظهر في احتفالات التدشين تمثال ضخم من ذهب يبرز ملامح أَبُلُّس، إلّا أنّه في حين كانت الجوقة تنشد كيرياليسون، تحوّل التمثال إلى صورة قسطنطين وقد صُنع الإكليل على رأسه من مسامير الصليب المقدّس. لقد تراجعت الوثنيّة أمام المسيحيّة، لكنّها نقلت إليها بعضًا من كنوزها وبعضًا

(٨) بدعة علّمها في القرن الرابع آريوس وأنصاره، تنكر لاهوت المسيح.

آخر من معتقداتها، حتّى قال بعضهم في القدّيسين، بكثير من المبالغة، إنّهم «خلفاء الآلهة». وقد تمّ التغيير في بيزنطية بقدر أكبر من السهولة منه في أيّ مكان آخر. فاليونان كانت حاضرة في العقول بفلسفتها، وفنونها، وديانتها. إلّا أنّ هذا الواقع نفسه أحدث لاحقًا أكبر انشقاق مأسويّ.

لقد تزامن تحوّل الإمبراطور إلى حامي الكنيسة، وحَرْمُ آريوس، وانتشار بدعته، وتأسيس القسطنطينيّة مع حبريّة البابا سلفستُرُس الأوّل، وخلقت هذه الوقائع مشاكل صعبة على الكنيسة.

٣٤ - مَرْقُس (٣٣٦)

كان من رومة. لم تدم حبريّته سوى عشرة أشهر: من كانون الثاني/يناير إلى تشرين الأوّل/أكتوبر ٣٣٦.

٣٥ - يُولِيُوس الأوّل (٣٣٧-٣٥٢)

دعا إلى مجمع جديد في سرديقية (صوفيا) في ٣٤١ بغية مصالحة الكاثوليك والأريوسيّين. إشترك في المجمع نحو مئة من الأساقفة الهراطقة، وقد اعتبرت قراراته مهمّة بقدر الأهمّيّة التي اكتسبتها قرارات مجمع نيقية. لم تتمّ المصالحة، فعقد الأساقفة الهراطقة مجمعًا خاصًّا بهم. وما اعترف به الأساقفة في سرديقية هو حقّ الأساقفة بالاستئناف أمام الكرسيّ الرسوليّ الذي يعود إليه القرار كمرجع أخير. وعاد بعض الأساقفة الهراطقة إلى حضن الكنيسة.

٣٦ - لِيبارِيُوس (٣٥٢-٣٦٦)

حقّق الأريوسيّون انتصارًا بفضل سلطة كونسطانس الذي تفرّد بالسلطة إمبراطورًا بعد موت أخوَيْه قسطنطين وقونسطانت. فقد عُقد مجمع في آرْل (٣٥٣) وتلاه مجمع في ميلانو (٣٥٥)، ففرض كونسطانس على كليهما إرادته. وحده البابا قاوم هذا الواقع فنُفِيَ إلى تراقية. وفي ٢ آب/أغسطس ٣٥٨، رجع ليباريوس إلى رومة ورفض أن يجلس إلى جانب منافسه فِيلكس الذي نصّبه الإمبراطور. وهبّ حالًا سكّان رومة للدفاع عن ليباريوس وجابوا الشوارع وهم يهتفون: «مسيح واحد وراع واحد»، فغادر فيلكس المدينة الخالدة. وعلى أثر موت كونسطانس في أحد حروبه مع الفرس بدأ انحطاط الأريوسيّين الذين عقدوا مجمعًا في راڤينا (٣٥٩) رفضه ليباريوس. وكان من سوء حظّ هذا البابا قبل موته أن يشهد محاولة الإمبراطور يوليانس لإعادة إحياء الوثنيّة. فجوڤيوليانس المعجب بالفلسفة التوفيقيّة وبالأفلاطونيّة الحديثة، أعلن عبادة الإله الشمس، ومن خلاله عبادة الإله أبولّون. ولم ينطلق في هذا الإصلاح من حسابات سياسيّة، بل عن قناعة دينيّة عميقة. غير أنّ المسيحيّة كانت قد صارت في ذلك الحين قويّة، متينة، في حين ما كانت الوثنيّة إلّا ذكرى تاريخيّة لا حول لها ولا طول. وعندما كان يوليانس في طور النزاع في أثناء حربه ضدّ الفرس، رفع عينيه إلى السماء وقال العبارة المشهورة: «لقد غلبتني يا جليليّ». ومع يوليانس بادت الوثنيّة إلى الأبد.

في ٣٥٢ شرع ليباريوس يبني كنيسة القدّيسة مريم الكبرى في رومة، التي تُعتبر مركز العبادة المريميّة في أوروبّا.

٣٧ - داماسُس الأوّل (٣٦٦-٣٨٤)

هو أهمّ باباوات القرن الرابع. رشّح الأريوسيّون ضدّه أورسينُس الذي طرده حاكم رومة. لا شكّ في أنّ هذه المنافسات كانت تؤذي سمعة المسيحيّين، ومع هذا، ففي حبريّة داماسُس فقد الأريوسيّون قوّتهم وشعبيّتهم بفضل انتخاب القدّيس أمبروسيوس أسقفًا على ميلانو. كان داماسس من أصل إسبانيّ، أمّا أمبروسيوس فكان رومانيًّا ولد في غاليا. وصداقته مع البابا وتعاونه الدائم ساهما في توفير مرحلة مشرقة للبابويّة. وألّف أمبروسيوس أناشيد دينيّة عدّة مثل: **الله باري كلّ شيء، يا خالق جميع الأشياء الأزليّ، وهلمّ يا فادي الأنام**. وكتب مقالة **في الإيمان**. وقد لَقِيَ داماسُس دعمًا في عمله من كهنة وأساقفة ما زالت أسماؤهم عناوين فخر للكنيسة، مثل: غريغوريوس النيصيّ، وغريغوريوس النزينزيّ، والقدّيس هيرونيمُس، والقدّيس أوغسطينس، والقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، إلخ. وقد ترسّخت عقيدة الثالوث في عهد داماسُس بخلاف المبادئ التي صاغها المبتدعون، خصوصًا المقدونيّون الذين كانوا يصرّون على القول إنّ الروح القدس هو فيض من يسوع المسيح.

بعد مجمع رومة (٣٨٢)، كلّف القدّيس هيرونيمس، أمين سرّ داماسس، بترجمة الكتب المقدّسة إلى اللاتينيّة، فكانت الترجمة المعروفة **بالشائعة**[٩] وترسّخ أكثر فأكثر مبدأ أوّليّة رومة. وقدّيسو تلك الفترة يؤكّدون بالإجماع أنّ بطرس ما زال يملك في رومة ممثّلًا للمسيح. والقدّيس

(٩) باللاتينيّة Vulgata، وهو اصطلاح مشهور في لغات عديدة.

أمبروسيوس كان يقول: «حيث يكون بطرس، فهناك تكون الكنيسة». وقد أيّد الإمبراطور تيودوسيوس البابا داماسس وأمبروسيوس في عملهما.

٣٨ - سِيرِيقِيُوس (٣٨٤-٣٩٩)

وقعت حوادث مهمّة إبّان حبريّته. ففي ٣٩٦، انتخب الشعب القدّيس أوغسطينُس أسقفًا على هيبونة. وقبل ذلك، في شهر آب ٣٩٠، بعد اغتيال القائد العسكريّ في تسالونيقة، وكان قوطيًّا، أمر الإمبراطور بأعمال انتقاميّة مرعبة، فقُتِل أكثر من سبعة آلاف في شوارع المدينة، فأثارت الاستهجانَ والشكَّ هذه الوحشيّة الهائلة التي أفصح عنها حاكم مسيحيّ. فما كان من أسقف ميلانو، أمبروسيوس، إلّا أن حرم الإمبراطور. فحضر الإمبراطور الأوسع سلطانًا على الأرض إلى ساحة ميلانو في زيّ متسوّل واعترف عاليًا بخطيئته وأعلن توبته. فجاءت بادرة خضوع السلطة الزمنيّة هذه لتوفّر للكنيسة انتصارًا تامًّا ونهائيًّا.

.

وحاول سيريقيوس ما استطاع لتكون قرارات الكرسيّ الرومانيّ ملزمة. فوجّه إلى جميع الأساقفة تقريبًا رسائل - قرارات بشأن أمور طقسيّة ومسلكيّة. تصرّف باعتدال إزاء تلاميذ برِسْقِلْيانس الذين دانهم مجمع سرقسطة، وأعاد بناء كنيسة القدّيس بولس على طريق أوستية إلى الغرب من رومة، حيث ما زالت توجد كتابة تحمل اسمه. وأبرز صفة تميّزت بها حياته: تقيّ بكلّ جوارحه (Tota mente devotus).

٣٩ - أَنَسْطاس الأوّل (٣٩٩-٤٠١)

ناهض البدعة الدوناطيّة في إفريقيا الشماليّة ودان أعمال أوريجانُس. أثنى على وَرَعه القدّيس هيرونيمُس والقدّيس بولينُس النُولي.

٤٠ - إنّوقِنْطِيُوس الأوّل (٤٠١-٤١٧)

طبّق هذا البابا مبدأ أوّليّة كرسيّ رومة حين تدخّل بقوّة لصالح القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، عندما اضطهدته الكنائس الشرقيّة وتسبّبت في نفيه عن كرسيّه. وقال البابا إذاك علانية إنّه إذا أرادت هذه الكنائس أن تبقى في شركة مع روما فعليها أن توقف اضطهادها الذهبيّ الفم.

وكان البابا في راڤينا حين علم أنّ بعض القوط التابعين لِألاريك نهبوا رومة (٢٤ آب/أغسطس). وكان إنّوقنطيوس حاول إنقاذ الإمبراطوريّة بمساعدته هونوريوس، إلّا أنّ الانحطاط الخُلُقيّ والسياسيّ في الغرب كان عضالًا لا علاج له. فاتّصل إنّوقنطيوس بألاريك فاستطاع أن ينقذ من النهب الجماعات المسيحيّة وكنائسها. وكانت الإمبراطوريّة الرومانيّة أتمّت دورة وجودها فبدأت تحلّ محلّها الإمبراطوريّة الروحيّة: حلّت رومة البابويّة مكان رومة الإمبراطوريّة. واستلهم القدّيس أوغسطينس واقعة نهب رومة، وأنّ الوثنيّين كانوا يتّهمون المسيحيّين ويلقون عليهم مسؤوليّة الانحطاط الذي آلت إليه الحال، فكتب في هذه الفترة مؤلّفه الشهير: **مدينة الله**.

٤١ - زُوسِيمُس (٤١٧-٤١٨)

دافع البابا اليونانيّ الأصل هذا بقوّة أكثر منه بفطنة عن مبدأ أوّليّة كرسيّ رومة وحقوقها. وشَجَبَ بيلاجيوس وبدعته التي نسبت إليه: البيلاجيّة[١٠].

٤٢ - بُونيفاقِيُوس الأوّل (٤١٨-٤٢٢)

نافسه على الكرسيّ أولاليا. غير أنّ المجمع الذي انعقد في رومة ٤١٩ أيّد بونيفاقيوس، فطُرِد منافسه. شاعت في عهده البيلاجيّة في شمال إفريقيا، فحاربها القدّيس أوغسطينس بقوّة وصنّف في دحضها عدّة كتب.

٤٣ - قِلِسْطِينُس الأوّل (٤٢٢-٤٣٢)

دافع هذا البابا عن أعمال أوغسطينس. كتب إلى أساقفة غاليا في هذا الصدد فقال: «إنّ علمه كان ساميًا أيّما سموّ، ممّا دفع العديد من أسلافي إلى اعتباره من خيرة الملافنة». وثبتت، في الواقع، سلطة أوغسطينس التعليميّة إلى الأبد.

وأرسل قِلِسطينُس إلى بريطانية جرمانس، أسقف أوكسير، ليحارب البدعة البيلاجيّة وينصّر الوثنيّين، كما عهد إلى القدّيس پاتريك أمر تبشير إيرلندا. وفي عهده، ٤٣١، كرّر مجمع أفسس شجب هذه البدعة كما شجب البدعة الجديدة، أي بدعة نسطور.

---

(١٠) بيلاجيوس، ناسك بريطانيّ، أقام زمنًا طويلًا في رومة. لجأ إلى إفريقيا في ٤١٠ أمام اجتياح ألاريك، ثمّ ذهب إلى فلسطين حيث نال حظوة الأساقفة. له بعض الرسائل والمقالات. قال بأوّليّة جهد الإرادة وقلّل من دور النعمة. ناهضه القدّيس أوغسطينس. وشُجِبت بدعته في مجمع أورانج ٥٢٩.

٤٤ - سِكستُس الثالث (٤٣٢-٤٤٠)

إنتُخِب البابا سِكستُس «بموافقة إجماعيّة». وصدرت في حبريّته سلسلة قرارات كنسيّة تتناول المجامع الإفريقيّة وتفصح عن موقف الكرسيّ المقدّس حيال فكرة قضاء الله المسبق (= الاختيار السابق Prédestination). ويُحتمل أن تكون نصوص هذه القرارات من تدبيج الشمّاس لاون الذي صار في ما بعد بابا.

وأعاد سِكستُس الثالث بناء كنيسة القدّيسة مريم الكبرى الرومانيّة التي كان البابا ليباريوس كرّسها على اسم العذراء، لأنّ عبادة العذراء كانت قد انتشرت في جميع أرجاء العالم المسيحيّ، رفضًا للبدعة النسطوريّة[١١] التي وقفت الكنيسة بوجهها موقفًا حازمًا. وقد زيّن البابا الكنيسة بمجموعة صور رائعة من الفسيفساء.

٤٥ - لاوُن الأوّل (٤٤٠-٤٦١)

أصله من تُوسْكانا. يعتبر البابا لاون منقذ الغرب في عصر راحت الإمبراطوريّة تنهار فيه تحت ضربات البربر، وترى المسيحيّة تقع تحت هجمات البدع المتزايدة. فقد حلّت محلّ وحدة الإمبراطوريّة التي هدمتها الغزوات وحدةٌ روحيّة تحوّلت شيئًا فشيئًا إلى

(١١) نسطور، كاهن أنطاكيّ. شغل الكرسيّ البطريركيّ القسطنطينيّ بتأثير من الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٢٨). زعم أنّ المسيح مكوَّن من شخصين، شخص إلهيّ هو الكلمة، وشخص بشريّ هو يسوع. ورفض أن يطلق على مريم لقب «والدة الإله». حاربَ تعليمه القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، وحرمه البابا قِلِستينُس (٤٣٠)، وشجب مجمع أفسس (٤٣١) مذهبه وثبّت لقب «والدة الإله».

تصوّرٍ لحضارة توحيديّة تشكّل أساس فكرة أوروبّا. إنّ البرابرة الغزاة - أي برابرة الغرب أو الجرمان، لأنّ البرابرة الشرقيّين كالهون مثلًا، لم يشاركوا في هذا العمل - اندمجوا في هذه الوحدة، وكان للكنيسة الفضل بإكراههم على التحضّر بواسطة الإيمان. وهكذا صار الجرمان أشدّ المتحمّسين دفاعًا عن تراث الإمبراطوريّة الرومانيّة.

في أثناء انعقاد مجمع خلقيدونية (٤٥١)، أعلن لاون اتّحاد اللاهوت والناسوت في المسيح. فالمسيح «مساوٍ لجوهر الآب بلاهوته، ومساوٍ لنا بناسوته». فتجاه تأكيد المونوفيزيّين[١٢] اندماج ناسوت المسيح بلاهوته، عرض لاون بشكل رائع التقليد المستقيم الرأي، فهتف الأساقفة الحاضرون «لقد نطق بطرس بفم لاون».

وحارب لاون المانويّة في إفريقيا، والبيلاجيّة في إقليم أقيلا، والبرسقِلْيانيّة في إسپانيا وانتصر على البدع الثلاث هذه[١٣]. عيّن قائمًا بالأعمال في القسطنطينيّة مهمّته الحفاظ على علاقات دائمة بالبلاط والرؤساء الكنسيّين وإرسال معلومات مفصّلة إلى روما، خصوصًا تلك التي تختصّ بالكنيسة الشرقيّة.

(١٢) أي القائلون إنّ في المسيح «طبيعة واحدة».

(١٣) - المانويّة: نسبة إلى ماني، مذهب يقوم على عرفانيّة مزدوجة، أي تواجد مبدأين متناقضين: الخير والشرّ.
- البيلاجيّة: (راجع البابا زوسيمُس، رقم ٤١).
- البِرِسقليانيّة: مذهب برسقليانس، مبنيّ على كتب منحولة. أحاطها أتباعها بالسرّيّة. أُخِذَ عليها عقائديًّا لاهوتها الثالوثيّ المتّسم بطابع الشكليّة، وخُلقيًّا نظريّة الكذب المقيّد التي ردّ عليها القدّيس أوغسطينُس.

في ٤٥٢، نهب آتّيلا ملك الهون، شمال إيطاليا، فترك الإمبراطور ڤالنتِنيانس الثالث عرشه في راڤينا ولجأ إلى رومة. فنهضت بعثة على رأسها لاون إلى ملاقاة آتّيلا في مانتوا. وبعد أن قابل البربريُّ البابا انسحب، فكانت هزيمته الثانية بعد تلك التي لقيها قبل سنة في حقول كاتالونيقة حيث كان آيتيوس قد سحقه. وقد صوّر الفنّان الشهير رافائيل مشهد لقاء لاون وآتّيلا في لوحة محفوظة في إحدى مقاصير الڤاتيكان الشهيرة.

في ٤٥٥ استولى الواندال[١٤] على رومة. قُتِلَ ڤالنتِنيانُس، أمّا خليفته مكسيمس بترونيوس فقطّعته الجماهير إربًا حين كان يهمّ بالهرب. ويعود الفضل إلى لاون بأنّه جابه الواندال حين انتظرهم على أبواب المدينة الخالدة. وقد وافق غِنزِريك على طلبه فلم تُحرق رومة، ولم يُعمَل في أهلها القتل، إلّا أنّها نُهِبت بشكل منظّم. فانطلقت مراكب محمّلة بأعمال فنّيّة وكنوز أخرى مختلفة تعبر نهر التيبر باتّجاه إفريقيا، حيث كان غِنزريك يخطّط لإنشاء دولة متحضّرة تكون عاصمتها قرطاجة. كان ذلك المسلك نوعًا من ثأر متأخّر وناقص لهنيبعل. فقرطاجة نهبت رومة. إلّا أنّ حلم غنزريك تبخّر سريعًا وبُعِثت رومة أكثر ألقًا.

وكان لاون سياسيًّا محنّكًا فاستحقّ لقب الكبير، وكُرِّم تكريم القدّيسين.

كان القدّيس أمبروسيوس أوّل مَن أطلق فكرة

---

(١٤) الواندال (Vandales) شعب جرمانيّ غزا غاليا (فرنسا) وإسبانيا، وانتقل إلى إفريقية الرومانيّة بقيادة غايزيريك أو غِنزِريك فأسّس مملكة في ما هو اليوم تونس وقسم من الجزائر.

دولة مسيحيّة، فوسّع لاون لاحقًا هذه الفكرة. تناول داوسون هذه الناحية من فكر لاون فقال: «لقد جمع قناعات أمبروسيوس بشأن رسالة الإمبراطوريّة الرومانيّة كتدبير رتّبته العناية الإلهيّة والعقيدة التقليديّة في موضوع أوّليّة الكرسيّ الرسوليّ. وفي مطلع هذا القرن، أتمّ القدّيس أوغسطينُس بناء الفكر اللاهوتيّ الغربيّ، وزوّد الكنيسة مذهبًا من شأنه أن يشكّل رأس مال المسيحيّة طوال أكثر من ألف سنة».

وعرف لاون أيضًا أن يتابع العمل الذي حقّقته الكنيسة في القرنَين الرابع والخامس الهادف إلى التوفيق بين المسيحيّة والاتّباعيّة (الكلاسّيكيّة)، ممّا كان له تأثير بالغ في تطوّر الذهنيّة الفكريّة الأوروبيّة لاحقًا. وبفضل هذا التداخل الفكريّ العاقل، استطاعت الكنيسة أن تتكوّن جسمًا مستقلًّا صامدًا أمام هجمات البربر، في حين كانت الإمبراطوريّة تغوص في العدم.

مات البابا لاون في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٤٦١، وبدأ تكريمه طقسيًّا بعد وفاته مباشرة، لِعظَم التأثير الذي خلّفته شخصيّته المميّزة وكماله الخلقيّ. وقد كان أهمّ خلفاء بطرس الرسول إلى حين ظهور غريغوريوس الكبير مئة وخمسين سنة بعده.

٤٦ - هِيلارِيُوس (٤٦١-٤٦٨)

إتّبع هيلاريوس سياسة سلفه. تدخّل بحزم في إسپانيا وفي غاليا (فرنسا) حيث انحرف البربر إلى المذهب الآريوسيّة. بل نجح ريكيمير السواڤي أن يؤسِّس في رومة نفسها كنيسة آريوسيّة على اسم القدّيسة أغاتا للقوط. فأمر هيلاريوس ببناء المُصَلّيَيْن في بيت المعموديّة اللاترانيّ أحدهما على اسم

القدّيس يوحنّا المعمدان والآخر على اسم القدّيس يوحنّا الإنجيليّ.

دفن هيلاريوس في باسيليكا القدّيس لوران التي بناها سِكِسْتُس الثالث.

٤٧ - سِمْبلِيقِيُوس (٤٦٨-٤٨٣)

تزامنت حبريّته مع سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة سقوطًا نهائيًّا (٢٣ آب/أغسطس ٤٧٦)، حين انتصر أودواكروس، ابن أحد وزراء آتّيلا وزعيم الهيرولس على الرومان وخلع آخر إمبراطور، الشابّ والعديم الخبرة رومولوس أوغسطولوس.

حارب البابا النزعة المونوفيزيّة التي كان يرعاها إمبراطور بيزنطية، زينون، هذا الإمبراطور الذي جعل همّه الأكبر تعطيل صحّة القرارات المتّخذة في مجمع خلقيدونية، والذي أعدّ السبل على مهل، ولكن بصورة أكيدة، لقطع العلاقة برومة.

٤٨ - فِيلِكْس الثالث (٤٨٣-٤٩٢)[١٥]

رومانيّ الأصل، نبيل، وكان متزوّجًا سابقًا. ومن سلالته القدّيس غريغوريوس الكبير. حَرَمَ بطريرك القسطنطينيّة أكاكوس فكان ذلك سبب الانشقاق الذي حمل اسم هذا البطريرك. إلّا أنّ البابا حافظ

(١٥) يُلاحَظ أنّه لم يَرِد في سلسلة الباباوات ذكر فيلِكس الثاني. ذلك بأنّ مَن حمل هذا الاسم كان شمّاسًا رومانيًّا عيّنه الإمبراطور قونسطانس العامَ ٣٥٥ ليحلّ محلّ البابا ليباريوس الذي نفي. ولمّا عادت الأمور إلى مجراها الطبيعيّ بين الإمبراطور وليباريوس، قرّر العاهل أن يقوم فيلِكس وليباريوس معًا بالوظيفة البابويّة. إلّا أنّ شعب روما لم يقبل بالأمر واضطرّ فيلِكس إلى الانسحاب.

على علاقات طيّبة بالإمبراطور زينون الذي تدخّل باسم البابا لدى ملك الواندال الآريوسيّ ليمنح الحرّيّة التامّة كاثوليك إفريقية الشماليّة. كانت إيطاليا مسرح الصراع بين أُودُواكْرُس وتيودوريك، ملك الأوستروغوط الذي كان قد اجتاح شبه الجزيرة. دام هذا الصراع خمس سنوات وانتهى عندما انتصر تيودوريك على أُودُواكرُس وقتله في ٤٩٣.

شاد فيلكس مباني كثيرة وأغنى تراث الكنيسة بفضل الهبات التي تلقّاها من الملوك والأباطرة. وبدأت الدولة البابويّة ترتسم معالمها، فانبثقت بطريقة عفويّة وسط النكبة العامّة. ففي حين كانت جميع المؤسّسات تنهار، كانت الكنيسة تفرض هيبتها على البرابرة. كان أسقف رومة رمز المسيحيّة بأكملها ويعتبر رئيس الكنيسة الجامعة. وراحت منزلة الأساقفة تزداد رِفعةً لأنّهم، في أوقات الأزمة الصعبة تلك، كانوا وحدهم، حماة المجتمع والنظام الاجتماعيّ، كما كانوا في الوقت نفسه الوسطاء الوحيدين بين الشعب والبرابرة الهائجين.

٤٩ - جِيلاسِيُوس الأوّل (٤٩٢-٤٩٦)

بحسب **كتاب الأحبار**، البابا جيلاسيوس من إفريقيا أصلًا. لقد نجح في اتّباع سياسة سلفه وتأكيده بشهامة حقوق السلطة الروحيّة أمام إمبراطور بيزنطية، أنسطاس. فإليه كتب يقول: «هناك سلطتان لحكم العالم: سلطة الأحبار المقدّسة، والسلطة الإمبراطوريّة. وسلطة الكهنة، وهي إحداهما، أكبر أهمّيّة من تلك، إذ عليهم أن يؤدّوا للربّ حسابًا، يوم الدين الإلهيّ، عن الملوك أنفسهم». وكان بارعًا في الحفاظ على وحدة جميع المسيحيّين الروحيّة

بتنمية علاقاته بالإمبراطور. وأعيدت الوحدة السياسيّة جزئيًّا لأنّ تيودوريك الذي كان يملك في راڤينا، إنّما كان يمارس السلطة ممارسةَ تابعٍ لإمبراطور القسطنطينيّة.

وألغى جيلاسيوس آخر عيد من الأعياد الوثنيّة المعمول به، وهو عيد الإله لُوبِرْقُس شفيع الحقول والقطعان. دُفن بعد موته في باسيليكا القدّيس بطرس.

٥٠ - أَنَسْطاس الثاني (٤٩٦-٤٩٨)

حاول البابا أنسطاس أن يحقّق التوافق مع بيزنطية، فأرسل لهذه الغاية وفدًا إلى العاصمة الإمبراطوريّة فكان هذا التصرّف دافعًا لإنشاء حزب مناهض له في روما.

وفي عهده ارتدّ إلى النصرانيّة كلُوڤيس ملك الفرنجة.

٥١ - سِمّاخُس (٤٩٨-٥١٤)

في أثر موت أنسطاس، انتخب الحزب المناهض لبيزنطية سِمّاخس، في حين انتخبت الأحزاب الأخرى بابا منافسًا هو لورنسيوس الذي استمرّ في هذه الحالّ حتّى ٥٠٦، بالرغم من أنّ تيودوريك كان من مؤيّدي سِمّاخس. وأحدث هذا الانتخاب اضطرابات دامية في رومة. لقد كان الأمر يعود إلى منافسة قوميّة، فالرومانيّون والإيطاليّون ما كانوا ليتحمّلوا سيادة بيزنطية؛ وإلى منافسة روحيّة تعود إلى رغبة رومة بالإبقاء على أوّليّتها، وعلى تقرير صياغة العقائد التي كان أباطرة بيزنطية قد تعوّدوا التدخّل فيها بشكل مستمرّ. وقد ساندت بيزنطية

لورنسيوس الذي رأت فيه وسيلة طيّعة لها، أمّا سِمّاخس فلم يستطع الصمود في مقامه إلّا بدعم من تيودوريك. لقد تميّز بكونه بابا حازمًا وسخيًّا. فقد ساعد ضحايا الحروب ضدّ الواندال وبنى وأصلح باسيليكات وكنائس.

٥٢ - هُورمِسْداس (٥١٤-٥٢٣)

دعا الإمبراطور الجديد يُسطِينُس، خليفة أنسطاس، البابا هورمسداسَ إلى بيزنطية، فأرسل إليه العديد من السفراء يحملون صيغة المصالحة المدعوّة «صيغة هورمسداس»، التي قَبِلها البطريرك يوحنّا. كانت الصيغة تقول: «إنّ الكرسيّ الرسوليّ المقدّس حافظ دائمًا على الديانة الكاثوليكيّة بدون عيب». فلم ينظر تيودوريك بعين الرضى إلى هذه المصالحة فناصب البابا العداوة. فكان ضحيّة هذا الوضع الشاعر بُويِسيُوس، وزير تيودوريك، إذ حكم عليه هذا بالموت (٥٢٤)، فكتب بويسيوس في سجنه رسالته المشهورة في **تعزية الفلسفة**، وهو مُصَنّف يشكّل جزءًا من التراث الثقافيّ العالميّ. وانتهى اضطهاد الواندال أيّامًا قبل موت هورمِسْداس.

٥٣ - يوحنّا الأوّل (٥٢٣-٥٢٦)

أرغمه تيودوريك على الذهاب إلى القسطنطينيّة ليطلب إلغاء كلّ تدبير لاضطهاد الأريوسيّين. استُقبل البابا باحتفال مهيب وتوّج الإمبراطور يُسطينُس (٥٢٥). إلّا أنّ الفوائد التي حصل عليها الأريوسيّون اعتبرها تيودوريك غير كافية، فدعا البابا إلى راڤينا حيث سجنه مع حاشيته. ومات يوحنّا

الأوّل في السجن. كان صديق الشاعر الفيلسوف بويسيوس.

أمّا تصرّف تيودوريك فيفسّره انزعاجه من سياسة التقارب بين روما وبيزنطية. فقد كان يتّهم الكرسيّ المقدّس والكهنة بأنّهم يحوكون مؤامرة على حكمه بالاتّفاق مع الإمبراطور.

نُقِل رفات يوحنّا الأوّل من رافينا إلى روما حيث دُفِن في كنيسة القدّيس بطرس.

٥٤ - فِيلِكْس الرابع (٥٢٦-٥٣٠)

يوم وعد تيودوريك الهراطقة الأريوسيّين بأن يسلّمهم جميع الكنائس الكاثوليكيّة في رافينا، توفّي فجأة ملك القوط هذا، فتسلّمت الحكمَ الوصيّةُ على العرش الملكة أمالاسُونت فحافظت على علاقات طيّبة بروما. وتحاشيًا للصدامات التي كانت ترافق انتخاب بابا جديد، عيّن فيلكس الرابعُ خليفةً له، وهذا ما كدّر مؤيّدي الإمبراطور الذين عيّنوا في الحال مرشّحًا آخر. فلم يستطِعْ قرار فيلكس الحكيم شيئًا إزاءَ النزاع الذي صار تقليدًا.

شُهر البابا فيلكس بأنّه بنّاء. فكنيسة القدّيسَيْن قُزما وداميانُس ترجع إلى أيّام حبريّته. وفي ٥٢٩ أسّس القدّيس مبارك النُورسي (de Nurcie) دير مُونتي كاسّينو. وتجدر الملاحظة أنّ أكثر من عشرين بابا كانوا ينتمون في الأصل إلى رهبانيّة القدّيس مبارك.

٥٥ - بونيفاقيوس الثاني (٥٣٠-٥٣٢)

كان بونيفاقيوس الشخص الذي عيّنه فيلكس كي

يخلفه. وكان من حسن الحظّ، أن توفّي ديوسقورُس، مرشّح الإمبراطور، أربعة أسابيع بعد الانتخاب، فعاد السلام إلى روما.

كان بونيفاقيوس من أصل قوطيّ، وهو أوّل بابا من العرق الجرمانيّ. وافق على مجمع أورانج (٥٢٩) الذي حارب شبه - البيلاجيّين [16].

٥٦ - يوحنّا الثاني (٥٣٣-٥٣٥)

هو أوّل بابا غيّر الاسم الذي أُعطِيَ إيّاه في العماد وهو مَرْقُورِيُوس. كان على علاقات طيّبة بإمبراطور بيزنطية الجديد، يُسطِنْيانُس (٥٢٧-٥٦٣) الذي تقرّب من روما، واعترف اعترافًا كاملًا بأوّليّة خليفة بطرس.

٥٧ - أَغابيتُس الأوّل (٥٣٥-٥٣٦)

أسّس أغابيتُس بالتعاون مع صديقه كاسِيُودُورُس مكتبة في مقرّه، جُعلت مركزًا لفريق من الطلّاب المنصرفين إلى القيام بأبحاث لاهوتيّة، وبنوع خاص كتابيّة. إلّا أنّه لم يبلغ بمشروعه غايته لأنّ ملك القوط الجديد في رافينا أجبره على الذهاب إلى بيزنطية ليحول دون إعلان يُسطِنْيانُس الحرب على رافينا. وكان بِلِيسارِيُوس قائد القوّات البيزنطيّة قد استرجع من الواندال شمال إفريقية ويستعدّ لمهاجمة إيطاليا بغية إعادة ضمّها إلى الإمبراطوريّة. إلّا أنّ

---

(١٦) يدحضون مزاعم بيلاجيوس، لكنّهم يخالفون تعليم القدّيس أوغسطينس في مجّانيّة النعمة على الإطلاق. يعتبرون أنّ بداية الخلاص أو الاهتداء من عمل الإنسان، لا من عمل النعمة. وتسميتهم «شبه بيلاجيّين» يرقى عهدها إلى القرن السابع عشر فقط.

سفارة أغابيتُس باءَت بالفشل. واندلعت الحرب. وكادت أن تنقطع العلاقات عندما أراد يُسطنيانس أن يسمّي هرطوقيًّا بطريركًا على القسطنطينيّة. ومع ذلك فقد توصّل أغابِيتُس إلى فرض وجهة نظره، وحلّ محلّ الهرطوقيّ بطريرك كاثوليكيّ. كانت الإمبراطورة تيودورا هي التي تدعم الهراطقة، فلم تعترف بالفوز الذي حقّقه أغابيتس.

ومات أغابيتس في بيزنطية إلّا أنّ رفاته نُقِل ليُدفن في رومة.

٥٨ - سِلْفِرْيُوس (٥٣٦-٥٣٧)

في ٩ كانون الأوّل/ديسمبر ٥٣٦، دخلت جيوش بِليسارِيُوس رومة وانسحب منها القوط من دون مقاومة. إلّا أنّ الحرب دامت عشرين سنة بعد ذلك إلى أن تمّت تصفية البرابرة، واندمجت مملكتهم في الإمبراطوريّة. ويبدو أنّ يُسطِنْيانس كان يطمح لتحقيق مآثر باهرة، وحلمه أن يعيد توحيد الإمبراطوريّة. فبفضل مساعدة قائديه الكبيرين، نارْسِيس وبليساريوس استطاع أن يستردّ إفريقيا الشماليّة، وقسمًا من إسپانيا وآخر من إيطاليا. إلّا أن يُسطنيانسَ لم يحقّق مجدَه الأعظم في ساحات القتال بل في الميدان الحقوقيّ. فالصرح الخالد الذي يحمل اسمه على الدوام والذي رفع بناءَه بمساعدة المشترع تْرِيبُونِانُس هو **مجموعة القانون المدنيّ** الذي تأسّس عليه جيلًا بعد جيل الروح الحقوقيّ في أوروبّا. لكنّ زوجته هي التي حبكت سلسلة من الدسائس لا آخر لها لتفرض الهرطقة وتلغي الامتيازات التي حصل عليها أغابِيتُس. كان يُسطِنيانس كاثوليكيًّا صالحًا وقد أفصح عن ذلك في

مناسبات عديدة، إلّا أنّه كان مدينًا بالعرش لامرأته التي أنقذته في أثناء انتفاضة ٥٣٢. وأوّل تدبير اتّخذه بليساريوس في رومة إحضاره سِلفِيرْيُوس أمام محكمة واتّهامه بالخيانة العظمى لصالح القوط. فحُكِم عليه، ونُفِيَ إلى سورية، ومات من الجوع في تاريخ غير محدّد.

٥٩ - ڤِيجيلِيُوس (٥٣٧-٥٥٥)

لم يساعد البابا الذي اختاره بليساريوس الهرطقةَ المونوفيزيّة. واستطاع سلفيريوس أن يرجع من سورية إلّا أنّ فيجيليوس استطاع أن ينفيه ثانية إلى جزيرة بونزا حيث مات.

في رسالة وجّهها ڤيجيليوس إلى يسطنيانس دافع بشجاعة عن استقامة العقيدة في مجمعَيْ أفسس وخلقيدونية وقراراتهما. أمّا الإمبراطور فأعلن أنّه وحده القاضي الذي يفصل في ما يختصّ بالدين، فشجب تعليم أوريجانيس وأرْغَمَ فيجيليوس على أن يُبحر إلى بيزنطية. وبينما كان البابا يحتفل بالقدّاس في كنيسة القدّيسة سيسيليا، في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٥٤٥، قاطعه مبعوث أرسله يسطنيانس واقتاده إلى ضفّة نهر التيبر فأصعدَه إلى قارب. وعندما حاول الإمبراطور أن يفرض عليه إرادته لكي يوافق على إلغاء القرارات الصادرة عن مجمع خلقيدونية، هرب فيجيليوس من القسطنطينيّة؛ إلّا أنّه قُبِض عليه وأُعيد إلى العاصمة حيث شارك في مجمع دعا الإمبراطور إلى عقده. وخوفًا من أن يُحدث انشقاقًا، وقّع نتائج المجمع. وهكذا أمكنه أن يمضي في طريق المنفى، إلّا أنّه مات في أثناء السفر إلى سِيراكوزا. وفي أثناء غيابه، كان ملك

الأُوسْتْروغُوت، تويلا، قد تغلّب على البيزنطيّين واستعاد رومة (٥٤٦). وبعد ستّ سنوات تغلّب عليه نارسيس، وقتله في معركة غُوالْدُو تادِينُو، في جبال أبِينِّنُو. وكان قد قُضِيَ نهائيًّا على سيطرة القوط في إيطاليا. وظهر خطر جديد يهدّد شبه الجزيرة الإيطاليّة وهو خطر الفرنج. تغلّب عليهم نارسيس، إلّا أنّ برابرة آخرين وصلوا من الشرق، وهم اللمْبَرديُّون الذين افتتحوا شمال إيطاليا وأسّسوا مملكة استمرّت عدّة قرون.

٦٠ - بِيلاجِيُوس الأوّل (٥٥٦-٥٦١)

تمّ انتخابه بفضل دعم من الإمبراطور يسطنيانس. عندما حاصر القوط طوطيلا تصرّف تصرّفًا بطوليًّا فاكتسب عطف شعبه. وحين دمّرت إيطاليا الحربُ التي أشعلها القوط كان للبابا الفضل بمساعدة السكّان الجائعين، وتعويض الخسائر بقدر ما أمكنه، ومحاربة البؤس. أمّا في الشؤون الكنسيّة فقد جابه السيمونيّة[17] وحاربها.

٦١ - يوحنّا الثالث (٥٦١-٥٧٤)

كان من عائلة شريفة رومانيّة. رمّم الدياميس وكنائس عديدة خرّبتها الحرب. في عهد حبريّته دخل اللومبرديّون إيطاليا.

٦٢ - بِنِدِكْتُس الأوّل (٥٧٥-٥٧٩)

إنتظر عشرة أشهر ليتسلّم كرسيَّه بانتظار الموافقة

(١٧) السيمونيّة، هي بدل خير زمنيّ بخير روحيّ، نسبة إلى سمعان (سيمون) الساحر الذي عرض مالًا على القدّيس بطرس للحصول على سلطان منح الروح القدس (**أعمال الرسل** ٨/١٨-١٩).

الإمبراطوريّة. توفّي في حين كان اللومبرديّون يحاصرون رومة.

٦٣ - بيلاجيوس الثاني (٥٧٩-٥٩٠)

هو ابن فُونِيغِيلْدْ القوطيّ. قطع اللومبرديّون كلّ المواصلات بين بيزنطية وراڤينا، فكان في غنى عن الموافقة الإمبراطوريّة. بفضل تدخّله المباشر ودفعه ثمنًا باهظًا استطاع أن يقصي اللومبرديّين عن رومة. كتب إلى ملك فرنسا يسأله المساعدة. قال له في رسالته: «في اعتقادنا أنّ لدى العناية الإلهيّة سببًا خاصًّا وخطّة معيّنة يجعلان ملوككم يجهرون بالإيمان الأرثوذكسيّ نفسه الذي هو إيمان الإمبراطوريّة. وقد أرادت هذه العناية أن تعطي رومة، مهد هذا الإيمان نفسه، وتعطي إيطاليا كلّها، جيرانًا يسهرون على حفظها». فكأنّ هذه الكلمات كُتِبَتْ في القرن الثامن عندما تدخّل الفرنجة في الواقع لمساعدة الكنيسة ضدّ البرابرة. إلّا أنّ هذا الاتّصال الأوّل الذي قام به بيلاجيوس لم يأتِ بنتائج مباشرة. فالمجاعة والطاعون فتكا بإيطاليا، والبابا نفسه مات ضحيّة الوباء المربع.

٦٤ - غريغوريوس الأوّل الكبير (٥٩٠-٦٠٤)

كان من عائلة رومانيّة شريفة الأصل، «آل أنيقية»، أعطت الكنيسة سابقًا اثنين من الباباوات: فيلكس الثالث وأغابِيتُس.

كان غريغوريوس عضوًا في مجلس الشيوخ وحاكم رومة ومُعَدًّا، بالتالي، لأن يقومَ بدورٍ بارزٍ في السياسية والإدارة حين غيَّر موت والده وجهة سيره في الحياة. فوزّع أمواله على الفقراء، وأنشأ

سبعة أديرة بحسب قانون القدّيس بندكتس، ولبس الثوب الرهبانيّ، وانكفأ يعيش في أحد تلك الأديرة بالقرب من رومة. فقصد البابا بيلاجيوس الثاني ذلك الدير طالبًا إيّاه، وعيّنه قاصدًا رسوليًا له في القسطنطينيّة، وفيها جمع حوله فريقًا من البندكتيّين وعاش وإيّاهم حياة رهبانيّة.

عندما توفّي بيلاجيوس، انتُخِب غريغوريوس خليفة له، إلّا أنّه رفض قبول هذا الشرف. وإذ أُحرجه تثبيت الإمبراطور انتخابه، هرب إلى رومة، فأُدرِك واقتيد إلى باسيليكا القدّيس بطرس حيث تمّ تكريسه في ٣ أيلول/سبتمبر ٥٩٠. وكان أوّل عمل قام به تنظيمه تطوافًا حاشدًا للطلب إلى الله القضاء على الطاعون، فتحقّق الطلب. وفي ٥٩٢ و٥٩٣ أنقذ المدينة الخالدة من غزو اللومبرديّين، وتعهّد بأن يدفع الضريبة التي فرضها البرابرة من أموال الكنيسة ومن دون أن يسأل الإمبراطور أدنى مساعدة. وقد استخدم غريغوريوس «أوقاف مار بطرس» التي تكاثرت، لتوفير الغذاء للجائعين من سكّان رومة، ومساعدة المحتاجين، ودفع الضرائب. لقد كان الإمبراطور بعيدًا فرأى البابا نفسَه ملزَمًا أن يحلّ محلّ السلطة الزمنيّة، وأن يتعامل مع اللومبرديّين، وأن يأخذ قرارات تتناول الموظّفين مدنيّين وعسكريّين. فراحت الكنيسة تقوم شيئًا فشيئًا مقام الإمبراطوريّة في إيطاليا. وعليه، يمكن اعتبار غريغوريوس مؤسّس سلطة البابويّة الزمنيّة. وهكذا بدأت مدينة الله التي استشفّها القدّيس أوغسطينُس ترتسم صورتها على الأرض.

إن وضع الإمبراطوريّة التي كانت تعاني من الافتقار إلى سلطة أوحى إلى البابا بسياسة جديدة،

نصبَّ اهتمامه على الغرب حيث راحت تنشأ دول البرابرة الجديدة، وحيث كانت البدعة الأريوسيّة تهدّد سلامة العقيدة المستقيمة. فأقام علاقات بالملكة تيودولَنْد وأقنعها بأن يتمّ تعليم ابنها في الدين الكاثوليكيّ. وباشر، بواسطة صديقه ليانْدْرُو، أسقف إشبيلية، محاولة ردّ ريكاريدو ملك الفيزيقوط. وتبادل الرسائل وافرةً مع ملوك الفرنجة، وأرسل إلى إنكلترا رهبانًا يردّون إلى الكنيسة الأنغلو-سكسون. وفي هذا المجال، فإنّ القدّيس أوغسطينس الكَنْتَرْبري جعل من الدير المنشأ على اسم القدّيس أوغسطينس واحدًا من أهمّ المراكز الثقافيّة في أوروبّا. وقد عرف غريغوريوس أن يستخدم قوّة البندكتيّين وتنظيمهم ليجعل من هذه المنظّمة التوحّديّة وسيلة للإيمان، وللثقافة والحضارة، فتميّزت بذلك عن أسلوب التوحّد الشرقيّ الذي فصل، بفعل طابعه الروحيّ البحت، بين الشعب والكنيسة، وساعد، من حيث لا يريد، جنوح السلطة الزمنيّة نحو نزعة تسلّطيّة، أفي بيزنطية كان ذلك، أم في روسيا من بعد. وفضل غريغوريوس يكمن في أنّه عرف كيف يجعل من رهبانه آلة دينيّة وتحضيريّة، بحيث يمكن القول إنّ هذا البابا الكبير في القرن السادس كان أيضًا مؤسّس الغرب الحديث.

وقام غريغوريوس بإصلاحات منها إصلاح مدرسة المنشدين في رومة ورتبة القدّاس؛ وعليه فإنّ الغناء الغريغوريّ إنّما يحمل اسمه. وكتب شروحًا على الكتب المقدّسة، وألّف حوارات، وصنّف مواعظ. ووقف موقف الدفاع عن الفقراء، وعن اليهود الذين ضمنت الكنيسة حقوقهم أجيالًا قبل ذلك. وعضد

الدول الصغيرة بوجه الدول الكبرى حتّى دُعِيَ «الرومانيّ الأخير» لدقّة شعوره بالعدالة، كما دُعِيَ «قنصل الله» لإيمانه ومحبّته. ويمكن القول إنّه الذي فتح الطريق مع القدّيس أوغسطينس والقدّيس بندكتس لعصر جديد للإنسان وللإنسانيّة.

إنّ الغرب قام على تراث الأسماء الثلاثة هذه.

٦٥ - سابِينيانُس (٦٠٤-٦٠٦)

بعد وفاة غريغوريوس ظهر من الصعب إيجاد خليفة له. أمّا سابِينيانُس فجهد في توفير الغذاء للشعب بشرائه القمح، بالرغم من أسعاره المرتفعة في موسم قحط وفترة عوز.

٦٦ - بونيفاقيوس الثالث (٦٠٧)

إنتظر هذا البابا سبعة أشهر ليحصل على تثبيت الإمبراطور إيّاه. وباعتباره قاصدًا رسوليًا سابقًا في القسطنطينيّة، فقد أفلح في الحصول من الإمبراطور فوقاس على اعترافه بأوّليّة رومة على سائر الكنائس المسيحيّة.

٦٧ - بونيفاقيوس الرابع (٦٠٧-٦١٥)

سار على خطى القدّيس غريغوريوس فحوّل منزله ديرًا، ووزّع أمواله على الفقراء. كان مدفن أغريبا - وهو هيكل ما زال قطر قبّته الأكبر في العالم -، قد كُرِّس في ٣٩٩ لإلٰهة الخصب قِبِيلِس، فكرَّسه بونيفاقيوس للعذراء، وأطلق عليه اسم القدّيسة مريم للشهداء. وقام بدورٍ ناشط في تنظيم كنيسة إنكلترا!

٦٨ - دِيُوس دِيدِت أو دِيُوداتُس (= عطاالله) الأوّل (٦١٥-٦١٨)

عاش في ظروف صعبة. فالإكسَرْخس إلِفْتِيرُس من رافِنا، تمرّد على الإمبراطور هِرَقليوس فقطّعه جند الإمبراطور إربًا. وساعدت الملكة تِيودُولِيندا الكنيسة. وحصلت في أيّام هذا البابا هزّة أرضيّة وانتشر الوباء، ومع هذا فإنّ تصرّف البابا في تلك السنين العصيبة كان مثاليًا، فكرَّمه المؤمنون تكريمهم قدّيسًا.

٦٩ - بونيفاقيوس الخامس (٦١٩-٦٢٥)

أصله من نابولي. كرّس نشاطه لتنظيم الكنيسة في إنكلترا وإصلاح النظام الكنسيّ.

٧٠ - هُونُورِيُوس الأوّل (٦٢٥-٦٣٨)

ظهرت هرطقة جديدة في القسطنطينيّة أيّدها الإمبراطور والبطريرك. إنّها بدعة المونوتيليّة[١٨] المنبثقة من بدعة المونوفيزيّة، وهي تنكر إمكانيّة ثنائيّة اللاهوت والناسوت في يسوع المسيح. تؤكّد هذه الهرطقة أنّ هذه الثنائيّة وُجدت قبل التجسّد، أمّا بعد التجسّد فقد اتّحد الله والمخلّص اتّحادًا تامًّا. من هذا يمكن أن نستخلص منطقيًّا أنّ يسوع المسيح لم يتألّم، وأنّ الطبيعة الإلهيّة ليست خاضعة

---

(١٨) المونوتيليّة أو مذهب يقول بالمشيئة الواحدة في المسيح، هي المشيئة الإلهيّة. تذرّع بهذا المذهب بطريرك القسطنطينيّة سِرجِيُوس لعلّه يردّ المونوفيزيّين إلى الوحدة. حارب هذه الهرطقة بنوع خاصّ صُفْرُونِيُوس الأورشليميّ ومكسيمس المعترف، وشُجِبَت أخيرًا في مجمع لاتران ٦٤٩، وفي المجمع المسكونيّ القسطنطينيّ الثالث ٦٨١.

للوجع. أمّا البابا هُونُورِيُوس، تلميذ غريغوريوس لكنّه دون معلّمه حَزمًا، فقَبِل بتسوية في موضوع المونوتيليّة. وفي حين كان البابا والبطريرك يتجادلان في مسألة المونوتيليّة، كان محمّد يغادر الدنيا في ٦٣٢، وبدأ الإسلام حملة الفتوحات التي غيرّت في ما بعد وجه العالم.

٧١ - سِفِرِيتُس (٦٤٠)

بعد انتخابه اضطرّ إلى الانتظار عشرين شهرًا تقريبًا حتّى يتبلّغ التثبيت، لأنّ الإمبراطور كان يرغب في أن يحصل منه على قرار يؤيّد تأييدًا تامًّا المونوتيليّة. وفي الشهور التي دامت فيها حبريّته، اجتاح إكسَرْخُس راڤينا رومة واستولى على كنز الكنيسة.

٧٢ - يوحنّا الرابع (٦٤٠-٦٤٢)

دَلماطيّ الأصل، نقل إلى رومة ذخائر شهداء بلاده. حارب الهرطقة المونوتيليّة التي كانت بيزنطية تؤيّدها.

٧٣ - ثيودورُس الأوّل (٦٤٢-٦٤٩)

بالرغم من أصله اليونانيّ فقد عارض بشجاعة الهذيان اللاهوتيّ الذي دار فيه الإمبراطور.

٧٤ - مَرتينُس الأوّل (٦٤٩-٦٥٥)

تُوسْكانيّ الأصل، وقاصد رسوليّ في القسطنطينيّة سابقًا. كُرِّس من دون أن ينتظر التثبيت الإمبراطوريّ. ما إن انتُخِب لكرسيّ بطرس حتّى دعا إلى مجمع عُرِف باللاترانيّ، وهو المجمع الذي

شجب المونوتيليّة. وكان هذا أوّل المظاهر التي أفصحت بها رومة عن استقلالها تجاه النظام القيصريّ الشرقيّ. وبُعَيْدَ ذلك، في ١٧ حزيران/ يونيو ٦٥٣، خَطف البابا جنودُ كالِيُوبا، وإكسَرْخُس راڤينا، واقتادوه إلى جزيرة ناكْسُس، ومنها نُقِل إلى القسطنطينيّة، وأخيرًا إلى الخِرْسُونيز حيث مات ذليلًا ومُهانًا. نُقِل رفاته إلى رومة ودفن في كنيسة القدّيس مَرْتينس، وقد اعتُبر شهيدًا.

٧٥ - إفجِينيُوس الأوّل (٦٥٥-٦٥٧)

بين غياب البابا مرتينس وانتخاب البابا الجديد، أشرف على إدارة الكنيسة، وفقًا لرغبة البابا، ممثّلوه المباشرون: رئيس الشمامسة، ورئيس الكهنة، وأمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ. وبهذه الطريقة أراد أن يؤكّد استمراريّته في رئاسة كرسيّ رومة، وأنّ لا علاقة لهذه الاستمراريّة بنفيه الذي فرضته بيزنطية فرضًا. وقبل وفاة البابا مرتينس بسنة واحدة، انتخب الرومانيّون بابا جديدًا هو إفجِينيوس تجنّبًا لأن يُفرض عليهم بابا آخر قد يكون مونوفيزيًّا. ولم يُعتبر إفجِينيُوس بابا شرعيًّا إلى أن توفّي مرتينس. وفي حين كان العرب يقضون على الأسطول الإمبراطوريّ، كان بلاط بيزنطية يخطّط لخطفه واستياقه إلى العاصمة، لأنّه كان يحارب الهرطقة مثله مثل سلفه.

٧٦ - ڤِيتالِيانُس (٦٥٧-٦٧٢)

جاء قونسطان الثاني، إمبراطور بيزنطية، إلى رومة فاستقبله في ٦٦٣ ڤيتاليانُس استقبالًا احتفاليًّا. وبعد أن قدّم هدايا إلى كنائس عديدة في رومة، حمل معه البرونز من قبّة البانْتِيُون ومن كنائس أُخَر

ونقله إلى القسطنطينيّة. وحاول أن يفصل كنيسة راڤينا عن كنيسة رومة ليخلق صعوبات جديدة داخل المسيحيّة. وبالرغم من موقف قسطنطين الرابع المعادي لرومة، فقد ساعده البابا باعتباره الخليفة الشرعيّ لقسطنطين الثالث، ضدّ المغتصب مِسِيڤيُوس، فخفّ تعصّب الإمبراطور للهرطقة بشكل ملحوظ، خصوصًا وأنّ العرب كانوا قد احتلّوا أقسامًا من الإمبراطوريّة البيزنطيّة يقطنها هراطقة.

٧٧ - دِيُوداتُس (عطاالله) الثاني (٦٧٢-٦٧٦)

أعطى سكّان البندقيّة الحقّ بأن يختاروا لهم رئيسًا.

٧٨ - دُونُس (٦٧٦-٦٧٨)

بنى عدّة كنائس ولم تُسَجَّل في حبريّته أحداث أخرى مهمّة.

٧٩ - أغاتُون (٦٧٨-٦٨١)

شجب مجمع القسطنطينيّة (٦٨٠) الهرطقة المونوتيليّة وأعاد إلى البابويّة أوّليّتها. وصار الإمبراطور يُدعى «ابن البابا» وابن الكنيسة ومار بطرس، كما صارت الكنيسة تُدعى «أمّ» الإمبراطوريّة. لقد أثّر حلم أغاتون في معاصريه تأثيرًا كبيرًا.

٨٠ - لاون الثاني (٦٨١-٦٨٣)

أصله من جزيرة صقلّية، وقد مدح كاتب سيرته فضائله وعلمه. نجح في حلّ النزاع مع راڤينا. صدّق على قرارات مجمع القسطنطينيّة وأمر بترجمة

نصوص المجمع من اليونانيّة إلى اللاتينيّة. أُدرج اسمُه في جدول القدّيسين.

٨١ - بِنِدِكْتُس الثاني (٦٨٤-٦٨٥)

إنتزع من الإمبراطور إصلاحًا مهمًّا، فصار ممكنًا تكريس البابا قبل وصول التثبيت من الإمبراطور. ومنذئذ صار يقوم بهذا التدبير الشكليّ إكسَرخُس راڤينا فقلّ شأنه. كان بندكتس رومانيّ الأصل. إهتمّ بإعادة تنظيم الشمّاسيّات السَّبْع في المدينة الخالدة، وهي الشمّاسيّات التي أنشأها البابا فابِيانُس في القرن الثالث[١٩].

٨٢ - يوحنّا الخامس (٦٨٥-٦٨٦)

مع البابا يوحنّا الخامس بدأ يشغل كرسيّ بطرس سلسلة من الباباوات من أصل يونانيّ وسوريّ.

٨٣ - قُونُون (٦٨٦-٦٨٧)

كان انتخابه مأساويًّا: فالجيش الذي يؤيّد الإكسرخس دعم ترشيح الكاهن ثيودورس، فيما الإكليرس كان يسند ترشيح رئيس الكهنة بطرس. واتّفق الفريقان أخيرًا فانتخبا قونون وأصله من طراقِيا.

٨٤ - سِرْجِيُوس الأوّل (٦٨٧-٧٠١)

بعد وفاة قونون تقدّم مرشّحان مباشرة: بسكال

(١٩) الشمّاسيّة/الشمّاس: هي درجة تسبق الكهنوت. وفي التقليد الرسوليّ، وظيفة غايتها خدمة فقراء الجماعة وأراملها وإدارة أموالها، كما ورد في (**أعمال الرسل** ٦/١-٦) لينصرف الرسل إلى خدمة الكلمة.

وثيودورس. لكن انتُخِب سِرجيوس، وهو سوريّ وُلِدَ في پالِرْمُو، واضطرّ إلى أن يدفع إلى الإكسرخس المبلغ الذي كان وعده به بسكال. أمّا هذا فلم يعدل عن مطامحه إلى أن تمّ إبعاده عن رومة باتّهامه بالشعوذة. فحُكِم عليه ونفي إلى أحد الأديرة فاستقرّ فيه إلى أن مات بعد خمس سنوات من دون أن يتصالح مع الكنيسة.

في هذه الأثناء، خلف الإمبراطور يسطنيانُس الثاني قسطنطين الرابع، وتمكّن من الانتصار على البلغار والعرب، إلّا أنّ هزيمة واحدة أمام العرب فتحت للمسلمين أبواب آسية الصغرى. وكان موقفه من رومة موقف أسلافه. دعا إلى مجمع في القسطنطينيّة (٦٩١-٦٩٢) هدفه إنشاء أوّليّة الكنيسة البيزنطيّة، فقرّر المجمع أنّ كرسيّ القسطنطينيّة سينعم بامتيازات مساوية لامتيازات كرسيّ رومة. فرفض سرجيوس أن يوقّع القرار. أرسل يسطنيانس إكسرخس راڤينا إلى البابا ليثبّت من موقفه، إلّا أنّ المحاولة فشلت لأنّ جند الإمبراطور أنفسهم عارضوا خطف البابا. ولم تتصالح الكنيستان إلّا في ٧١١ عندما وافق البابا على أقسام القوانين التي أقرّها المجمع، ولم تكن مخالفة لحقوق رومة العريقة وللأعراف المعهودة.

وقد أدخل البابا سرجيوس نشيد «يا حمل الله» في رتبة القدّاس.

وعندما اكتُشِفَت في باسيليكا القدّيس بطرس قطعة حقيقيّة من صليب المسيح، أنشأ عيد ارتفاع الصليب الحقيقيّ الذي يُحتفل به منذئذ في ١٤ أيلول/ سبتمبر. وأعلن هذا البابا قدّيسًا.

٨٥ - يوحنّا السادس (٧٠١-٧٠٥)

حمى الإكسرخسَ ثِيوفِيلَكْتُس الذي حاول عسكرُه اغتيالَه لأنّهم كانوا قد تعبوا من مقاتلة اللومبرديّين. تعامل يوحنّا السادس مع البرابرة، ودفع لهم مبالغ ضخمة من المال، فاستطاع أن يجنّب الأراضي المحيطة برومة الاجتياح والسلب.

٨٦ - يوحنّا السابع (٧٠٥-٧٠٧)

عمل على زخرفة عدّة كنائس في رومة بفسيفساء رائعة. تعامل مع اللومبرديّين وناصبته بيزنطية العداء لأنّه رفض الاعتراف بالمجمع الذي انعقد في ٦٩٢. أعاد بناء دير سُوبِياكو بالقرب من رومة، وهو المكان الذي اعتزل فيه أوّل ما اعتزل القدّيس بندكتس. وللبابا يوحنّا السابع صورة من الفسيفساء محفوظة في كهف الڤاتيكان.

٨٧ - سِيسِينُس (٧٠٨)

كان سوريًّا ولم تدم حبريّته إلّا سبعة عشر يومًا.

٨٨ - قُسْطَنْطِين (٧٠٨-٧١٥)

قبل البابا قسطنطين جزئيًّا قرارات مجمع القسطنطينيّة، وإفصاحًا عن هذا الموقف سافر إلى عاصمة الإمبراطوريّة. بعد قليل من عودته إلى رومة اغتالَ الإمبراطورَ المغتصبُ بَرْداس الذي وضع حدًّا لسلالة الهيراقليديّين. ونقل رأس يسطنيانس الثاني إلى راڤينا ثمّ إلى رومة، حيث أهانته الجماهير في الشوارع مظهرة بهذه الطريقة حقدها على بيزنطية. أمّا المغتصِب فيليب برداس، فحاول إعادة إحياء المونوتيليّة، إلّا أنّ البابا رفض أن يقبل قرارات

مجمع مزيّف انعقد بفعل تهديدات طاغيةٍ خلعه عن العرش بعد فترة قصيرة الإمبراطور أنتاسيوس. وهذا الإمبراطور أبلغ البابا بأنّه يعترف بالمجمع المسكونيّ السادس الذي انعقد في ٦٨٠، وأنّه، بالتالي، يشجب الهرطقة المونوتيليّة.

٨٩ - غريغوريوس الثاني (٧١٥-٧٣١)

يقول هنري پيرين (Pirenne): «ليس في التاريخ حدث يشبه، بشموليّته وفجائيّة نتائجه، انتشار الإسلام في القرن السابع». ففي سبعين سنة اكتسح العرب البقعة الواقعة بين بحر الصين والمحيط الأطلسيّ. سقطت إمبراطوريّة الفرس تحت ضرباتهم، وفقدت بيزنطية تقريبًا جميع مقاطعاتها الواقعة خارج القارّة الأوروبيّة.

تدفّق هذا السيل أمام أسوار القسطنطينيّة (٧١٧) وفي وجه الجيوش التي جمعها شارل مارتيل (٧٣٢). وصار خليفة بغداد الزعيم السياسيّ والدينيّ لكلّ هذه المناطق التي شكّلت إمبراطوريّة جديدة. أمّا في أوروبّا فكان الفتح العربيّ واجتياحه العالم يعني الفصل بين رومة وبيزنطية، لأنّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وقد انحصرت في حدود شبه الجزيرة البلقانيّة، صارت دولة يونانيّة، فيما راحت رومة تتّجه أكثر فأكثر إلى الغرب وإلى الشمال. وأُغلقت سبل المواصلات على الغربيّين في البحر المتوسّط حيث كان الأسطول العربيّ قد دمّر الأسطول البيزنطيّ، فاضطرّت رومة إلى التخلّي عن مياه (Mare Nostrum) (البحر المتوسّط)، وكانت سابقًا لاتينيّة، وتوجّه أنظارها إلى أراضٍ مجهولة كان البرابرة فيها ينتظرون نور المسيحيّة. ويعود الفضل

إلى غريغوريوس الثاني حين كلّف المرسَل الأنكلوسكسونيّ ڤينفريد، الذي صار بابا وحمل اسم بونيفاقيوس، بأن يبشّر الجرمان بالمسيحيّة، فنزل على الشاطئ الألمانيّ في ٧١٦. وهكذا ردّت كنيسة إنكلترا إلى رومة الفضل الذي كانت قد تلقّته منها. وأخذت الثقافة الغربيّة مسحة لاتينيّة - جرمانيّة انطبَعَتْ بها طوال عدّة أجيال.

وفي بيزنطية، قام الإمبراطور لاون الثالث بحملة قاسية على الأيقونات، وهدفه تحطيم الصور والأيقونات والتماثيل، وفرض على إيطاليا ضرائب باهظة. عارضه البابا وعارض تدابيره، فأمر الإمبراطور عندئذ بتدبير قتله، فانتفض الشعب يؤيّده اللومبرديّون ضدّ بيزنطية. وكانت هذه أوّل ثورة في البلاد. هدّد الإمبراطور البابا غريغوريوس متوعّدًا إيّاه بمصير كمصير مرتينس، فكتب البابا إليه مجموعة رسائل ذات أهمّيّة تاريخيّة، أبرزت المسافة التي باتت تفصل آنذاك بين العاصمتين، العاصمة الروحيّة والأخرى الزمنيّة. إحتلّ إكسرخس راڤينا رومةَ. أقام البابا علاقات بشارل مارتيل، فدخل الفرنجُ التاريخ العالميّ.

٩٠ - غريغوريوس الثالث (٧٣١-٧٤١)

دعا البابا الجديدُ بونيفاقيوسَ إلى روما، فانطلق هذا من المدينة الخالدة إلى ألمانيا في ٧٣٨ على رأس فريق جديد من المرسَلين. عُيِّنَ بونيفاقيوس مندوبًا بابويًّا في باڤاريا، فأنشأ عدّة أبرشيّات جديدة وأسّس عددًا من الأديرة.

في ٧٣٣ طلب البابا إلى شارل مارتيل أن يتدخّل في إيطاليا لمجابهة جيوش لاون الثالث، إمبراطور بيزنطية، التي كانت تنهب البلاد.

٩١ - زَكَرِيّا (٧٤١-٧٥٢)

كان زكريّا آخر الباباوات من أصل يونانيّ - سوريّ. والبابا زكريّا هذا هو الذي كَرَّس پيپان (Pépin) ملكًا على الفرنجة، عندما تخلّى آخر ملك من السلالة الميروفنجيّة عن العرش ليعيش حياة الرهبانيّة في دير مُونتِي كاسِّينو. ومَسْحُ البابا پيپانَ ملكًا هو أوّل احتفال من نوعه يمنح ملكًا السلطة الزمنيّة بتأييد من البابا، وهذا ما كان له نتائج خطيرة، إنْ في تاريخ أوروبّا أم في تاريخ الباباوات أنفسهم.

إنعقد أوّل مجمع جرمانيّ في إيطاليا (٧٤٢) برئاسة بونيفاقيوس الذي كان يتابع عمله التبشيريّ. وانعقد مجمعٌ ثانٍ في لِيبْزِيغ سنةً بعد ذلك. وفي ٧٥٤، بينما كان بونيفاقيوس ماضيًا إلى الاجتماع بفريق من المتنصّرين، هاجمته وجماعتَه عصابةٌ من وثنيّي شمال البلاد فقتلوه وقتلوا رفاقه جميعًا. وكان في الثمانين من عمره. ودفن جسده في دير فُولْدا (Fulda) الذي كان قد أنشأه حيث ما زال الألمان يكرّمونه. لقد أنهى «رسول ألمانيا الكبير» نهاية مجيدة شوطه في الحياة التي خصّصها بكاملها ليسوع المسيح، ونال الحظّ بأن يموت شهيدًا. والكنيسة الغربيّة تدين له بالكثير: ففرنسا مَدينةٌ له بإعادة تنظيم الكنيسة الكارولنجيّة؛ ولإنكلترا الفخر بأنّه وُلِد على أرضها؛ وألمانيا تدين له برسالة المسيح. وما يُسمّى في التاريخ «نهضة كارولنجيّة» إنّما هو عمل رسول الغرب الكبير هذا. لقد دخلت مملكة الفرنجة في دائرة روما الروحيّة، وروما بدورها خرجت من الدائرة البيزنطيّة. والحضارة الغربيّة بدأت مذاك دورة جديدة.

أمّا في بيزنطية فقد استمرّت الحرب على الأيقونات إبّان مُلك الإمبراطور قسطنطين الخامس.

٩٢ - إسطفانس الثاني (٧٥٢-٧٥٧)

بسبب الخطر الذي كان اللومبرديّون يلحقونه بالكنيسة بفعل طموحهم إلى السيطرة على إيطاليا كلّها وتوحيدها، وجّه البابا نظره إلى بيزنطية ليطلب مساعدة الإمبراطور. إلّا أنّ بيزنطية، بسبب الحملة على الأيقونات، كانت تتخبّط في حرب حقيقيّة، بحيث إنّ الحلّ الوحيد الذي بقي لإسطفانس كان التوجّه إلى فرنسا. ففي ٦ شباط/ فبراير ٧٥٤، التقى البابا الملك پيپان في دارة بُونْتِيُون، في شمال غرب البلاد، وعُقد أوّل اتّفاق في دير القدّيس دِيونِيسِيُوس، وفي ٢٨ تمّوز/يوليو من السنة التالية، كرّس البابا إسطفانس پيپان وولديه شارل (شارلمان) وكارْلومان، ومنحهم لقب «نبيل رومانيّ» الذي كان يمنحه، حتّى ذلك الزمن، إكسرخس راڤينا، ممّا يعني أنّ ملك الفرنج صار حامي الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ بدل إمبراطور بيزنطية. ولأنّ البابا كرّس الملك ومسحه فقد رفعه فوق مستوى الشعب وأنشأ ملكيّة الحقّ الإلهيّ على الأراضي التي يحكمها الفرنج.

حاول پيپان مرارًا عديدة إقناع اللومبرديّين بأن لا يهاجموا الأراضي الرومانيّة، لكنَّ محاولاته ذهبت أدراج الرياح. وبصفته المحامي عن رومة، قطع ملك الفرنج حِلفَه السابق مع اللومبرديّين وهاجمهم، فانتصر عليهم في پاڤيا (٧٥٥) وأرغمهم على أن يسلّموا إلى البابا راڤينا ونارْنِي. لكنّ اللومبرديّين عادوا فهاجموا البابا، فطلب الحبر الرومانيّ مساعدة

الفرنج الذين انقضّوا ثانية على إيطاليا فيما كان الملك أَتُولُفُس يحاصر رومة. فقهر پيپان اللومبرديّين في پاڤيا (٧٥٦) وانتهت الحرب لصالح رومة. على أنّ الإمبراطور البيزنطيّ كتب إلى پيپان يطالبه بإعادة المدن والأراضي التي كان ملك الفرنج قد سلّمها إلى رومة. فكان جواب پيپان قاطعًا وفحواه أنّه لن يردّ شيئًا ممّا كان قد قدّمه إلى رومة. وأمر بكتابة محضر تُسْرَد فيه أسماء المدن الإيطاليّة التي كان يحتلّها إكسرخس راڤينا سابقًا والتي أعطاها، هو، «القدّيسَ بطرس ونائبه، الأب الأقدس، وخلفاءه». وهكذا تكوّن سلطان الكنيسة الزمنيّ وكان ملك الفرنج حامي الدولة الجديدة. أمّا ما لم يكن واضحًا في محضر پيپان فنوعُ العلاقات التي يجب أن تنشأ بين المحميّ والحامي، وهذا ما أطلق نزاعًا استمرّ حتّى عهد نابوليون الثالث.

ودخلت مدن أُخَر مثل بولونية، وفاينْزا، وفِرّارا في ممتلكات الكنيسة بعد وفاة أَتُولُفُس.

٩٣ - بولُس الأوّل (٧٥٧-٧٦٧)

هو أخو إسطفانس الثاني. في عهد حبريّته، تابع قسطنطين الخامس حربه الشرسة على الأيقونات، فصبغ الإمبراطوريّة بالدم فيما كان يحاول التفاهم مع اللومبرديّين في إيطاليا ويعمل على عزل البابا بكسبه صداقة پيپان، وما كان يطمح إليه من هذه الصداقة تحقيق تحالف پيپان معه في حملته على الأيقونات. على أنّ پيپان، في كلّ مرّة كان الإمبراطور يحاول التقرّب منه، كان يجيب بأنّ كلّ لقاء حول موضوع دينيّ يجب أن يتمّ في حضور مندوبين عن البابا.

٩٤ - إسطفانس الثالث (٧٦٨-٧٧٢)

فيما كان بولس الأوّل يُحتَضَر، حاول دوق تُوتُو (ثيودُور دي نيبي) أن يفرض بالقوّة أخاه حبرًا أعظم مكانه باسم قسطنطين الثاني. وكان هذا أوّل بابا علمانيّ. لكنّ خصوم قسطنطين توجّهوا إلى اللومبرديّين الذين فرضوا كاهنًا اسمه فيليب؛ غير أنّ فيليب هذا ما أعجب الرومانيّين. وَطَرَح الشمّاسُ كْرِيسْتُوف مَن لاقى قبولًا فصار بابا باسم إسطفانس الثالث، ولاحق كريستوف بقوّة حزب قسطنطين، واعترف بإسطفانس شارلُ وكارلومانُ خليفتا پيپان الذي توفّي سنة ٧٦٨. هذه المواقف العنيفة كانت نذيرًا بحقبةٍ مأسويّة ودمويّة في تاريخ رومة. حوكم قسطنطين فَدِينَ: سُمِلَتْ عيناه وعيون عدد من مؤيّديه، وعرف المصير نفسه بعض محازبي إسطفانس انتقامًا منهم. إنعقد مجمع في لاتران نيسان/أبريل ٧٦٩، فشجب ثانية قسطنطين وحرّم على العلمانيّين أن يكونوا مرشّحين للعرش البابويّ. وهذا المجمع الذي اشترك فيه ممثّلون عن مختلف بلدان العالم الغربيّ، اتّخذ موقفًا ضدّ إتلاف الصور المقدّسة.

وما انتهت المحن التي قاساها إسطفانس عند هذا الحدّ، فقد حاول الأسقف لاون، يؤيّده ديديه ملك اللومبرديّين، أن يفصل راڤينا عن رومة، وفي نيّته أن يخلق دولة مستقلّة. وفي هذه الأثناء، تزوّجت ابنة ملك لومبرديا، شارل ملك الفرنج. غير أنّ العلاقات بين الفرنج واللومبرديّين لم تدم طويلًا، وطلّق شارل زوجته. وتوفّي كارلومان في ٧٧١ فانفرد شارل بحكم مملكة الفرنج.

٩٥ - أدريانس الأوّل (٧٧٢-٧٩٥)

في ٧٧٤، هزم شارلمان اللومبرديّين في باڤيا وأعلن ذاته ملكًا، فوضع حدًّا لهذه المملكة المستقلّة التي دامت قرنين. وجاء شارلمان في عيد الفصح من تلك السنة إلى رومة، فأقسم يمين الولاء لرومة في سرداب كنيسة مار بطرس، وجدّد الوعود التي تعهّد بها پيپان لإسطفانُس الثاني. تغيّرت الحال تغيّرًا ملحوظًا. فملك الفرنج، حامي البابا من اللومبرديّين، صار اليوم ملك اللومبرديّين، وكلّ مقاطعة تمّ التنازل عنها للبابا كانت تعني انتقاص مقاطعة من أراضي ملك الفرنج. وبالرغم من ذلك، فقد كان شارلمان يحترم البابا احترامًا كبيرًا، فلا يسمح لنفسه بأن يضفي على المسألة مظهرًا ظالمًا أو عنيفًا. وفي ٧٨١، رجع شارلمان إلى رومة فتوصّل إلى التسوية التالية: يحمل پيپان، ابن الملك، لقب ملك إيطاليا، ويحمل أخوه لويس لقبَ ملك أكيتانيا. وبالمقابل، يعترف شارلمان بسيادة البابا على الدولة البابويّة ويلتزم بعدم التدخّل في انتخاب البابا، بل يكون الرومانيّون وحدهم، مذ ذاك، مسؤولين عنه.

وتمّت مصالحة الملك وبيزنطية بعد رحلته إلى رومة بوقت قصير. فالإمبراطورة إيرين خلفَتْ لاون الرابع وكانت ترغب في التصالح مع البابا والفرنج. وفي ٧٨٥، دعت البابا ليحضر مجمع نيقية الثاني الذي شجب محاربي الأيقونات، وردّ الاعتبار إلى عبادة العذراء، وتكريم القدّيسين. على أنّ شارلمان لم يوافق على نصّ أعمال المجمع، لأنه رأى فيه أنّ الكنيسة اليونانيّة تطمح إلى أن تطرح نفسها مرشدةً للمسيحيّة. فدعا إلى مجمع يُعقد في فرنكفورت

(٧٩٤)، فشُجِبَت فيه هرطقة التَّبَنِّيَة التي تميّز بين الآب، ابن الله الطبيعيّ، والابن، الذي ليس سوى ابنِ لله بالتبنّي، بحيث ظهر شارلمان بنظر الغربيّين محامي الكنيسة المقدّسة، الأمّ، بالسلاح وبالعلم اللاهوتيّ.

وكان لحروبه ضدّ العرب، وضدّ السكْسُون، وضدّ الآفار النتيجة الإيجابيّة نفسها لصالح العقيدة المستقيمة بالمعنى الدقيق، التي حقّقها مجمع فرانكفورت. وكانت إمبراطوريّة شارلمان تمتدّ عندئذ من دلماسيا وجنوب إيطاليا إلى نهر الإيبْر، وإلى ألمانيا في شمال أوروبّا.

٩٦ - لاون الثالث (٧٩٥-٨١٦)

من أصل وضيع. كان سابقًا راعيًا لكنيسة القدّيسة سوسنة في رومة. بعد انتخابه، أرسل إلى شارلمان مفاتيح اعتراف مار بطرس وراية مدينة رومة. فكتب شارلمان إليه يقول إنّه يعود للملك مطاردة أعداء الكنيسة في السهول، وللبابا، مثله مثل موسى على الجبل، أن يصلّي من أجل انتصاره.

وانفجر عصيان في رومة ٢٥ نيسان/أبريل ٧٩٩. واستطاع البابا بجهد جهيد أن يجتاز جبال الألب بحثًا عن ملجأ في بلاط شارلمان، في بادِرْبُورْن. وتعانق البابا والملك وهما يبكيان. ولم يطل الأمر بالبابا حتّى عاد إلى رومة يصحبه سفراء الملك.

في شهر كانون الأوّل/ديسمبر سنة ٨٠٠ قصد شارلمان رومة، وفي ٢٣ من الشهر نفسه، تسلّم مفاتيح القبر المقدّس في القدس، ممّا يعني أنّ بطريرك هذه المدينة يعتبره حاميًا للأماكن المقدّسة. وهكذا تمّ اعتبار شارلمان حاميًا أيضًا للمسيحيّة، لكن كان يلزمه لقب آخر لتصديق صفته عاهلًا

عالميًّا. ويوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠، وضع لاون الثالث على رأس شارلمان تاجًا ثمينًا، وأعلن أنّه «أوغسطس تقيّ، توَّجَهُ الله إمبراطورًا للرومان عظيمًا ومسالمًا». ثمّ سجد البابا أمامه، ووفقًا للمراسم البيزنطيّة أحيّه حبًّا جمًّا فقبّله فمًا إلى فم. وبهذا الاحتفال تسلّم إمبراطور الغرب لقبه أمام قبر القدّيس بطرس، فصار شارلمان الرئيس الدنيويّ لمدينة الله وهتفت كنيسة رومة مباركةً له بهذا اللقب. ودخل التاريخ كتاب طقوس جديد: فمذ ذاك وصاعدًا، لم يطمئنّ أيّ إمبراطور غربيّ إلى عرشه ما لم يقم البابا برتبة مَسْحِه فيمنحه اعتبارًا إلهيًّا. وهذا التقليد الذي أنشأ أفكارًا جديدة في الحقّ العامّ سيطر في الفترة اللاحقة وفي العصر الوسيط كلّه.

وأحدثت مسألة انبثاق الروح القدس من الآب «والابن» نزاعًا بين الغرب والشرق. فمع أنّ رومة وبيزنطية كانتا متّفقتين مبدئيًّا على انبثاق الروح القدس، فإنّ الصيغ كانت مختلفة. ففيما كان الشرقيّون يعتمدون صيغة الانبثاق من الآب بالابن، كانت الصيغة المعتمدة في الغرب الانبثاق من الآب والابن. وانعقد مؤتمر في رومة للتداول بأصل الروح القدس. فأيّد الفرنج صيغة من الآب والابن، مؤكّدين بذلك أنّ الروح القدس منبثق ليس من الآب وحسب، بل من الابن أيضًا. أمّا البابا، حتّى لا يزيد النزاع مع بيزنطية تفاقمًا، فقد تردّد في تأييد الفرنج. ولم تقبل رومة صيغة والابن إلّا بعد قرنين اثنين في أيّام حبريّة بندكتُس الثامن، عندما باتت معارضة اليونانيّين أدنى خطورة. وهكذا، فقد أثبت البابا، مرّة أخرى، موقف الكنيسة المستقلّ إزاء حماتها الجدد.

٩٧ - إسطفانس الرابع (٨١٦-٨١٧)

توفّي شارلمان بسنتين قبل لاون الثالث، فتابع ابنه لويس، الملقّب بالتقيّ أو الصالح، سياسة والده ضمن حدود طاقاته التي لم تكن ممتازة. قصد البابا رامس ليتوّجه ويكرّسه، فخلق بهذا العمل تقليدًا لاحتفالات التتويج في فرنسا.

٩٨ - پَسْكال الأوّل (٨١٧-٨٢٤)

عندما استقبل الملك لويس الوفد الذي أبلغه انتخاب البابا الجديد، حدّد ما وُصِف بأنّه «امتياز الإمبراطور لويس»، الذي يفصّل الضرائب التي تعود إلى البابا من قبيل الحقّ، ممّا يؤكّد سيادته على الأراضي التي تخصّ الدولة البابويّة، والحماية الإمبراطوريّة. وهذه الوثيقة تضمن أيضًا الحرّيّة التامّة لانتخاب صاحب الكرسيّ المقدّس، انتخاب يحظى بالإجماع، بعيدًا عن السيمونيّة والعنف. ويلتزم كلّ حبر أعظم جديد بأن يرسل إلى البلاط الفرنسيّ سفيرًا ليجدّد اتّفاق الصداقة والتحالف. وفي ٨٢٣، توّج البابا پسكالُ الأوّل لُوتْهِير، ابن الملك لويس، في باسيليكا القدّيس بطرس برومة. وكانت الإمبراطوريّة الفرنجيّة قسمت ثلاثة أقسام بين أولاد لويس: لوتهير، وپيپان، وذاك الذي صار لويس الجرمانيّ.

بنى البابا پسكال كنائس مهمّة في روما، منها كنيسة القدّيسة پراكسِيد، وبنوع خاصّ كنيسة القدّيسة مريم عبر التيبر، وفيها من جملة ما فيها من فسيفساء، واحدة تمثّل صورة البابا.

٩٩ - إِفْجِينِيُوس الثاني (٨٢٤-٨٢٧)

إنفجرت اضطرابات في رومة، بعد انتخاب إفجينيوس، بين الأشراف الرومانيّين (الجيش الرومانيّ والدوائر الكنسيّة (عائلة الروح القدس). فقدِم لُوتهير إلى رومة في ٨٢٤ ونشر دستورًا يرسم مرّة أخرى قواعد انتخاب الحبر الأعظم (دستور لُوتهِير) التي تلغي من المبادئ التي نصّ عليها «امتياز الإمبراطور لويس». وانعقد مجمع في مار بطرس (٨٢٦) وافق على القرارات الإمبراطوريّة واتّخذ تدابير مهمّة لإجراء الإصلاح.

١٠٠ - ڤالَنْتِينُس (٨٢٧)

لم يشغل الكرسيّ الرومانيّ إلّا أربعين يومًا، ولم تحصل في حبريّته أحداث ذات أهمّيّة.

١٠١ - غرِيغُورِيُوس الرابع (٨٢٧-٨٤٤)

تابعت المسيحيّة انتشارها نحو شمال أوروبّا وشرقها، في الدانمرك، والسويد، وفي پانونيا (هنغاريا/المجر)؛ أمّا في الجنوب فكان ظلّ الهلال يمتدّ على إيطاليا. فحصّن غريغوريوس الرابع أوستيا مرفأ رومة القديم ليحمي الدولة البابويّة من هجوم المسلمين الذين كانوا قد نزلوا في صقلّية (٨٢٧). وكان من تفكّك الإمبراطوريّة الكارولنجيّة السريع في الفترة نفسها أن منع الفرنج من التدخّل لمساعدة البابا في صراعه ضدّ الكافرين. وتمرّد أولاد الإمبراطور لويس التقيّ الثلاثة وأعلنوا الحرب على أبيهم (٨٢٣) فيما كان يقاتل أحدهم الآخر. وجاء البابا إلى فرنسا، إلّا أنّ رجال الإكليرس أنفسهم كانوا منقسمين بين أحزاب الإمبراطوريّة المختلفة.

مات لويس التقيّ في ٨٤٠ بعد أن غفر للجميع مغفرة مسيحيّ حقيقيّ. وبعد ثلاث سنوات وقّعت معاهدة ڤردان التي وضعت حدًّا للخلافات التي قسّمت الإمبراطوريّة نهائيًّا: فاحتفظ لويس الجرمانيّ بالقسم الشرقيّ، أي ما سيكون ألمانيا، وأصاب شارل الأقرع القسم الغربيّ، أي ما سيكون فرنسا، في حين احتفظ لوتهير بلقب الإمبراطور وملك على أراضٍ انقسمت لاحقًا إلى ثلاث مقاطعات مستقلّة: بُرْغُوني، واللُّورين، وإيطاليا.

في ٨٤٣ انتهت الحرب على الأيقونات في بيزنطية، بعد أكثر من قرن من الأحداث المأسويّة.

١٠٢ - سِرجيُوس الثاني (٨٤٤-٨٤٧)

تدخّل حزبان في انتخاب سرجيوس: الحزب الشعبيّ وكان مرشّحه الشمّاس يوحنّا، وحزب الأشراف الذي أيّد مَن سيكون البابا، وهو الحبر الخامس من عائلة كولونا. وقد أخذت السيمونيّة تظهر بمظاهر مقلقة. فأخو سرجيوس الذي كان سلوكه يؤهّله لمسيرة حياتيّة مختلفة تمامًا عمّا صار إليه، عيّن أسقفًا. وفي ٨٤٦، نزل المسلمون في أوسْتيا ونهبوا باسيليكا القدّيس بولس وباسيليكا القدّيس بطرس، وهزموا جيشًا إمبراطوريًّا عند أسوار غاييتا إلى جنوب رومة.

واتّخذ الإمبراطور وابنه، ملك إيطاليا، تدابير لإصلاح عادات الإكليرس. وقليلون هم الذين بكوا على موت البابا.

١٠٣ - لاون الرابع (٨٤٧-٨٥٥)

أعاد البابا الجديد بناء سور أورِيلِيانُس القديم،

فأحاط سور جديد بحيّ الڤاتيكان الذي عرف منذئذ بالمدينة اللاونيّة. وتواترت غزوات المسلمين. وفي ٨٤٩، توصّل البابا إلى إنشاء أسطول حربيّ واجه بواسطته المهاجمين الذين انتصر عليهم في مياه أوستيا.

وفي السنة التالية، كرّس لاون الرابع في رومة لويس الثاني، ابن لوتهير، ملكًا. كانت الإمبراطوريّة تمضي سريعًا في طريق الانحطاط في حين أنّ الكنيسة تزداد مكانتها رفعة.

توفّي البابا في ١٧ تمّوز/يوليو ٨٥٥. وبين هذا التاريخ وانتخاب خليفته، وضع الخيال الشعبيّ حبريّة «البابة حنّة» التي بدأت أسطورتُها انتشارَها ثلاثة قرون بعد ذلك التاريخ. أمّا الأسطورة فتروي أنّ امرأة تدعى جيلبِرْتا، أو أغْنِيس، أو ثِيودُورا، أو إيڤِيت، ولدت في مايانس، كانت تتزيّا بزيّ رجل، درست في جامعة أثينا وعلّمت في رومة حيث استطاعت أن تصير بابا. أمّا هويّتها الحقيقيّة قد اكتُشِفَت حين وضعت طفلًا في أثناء تطواف. وكان من السهل إثبات عدم وجود «البابة حنّة» لأنّ لا وثيقة إطلاقًا من ذلك العهد تتحدّث عنها. ثمّ إنّ بندكتس الثالث ارتقى عرش بطرس بعد موت لاون مباشرة، في ٢٩ أيلول/سبتمبر ٨٥٥.

١٠٤ – بندكتس الثالث (٨٥٥–٨٥٨)

إنتخب ممثّلو الإكليرس البابا الجديد فلم يعترف به سفراء الإمبراطور الذين كانوا يدعمون أَنَسْطاس. واستطاع بندكتس أن يفرض نفسه وغفر لأنسطاس، وأعطاه لقب أبّاتي. وكانت الإمبراطوريّة ازدادت انقسامًا بعد موت لوتهير وغرقت في الفوضى.

وظهرت التزويرات بما خصّ مبدأ حرّيّة المجامع، وهي تزويرات معروفة بأنّها من عمل «المنتحل إيسِيدُورُس»؛ وهذا ما يفصح عن درجة الانحطاط الخلقيّ الذي بلغته أوساط الإكليرس الفرنجيّ. واستغلّ خصوم الكنيسة ما كانت توفّره لهم «مجموعة فتاوى» المنتحل إيسيدورس ليوجّهوا إليها، ابتداءً من القرن السادس عشر، سهام النقد. والمعروف أنّ هذه التزويرات المعتبرة حقيقيّة، نُسِبت مبدئيًّا إلى القدّيس إيسيدورس الإشبيليّ.

١٠٥ – نِقُولا الأوّل (٨٥٨–٨٦٧)

يعتبر نقولا الأوّل أهمّ الباباوات الذين شغلوا الكرسيّ الرسوليّ بين البابا غريغوريوس الكبير وباباوات العصر الوسيط الأعلى. لقد أثّر في معاصريه أيّما تأثير بتشبّثه في الدفاع عن حرّيّة الكنيسة بوجه الدولة، وعن كمال الزواج، وعن حقّ الشعوب في السلام. لقد ندّد بالحرب التي لا مبرّر لها إلّا في حال الدفاع عن النفس، وميّز تمييزًا واضحًا بين الملك الحقيقيّ والطاغية. وشجب المبارزة التي أعلنها لوتهير الثاني «حُكم الله» والتي عالجها كلايْسْت Kleist في رائعته الأدبيّة **المبارزة**. جعل البابا نقولا أمينًا له أنسطاس، مناهض سلفه.

وتدخّل بحزم دفاعًا عن تُوتْبِيرج، زوجة لوتهير الثاني وكان قد طلّقها ليتزوّج سُرِّيّته فَلْدراد. وألغى نقولا قرارات المجمعين الجرمانيّين اللذين وافقا على تصرّف لوتهير. وحاصر لويس الثاني الجرمانيّ البابا في الڤاتيكان ليرغمه على الاعتراف بصحّة زواج لوتهير، فكان حصاره بلا جدوى. لقد كان البابا المدافع عن الأخلاق المسيحيّة ودافع عنها

بصفته هذه «من دون خوف أو لَوْم». وكان موقفه نموذجًا في الفضيلة والاستقلال بوجه عظماء الأرض الذين كانوا يحقّرون المبادئ الأخلاقيّة التي يفرضونها على الضعفاء ولا يطبّقونها على أنفسهم. فصارت البابويّة منارة خلقيّة للشعوب، وظهر البابا حَكَمًا لا للكنيسة وحسب، بل للمجتمع أيضًا. وبسبب تشدّد البابا نقولا الأوّل، يتّفق كبار المؤرّخين على اعتباره البابا الذي دشّن حقبة العصر الوسيط، أي حقبة انتصار الكنيسة.

١٠٦ - أدريانس الثاني (٨٦٧-٨٧٢)

لقد لطّخت بالدم قصر الفاتيكان مأساةٌ مريعة. فقبل أن يرتدي أدريانس الثوب البابويّ، وكان متزوّجًا وله ابنة. وظلّت الأمّ وابنتها تعيشان في القصر. وأغرى إلُوتيِرُس، شقيق أنسطاس - وكان أمين المكتبة وكاتم أسرار نقولا -، الابنة فخطفها ثمّ تزوّجها. وانتقامًا من البابا الذي رفع القضيّة إلى المحكمة، قتل إلُوتيِرُس الأمّ وابنتها، فاعتُقِل القاتل وأُعدم.

وجاء لوتهير إلى إيطاليا والتقى البابا في دير مونْت-كَسّينُو حيث سأله البابا، قبل أن يناوله القربان، ما إذا كان أعاد علاقاته بتُوتبيرج بعد أن حرم البابا نقولا الأوّل خليلته ڤلدراد؛ فتقدّم الإمبراطور إلى المذبح وهو يرتجف. وما زال نور وسيط يغمر هذا المشهد المؤثّر أيّما تأثير الذي يشهد على أنّ خلفاء بطرس كانوا يقرّرون مصير الأباطرة.

وفي بيزنطية، كان يملك باسيليوس الأوّل، مؤسّس السلالة المقدونيّة، الذي دعا إلى آخر مجمع

عُقِد في رومة الشرقيّة (بيزنطية)، وفيه شُجِب انشقاق فُوطِيُوس وأُبرم اتّفاق جديد مع رومة.

وقام كيرلّس ومِيتُودِيُوس بزيارة البابا الذي اعترف بالطقس السلافيّ.

١٠٧ - يوحنّا الثامن (٨٧٢-٨٨٢)

كان معاونًا لنقولا الأوّل. على أثر موت لويس الثاني (٨٧٥)، تقدّم مرشّحان لخلافته على العرش الإمبراطوريّ. أسرع شارل الأصلع بالذهاب إلى رومة فكرّسه البابا، فمات سنتين بعد ذلك في أثناء عودته من حملة على إيطاليا، فشهدت المسيحيّة اضطرابات جديدة. واستفاد المسلمون من ضعف الغرب ليهاجموا إيطاليا ويفرضوا على البابا دفع جزية. فتوجّه يوحنّا إلى بيزنطية، لكنّه حين رأى عجز الإمبراطوريّة الشرقيّة القديمة، أعاد العلاقات بِـ «شارل السَمِين»، ملك ألمانيا، الذي قرّر أخيرًا أن يقصد رومة ليتكرّس إمبراطورًا في شباط/فبراير ٨٨١. واضطرّ شارل إلى أن يغادر رومة على عجل لأنّ النورْمنديّين كانوا قد اجتاحوا أراضيه. وفي ٨٨٢، عاد النورمنديّون ليكتسحوا شمال فرنسا وألمانيا الغربيّة.

واستغلّ النبلاء الإيطاليّون الموقف: فيقينًا منهم أنّ الإمبراطور عاجز عن الدفاع عن البابا، تمرّدوا. وسَمَّمَ للبابا يوحنّا الثامن أحدُ أقربائه، إلّا أنّ هذا عندما رأى أنّ الحبر الأعظم لم يَمُتْ سريعًا، قضى عليه بضربات مطرقة. فكانت تلك أوّل جريمة من هذا النوع ترتكب في الفاتيكان. وبدأت غيوم الشرّ تهجم من كلّ ناحية، ما حدا بالكردينال بارُونيوس، مؤرّخ الكنيسة الشهير، إلى أن يسمّي القرن العاشر

«الزمن المظلم»، وهو، في الواقع، أقلّ تاريخ الكنيسة مجدًا.

١٠٨ - مارِينُس الأوّل (٨٨٢-٨٨٤)

كان مارينس أوّل أسقف يرتقي عرش بطرس. في عهد حبريّته لم يحصل أيّ حدث ذي أهمّيّة. على أنّ مارِينُس هذا وبابا آخر يحملان الاسم نفسه، أُدرِجا في جدول الباباوات تحت اسم مرتينُس.

١٠٩ - أدريانس الثالث (٨٨٤-٨٨٥)

. توفّي بالقرب من مُودِينا فيما كان مسافرًا إلى الشمال ليقوم بزيارة شارل السمين.

١١٠ - إسطفانس الخامس (٨٨٥-٨٩١)

إختارت الجمعيّة المنعقدة في تْرِيبُور (٨٨٧) أرْنُولْفُ القارِنثيّ ليحلّ محلّ شارل السمين. واضمحلّت السلالة الكارولنجيّة وخمد بريقها في ألمانيا. أمّا في فرنسا، فقد تقاسمت السلطة بالتناوب مع عائلة أُودِس (Eudes)، أوّل فرع من سلالة الكابِيسِيّين الذين ملكوا في فرنسا حتّى اندلاع الثورة في ١٧٨٩. وأنشأت الأرستقراطيّة البورغونيّة ممكلة جديدة. ومع زوال المملكة الكارولنجيّة، زالت الحماية التي كان ينعم بها البابا. فرأى البابا إسطفانس الخامس أن يستبدل الدوق غِي دِي شْبُولِيت بالحماة الكارولنجيّين، فكرّسه إمبراطورًا في ٨٩١، إلّا أنّ أحدًا لم يعترف به.

١١١ - فُورْمُوز (٨٩١-٨٩٦)

كان فورموز قاصدًا رسوليًّا في بلغاريا. وعندما

رفض نقولا الأوّل أن يبقيه في تلك البلاد أسقفًا، ضاعت من رومة نهائيًّا بلغاريا التي كانت تتأرجح بين النزاعات الداخليّة والحقد البيزنطيّ. وفي ٨٩٢، توّج فورموز غِي في راڤينا. وأمام تنامي قوّة غي وتعاظم سلطانه، قرّر فورموز طلب المساعدة إلى أرنولف الذي استولى على رومة، وتمّ تتويجه إمبراطورًا. إلّا أنّ الألمانيّ، أرنولف، اضطرّ إلى الانسحاب لاحقًا، واستولى لامْبِيرت، ابن غي، على رومة ثانية.

رمّم فورموز باسيليكا القدّيس بطرس وكنائس أُخَر في رومة.

١١٢ - بُونِيفاقِيوس السادس (٨٩٦)

دامت حبريّته أسبوعين فقط.

١١٣ - إسطفانس السادس (٨٩٦-٨٩٧)

جعل نفسه آلة بيد لامبيرت وأمّه الغليظة الطبع أَلْجِيتْرُود، وأفصح عن عداوته لأرنولف وللبابا فورموز. إنتقم من سلفه هذا بصورة شنيعة، فنظّم محاكمة له بعد موته، بعد أن أخرج جثّته من القبر. فحكم على الجثّة، وقطع إحدى أصابعها وأمر من ثمّ بدفنها في حفرة الغرباء العموميّة، فأخرجها الرعاع ليرموها في نهر التيبر (كانون الثاني/يناير ٨٩٧). وأحدث ما سُمّي بـ «المجمع الجثّيّ» رعبًا كبيرًا في الناس العاديّين الأصفياء النيّة. وبعد أشهر قليلة مات البابا إسطفانس مخنوقًا في السجن الذي حَبَسَه فيه مؤيّدو فورموز.

١١٤ - رُومانُس (٨٩٧)

دامت حبريّته ثلاثة أشهر.

١١٥ - ثِيُودُورُس الثاني (٨٩٧)

تبوّأ الكرسيّ الرسوليّ ثلاثة أسابيع وترك ذكرًا طيّبًا. ألغى قرارات «المجمع الجثّيّ» ودفن في مقبرة لائقة رفات فورموز الذي لفظها نهر التيبر على إحدى ضفّتيه، وجمعها فحفظها أحد النسّاك.

وانتخب مناصرو إسطفانس بابا منافسًا هو سرجيوس، كُونْت تُوسْكُولُوم، الذي لم يستطع أن يتولّى البابويّة، ثمّ انتُخِبَ نظاميًّا لاحقًا، واتّخذ اسم سرجيوس الثالث.

١١٦ - يوحنّا التاسع (٨٩٨-٩٠٠)

عمل ما أمكنه فعله ليردّ الاعتبار إلى ذكرى فورموز، ولينظّم بصورة نهائيّة مسألة انتخاب البابا. فالانتخاب الذي وُضعت قواعده في ٨٢٤، لكنّ الإكليرس تجاوزها تبعًا للظروف، كان يجب أن يتمّ بحضور مندوبين عن الإمبراطور، وعن مجلس الشيوخ، وعن شعب رومة؛ وكان لرجال الإكليرس الرومانيّ وحدهم حقّ الترشّح.

وعمّ السلام شبه الجزيرة الإيطاليّة بفضل العلاقات الطيّبة التي قامت بين الفاتيكان وعائلة سپُولِيت؛ غير أنّ لامبيرت توفّي سنة ٨٩٨، وتوفّي منافسه في ٨٩٩. ولم يكن من مرشّح للتاج سوى لويس، ملك بورغوني وپرُوفَنْسَة.

١١٧ - بِنِدِكْتُس الرابع (٩٠٠-٩٠٣)

حارب الفساد محاربة يائسة ذهبت سدى. تَوَّج لويس البْرُوفَنْسِيّ إمبراطورًا، غير أنّ أحدًا لم يعترف به. أمّا سيّد إيطاليا الحقيقيّ فكان بِيرانْجيه الذي وُفِّق بأن يسجن لويس في ٩٠٥. إجتاح الهنغاريّون إيطاليا فهزموا بِيرانْجِيه، ونهبوا المدن والأديرة.

١١٨ - لاون الخامس (٩٠٣)

دامت حبريّته شهرًا (آب/أغسطس ٩٠٣). قام كاهن اسمه كريستوف فسجنه وأذاقه الشهادة. (هناك أسطورة بريتانيّة تُطابق بينه وبين القدّيس تُوغْدُيال، وهو راهب من رهبانيّة القدّيس بندكتس ذهب إلى رومة وانتُخِب بابا واتّخذ له اسم لاون البِريتنيّ).

١١٩ - كْرِيسْتُوف (٩٠٣-٩٠٤) وسِرْجيُوس الثالث (٩٠٤-٩١١)

إنّ كريستوف المغتصب، الذي يستحقّ لقب البابا الزائف، أُودِعَ السجن حيث كان يقبع ضحيّته لاون الخامس، وحيث قُتِلَ كلاهما بناء على أمر صادر من البابا الزائف السابق، سرجيوس، كونت تُوسْكُولُوم. كان الحزب المناهض لفورموز في سدّة السلطة، فأُعيدت المحاكمة من دون أن يبلغ الأمر حدّ التطرّف المعروف، ومن دون أن تُنتهَك حرمة قبره. وكان سيّد رومة طوال هذه السنوات ثِيوفيلاكت، رأس الأرستقراطيّة الرومانيّة، الذي ظهرت زوجته ثِيُودُورا، وابنتاه ثيودورا وماروسيا بكونهنّ مسوخ الشراسة والفساد، كما ورد في مجموعة أخبار لُوِيتْپراند الكريمونيّ. (يصف

الكردينال بارونيوس هذه الحقبة التي تنتهي في ٩٣٥، بأنّها «حكم الإباحيّة». لقد سمّى ثيوفيلاكت نفسه أميرًا، وشيخًا، وقنصلًا لروما، كما عيّن ثيودورا وماروسيا شيختين. وكان باباوات هذه الحقبة جميعهم ألاعيب في أيدي الفئات الإقطاعيّة. أمّا العمل الوحيد الذي حقّقه سرجيوس والجدير بأن يذكر، فهو إعادته بناء باسيليكا لاتران، التي كان قد دمّرها زلزال أرضيّ في أثناء «محاكمة الجثّة».

١٢٠ - أنسطاس الثالث (٩١١-٩١٣)

لم يحصل في حبريّته أيّ حدث جدير بأن يُسجّل.

١٢١ - لانْدُون (٩١٣-٩١٤)

عَيَّن أحد محاسيب ثِيودورا أسقفًا على رافِينا، وقد ارتقى بعده العرش البابويّ.

١٢٢ - يوحنّا العاشر (٩١٤-٩٢٨)

كان أسقف رافِينا السابق هذا بابا حازمًا بالرغم من تبعيّته السياسيّة لِثِيودورا. عقد تحالفًا ضدّ المسلمين فهُزِم في معركة غارِيليانُو التي شارك فيها شخصيًّا. وعندما حاول أن يمارس مسؤوليّاته بجدّيّة في أواخر حَبْريّته، سجنته ماروسيا وقضى مقتولًا.

١٢٣ - لاون السادس (٩٢٨-٩٢٩)

تولّى السدّة البابويّة سبعة أشهر وكانت تحميه ماروسيا.

١٢٤ - إسطفانس السابع (٩٢٩-٩٣١)

يُحْتَمل أن يكون قد قضى مقتولًا، مثله مثل سَلَفه، بناءً على أوامر ماروسيا.

١٢٥ - يوحنّا الحادي عشر (٩٣١-٩٣٥)

هو ابن ماروسيا. وهذه، بعد وفاة زوجها غُوِيدو التوسكانيّ، تزوّجت، وهي عضو في مجلس الشيوخ، هُوغُو ملك پروفَنسا وإيطاليا، وخطّطت لِتَتَوّجه البابا يوحنّا الحادي عشر إمبراطورًا. إلّا أنّ ابن ماروسيا الآخر، ألْبِريك، أثار طبقة النبلاء والشعب ونفى هوغو في ٩٣٢، وسجن أمّه والبابا، أخاه. وقُتل هذان الاثنان في السجن، وبموتهما في ٩٣٥ انتهت حقبة في تاريخ الكنيسة من أشدّ الحقب ظلامًا. ومَلِك ألبريك بصفته «أميرًا وشيخًا يمثّل الرومانيّين»، وفي عهده وبحمايته انطلق رئيس دير كلُوني (Cluny) في عمليّة إصلاح الكنيسة.

١٢٦ - لاون السابع (٩٣٦-٩٣٩)

دعم إصلاح كلوني. وفي ألمانيا حكم أُوتُّون الأوّل، طليعةُ آل ساكس، فافتتح عهدًا جديدًا وصفحة مشرقة في الإمبراطوريّة.

١٢٧ - إسطفانس الثامن (٩٣٩-٩٤٢)

حاول الملك هوغو الاستيلاء على رومة، إلّا أنّ ألبريك صَدَّه. وكان البابا إسطفانس من أقرباء الإمبراطور أوتّون الأوّل.

١٢٨ - مارينُس الثاني (٩٤٢-٩٤٦)

يُعرف أيضًا باسم مرتينس الثالث لأنّ البابوين

اللذين حملا اسم مارينس لاحقًا، أطلق عليهما هذا الاسم. كان بابا صالحًا، إلّا أنّ لا شيء مهمًّا حصل في عهد حبريّته.

١٢٩ - أغاپيتُس الثاني (٩٤٦-٩٥٥)

جمع ألبريك، وهو على فراش الموت، أشراف روما والإكليرس، وطلب إليهم أن يختاروا في المستقبل ابنه أُكتاڤيانُس، كونت تُوسْكُولُوم، بابا، بحيث يتمّ جمع السلطتَين الروحيّة والزمنيّة في يد واحدة.

١٣٠ - يوحنّا الثاني عشر (٩٥٥-٩٦٤)

هو الذي خَلفَ أغابيتس. ففي العشرين من عمره، انتُخِب الكونت أُكتاڤيانُس بابا فكان شخصيّة تركت ذكرى مؤسفة. لقد كانت تربيته الأرستقراطيّة تعدّه للصيد والملذّات الجسديّة أكثر من إعداده لمسائل الروح ومشاكل الكنيسة. إلّا أنّ حركة الإصلاح التي أطلقها كُلُوني تابعت انطلاقتها وعملها، وانبعثت الكنيسة من عمق هوّة الانحطاط. هدّد بِيرانْجِيه يوحنّا فاستدعى هذا لمساعدته أوتّون الذي عبر جبال الألب في ٩٦١. وفي ٢ شباط ٩٦٢، توّجه البابا إمبراطورًا في باسيليكا الڤاتيكان. ووقّع البابا والإمبراطور معاهدة عُرفت بـ **«امتياز أوتّون»** *(Privilegium Ottonis)* تحدّد بدقّة صلاحيّات كلٍّ من الإمبراطور والبابا. زيدت الهبات التي كانت تُمنَح للكنيسة وترسّخت الضمانات لتأمين انتخاب البابا انتخابًا مستقلًّا. فلن يتمّ تكريس بابا من بعد قبل أن يتحقّق سفراء الإمبراطور من أنّ

الشروط المقرّرة قد توافرت في الانتخاب. وكان واضحًا أنّ الإمبراطور لم يكن في نيّته أن يجعل من البابا ملكًا على إيطاليا، لأنّ الألمان كانوا يطمحون إلى الاستيلاء على شبه الجزيرة الإيطاليّة وبسط سلطانهم عليها. وقليلون أدركوا في ذلك الوقت المأساة التي سيجرّها على إيطاليا ذلك الطموح. وبالرغم من ذلك فإنّ تكريس أوتّون وتنصيبه وتوقيع الامتياز اعتبرها كثيرون «بداية عصر أفضل». فقد نشأت آنذاك الإمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة. وقد استمرّ هذا الاسم إلى أن ألغاه نابوليون في ١٨٠٦.

وما إن غادر أوتّون روما حتّى ندم البابا على تساهله وسخائه، وتحالف مع بِيرانْجِيه ومع أدالْبِير الإيفريّ، فكوّن معهما ائتلافًا أوروبّيًّا ضدّ الإمبراطور. إلّا أنّ الإمبراطور رجع إلى إيطاليا، وإلى روما بالذات، ودعا إلى مجمع انعقد في مار بطرس، فاتّهم يوحنّا وشجبه، وهرب البابا، فانتخب بابا جديدًا هو لاون الثامن. وحين غادر الإمبراطور المدينة الخالدة، عاد إليها يوحنّا الثاني عشر فانتقم من خصومه شرّ انتقام، لكنّ لاون الثامن استطاع الهرب. ومات يوحنّا قبل أن يعود أوتّون إلى روما ليعاقبه.

١٣١ - لاون الثامن (٩٦٣-٩٦٥)

إنتخب الرومانيّون بندكتس الخامس، إلّا أنّ هذا عزله أوتّون حالًا ونفاه إلى هامبُورْغ. وأعيد لاون الثامن إلى الڤاتيكان، غير أنّه مات بعد وقت قصير.

١٣٢ - بندكتس الخامس (٩٦٤-٩٦٥)

كان رجلًا حكيمًا وكاهنًا بكلّ معنى الكلمة. وقد

لُقِّب «بالغراماطيقيّ» أو النحويّ بسبب ثقافته الواسعة. مات في المنفى.

١٣٣ - يوحنّا الثالث عشر (٩٦٥-٩٧٢)

هو ابن ثِيُودُورا الصغيرة. كان أسقفًا على نارني. إنتفضت عليه فئة منافسة في ٩٦٥ كانت تعتبر البابا آلة بيد الغرباء، لأنّه كان يتولّى السلطة بحماية الإمبراطور. فسجن يوحنّا لكنّه استطاع الهرب فالتجأ إلى بلاط أوتّون. وأعاده الإمبراطور بعد سنة إلى العرش وقام بانتقامات مريعة. بارك يوحنّا الثالث عشر زواج أوتّون وثِيُوفانا، أميرة بيزنطية. وكان الاتّفاق قد تمّ بين الغرب والشرق. وقدّم الإمبراطور هباتٍ مهمّة إلى الكنيسة فازدادت أوقاف بطرس زيادة ملحوظة. وتوفّي يوحنّا في أثناء انعقاد مجمع في إنغِلْهايْمْ غايته إعادة تنظيم الكنيسة الألمانيّة. وتوفّي البابا في ٦ أيلول/ سبتمبر ٩٧٢، وبعد سنة لحق به إلى العالم الآخر الإمبراطور. وأوتّون الثاني الذي كان البابا يوحنّا قد تَوَّجَه بصفته مشاركًا لوالده، كان له من العمر إذ ذاك ١٩ سنة.

١٣٤ - بندكتس السادس (٩٧٣-٩٧٤)

عندما تسلّم الحكم كِنْقِيُوسُ بن تيودورا الصغيرة، قامت أسرة كُرَسْشِنتِي على رأس الفئة المناهضة للإمبراطوريّة في رومة، فكانت النتائج وخيمةً على الكنيسة. فما إن توفّي أوتّون الأوّل حتّى قبض حزب كرسشنتيوس على البابا وسجنه في قلعة سانت-آنج حيث قُضِيَ عليه خنقًا بعد أيّام قليلة. فحاول بابا زائف، هو بونيفاقيوس فرنكو المتواطئ مع كرسشنتيوس، أن يخلف بندكتس السادس، إلّا أنّ

بندكتس السابع طرده. لكنّه عاد إلى الساحة في عهد يوحنّا الرابع عشر.

١٣٥ - بندكتس السابع (٩٧٤-٩٨٣)

دَعَمَ إصلاح كلوني ومنح أديرة فرنسا الكبيرة عددًا من الامتيازات. جاء أوتّون، وهو أيضًا من مؤيّدي حركة كلوني الإصلاحيّة، بصحبة زوجته وأمّه أدَلايِيد، أرملة أوتّون الأوّل، وهي امرأة راسخة في التقوى ومن أنصار الإصلاح، فرسّخ الإمبراطور في زمن قصير سلطانه في إيطاليا. وفيما كان بندكتس يستعدّ لحضور المجمع المنويّ عقده في لاتران، والذي كان سيتّخذ تدابير قاسية بحقّ السيمونيّة دهمه الموت فجأة.

١٣٦ - يوحنّا الرابع عشر (٩٨٣-٩٨٤)

بعد وقت قصير من انتخاب يوحنّا الرابع عشر، توفّي الإمبراطور في رومة، وهو الإمبراطور الألمانيّ الوحيد المدفون في باسيليكا القدّيس بطرس. وعندما غادرت الإمبراطورتان رومة، رجع من المنفى البابا المنافس بونيفاقيوس السابع، أو بونيفاقيوس فَرَنْكُو، الذي كان لجأ إلى القسطنطينيّة. فعمد حالًا إلى حبس يوحنّا الرابع عشر الذي مات جوعًا في قلعة سانْتْ-أَنْجْ. وبونيفاقيوس نفسه لم يدم طويلًا، فقد سُجِن وبعد وفاته سُحِلت جثّته في شوارع رومة.

١٣٧ - بونيفاقيوس السابع (٩٨٤-٩٨٥)

دامت حبريّة مغتصب البابويّة من يوحنّا الرابع عشر ما دون السنة. ولا يُعرَف مَن سمّمه ولا

الظروف التي انتُخِبَ فيها خَلَفُه. وعليه فهو يعتبر بابا منافسًا غير شرعيّ، لكنّ اسمه مثبَت في جَدول البابوات.

١٣٨ - يوحنّا الخامس عشر (٩٨٥-٩٩٦)

يُحتمل أن يكون كرِشْشِنْقيوس الثاني، ابن كرِشْنْتيوس، الذي كان يلقّب نفسه «شريف» رومة، قد أثّر في الانتخاب. لم يكن قد بقي للبابا إلّا السلطان الروحيّ، لكنّه عرف أن يحافظ على هيبته وأن يتدخّل ببراعة في الخلاف الناشب بين ملك إنكلترا ودوق نُورْمَنْدِيا. وأصاب نجاحًا في تدخّله أيضًا في الشؤون الداخليّة لكنيستَيْ فرنسا وألمانيا. وجاءَت الإمبراطورة الوصيّة على العرش، ثِيُوفانُو، إلى إيطاليا في ٩٨٩ فلم تتمكّن من إبعاد كرِسْشِنْقيوس الثاني، فهرب يوحنّا باتّجاه الشمال واستدعى الإمبراطور أوتّون الثالث لمساعدته؛ غير أنّه توفّي قبل أن يتمكّن من تتويجه.

وأوّل إعلان قداسة قانونيّ يطلقه البابا يعود إلى سنة ٩٨٣، فأطلق لقب قدّيس على أُولْرِيخْ الأُوغْسبورْغيّ.

وفي ٩٨٨، اعتنق المسيحيّة فْلادِيمير الأوّل قيصر روسيا.

١٣٩ - غريغوريوس الخامس (٩٩٦-٩٩٩)

هو أوّل بابا من أصل ألمانيّ في العصر الوسيط. هو حفيد أوتّون الثاني وكان له من العمر أربعة وعشرون عامًا حين توّج أوتّون الثالث الذي كان في السادسة عشرة من عمره.

عندما غادر الإمبراطور رومة، انتفض كرِسْشِنْقيوس الثاني (كانت الانتفاضات تتوافق دائمًا مع مغادرة الإمبراطور) وأقام بابا منافسًا، يوحنّا السادس عشر، وهو يونانيّ من كالابْرِيا، وكان يخطّط بمساعدته لإقامة علاقات ببيزنطية كي يتصدّى للإمبراطور الألمانيّ على ثقة من الانتصار عليه. وما كان أوتّون ليتغاضى عن إهانة كهذه. ففي شباط/ فبراير ٩٩٨، خلع يوحنّا السادس عشر الذي شُوِّه تشويهًا مريعًا، وأعدم كرِسْشِنْقيوس ومحازبيه. واستعاد غريغوريوس عرشه واستطاع أن ينصرف إلى الإصلاح. مات وهو في الثلاثين من عمره بالبُرَداء، أو لعلّه مات مسمومًا.

١٤٠ - سِلفِسْترُس الثاني (٩٩٩-١٠٠٣)

هو جِرْبير من أُوريلياك، أوّل بابا فرنسيّ وأحد أكبر حكماء عصره. كان قد درس في قُرطبة وفي إشبيلية (إسبانيا) على العرب علم الفلك، والعلوم الطبيعيّة، والفلسفة، والرياضيّات. صار أسقفًا على رافِينا. وكانت له علاقات ممتازة بأوتّون الثالث حتّى بلغ به الأمر أن يؤثّر فيه ويوحي إليه سياسته. وكان الإمبراطور، ذو الثقافة المرهَفة، قد استقرّ في رومة بعد أن بنى له قصرًا على جبل أَفَنْتِين. كان متعصّبًا للثقافة الكلاسّيكيّة ولمفهوم الإمبراطوريّة. وكان يحلم بإنشاء تحالف بين الشعوب تحت سلطة البابا والإمبراطور، وقد اتّخذ لنفسه لقب «إمبراطور الرومانيّين».

وكانت الرسالات في إسكَنْديناڤيا، وفي بلدان السلاف والهنغاريّين تحقّق نجاحات باهرة. فإسطفانس الهنغاريّ تُوِّج ملكًا كاثوليكيًّا. على أنّ

ثورة كان وراءها واحد من سلالة كرِشِنْقيوس أرغمت البابا والإمبراطور على مغادرة روما. وفي ١٠٠٢، توفّي أوتّون في مقرّه في پاتِرْنا على منحدر جبل سُوراقْت، هذا الجبل الذي غنّاه ڤِرجيليوس، بالقرب من روما. واستطاع سِلفستَرُس العودة إلى روما بمساعدة الإمبراطور الجديد.

ونشأت أسطورة خياليّة حول شخصيّته الغريبة. فإنّ عالمًا كان من شأنه أن يثير فضول العالم في زمن كان العلم، حين انشقّت حجب الظلام التي لفّت إيطاليا إبّان غزوات البربر، يختلط أمره بأمر السحر. ويقال إنّ شخصيّة سلفسترس كانت مثالًا لشخصيّة الدكتور فوست الذي كانت أسطورته مصدر إلهام لكلّ من مارلُوو وغُوتِه.

١٤١ - يوحنّا السابع عشر (١٠٠٣)

إنّ وفاة أوتّون الثالث المفاجئة كانت وبالًا على إيطاليا التي عادت إليها الفوضى فتحكّمت بها. كُرِّس هنري الثاني ملكًا على ألمانيا في مايانْس (١٠٠٢)، ثمّ ملكًا على إيطاليا (١٠٠٤)، في پاڤِيا، غير أنّ وجوده في شبه الجزيرة الإيطاليّة لم يمنع كرسشنقيوس الثالث من أن يحقّق انتخاب بابا مؤيّد «للشريف الرومانيّ» ولأعداء الإمبراطور.

١٤٢ - يوحنّا الثامن عشر (١٠٠٣-١٠٠٩)

ولى اهتمامه خاصّة بمسائل تعود إلى الكنيسة الألمانيّة.

١٤٣ - سرجيوس الرابع (١٠٠٩-١٠١٢)

هو أوّل بابا فكّر في تنظيم حملة صليبيّة على غير المؤمنين.

١٤٤ - بندكتُس الثامن (١٠١٢-١٠٢٤)

قامت عائلة إقطاعيّة، كانت تحكم تُوسْكُولُوم، (فْرَسْكاتي حاليًّا، بالقرب من روما) بانتفاضة على آل كرسشنقيوس وفرضت بندكتس الثامن بابا، على حساب مرشّح آل كرسشنقيوس، البابا المنافس غريغوريوس. وأيّد الإمبراطورُ بندكتسَ، وفي ١٠١٤ تُوِّج وكُرِّس في روما هو وزوجته الإمبراطورة كُونِيغُونْدا التي أعلنت قداستها في ما بعد. ولأوّل مرّة في الغرب، تسلّم الإمبراطور من البابا التاج فقط، بل الكرة الأرضيّة يعلوها الصليب رمز السلطان الشامل.

وحضر البابا والإمبراطور مجمع پاڤِيا (١٠٢٢) بعد محاربة المسلمين الذين كانوا قد تقدّموا حتّى پيزا، والبيزنطيّين الذين كانوا يهدّدون المناطق الجنوبيّة. واتّخذت تدابير شديدة في پاڤِيا بحقّ الكهنة الذين كانوا يمارسون السيمونيّة، وأولئك الذين لم يكونوا يحترمون نذر التبتّل.

إذا أخذنا بالاعتبار الإصلاحات التي شجّعها بندكتس في الخطّ الذي رسمته كلوني، يظهر هذا البابا وكأنّه سابق لغريغوريوس السابع وحركته الإصلاحيّة الكنسيّة الكبيرة. وفي عهد هذا البابا أُدْخل في نصّ القدّاس **قانون الإيمان** النيقاويّ الذي يعود إلى السنة ٣٨١، وكذلك صيغة انبثاق الروح القدس من الآب والابن.

١٤٥ - يوحنّا التاسع عشر (١٠٢٤-١٠٣٣)

هو أخو البابا السابق لكنّه عارض الإصلاحات. وقد ارتُكِبت تجاوزات خطيرة أيّام حبريّته. رفض أن

يعطي بطريرك القسطنطينيّة لقب المسكونيّ، ممّا أثار الانشقاق بين الكنيستَيْن. في ١٠٢٧ توّج في رومة الإمبراطور كونراد الثاني وزوجته جيزيل.

١٤٦ - بندكتس التاسع (١٠٣٣-١٠٤٥)

كان في الخامسة عشرة من عمره عندما رُقِّيَ إلى الحبريّة. وهو ابن أخي البابوين السابقين وقد صار آلة في يد الإمبراطور. ويذكّر هذا الواقع بزمان يوحنّا الثاني عشر المشؤوم. إنتفض ضدّه جماعة كرسشنقيوس في ١٠٤٤ وأرغموه على مغادرة رومة. فاشترى أحد الأساقفة، ويدعى جان، تاجًا وأقام في الفاتيكان باسم سِلْفِسْتُرُس الثالث. إلّا أن بندكتس استطاع العودة واسترجاع العرش البابويّ في ١٠٤٥. وسنة بعد ذلك، انعقد مجمع في رومة بدعوة من هنري الثالث وحطّه نهائيًّا عن العرش. وعمل بندكتس من ثمّ بضع سنوات بابا منافسًا من دون أن يصيب نجاحًا وتوفّي سنة ١٠٥٥.

في أيّام حبريّته استُحْدِث الشعار الحبريّ مثبتًا عليه مفتاحا القدّيس بطرس.

١٤٧ - غريغوريوس السادس (١٠٤٥-١٠٤٦)

كان اسمه يوحنّا غْراسِيانْ، من رومة. إتّضح أنّ آمال القدّيس بطرس داميانس، وآمال الكلونيّين بأن يصلح البابا الجديد شؤون الكنيسة كانت أحلامًا باطلة. فغريغوريوس لم يتجاوب مع هذه الآمال.

ودفع أودِيلون الكلونيّ والناسكُ غُونْتِر هنري الثالثَ فقصد رومة وعقد مجمعًا في سُوتْري حطّ عن الكرسيّ الرسوليّ بندكتس التاسع وسلفسترس الثالث. واضطرّ غريغوريوس السادس إلى التنحّي،

نُفِي إلى كولونيا حيث مات. وتعاقب على كرسيّ بطرس أربعة باباوات ألمان بعد غريغوريوس.

١٤٨ - إقليمنضس الثاني (١٠٤٦-١٠٤٧)

كان من قبل أسقفًا على بامْبِرْغ وكُونت مُورْشْلِبن. حقّق جزئيًّا آمال بطرس داميانس لأنّه حاول، بالاتّفاق مع الإمبراطور، أن يقضي على السيمونيّة. لكنّه مات وهو في أوج حملته لتطهير عادات الكنيسة، ودفن في بامبِرْغ. وعاد بندكتس التاسع فظهر في رومة يدعمه مركيز توسكانا القويّ، بونيفاقيوس، وبالرغم من ذلك لم يستطع البقاء على العرش البابويّ أكثر من بضعة أشهر لأنّ الإمبراطور كان قد عيّن بابا جديدًا قُبَيْل عيد الميلاد ١٠٤٧ بشخص أسقف بريكْسِن.

١٤٩ - داماسُس الثاني (١٠٤٨)

لم يشغل الكرسيّ إلّا ثلاثة وعشرين يومًا، إلّا أنّه ينعم باعتبار كبير.

١٥٠ - لاون التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤)

هو بْرُونُون، كونت إغِيشايْمْ - داغْسبُورغ، من أقرباء هنري الثالث. كان أسقفًا على تُوللي فعيّنه الإمبراطور بابا في فُورْمُس، حيث جاء مندوبو رومة ليصطحبوه. دخل رومة حافي القدمين بعد أن حظِيَ بثقة إجماعيّة من إكليرس المدينة الخالدة وسكّانها.

لقد كان أحد كبار الكنيسة، ومصلحًا ساعده مساعدة فاعلة مستشاران حكيمان: الراهب البندكتيّ هيلْدِبْرانْدْ الذي أصبح فيما بعد البابا غريغوريوس السابع، وبطرس داميانس اللذان كانا يجسّدان

المثالين الإصلاحيّين للحركة التي أطلقها كلوني.

عيّن البابا كرادلة جددًا ينتمون إلى جنسيّات مختلفة، فدوّل الجسم الكرديناليّ. ورسّخ بنية الكنيسة الداخليّة، وزاد من منزلة البابا في العالم عَقْدُ مجمع لاتران، ومجامع پاڤيا، وريمْس ومايانْس. فهذه المجامع تبنّت تدابير قاسية جدًّا بحقّ السيمونيّة، وبحقّ زواج الكهنة. ولم يسبق أن سافر بابا في السابق بمقدار ما قام به لاون التاسع من أسفار في أوروبّا، في زمن كان السفر مغامرة حقيقيّة محفوفة بالأخطار على أنواعها. طلبت مدينة بِينِڤِنْت، في شمال إيطاليا مساعدته لمجابهة النورمنديّين. في معركة «مدينة البحر» انهزم جيش بِينِڤِنْت الذي كان يقوده البابا أمام النورمنديّين، فأُسِرَ البابا وسجن في بِينِڤِنْت (١٠٥٨) حيث بقي بضعة أشهر. ودخلت التاريخ دولةٌ جديدة هي دولة النورمنديّين التي سيطرت طوال عدّة قرون على المسرح السياسيّ في محيط البحر المتوسّط.

وبعد قليل من استعادة البابا حرّيّته، توفّي في رومة ورُفِعَ على المذابح باعتباره قدّيسًا.

وفي ١٦ تمّوز/يوليو ١٠٥٤ تمّ الانشقاق الكامل بين كنيسة الغرب وكنيسة بيزنطية نتيجة الاضطهاد الذي أطلقه بطريرك القسطنطنيّة ميخائيل كيرولاريوس ضدّ الكاثوليك. فبإيعاز مباشر من البطريرك، اتّهم أسقف يونانيّ اللاتين بأنّهم هراطقة. فحرم مندوبو البابا كيرولاريوس في كنيسة القدّيسة صوفيا في ١٦ تمّوز/يوليو ١٠٥٤، وأطلق البطريرك بدوره الحرم على البابا. وفي ١٠٥٠ قدم حاجًّا إلى رومة ملك سُكُوتيا، مَكْبِث، الذي خلّده شكسبير في مسرحيّته الشهيرة.

وجدير بالاعتبار أنّ الكنيسة، بعد سنوات وسنوات من حال الانحطاط، صارت ثانيةً، في عهد لاون التاسع، قوّة روحيّة مستقلّة وبرّرت صفتها الجامعة.

١٥١ – ڤكتور الثاني (١٠٥٥-١٠٥٧)

عاد الرومانيّون إلى المطالبة ببابا إيطاليّ، فتدخّل هيلدبراند لدى الإمبراطور الذي تنازل عن ممارسة حقّه بتسمية الحبر الأعظم، لكنّه طلب بالمقابل أن ينصّب بابا ألمانيًّا. وهكذا ارتقى عرش بطرس غِبْهارد، كونت هِيرْشْبِرغ وأسقف فرنكُونيا، الذي قال للإمبراطور: «إنّي أخضع بالجسد والنفس للقدّيس بطرس، وأنحني أمامك شرط أن تردّ لبطرس ما هو لبطرس».

عقد عدّة مجامع بغية تحريك الإصلاح الكنسيّ ورافق الإمبراطور هنري الثالث لدى احتضاره. مات في أَرِيتْزُو أثناء أحد أسفاره. وغياب البابا والإمبراطور ترك العرش الألمانيّ تحت رحمة الإقطاعيّين الألمان الذين اعترضوا على السلطة الإمبراطوريّة، واستغلّوا فرصة الضعف الذي أصابها إبّان وصاية أغْنيس والدة هنري الرابع ليحتجّوا عليها.

١٥٢ – إسطفانس التاسع (١٠٥٧-١٠٥٨)

كان لرئيس دير مُونْتي كاسِّينو، الكردينال فردريك اللُّورينيّ، علاقة قرابة بعائلة تُوسْكانا التي حاربت الإمبراطور. إمتاز بمناقبه وفضائله الوافرة، وتابع عمل سَلَفه الإصلاحيّ، ففوّض إلى بطرس داميانس صلاحيّات كاملة، وسمّاه كردينالًا، وعيّنه أسقفًا على أوسْتِيا. في رسالة بعث بها الكردينال الجديد

إلى الأساقفة شجب قيامَ علمانيّ بتولية البابا واعتبر ذلك مصدر جميع التجاوزات. وقام بحملة قويّة ضدّ السيمونيّة والانحلال الخلقيّ لدى الإكليرُس. وكان البابا يشاطر داميانس رأيه. وكان الشعب يدعم الإصلاح فتمرّد على النبلاء المتحالفين مع الإكليرس الفاسد في شمال إيطاليا. فدخل «بائعو الخِرَق» أي الرعاع منازل الكهنة وطردوا منها السرّيّات. فاضطرّ البابا إلى التدخّل كي يضع حدًّا لهذه المبالغات. في هذه الأثناء، كان هِيلْدبْرانْد يجوب أوروبّا ليجتذب الإكليرس الفرنسيّ والإكليرس الألمانيّ لتأييد أفكار الإصلاح. وأطلق إسطفانس التاسع قبل موته هذه النبوّة التي تحقّقت: «أعرف أنّه سيقوم فيكم، بعد موتي، أناس مزهوّون يحاولون الاستيلاء على هذا الكرسيّ بمساعدة علمانيّين، وخلافًا للقرارات القديمة».

١٥٣ - بندكتس العاشر (١٠٥٨-١٠٥٩)

تحقّق ما تنبّأ به إسطفانس التاسع. فالإقطاعيّون كانوا يدعمون يوحنا مِنْشِيو، أسقف فِلّتري، الذي ينتمي إلى عائلة كونت تُوسْكولوم؛ ومصالح هذه العائلة ما كانت تتّفق مع مصالح الكنيسة؛ بل إنّ هذه العائلة كثيرًا ما صبغت بالدم وسربلت بالعار عرش بطرس. لكن هيلدبراند والقدّيس بطرس داميانس، بمساعدة الإكليرس الأمين، والبلاط الإمبراطوريّ ودوقَيْ اللورين وتوسكانا، وُفّقوا بإقناع الكرادلة المجتمعين في روما إلى خلع بندكتس في ١٠٥٩، الذي مات في ١٠٧٢ ودفن بجميع مراسم التكريم التي تحقّ لحبر أعظم. وهو لا يُعَدّ بابا شرعيًّا، إلّا أنّ قسمًا من أعماله تعتبر صحيحة.

لذلك فالبابا الذي اتّخذ اسم بندكتس فيما بعد حُسِب بندكتس الحادي عشر.

١٥٤ - نقولا الثاني (١٠٥٨-١٠٦١)

ما إن انتُخِب البابا الجديد، جيرار دي بُورْغُوني، أسقف فلورنسا، حتّى عقد مجمعًا ليحلّ بشكل نهائيّ مسألة انتخاب الحبر الأعظم. فبحسب الأصول التي حدّدها المجمع، يستطيع الإكليرس والشعب انتخاب الكرادلة فقط، وهؤلاء، بدورهم، يستطيعون تسمية البابا العتيد. ويكون للإمبراطور حقّ تثبيت الانتخاب إذا خوّله ذلك صراحة الكرسيّ الرسوليّ. ويجب أن يتمّ الانتخاب حتمًا في رومة. وأن يكون الحبر الأعظم من عداد الإكليرس الرومانيّ. أمّا إذا لم تسمح الظروف بذلك، فيمكن أن يتمّ الانتخاب في مدينة أخرى.

هذه التدابير كانت ملزمة وتحول دون تدخّل العائلات الأرستقراطيّة الرومانيّة، وتدخّل الإمبراطور في هذه المسألة، حفاظًا على استقلال السلطة الروحيّة استقلالًا تامًّا.

ومن الأعمال المهمّة التي حقّقها الحبر الجديد تحالفه مع النورمنديّين. فرُوبير غِيسْكار، زعيم البرابرة الشماليّين الجُدد الذين استقرّوا في جنوب إيطاليا، تلقّى من البابا نقولا الثاني لقب دوق، وأقسم للبابا يمين الولاء (معاهدة مِلْفِي، تمّوز ١٠٥٩).

أثارت هذه المعاهدة الإمبراطور فألغى قرار مجمع رومة، إلّا أنّ البابا شجب الإمبراطور وهو على فراش الموت، وثبّت القرار الرومانيّ. وكان قد ضمّن وصيّته تسمية هيلدبراند «كردينالًا رئيس

شمامسة كنيسة رومة»، ممّا يعني ممثّلًا وحيدًا مخوّلًا التفاوض باسم الكنيسة.

١٥٥ - إسكندر الثاني (١٠٦١-١٠٧٣)

لم يرتضِ آل كُرِسشنْڤيوس وكونتات تُوسْكُولُوم بهذه الهزيمة، فانتخبوا في بال، تدعمهم الإمبراطورة أغنيس، الوصيّة على العرش باسم ابنها هنري الرابع، بابا منافسًا يدعى كادالُوس، وكان سابقًا رئيس ديوان هنري الثالث. وكان الأمر أكثر ما كان صراعًا إلى جانب الإصلاح الكلونيّ أو ضدّه. فهِلْدِبْرانْدْ وحزبه يدعمهم النورمنديّون الكاثوليك الطيّبون على كونهم برابرة، كانوا يناضلون تأييدًا للإصلاح الذي من شأنه أن يضمن للكنيسة القوّة، والصفاء، والاستقلال. ومن جهة ثانية، كان الإمبراطور والإقطاعيّون الرومانيّون يحاولون منع تحقيق الإصلاح كي تتبع الكنيسة الضعيفة والفاسدة سياسة الإمبراطوريّة والأرستقراطيّة الرومانيّة. وهِلْدبراند، باستناده إلى جميع القوى التي كانت تتمنّى استقلال الكنيسة المطلق، استطاع أن يؤمّن انتخاب أنسِلمْ دا باجِيو حبرًا أعظم؛ وكان أنْسِلمْ، أسقف لوك، رجلًا تقيًّا وموهبة ديبلوماسيّة مميّزة، ومؤيّدًا للإصلاح. فاستعمل ببراعة تعاطف الشعب، أفي رومة كان أم في ميلانو، حيث كان «بائعو الخرق» ما زالوا يطالبون بالإصلاح، وبمساعدة النورمنديّين والتوسكانيّين الفعّالة، عسكريًّا وسياسيًّا، استطاع الصمود أمام الإمبراطوريّين. إضافة إلى ذلك، فإنّ ألمانيا سحبت مساعدتها لكادالوس عندما أقال أنّون، رئيس أساقفة كونيا، أغنيس وجعل نفسه وصيًّا على العرش. وفي ١٠٦٤، انعقد مجمع

إيطاليّ - ألمانيّ في مانتوا، فاعترف بإسكندر، وخلع البابا المنافس الذي عاد إلى أبرشيّته پارما.

وفرض إسكندر سلطته على ملوك أوروبّا جميعهم. فرض على هنري الرابع أن لا يقطع زواجه من بِرْتْ سافوا، وحرم المستشارين الكنسيّين للملك الصغير الذين أقاموا في ميلانو رئيس أساقفة عيّنه الإمبراطور. «فصراع التنصيب» كان يرتسم في أفق العلاقات بين البابا والإمبراطور.

١٥٦ - غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥)

هو ابن فلّاح. ولد في ١٠٢٠ في سُوانا جنوب توسكانا. ربّاه عمّه رئيس دير «القديسة مريم على الأڤانتان» للبندكتيّين (الكلُونيّين) الذي أسّسه القدّيس أُودُون. هناك عرف القانون الرهبانيّ وعايشه في أسمى بهائه وأنقى صفائه. سافر إلى فرنسا وألمانيا وتوقّف في كلوني وكان في ذروة ازدهاره. وكلوني كانت قد تأسّست في ماكون (Mâcon) في ١١ أيلول/سبتمبر ٩١٠ على يد غليوم التقيّ، كونت أوڤيرني ودوق أكيتانيا، وعلى يد الأباتي بِرْنُون. وكان خلفاء برنون، القدّيس أودون، والقدّيس مايُول، والقدّيس أودِيلُون ورهبانهم يؤمنون بفاعليّة الصلاة «الدائمة والجماعيّة»، فأنشأوا في فرنسا أديرة عديدة تتّبع القانون البندكتانيّ. واستوحى الكَمَلْدوليّون[٢٠] الذين أسّسهم القدّيس رُومُوالدُو والنسّاك، مثل بطرس داميانس، هذا القانون في حياتهم. مثالهم الأعلى الحرّيّة، والقوّة الوحيدة التي

(٢٠) الكَمَلْدوليّون لقب رهبان وراهبات أسّسهم القدّيس رومُوالدو في ١٠١٢ في كملدولي، قرب فلورنسا، وإليها انتسبوا.

ينشدّون إليها وهي سيّدة أمرهم هي الله، وممثّلها على الأرض خليفة بطرس. ومثال الحرّيّة هذا حمل الكلونيّين على الانفصال عن السلطة الزمنيّة والدفاع بشجاعة عظمى عن استقلالهم في وجه أيّ ممثّل للإمبراطور أو الملك. فالبراءة التي أنعم بها البابا يوحنّا الحادي عشر على أودون (في ٩٣١)، تعترف صراحة بأنّ «الدير بملحقاته كلّها، الحاليّة والمستقبليّة، غير خاضع لأيّة سلطة، أسلطة ملك كانت أم كونت... وأنّ للرهبان أن ينعموا دائمًا بانتخاب رئيسهم بحرّيّة». وهذا المثال لم يطبع إلى الأبد الرهبان وحسب، بل أيضًا الحضارة الغربيّة كلّها. وروح كلوني كان كلّيًّا جامعًا، فكلّ شيء يجب أن يُضحّى به في سبيل غايات فائقة الطبيعة، والكنيسة يجب أن تكون متحرّرة من كلّ سلطة زمنيّة. وراحت الأديرة الكلونيّة البسيطة ترتفع في القارّة كلّها تُشِعّ ثقافة وحضارة. وكانت كلوني منبع وحي للروح الاستقلاليّة في المدن والقرى الإيطاليّة، والبلجيكيّة، والألمانيّة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كما كانت منبع وحي لتأسيس الجامعات، ولظهور الأسلوب الفنّيّ الجديد في تلك الحقبة. وبفضل كلوني راح الغرب يدرك وحدته الروحيّة، وأنّ النبل لا يضفيه على الإنسان مَنْبِتُهُ وحده، بل القوّة الروحيّة، والعلم، والقداسة. وبدأت الكنيسة تتولّد بالشعب. فإذا عجز فلّاح أن يصير من الأشراف، يستطيع أن يصير من أركان الكنيسة. فغريغوريوس السابع، وهو ابن فلّاح وأحد رهبان كلوني، كان يمثّل تمثيلًا تامًّا النموذج الأكمل للحركة التي مكّنت أوروبّا من أن تحقّق ذاتها.

على أنّ أسوأ علّة كانت تفسد الكنيسة في القرن

الحادي عشر إنّما كانت السيمونيّة؛ بمعنى أنّ أيّ غنيّ كان باستطاعته أن يشتري وظيفة في المراتب الكنسيّة، من رئاسة دير إلى العرش البابويّ. وهذا ما كان يوفّر لأصحاب السلطة الزمنيّة إمكانيّة كسب مبالغَ طائلةٍ من الأموال بتَوْليتهم مناصب كنسيّة متجاوزين سلطانهم. إلّا أنّ غريغوريوس السابع كان يرى أنّ البابا من دون غيره يملك السلطة المباشرة (Potestas directa). فبحكم أنّ البابا يمثّل على الأرض السلطان الأسمى، فإنّ سلطة أمراء الشعب ليست سوى سلطة غير مباشرة تتناول النظام الطبيعيّ الذي سَنّه الله. والنفس أثمن من الجسد لأنّها تعود إلى الله، في حين أنّ الجسد يرجع إلى التراب. فواضح إذن، أنّ المسيحيّ يرى البابا متفوّقًا على الإمبراطور، لأنّه يمثّل النظام الروحيّ، في حين الحكّام يمثّلون بعض الصلاحيّات العابرة التي تشبه طبيعة الجسد الفانية.

واستنادًا إلى هذا التعليل طلب غريغوريوس إلى الأمراء خضوعًا حقيقيًّا، بل أراد أن يفرضه عليهم بالقوّة. وتحقيقًا لهذه الغاية، استخدم الوسائل الروحيّة مقرونة بسعيه إلى الحصول على تأييد الأمراء، معتبرًا هذا التدبير الوسيلة الوحيدة للسيطرة الفعّالة على سلاطين هذا العالم. وكانت نتائج هذا الموقف ذات أثر بعيد في تطوّر الكنيسة لاحقًا.

وكان من الطبيعيّ أن يعارض سياسة البابا غريغوريوس الإصلاحيّة هذه جميع الكهنة، والأساقفة، والرؤساء الكنسيّون الذين يدينون بوظائفهم إلى السيمونيّة، وإلى رعاية مباشرة من الإمبراطور أو من الإقطاعيّين. إلّا أنّ البابا استطاع، بفضل تأييد الكلونيّين، أن يفرض هذا الإصلاح في

إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، وألمانيا. فقامت أديرة
في كلّ ناحية تنشر مبادئ الإصلاح، وترسّخ هيبة
روما. واستوحى قانون كلوني فْلُومْبْرُوزا وفرّوتّواريا
في إيطاليا، وهيرْشاوْ في ألمانيا، وأسّس القدّيس
بْرُونُو الكولونيّ العام ١٠٨٤ رهبنة الكرتوسيّين
بالقرب من غرينوبل.

في مجمع عقد في روما من ٢٤ إلى ٢٨ شباط/
فبراير ١٠٧٥، حرَّم البابا أن يقوم العلمانيّون بتَوْلية
المناصب. فأيُّ إكليريكيّ يتسلّم من علمانيّ رئاسة
دير أو أبرشيّة يكون محرومًا. وأيُّ شخص،
إمبراطورًا كان، أو ملكًا، أو مركيزًا أو كونتًا يتجرّأ
أن يولّي منصب أبرشيّة أو أيّ مقام كنسيّ آخر،
يكون محرومًا أيضًا. ومن الطبيعيّ أن تكون نتائج
هذا القرار خطيرة. فالمعروف أنّ الإمبراطور ما كان
يعتبر نفسه كأيّ ملك آخر، بل كرئيس المجتمع
الدينيّ، وهو امتياز لم يكن ينعم به ملك فرنسا ولا
ملك إنكلترا. ففي ١٠٥٩، كان البابا نقولا الثاني
قد حرَّم على الإمبراطور التدخّل في انتخاب الحبر
الأعظم. وما كان طَبْعُ ملك ألمانيا الشابّ، هنري
الرابع، ليحتمل هذا التدخّل. فهنري هذا ذو الطبع
النزق والحاسم، والسّيّئ الخُلُق الفاسد، كان يحلم
بالتاج الإمبراطوريّ ويسعى إلى التفاوض مع البابا.
كما كان يطمح، في الوقت نفسه، إلى تفشيل
الإصلاح. فتجاهل تحريم البابا، وسمّى أساقفة على
ميلانو وعلى مدن غربيّة أخرى من دون أن يستشير
البابا في الأمر. فنرى غيبرت، أسقف راڤينا،
ينفصل علنًا عن البابا ويلتحق بالفريق الآخر الذي
يمكننا أن نسمّيه فريق السيمونيّين. وللقضاء على
غريغوريوس، اقتحمت زمرة من الأشقياء باسيليكا

القدّيسة مريم الكبرى ليلة الميلاد سنة ١٠٧٥ فيما
كان البابا يحتفل بالقدّاس، فشدّوه بشعره في الكنيسة
واقتادوه إلى البرج حيث احتبسوه. وكان أحد أفراد
العصابة مشهورًا بعلاقاته بهنري الرابع وبأسقف
رافينا. لكن، في اليوم التالي، حرّرت الجماهير
البابا الذي غَفَر لجلاّديه ورجع إلى الباسيليكا ليتمّ
قدّاسه. وبعد بضعة أيّام قصد رسل بابَوِيّون ألمانيا
ليطلبوا إلى الملك أن يذهب إلى روما ليبرّر موقفه،
وأنذروه بأنّه إذا لم يستجب لهذا الطلب فسيُحرم.
فدعا الملك إلى مجمع وطنيّ عقد في ڤورْمس في
٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦ شارك فيه السيمونيّون
والمحرومون من دون غيرهم، فأعلن أنّ
غريغوريوس ليس أهلاً لمنصبه وقرّر أن ينزع عنه
التاج البابويّ. وأرسل الملك من ڤورمس كتابًا إلى
البابا يعلن فيه بعبارات مهينة أنّ غريغوريوس
مغتَصِب. فما إنْ تسلّم البابا الرسالة، وكان يرئس
مجمعًا في مار يوحنّا لاتران، حتّى نهض فأعلن
حَرْم هنري، معفيًا رعاياه من الألمان والإيطاليّين من
واجب طاعته. وتمّ في ألمانيا حالًا تأليف حزب
معارض على رأسه رودولف، دوق سُوابِيا. ووافق
الأساقفة الذين دعاهم هنري للاجتماع في مايانْس
(حزيران/ يونيو ١٠٧٦) على إعلان الحرم باطلًا، إلّا
أنّهم رفضوا أن يعيّنوا خلفًا لغريغوريوس السابع.
واجتمع خصوم الملك بدورهم في مجلس في تْرِيبُور
في تشرين الأوّل/ أكتوبر من السنة نفسها، فطلبوا
إلى هنري التنازل عن أيّ حقّ في الإمبراطوريّة إذا
لم يرفع البابا الحرم عنه في مهلة سنة. وانعقد
مجلس في ٢ شباط/ فبراير في أوغسبورغ فطلب إلى
الملك أن يلتزم بالمثول أمام البابا ليبرّر سلوكه

ويُبطل اجتماع ڤورمس. فوافق الملك وهو ذليل. ولمّا رأى أنّ دعواه خاسرة، حاول أن ينال من البابا الغفران قبل أن يعقد المجلس المدعو اجتماعه. وفيما كان البابا غريغوريوس في طريقه إلى ألمانيا عرّج على قصر كانوسّا العائد إلى الكونتيسة ماتيلدُ، عمّة هنري، حيث حضر لديه فريقٌ من الأساقفة الألمان المحرومين يسألونه الغفران. وإنّما فعلوا ذلك متقدّمين الملك الذي قرع باب القصر في ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٠٧٧، وكان حافي القدمين، لابسًا مِسحًا كالتائبين. وظلّ ثلاثة أيّام يسأل الغفران باكيًا وهو ينتظر تحت الثلج. واستقبله البابا في اليوم الرابع وغفر له بعد أن وعد هنري بأن يَمْثُل أمام المجلس للردّ على الاتّهامات، وبألّا يمارس الحكم إلى أن يُبَتّ أمر دعواه.

لم يَفِ هنري بوعده بعد أن نال الغفران، ولم يذهب إلى أوغسبورغ، ولم يستطع المجلس أن ينعقد. فانتخب خصومه إمبراطورًا آخر هو رودولف السُوَابي في ١٥ آذار/مارس ١٠٧٧، وما لبثت الحرب أن اندلعت بين الفريقين، فحرم البابا هنري ثانية، فدعا هذا مجمعًا انعقد في بْرِسّنونا، في شمال إيطاليا، انتخب بابا منافسًا، غِيبِرت، رئيس أساقفة رافينا، الذي اتّخذ اسم إقليمنضس الثالث. وبعد شهرين، مات رودولف في معركة إِلْسْتِر، فتوجّه الغالب، هنري، إلى إيطاليا فتُوِّج ملكًا على اللومبرديّين في ميلانو واحتلّ رومة، فما صمد في وجهه إلّا قلعة سانت أنج حيث اعتصم غريغوريوس. كُرِّس غيبرت بابا وتوّجَ، هو، هنري إمبراطورًا. لكنّ النورمنديّين حلفاء البابا حرّروه، وهزموا الألمان، وانتقموا من السكّان المدنيّين

انتقامًا مريعًا لأنّهم خانوا البابا. ولم ينفكّ الأب الأقدس عن ممارسة إدارة شؤون الكنيسة من ملجأه في سانت أنج. وأقام علاقات ببيزنطية التي أعرب إمبراطورها عن رغبته في العودة إلى الكثلكة، وفكّر في تنظيم حملة صليبيّة ضدّ الكافرين الذين يهدّدون الأماكن المقدّسة، وتدخّل في إسبانيا، وفي هنغاريا، وبوهيميا، وروسيا، واستطاع أن يحفظ للكنيسة الجامعة هيبتها.

إستصحبه النورمنديّون إلى شمال إيطاليا في زحفهم على القسطنطينيّة التي كان غِيسْكار يسعى للاستيلاء عليها كي يُتَوَّج إمبراطورًا على الشرق فينقذ الكنيسة، لكنّ غريغوريوس السابع عاد إلى الجنوب لأنّ غيسكار مات في إحدى المعارك. ومات البابا في سالِيرْنو بعد أن لفظ هذه الكلمات المأثورة: «أحببتُ العدل وكرهت الإثم، لذلك أموت في المنفى». وقبل أن يسلم الروح غفَر لجميع الذين كان قد حرمهم إلّا هنري والبابا المنافس.

رفع البابا بولس الخامس غريغوريوس إلى مصافّ القدّيسين، لكنّ تكريمه الفعليّ لم ينتظم إلّا في القرن الثامن عشر، أيّام حبريّة بندكتُس الثالث عشر.

١٥٧ – ڤكتور الثالث (١٠٨٦-١٠٨٧)

كان البابا المنافس يشغل قصر لاتران إلّا أنّ عددًا قليلًا من الأساقفة الألمان كانوا يعترفون به رئيسًا للكنيسة. فبعد موت غريغوريوس وقع اختيار الكرادلة على دِزِيره، رئيس دير مونتي-كاسّينُو الذي عاد إلى ديره ولم يقبل استلام مسؤوليّته إلّا سنةً بعد انتخابه. واتّفقت الكونتيسّة ماتيلد والنورمنديّون

فطردوا إقليمنضس الدخيل، فاستطاع ﭬكتور أن يتولّى السلطة ويمارسها في الخطّ الذي رسمه غريغوريوس. فجدّد حِرْمَ هنري الرابع الذي غلَبَه مُزاحمُه هِرمان اللّوكسَمْبُورجيّ، فحثّه الأمراء على طلب الغفران من البابا، إلّا أنّه ردّ بإهانتهم.

نظّم البابا حملة على المسلمين، وحقّق الجيش البابويّ انتصارًا مهمًّا في شمال إفريقيا. ولمّا بلغ خبر الانتصار المسيحيّ رومة، كان البابا قد توفّي. أُعلن طوباويًّا في ١٨٨٧.

١٥٨ - أُرْبانُس الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩)

خَلَف الفرنسيّ أُودُونُ دي لاجُري ﭬكتورَ الثالث، فتابع النضال في وجه البابا المنافس إقليمنضس الذي كان قد عاد فاستولى على قصر لاتران يدعمه هنري الرابع وهو يحارب في إيطاليا. فأرغمته الكونتيسّة ماتيلد على مغادرة البلاد. بل إنّ ابنه نفسه، كونراد، أعلن مخاصمته إيّاه. واستطاع البابا أن يرجع إلى رومة، فتوصّل، بعد صراعات عدّة، إلى استعادة قصره وهزم إقليمنضس الذي عاش واستمرّ يدبّر الدسائس حتّى أوائل عهد البابا التالي.

إرتبط اسم أُرْبانس الثاني بالحملة الصليبيّة الأولى، إلّا أنّ نشاطه لم يقتصر على ذلك. لقد تدخّل أيضًا في إسبانيا حيث دَعَم ألفونس السادس في حروبه لاستعادة بلاده من حكم العرب. سقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ وأُعلن مطرانُها المتقدِّمَ في رؤساء الأساقفة في إسبانيا. كانت تلك أيّام السِّيْد المجيدة[٢١]. واستُرْجعت صقلّية من المغاربة وحلّ

(٢١) ألفونس السادس، ملك قشتالة وليون (١٠٣٠-١١٠٩). إشتهر =

الطقس اللاتينيّ محلّ الطقس الشرقيّ لدى سكّان الجزيرة اليونانيّين. وتدخّل البابا أيضًا في فرنسا حيث كان الملك فيليب قد طلّق زوجته ليعيش عيشة زوجيّة مع بِرْتْراد دانْجُو. حُرِمَ الملك لأنّه رفض أن يتخلّى عن سُرِّيّته، ولم يتصالح مع الكنيسة إلّا في حبريّة بِسكال الثاني. وفي إنكلترا، كرّس أُرْبانس أَنسِلْمُس رئيس أساقفة على كنتربري ووقف الثاني ضدّ غَلْيوم الثاني الذي كان يستولي على أموال الكنيسة بوجهٍ غير شرعيّ. على أنّ تدخّل القدّيس أنسلمس في الوقت المناسب حال دون حرم البابا الملكَ الإنكليزيّ. والنشاط المتعدّد الواسع هذا ما كان ليمنعه عن الاهتمام بالشؤون الروحيّة، فقد دَعَم الحركة الفكريّة في أيّامه. إنّ علمَ اللاهوت الكنسيّ بدأت طلائعه مع القدّيس أنسلمس بمحاولة التوفيق بين التعليم المسيحيّ ومبادئ الفلسفة اليونانيّة وبخاصّة فلسفة أرسطو. فهذه الحركة التي سبقها روّاد في القرون السالفة كوّنت أساس البناء العظيم الذي رَفَعه في القرن الثالث عشر القدّيس توما الأكوينيّ وألبرتُس الكبير. إثنان من الأديرة قاما بدور مهمّ في حياة الغرب الروحيّة، أُنشئا في عهد حبريّة أُرْبانس الثاني: دير فُونْتِفْرُو الذي أسّسه الطوباويّ روبير دارْبرِيسِّيل، ودير سيتُو الذي أنشأه القدّيس روبير دي مُوليشم (١٠٩٨)، مؤسّس

= بحروبه ضدّ المسلمين في إسبانيا لاستعادتها منهم. وحروب «الاستعادة» استمرّت من ٧١٨ حتّى ١٤٩٢ حين سقط آخر معقل للعرب: غرناطة.

السِّيد: هو لقب رُوذْرِيغو دِياث، شخص يجمع بين التاريخ والأسطورة (١٠٤٣-١٠٩٩). وضع نفسه في خدمة الملك ألفونس السادس. إشتهر بحروبه ضدّ العرب وبنوع خاصّ باستيلائه على بَلَنْسِيَة.

الرهبانيّة السيسترسيّة، والتي كان القدّيس برنردس مؤسّسها الثاني في القرن التالي.

مات البابا أُربانس الثاني بعد أسبوعين من دخول غُودُفرُوا دي بُويُّون القدس منتصرًا. دُفِن في رومة. طوِّب في ١٨٨١.

١٥٩ - پسكال الثاني (١٠٩٩-١١١٨)

هو رانِيِيرُو، كردينال بْلِيدا، بالقرب من فِيتِرْب. كان راهبًا تُوسكانيًّا. تابع سياسة سابقَيْه المناهضة للسلطة الإمبراطوريّة، كما تابع الحرب على بيع المراتب والوظائف. فما لبث أتباع الإمبراطور أن اختاروا بابا منافسًا بشخص تيودُورِيك الذي أسره مؤيّدو پسكال. فحلَّ محلّه بابا منافس آخر، ألبِر، لفترة قصيرة. وكانت المبارزة مستمرّة من دون هوادة مع هنري الرابع. فبعد أن خلع الإمبراطور ابنه كُونْراد، توّج ابنه الثاني ملكًا باسم هنري الخامس، وحاول أن يتصالح مع البابا عندما وعد الأساقفة بطاعة الكرسيّ المقدّسة طاعةً مطلقة، وذلك في مجمع لاتران (١١٠٢). على أنّ البابا لم ينجرَّ وراء الخدعة بالرغم موقف هنري الخامس الذي حصل على الغفران وأسقط عنه الحرم القديم. ففي ١١٠٥، انعقد مجلس في مايانْس وخلع هنري الرابع، فيما كان مؤيّدو الإمبراطور ينتخبون في رومة بابا منافسًا هو سِلْفِسْتِر الرابع. فتمَّ القبض عليه بأمر پسكال. وبُعَيْدَ ذلك مات هنري الرابع في لِياج (١١٠٦) على أثر معركة ضدّ ابنه. وأفصح هنري الخامس في الحال مشاعر الخصومة لرومة التي قصدها، وضغط على پسكال فوقَّع معاهدة سُوتْري (١١١١)، وفيها يتنازل عن حقّه بتولية المناصب

شرط أن يتنازل الأساقفة عن إقطاعاتهم. وبما أنّه لم يكن يرغب في احترام بنود المعاهدة، سأله پسكال عن استعداده ليأخذ على مأخذ الجدّ ما كان قد وقّعه. فكانت نتيجة هذا الاستفسار الجريء توقيف پسكال في الحال. فدبَّ الذعر في البابا فتنازل عن حقّه في تولية المناصب وتوّج هنري الخامس، في حين كان البابا المنافس ينسحب من الساحة.

وانعقد مجمع في لاتران (١١١٢) فحَرَمَ بالإجماع التنازلات التي حصل عليها الإمبراطور بالتهديد وصدَّق البابا إلغاءَها. فتوجّه جيش ألمانيّ ثانية إلى إيطاليا، فانسحب البابا إلى بَنيفِنْت ولم يرجع إلى رومة إلّا بعد أن غادر هنري الخامس إيطاليا.

في عهد حبريّة پسكال الثاني، أسّس القدّيس برنردُس دير كلِيرْفُو (Clairvaux) في ١١١٥.

١٦٠ - جيلاسيوس الثاني (١١١٨-١١١٩)

كان راهبًا سابقًا في دير مونتي كسّينو وكردينال كنيسة القدّيسة مريم في كوسْميدين. يصف غريغورُوفِيوس في مؤلّفه **تاريخ رومة** جان غايتاني بأنّه «من أكثر الشخصيّات تأثيرًا في تاريخ البابَاوات». تمّ انتخابه سرًّا للحؤول دون تدخّل هنري الخامس. إلّا أنّ ممثّل الإمبراطور، تشِنْشِيو فرانجيپاني، وهو من عائلة رومانيّة نافذة، خطف البابا وسجنه في برج لينزل به عذابات مرعبة. فانتفض الشعب واضطرّ فرانجيپاني إلى أن يحرّر البابا. وعاد الإمبراطور إلى إيطاليا، فهرب جيلاسيوس إلى غايِيتا وعُيِّن غريغوريوس الثامن بابا منافسًا. لكنّ جيلاسيوس عاد إلى رومة وهو يلبس ثوب حاجّ فقير، وحاول أن يحصل على تأييد

محازبيه السابقين، لكنّه استطاع الهرب بشقّ النفس من محاولة ثانية لخطفه في أثناء احتفاله بالقدّاس، وهي محاولة أعدّها جماعة فرانجيپاني. فهرب بسرعة، فوجدتْهُ جماعةٌ من النساء جالسًا في حقل متعبًا وحيدًا. ومضى إلى پيزا حيث كرّس الكاتدرائيّة الجديدة. ثمّ ذهب بصحبة كرادلته الأوفياء إلى فرنسا، ومات في كلُوني.

١٦١ - كالِسْتُس الثاني (١١١٩-١١٢٤)

هو غِي دي بُورْغُوني. إنتخب في كلُوني ثمّ كُرِّس في رومة. إلتقى البابا والإمبراطور في ألمانيا ووقّعا ما دعي لاحقًا «سلام الإمبراطوريّة»، الذي ما لبث أن خُرِق. ففي مجمع عقد في ريمس، حَرم كالِسْتُس الثاني هنري الخامس، ورجع إلى رومة حيث كان ما زال سائدًا غريغوريوس الثامن. فقبض عليه النورمنديّون وسجن كالسْتُس البابا المنافس هذا في دير كافا. ولم يتمّ وضع حدّ لحرب ما عُرِف بتَوْلِيَة المناصب إلّا باتّفاق ڤورمس الموقّع في ١١٢٢. أدرك الإمبراطور أنّ الشعب كان ضدّه، وكان الأمراء من ناحية ثانية يضغطون عليه كي يخضع للبابا. وسهّل كالِسْتُس المساعي بأن وجّه إلى الإمبراطور رسالة يقترح فيها عقد مجلس يشترك فيه الأساقفة والأمراء، وهو المجلس الذي انعقد في ڤورمس، وفيه تمّ التوقيع على الاتّفاق في ٢٣ أيلول/سبتمبر ١١٢٢. وبموجب هذا الاتّفاق يتنازل الإمبراطور عن الحقّ بتولية المناصب ويترك للكنيسة الحرّيّة المطلقة بتعيين الأساقفة ورؤساء الأديار. ومقابل ذلك يعترف للبابا للإمبراطور بالحقّ بحضور حفلات التعيين، ومنح التولية تاليًا بتسليم عصا

الرعاية. وكان هذا أوّل اتّفاق تعقده الكنيسة مع سلطة علمانيّة يضع حدًّا للنزاع الذي استمرّ خمسين سنة. لكنّ نزاعًا آخر كان معلّقًا: هو النزاع على السلطة العالميّة (Dominium mundi) التي ما كان الإمبراطور يستطيع التخلّي عنها، وكان الباباوات يمارسونها فعليًّا منذ أن طبّقها تطبيقًا حقيقيًّا البابا أُرْبانس إبّان الحملة الصليبيّة الأولى.

بُعَيْدَ ذلك، دعي إلى الانعقاد في لاتران المجمع المسكونيّ التاسع، في ١٨ آذار/مارس ١١٢٣. لم يعلن أيّة عقيدة جديدة، لكنّه ثبّت وصدّق كلّ ما حقّقته الكنيسة من خطوات تقدّميّة في القرنين الأخيرين. تُلِيَ اتّفاق ڤورمس وصُحِّحَ؛ نُشِر اثنان وعشرون قانونًا تحرّم السيمونيّة، وتسرّي الكهنة، وتدخّل العلمانيّين في الشؤون الكنسيّة، وتزوير النقد، والتعدّيات على الحجّاج، وخرق القَسَم بحمل السلاح لمحاربة الكافرين، إلخ..

وراحت الأخلاق والعادات الوسيطة المتأثّرة بالبرابرة تتبدّل، والكنيسة تؤدّي دورًا مهمًّا في هذا التطوّر. فپسكال الثاني، مثلًا، تدخّل لإلغاء الممارسة المعروفة بحُكم الله (Ordalie)، وفحواه إلزام المتّهم باجتياز نار موقَدة حافيًا، أو بإلقائه نفسَه، موثَق الرجلَيْن واليدين، في صهريج ماء متجمّد أو غالٍ. فإذا أراد الله، ينقذ المتّهم نفسه ويبرهن أنّه بريء. وهذه المبارزة القضائيّة التي كان البابا نقولا الثاني اعترض عليها، حاربها أيضًا الباباوات في هذه الحقبة. وتدخّلت الكنيسة تدخّلًا بارزًا، بتحريض من كلُوني، لحماية الشعب من عسف الإقطاعيّين. والفوائد من حماية أموال الكنيسة وصيانتها طالت شيئًا فشيئًا عامّة الناس، بل

إنّ مجمع بُورْج (١٠٣٨) أنشأ ميليشيا أبرشيّة مهمّتها فرض نفسها على الأشراف. وفي هذا المجال، فإنّ الإكليرس الفرنسيّ هو الذي أخذ المبادرة.

وسُجّلت خطوة أخرى في سبيل تبديل الأخلاق والعادات وطبعها بطابع مسيحيّ وهي اعتماد هدنة الله (Trêve de Dieu) التي فرضها مجمع إِلْنْ في الرُوسِيُّون (Elne en Roussillon) العام ١٠٢٧. والمبدأ يفرض أنّ لا أحد يستطيع أن يهاجم عدوًّا بين الساعة التاسعة من يوم السبت والساعة الأولى من يوم الإثنين احترامًا لراحة يوم الأحد. وقد امتدّ هذا التحريم لاحقًا ليشمل أيّامًا أخرى من الأسبوع. ونقولا الثاني أمر بأن يُحرم الذين لا يحترمون «هدنة الله».

وأحد أشهر أعمال الكنيسة في الحقبة التي اعتُمِد فيها اتّفاق ڤورمس هو إصلاح نظام الفروسيّة. فهذه المؤسّسة العسكريّة الطابع لا غير، المشبعة بالوحشيّة وبسوء عادات ذلك الزمان، تحوّلت، بتأثير الكنيسة وعملها التربويّ، نوعًا من الميليشيا المقدّسة، في خدمة الفقراء والحقّ، وقد كان آخر ممثّل لها رمزيّ دُون كيشوت[٢٢].

وعلى هذا الأساس من حماية الضعفاء والدفاع عن الحقّ، انتظمت مسيحيّة جديدة في القرون اللاحقة، استضاءَت بنور الأحبار الأعظمين في القرون الوسطى ومثالهم.

---

(٢٢) دون كيشوت، فارس من ابتكار الكاتب الإسبانيّ الكبير ميغال دي ثِرْبَنْتِس، خلّده في أثره الذي يحمل اسمه، **دون كيخُوت دي لا مانْشا**، عنوانًا، جَعل همّه في مغامراته نصرةَ المظلومين، ومساعدة الضعفاء، وتقويم كلّ اعوجاج. . .

١٦٢ - هُونُورِيُوس الثاني (١١٢٤-١١٣٠)

تزامن انحطاطُ الإمبراطوريّة، الذي بدأ مع موت هنري الخامس، مع ذروةِ الازدهار التي بلغتها الكنيسة. ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حاول الباباوات أن يقوموا بدور الحَكَم في أوروبّا، فدافعوا عن حقوق الأمم والبلدان بوجه مزاعم الإمبراطور ومطامحه في جمع السلطتين السياسيّة والبابويّة. وعند موت هنري الخامس وكالِسْتُس الثاني، احتدم الصراع على الخلافة عنيفًا. ففي إيطاليا، كان يسيطر على الوضع جماعات پِيِيرلِيُوني وفرنْجِيپاني الإقطاعيّة. وفي ألمانيا، لم يكن الأمراء يعرفون أيّ مرشّح يختارون.

انتُخب أحد الكرادلة واتّخذ اسم قِلسطينس الثاني، إلّا أنّه استقال في اليوم التالي أمام معارضة آل فرنجيپاني. فاختير مكانه لامْبيرتْ، أسقف أوستيا، وأصله من فانِيانو، وتوّج في ٢١ كانون الأوّل/ديسمبر ١١٢٤، واتّخذ له اسمًا: هونوريوس الثاني.

في الأزمة الألمانيّة، قرّر هونوريوس أن يؤيّد لوتهير الساكْسِيّ الذي وعد أن يحترم اتّفاق ڤورمس، فتمّ انتخابه. وتدخّل هونوريوس أيضًا في النزاع الذي نشب في إنكلترا بين الكنيسة والبلاط بشأن جاثليقيّة يورك. وفي فرنسا، استطاع هونوريوس أن يصالح الملك وأسقف باريس المختَلِفَي الرأي في احترام الإصلاح الكنسيّ. على أنّ المرجع الأخير في التوفيق بين السلطات في فرنسا كان القدّيس بِرْنَرْدُس رئيس دير كليرڤو، رسول الحملة الصليبيّة واللاهوتيّ الشهير الذي دافع عن حقوق الكنيسة. أمّا في صقلّية، فاضطرّ هونوريوس إلى الإذعان

لمطالب الكونت روجيه والاعتراف بحقوقه على بينيفِنْت.

وإذ استشعر قرب أجله وتحسّبًا لنزاعات جديدة تثيرها رغبة آل پيرليوني في الانتقام، عيّن البابا لجنة من ثمانية كرادلة وخوّلها سلطة مطلقة لانتخاب البابا الجديد.

١٦٣ - إنّوقِنْطيوس الثاني (١١٣٠-١١٤٣)

إختار الكرادلة غريغوريوس پاپارِسْكي، كردينال سانت-أنج. إلّا أنّ آل پيرليوني فرضوا البابا المنافس أناقْلِيت الثاني، فاضطرّ إنّوقنطيوس الثاني إلى الالتجاء في فرنسا حيث كلّف مجمعُ إيتامپ القدّيس بِرْنَرْدُس الدفاع عن الشرعيّة الحبريّة. فاعترفت بإنّوقنطيوس كنائسُ قشتالة وليون Leon (إسبانيا)، وفرنسا، وألمانيا، وإنكلترا. وفي ١١٣٣، رافق الألمان إنّوقنطيوس إلى رومة حيث تُوِّج لوتهير الثالث. وأثارت عودة الإمبراطور إلى ألمانيا، كما يحصل عادة في حالات كهذه، انتفاضة الفريق الخصم وانسحاب البابا إلى الشمال. وعقد البابا، يؤيّده القدّيس بِرْنَرْدُس، مجمعًا في پيزا فحرم البابا المنافس. واعترف دوق أكيتانيا أيضًا بالبابا بفضل مساعي القدّيس برنردس، فاستطاع البابا أن يرجع إلى رومة، إلّا أنّ الحزب المنشقّ، يدعمه روجيه الصقلّي، انتخب بابا منافسًا آخر، ڤكتور الرابع الذي تمكّن أن يثب في المقام شهرين (١١٣٨).

إختار الأمراء الألمان كونراد الثالث هُوهِنْشْتُوْفن، منافس هنري الباڤاريّ. وكانت ألمانيا منقسمة بين حزبين أثّرت صراعاتهما أيّما تأثير في تاريخ رومة

وإيطاليا كلّها. فكان يقابل حزبَ عائلة باڤاريا في ألمانيا (الڤِلْفِيُون) حزب الغويلفيّين في إيطاليا، وحزب آل هوهِنْشِتوفن (أصحاب قصر سواقيا المسمّى ڤايْبلِنْفِن) حزب الجِيبليّين. آلّف آل هوهِنْشتوفن والجيبليّون الحزب الإمبراطوريّ فقام بنشاط مناهض للبابا، أمّا الغُويلفِيّون، وتدعمهم عائلة باڤاريا فتحلّقوا حول البابا. وكانت العائلات الكبرى الإيطاليّة والرومانيّة تنتمي، عمومًا، إلى أحد الحزبين. فدانتي مثلًا كان جيبليًّا، أمّا عائلة فرنجيپاني فكانت غويلفيّة.

في ١١٣٩، عقد إنّوقِنطيوس مجمعًا مسكونيًّا في لاتران حرم انشقاق أناقليت، وثبّت القوانين ضدّ السيمونيّة وتلك التي تدعو إلى حفظ هدنة الله، وهي القوانين التي سنّها المجمع السابق، وحرم رُوجيه الصِّقلّي.

وكان للبابا خصم جديد في رومة، هو أرنُو دي بْريسِشِيا، خطيب مشهور، وصديق أبيلار، ورائد حركة جمهوريّة هدفها تحويل رومة إلى دولة حرّة، مستقلّة تمام الاستقلال عن سلطة البابا. وكانت جمهوريّة رومة القديمة النموذج الذي رسمه أرنو والمثال الذي تصوّره أتباعه. وكان لهذا الخطّ السياسيّ الخطر الذي افتتحه أرنو عواقب مأساويّة. فإنّ كولا دي رينْزو حرّك الرومانيّين في أواسط القرن الرابع عشر، وسْتِيڤانُو پُوركارُو أعلن استقلال رومة في القرن الخامس عشر، وقد فعلَ الأمر نفسه ماتْزيني في القرن التاسع عشر. وحركة البلديّات الحرّة كانت مؤاتية لأحلام كهذه، وآثار رومة تشهد على المجد الغابر. في ١١٤٣، اندلعت في رومة ثورة واتّخذ مجلس الشيوخ موقفًا ضدّ البابا.

١٦٤ - قِلِسْطينُس الثاني (١١٤٣-١١٤٤)

هو غي دي كَسْتِلُّو، انتخب في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١١٤٣. حاول أن يهدّئ النفوس الثائرة، فلم يُفْلِح. كان قلسطينُس من تلاميذ أبيلار القدامى، كما كان صديقًا لأرنو دي بْريسْشِيا. ولعلّه كان سوّى المشكلة لو لم يفاجئه الموت في ٨ آذار/ مارس ١١٤٤.

١٦٥ - لوقِيوس الثاني (١١٤٤-١١٤٥)

كان البابا الجديد، واسمه أصلًا جِيرارْدُو كاتْشِيانِمِيْنِتْشِي، رئيس ديوان البابا إنُّوقنطيوس الثاني، فاتّبع سياسته. تصالح مع روجيه الصقلّي الذي كان بحاجة إلى تولية البابا أباه، وسلّم آل فْرَنْجيپاني القلعة التي شيّدت على خرائب الكُولِيزه. فتحوّل آل فرنجيپاني من محازبين للإمبراطور سابقًا إلى غويلفيّين. واندلع ثانية الصراع مع مجلس الشيوخ. إنتخب الشيوخ شريفًا جوردانو پِيرليُوني، أخا البابا المنافس أناقليت، فوافق عامّة الشعب على القضيّة الجمهوريّة. فظهرت ثانية على الأبنية الرسميّة الأحرف القدسيّة الطابع التي تذكّر بأمجاد رومة: S.P.Q.R.[٢٣]، أي: مجلس الشيوخ الرومانيّ وشعب كِيرِينُو. فتوجّه البابا، مثله مثل مجلس الشيوخ، إلى كُونْراد، إلّا أنّ هذا لم يستطع المجيء إلى رومة. فانفجر الصراع في الشوارع. وفي أثناء هجوم لوقيوس على الكاپيتُول وهو يقود جيشه، جُرِح، وما لبث أن مات.

(٢٣) Senatus Populusque Quirinus Romanus.

١٦٦ - إفجِينِيُوس الثالث (١١٤٥-١١٥٣)

بِرْنَرْدُو پاغانِيللي، رئيس دير القدّيس أثناسيوس، كان تلميذ القدّيس برنردس. ما إن انتُخب باسم إفجِينِيوس الثالث حتّى وقف موقف الدفاع عن القضيّة البابويّة. إلّا أنّه لم يستطع تسلّم منصبه؛ فقد حال دون ذلك النبلاء ومجلس الشيوخ. فانسحب إلى ڤِيتِرْبْ في حين كان الشعب يضرم النار في القصور وينهب الكنائس.

ذهب البابا إلى فرنسا حيث كلّف القدّيس برنردس بأن يدعو إلى حملةٍ صليبيّة جديدة. وكان الحفل الجامع في ڤِيزيلي Vézelay (١١٤٦) نجاحًا كبيرًا لبرنردس؛ إلّا أنّ الحملة أخفقت، فرأى القدّيس في هذا الإخفاق علامة غضب إلهيّ على سلوك الصليبيّين المعيب، لأنّهم عجزوا عن تنظيم أنفسهم وعن نسيان حزازاتهم التافهة ليتّحدوا وينقذوا القبر المقدّس.

وهو هو القدّيس برنردس الذي دافع عن الكرسيّ المقدّس في حربه على هرطقة أبيلار، عشيق هِيلُويِيز المشهور والمدافع عن مذهب التصوّريّة في الجدل حول الكلّيّات[٢٤].

القدّيس برنردس أسّس دير كليرڤو ويُعتبر

(٢٤) يعتبر بعض مؤرّخي الفلسفة أنّ مسألة الكلّيّات هي القضيّة النموذجيّة التي أيقظت الفكر الفلسفيّ في أوروبّا بين القرنين العاشر والثاني عشر. وجوهر المسألة هو: هل التصوّرات الكلّيّة (الإنسانيّة، الحيوانيّة...) لها وجود حقيقيّ؟
بيار أبيلار (١٠٧٩-١١٤٢) اشتهر بروحه الجدليّة. جعل همّه أن يعالج دراسة أسرار الإيمان بالعقل الطبيعيّ و«الحجج الفلسفيّة»، تلبية لرغبة تلاميذه في دير القدّيس دِنيز الذين كانوا يقولون له «لا يمكن أن نؤمن بشيء ما لم نفهمه مسبقًا».

المؤسّس الثاني لرهبانيّة سيستو، وهو أهمّ شخصيّة كنسيّة في القرن الثاني عشر وينعم بشهرة واسعة ومكانة رفيعة مميّزة. وهو أحد ألمع المدافعين عن تكريم العذراء. مات في ٢٠ آب/أغسطس ١١٥٣، وكان البابا إفجينيوس قد سبقه إلى القبر. في ١١٥٢، كان كونراد الثالث قد توفّي، فخلفه على عرش هُوهِنشتوفن فردريك بَرْبَروس ذو اللحية الصهباء (Barberousse).

١٦٧ - أنسطاس الرابع (١١٥٣-١١٥٤)

لقد كان تدخّل فردريك بَرْبَرُوس في التاريخ مهمًّا أيّما أهمّيّة، حتّى بات اسمه أسطوريًّا. ففي عهده عرفت الإمبراطوريّة ذروة عظمتها وإشعاعها الثقافيّ وأبّهتها السياسيّة. فالإمبراطور كان يسعى للسيطرة على الدنيا، لكنّ طموحه لطّف من اندفاعه السلطةُ الروحيّة، والمقاومةُ العنيدة التي أبدتها المدن الإيطاليّة، فظهرت معها طلائع الديمقراطيّة الحديثة. وأوّل إجراء نفّذه فردريك لتحقيق مشاريعه في السيطرة العالميّة كان اكتساحه إيطاليا. أمّا البابا العجوز أنسطاس، فمات قبل أن يستطيع لقاء الإمبراطور.

١٦٨ - أدريانُس الرابع (١١٥٤-١١٥٩)

كان البابا الجديد إنكليزيًّا، وهو البابا الوحيد الذي قدّمته إنكلترا إلى الكنيسة، واسمه أصلًا نقولا برِكْسبير. مناضل مقدام، كريم النفس، مثقّف. أدرك حالًا الخطر الذي يمثّله للكرسيّ المقدّس أرنو دي برِشْشيا. رفضت مدن إيطاليّة كثيرة أن تفتح أبوابها للإمبراطور فعوقبت بقساوة. بعد صدام أوّل سببه أنّ

الإمبراطور رفض الخضوع لأصول المراسم المعهودة، التقى البابا والإمبراطور في سُوتْري، وتمّ التتويج في رومة في ١٨ حزيران/يونيو ١١٥٥. كان الشيوخ الرومانيّون قد جاءوا إلى لقائه لعلّهم يكسبون تأييده قضيّتهم، وليقدّموا إليه لقب إمبراطور الذي يخصّ مجلس الشيوخ برأيهم، إلّا أنّ جواب فردريك جاء قاطعًا. وممّا قاله: «ليست رومة بعدُ في رومة»، ممّا يعني أنّ رومة لم تعد قويّة، وأنّ شعوبًا أخرى ورثت فضائلها. فرومة، بنظر فردريك، كانت الإمبراطوريّة الألمانيّة: «إنّكم تعظّمون أمامي مجد مدينتكم، وحكمة شيوخكم ومجلسهم، وشجاعة شبابكم. أدرك ما تقولون، وأدركه جيّدًا، لكنّني أجيبكم مع أحد شعرائكم: لقد مضى».

إندلع التمرّد في رومة. قتل مئات من الجنود الألمان وسيطر الشعب على المقرّ البابويّ، المدينة الليونيّة. لقد انتصر فردريك لكنّه انسحب سريعًا إلى الشمال. سلّم بارون رومانيّ أرنُو دي برِشْشيا إلى الإمبراطور، فأُعْدِم في ١٨ حزيران/يونيو، يوم تتويج الإمبراطور.

على أنّ النزاع الحقيقيّ لم يلبث أن حصل بين السلطتَين. فالتعليم الجيبلينيّ الجديد الذي أعلنته جامعة بولونيا في تدريسها الحقّ الرومانيّ، يقرّ بأنّ إرادة الإمبراطور لها قوّة القانون (إرادتك حقّ: ما يروق للأمير له قوّة القانون: Tua voluntas jus est: quod principi placuit, legis habet vigorem). إنّها لعقيدة خطيرة وخاطئة اسْتُخْدِمت أساسًا لكلّ تجاوزات نظام الحكم المطلق. وسنّ مجلس رُونْكاليا (١١٥٨) قانونًا عُرِف بـ «قانون رونكاليا»، يسند جميع الحقوق إلى السلطة الإمبراطوريّة.

ويؤذي، بالتالي، الحبر الأعظم، والمدن الحرّة، والشعب. كانت المدن الإيطاليّة، بالرغم من ذلك، على وشك أن تحطّم النير. وما لبث أن حصلت أعجوبة انتصار الضعفاء والعادلين على القوّة والظلم.

مات أدْريانُس في أنيانْي بعد أن دافع بشجاعة عن الكرسيّ المقدّس وعن مسكونيّته في وجه الجميع، بحيث يمكننا أن نقارنه في هذا المجال بغريغوريوس السابع.

١٦٩ – إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١)

كانت حبريّة إسكندر الثالث (أُورْلانْدُو بانْدِينِلِلي) أكثر العهود البابويّة مأساويّة واضطرابًا في تاريخ الكنيسة. فما إن انتُخب حتّى أعلن الكردينال أُوتّاڤيانو نفسه بابا منافسًا متّخذًا اسم ڤكتور الرابع. فاضطرّ إسكندر إلى الانسحاب إلى تِرّاتشِينا، جنوب روما. أمّا الإمبراطور فشعر بالسعادة لأن يتاح له التدخّل مرّة جديدة في شؤون الكنيسة، فدعا إلى جمعيّة عُقدت في باڤيا أعلنت صحّة انتخاب البابا المنافس ڤكتور. فحرم إسكندر الإمبراطور، وكان لا مفرّ من الحرب. فدخل فردريك شمال إيطاليا ونهب عدّة مدن، فيما كان إسكندر يلتجئ إلى فرنسا، في سانس (Sens)، حيث أمضى أكثر من سنة. كانت البلدان المسيحيّة كلّها تقريبًا تعترف به حبرًا أعظم.

في أثر موت ڤكتور الرابع، نظّم مستشار الإمبراطور، رِينُو دي داسّيل، انتخاب بابا منافس جديد اتّخذ اسم پسكال الثالث. وألزم الإمبراطور أتباعه أن يقسموا يمين الأمانة للمغتصِب؛ ورغبة منه في نيل رضى الألمان، اقترح على البابا المنافس أن

يعلن شارلمان قدّيسًا. وفي الأوّل من آب/أغسطس ١١٦٧، دخل فردريك روما فتوّجه پسكال. ومنذ تلك اللحظة ساء حظّ الإمبراطور. فقد فتك الطاعون بجيشه، وأُنشئَتْ رابطة لومبرديّة في الشمال تحت قيادة البابا المباشرة (١١٦٨). وفي تلك الفترة أنشأ الحبر الأعظم مدينة الإسكندريّة التي أعطاها اسمه تحدّيًا للإمبراطور. وفي ٢٠ أيّار/مايو ١١٧٦، وهو واحد من أمجد الأيّام في تاريخ الغرب، هزمت الرابطة اللومبرديّة المؤلّفة من المدن الحرّة جيش فردريك شرّ هزيمة في لِينْيانُو (Legnano). وقد تغنّى جُوزِيبِّي ڤِرْدِي بهذه المأثرة العظيمة في عمله الأوپرالي «معركة لينيانو».

وتمّ أثر ذلك توقيع معاهدتين: الأولى في البندقيّة مع البابا (١١٧٧)، والثانية في كونْسْتَنْزا (١١٨٣) مع اللومبرديّين. أمّا معاهدة البندقيّة التي وُقِّعت بعد قرن من حادثة كانوسّا، فتعترف بإسكندر الثالث بابا شرعيًّا، وأعادت إلى الكنيسة الأراضي والمدن التي كانت ضُمّت إلى الإمبراطوريّة. وأمّا معاهدة كونْستنزا، فاعترفت للمدن الحرّة بالحقوق الملكيّة (Regalia) التي كان الإمبراطور قد استأثر بها بوحي من أساتذة بولونيا. وهكذا فإنّ انتصار الكرسيّ الرسوليّ كان كاملًا. رفضت إيطاليا أن تمنح فردريك الغار، فمضى يسعى إليه في الشرق حيث مات غرقًا في نهر سينيف (١٠ حزيران/يونيو ١١٩٠) إبّان الحملة الصليبيّة الثالثة. وتروي الأسطورة أنّ فردريك ما زال يعيش في مغارة، ولحيته الطويلة البيضاء تخترق طاولة المرمر التي يتّكئ عليها.

بعد الانتصار في لينيانو، عاد إسكندر إلى رومة،

ودعا إلى مجمع مسكونيّ (١١٧٩) صدّق على معاهدة السلام التي وقّعت في البندقيّة وعدّلت طريقة انتخاب الباباوات. فلا ينتخب بابا إلّا مَن حصل على ثلثي أصوات الكرادلة.

وفي حين كان الاضطراب يجتاح إيطاليا بسبب مظالم فردريك، كان نزاع آخر، في إنكلترا، يهدّد العلاقات بين الكنيسة والملك هنري الثاني بْلانْتاجِنيت الذي كان يحاول الاستيلاء على الأموال الكنسيّة، فيما كان يدافع عنها تُوماس بيكيت، أسقف كَنْتِربري. وبتحريض من الملك الفظّ، اقتحم أربعة من فرسانه باحة الكاتدرائيّة في ٢٩ كانون الأوّل/ ديسمبر ١١٧٠، وقتلوا توماس بيكيت بسيوفهم. ونزاع توماس والملك ومقتل جاثليق كنتربري القدّيس نقلهما إلى المسرح ت.س. إلْيُوت في قصيدته المأساويّة: **قَتْل في الكاتدرائيّة**، وهي إحدى روائع عصرنا، وفيها يطرح طرحًا كاملًا النزاع بين السلطة الروحيّة والسلطة الزمنيّة الذي زعزع حضارتنا في أوّل عهدها. وكذلك كتب جان أَنُوي **بيكيت أو شرف الله**، وهي مأساة تناولت موضوع الخصومة بين هذين الصديقين القديمين: الملك وتوماس. وإذ دبّ الذعر في الملك هنري من جرّاء مقتل رئيس الأساقفة، وكان صديقه في صباه، قام بأعمال توبة كي لا يحرم البابا القتلة، وكي يرسل مندوبين جددًا إلى إنكلترا لتجنّب الانشقاق. أمّا رئيس الأساقفة الشهيد، فأُعلن قدّيسًا في ١١٧٣.

وانعقد مجمع في لاتران سنة ١١٧٩ فاتّخذ تدابير بحقّ هرطقة جديدة انتشرت في جنوب فرنسا. ومحاكم التفتيش التي أنشئت فيما بعد، انطلقت من هذه التدابير. فالكتار (Cathares)، وهم ورثة

البُوغُومِيلِيّين (Bogomiles) القدماء، كانوا قد سيطروا على مدينة ألبي (Albi) في جنوب فرنسا وإليها نُسبوا، وكانوا يستوحون معتقداتهم من المانويّة. فمثلهم مثل الفرس القدماء، كانوا يعتقدون بوجود إلهين، أحدهما صالح والثاني شرّير، وهما في نزاع مستمرّ، وأنّ يسوع المسيح لم يكن إلّا ملاكًا أرسله إله الخير إلى الأرض. كانت أموالهم مشتركة ويناهضون المؤسّسة العائليّة والزواج، واتُّهموا بجرائم من كلّ نوع. كانت أناشيدهم وتراتيلهم جميلة جدًّا، وكانوا بارعين في استمالة النفوس البسيطة. فدعا مجمعُ لاتران الأمراء لمجابهة الهراطقة بالسلاح، وبالحرب التي عرفت أيضًا بأنّها «الحملة الصليبيّة على الألْبِجِيّين» (Albigeois)، وكانت حملة شديدة، دامية ما انتهت إلّا في ١٢٢٩ في عهد بلانش القشتاليّة (Blanche de Castille) الوصيّة على العرش والتي خلفت لويس الثامن على عرش فرنسا.

وانتهت حبريّة إسكندر الثالث بصورة محزنة، لأنّ البابا أُرْغم على مغادرة رومة، وإنّما أرغمه الحزب الشعبيّ الذي كان هو، قد دعمه ضدّ الإمبراطور. ومات في شِيڤيتا كاسْتِيلّانا، إلى الشمال من رومة، في ٣٠ آب/ أغسطس ١١٨١.

١٧٠ - لوقيوس الثالث (١١٨١-١١٨٥)

هو أُوبالْدُو أَلُوتْشِنْغُولِي، أسقف أوستيا سابقًا. هزّ حبريّته نزاع جديد مع فردريك موضوعه الإرث الذي تركته الكونتيسّة ماتيلدا التوسكانيّة. حين رأى لوقيوس الثالث الوضع في رومة لا يُطَمْأَنُ إليه، اضطرَّ إلى أن ينتقل إلى ڤِيرُونا، فأنشأ محكمة

التفتيش الأسقفيّة (١١٨٤) التي كانت تسلّم المخالفين إلى السلطة العلمانيّة وكانت هذه تحكم عليهم. على أنّ القرار الحبريّ، إضافة إلى الحكم على المتّهم، كان يفرض البحث والتفتيش عن وضعه (تفتيش Inquisitio) ويُعْهَد بهذا الأمر إلى الأساقفة. ونشأت لاحقًا أنواعٌ أخرى من التفتيش: تفتيش الموفَدين البابويّين (Légats) الذي نظّمه إنّوقنطيوس الثالث في ١١٩٨ وعُهِد به إلى الرهبان السيُتوِيّين[٢٥]؛ والتفتيش الرهبانيّ الذي أنشأه غريغوريوس التاسع في ١٢٣٣ وعهد به إلى رهبان مار عبد الأحد[٢٦]؛ والتفيش البابويّ، وأنشأه بولس الثالث في ١٥٤٢؛ والتفتيش الإسبانيّ واستُخدم وسيلةً لتحقيق الوحدة الوطنيّة ولتطبيق الملكيّة المطلقة أحيانًا الضروريّة في وقتٍ ما، حين كانت البلاد تتكوّن على الخرائب المؤسّساتيّة والأبنية التي تركها الإسلام والموسويّة. وهكذا استطاع التفتيش أن يضمن في البدء صفاءَ الإيمان وحسن سير المملكة الإسبانيّة الناشئة، غير أنّ التجاوزات التي حصلت لاحقًا حملت مخترعي الأسطورة السوداء على المبالغة فيها.

في عهد حبريّة لوقيوس الثالث تمّ عقد زواج هنري، ابن فردريك ذي اللحية الصهباء، وكونْستَنْزا، ابنة روجيه الصقلّي، وكان هذا الزواج الأساس الذي قامت عليه الإمبراطوريّة التي نشأت من توحيد ألمانيا ومملكة صقلّية.

(٢٥) رهبان سيتو Cisterciens.

(٢٦) الدومنيكان، أو رهبان مار عبد الأحد المعروفون بالإخوة الواعظين.

١٧١ - أُرْبانُس الثالث (١١٨٥-١١٨٧)

هو هُوبِير كْرِيفِلّلي، أسقف ميلانو سابقًا. لم يستطع أن يستقرّ في رومة في أيّة حال بسبب مقاومة عنيدة من الإمبراطور الذي اجتاح أراضي الكنيسة. وفي ٢ تشرين الأوّل ١١٨٧، احتلّ صلاح الدين القدس التي كان غُودْفرُوا دي بُويُون قد حرّرها في ١٠٩٩ إبّان الحملة الصليبيّة الأولى. وتوفّي البابا في فيرونا.

١٧٢ - غريغوريوس الثامن (١١٨٧)

حاول أن يعقد اتّفاقًا مع الإمبراطور وعزم على تنظيم حملة صليبيّة جديدة. لكنّ حبريّته لم تَدُمْ سوى شهرين. مات في پيزا بدون أن يملك في رومة أبدًا.

١٧٣ - إقليمنضس الثالث (١١٨٧-١١٩١)

هو پاولو سكُولارِي، كان كردينالًا على پالِسْترِينا، مدينة آل كولونّا الحصينة. جرى انتخابه في پيزا، وتمكّن أن يضع حدًّا لمنفى الباباوات، فاستقرّ في رومة حيث اضطرّ إلى الاعتراف بمجلس الشيوخ الذي كان قد أنشئ أربعين سنة قبل ذلك. أعيد تنظيم دولة الكنيسة. وكرّس البابا جهده لتنظيم الحملة الصليبيّة الثالثة التي هلك فيها غرقًا الإمبراطور فردريك في ١١٩٠. والبابا إقليمنضس هو الذي أدخل استعمال قرع الأجراس في رتبة القدّاس.

١٧٤ - قلسطينس الثالث (١١٩١-١١٩٨)

من عائلة أورْسِيني، وأوّل عمل مهمّ حقّقه في حبريّته كان تتويج ابن فردريك، هنري السادس.

ولمّا كان هنري زوج كونستنزا، فإنّه أصبح أيضًا ملك صقلّية في ١١٩٤. وفي عيد الميلاد من السّنة نفسها ولد ابنه وخليفته، فردريك.

كان هنري يحلم بالاستيلاء على إيطاليا وهدم «البابويّة الغريغوريّة»، ويعتبر نفسه «نائب الله»، ويحلم بمدّ سلطانه على العالم كلّه في إمبراطوريّة كونيّة. أمّا الفرنسيّون فكانوا يعتبرون هذه الأحلام «تهريجات متهوّرة» لا تهدّد وجود الكنيسة وحسب، بل حرّيّة الشعوب أيضًا. وكان هنري حادّ الطبع، متعصّبًا، على نقيض ما امتاز به البابا من لطف وحلم مثاليّين. وطبع الإمبراطور المقيت ظهر واضحًا حين أَسَرَ ملك إنكلترا، لاون قلب الأسد، بعد عودته من الحملة الصليبيّة الثالثة ليحصل على مبلغ ضخم ثمنًا لتحريره. ومنح البابا الإمبراطورَ بركته في الوقت الذي كان يعلن فيه للعالم نيّته بإعداد حملة صليبيّة جديدة. وكانت تستتر وراء هذا الشعور التّقويّ رغبة هنري السادس في توسيع إمبراطوريّته. ولحسن الحظّ، مات في مسّينا قبل أن يطلق الحملة.

١٧٥ - إنّوقنطيوس الثالث (١١٩٨-١٢١٦)

لُوتْهير، كُونت سِينْيِي، أصغر الكرادلة، اتّخذ اسم إنّوقنطيوس الثالث لدى انتخابه. كان له من العمر سبعة وثلاثون عامًا، ومع هذا هو أحد أهمّ باباوات هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة. كان قد درس في باريس وفي بولونيا. أدرك منذ اللحظة الأولى أنّ الوضع في العالم وفي إيطاليا قد تغيّر، وأنّ رسالة البابا لا ترتكز بعد على منافسة الإمبراطور، بل على العمل من أجل اتّحاد الدول

المسيحيّة تحت رعاية الكرسيّ المقدّس الروحيّة، وتوسيع هذا الاتّحاد ما أمكن بواسطة الحملات الصليبيّة. فقَبْل السيطرة على العالم، من الضروريّ السيطرة على روما وعلى إيطاليا حيث كانت عشرات من المدن الحرّة تتناحر فيما بينها، والفئات المختلفة حوّلت شبه الجزيرة إلى فسيفساء من الدويلات. وكانت إحدى المهمّات الرئيسة في هذا المجال تحرير إيطاليا من سيطرة الإمبراطور، وتمّ لإنّوقنطيوس ذلك فحقّق واحدًا من أبرز النجاحات في عهد حبريّته.

وكان الوضع في ألمانيا آنذاك مزعزعًا. فهناك مرشّحان يتنازعان السلطة: فيليب السُوابي، من سلالة هوهِنشتَوفن، الابن الأصغر لفردريك ذي اللحية الصهباء، وأوتّون دي بْرُونْشفيك، من عائلة القلفيّين (Welfes). عهدت كونستنزا، أرملة هنري الرابع، إلى البابا بالوصاية على ابنها في حال موتها، وهذا ما حصل بعد وقت قصير. وحاول الطامحان إلى العرش الحصول على تأييد البابا الذي مال إلى أوتّون، باعتبار أنّ فيليب كان محرومًا لدى انتخابه. مات فيليب في ١٢٠٨، فتوّج إنّوقنطيوس أوتّون إمبراطورًا. على أنّ العلاقات الطيّبة لم تدم طويلًا بين روما وأوتّون. فالإمبراطور دخل إيطاليا، واستولى على شمال وعلى وسط شبه الجزيرة، وحاول الاستيلاء على صقلّية، فحُرِم في ١٢١٠. ونجح إنّوقنطيوس في كسب مِنَن فيليب - أُوغِيست، ملك فرنسا، فنال من مساعدته المادّيّة ما خوّله التأثير في الانتخابات الألمانيّة لفرض اختيار فردريك، ابن كونستنزا وهنري السادس؛ وكان على رأس المعارضة أوتّون تدعمه إنكلترا. وفي معركة

بُوفِين، هزم الفرنسيّون التحالف الألمانيّ –
الإنكليزيّ، فدخلت الإمبراطوريّة مرحلة التفكّك لأنّ
فردريك كان قد استقرّ في صقلّية وأخذ يهتمّ
بالشؤون الإيطاليّة أكثر من اهتمامه بشؤون وطنه.
فخرج البابا ظافرًا، لأنّ المحسوب عليه، فردريك،
اعترف بشرعيّة ممتلكات البابا كلّها في إيطاليا
ووعد باحترام اتّفاق ڤورمس. وما كان ليخطر ببال
أحد أنّ فردريك سيصير، بعد موت إنّوقنطيوس،
أحد ألَدّ أعداء الكنيسة.

مارس إنّوقنطيوس في أوروبّا نفوذًا كبيرًا. تدخّل
في فرنسا حين طلّق فيليب – أوغيست امرأته ليتزوّج
أغنيس دي ميراني. وبهذا الموضوع، كتب البابا إلى
الملك يقول له: «إنّ العزّة الملكيّة لا تخوّلك
التعالي على واجباتك المسيحيّة». ودام النزاع أربع
عشرة سنة. فبعد موت أغنيس، خضع الملك وعاد
إلى الحظيرة.

وفي إنكلترا، تدخّل البابا فخلعَ يوحنّا «الخالي
من الأرض» (Jean Sans Terre)، مغتصب أملاك
الكنيسة، وأعطى فيليب – أُوغيست التاج، فردّه إلى
يوحنّا حين أقرّ هذا بأنّه تابع لملك فرنسا والتزم بأن
يدفع له جزية.

وتدخّل أيضًا في المجر، وفي الدانمرك، وفي
قشتالة وأراغون (إسبانيا). وعرف إنّوقنطيوس أن
يكون «الأسقف الكونيّ» الحقيقيّ. فقُصّاده كانوا
يجوبون أوروبّا باستمرار، يبلّغون القرارات الحبريّة
المليئة حكمة، وروحًا مسيحيًّا وسخاء نفس. وفي
عهد حبريّته أُسّسَت رهبنيّتان مهمّتان: رهبنة
الفرنسيسكان (١٢١٠) ورهبنة الدومنيكان (١٢١٥).
في الرسوم الجداريّة التي رسمها جِيُوتّو في باسيليكا

أسّيزيّ، وفي تلك الموجودة في كنيسة الصليب
المقدّس في فلورنسا، يمكن أن نرى البابا
إنّوقنطيوس يمنح القدّيس فرنسيس الإذن بالتبشير
ويسلّمه قانون الرهبنة. في أسّيزيّ وفي جدرانيّات
جيوتّو، يُرى البابا إنّوقنطيوس وهو في الحلم،
والقدّيس فرنسيس يظهر له حاملًا على ظهره باسيليكا
لاتران. وكثيرون من رسّامي تلك الحقبة، ومنهم
غيرلانداجُو الفلورنتيني، صوّروا لقاء البابا هذا
وأحد قدّيسي الكنيسة الأشهر في تحريك المشاعر.

وفيما كان الفرنسيسكان يتوجّهون بخطابهم إلى
جماهير الناس، أجاد الدومنيكان غزوَ الجامعات
بسرعة واكتساب مثقّفي تلك الحقبة.

كانت الهرطقة الألبيجيّة ما تزال منتشرة في
جنوب فرنسا. فأرسل البابا الدومنيكان ليردّوا
الهراطقة؛ لكنّ الرسالة لم تأتِ بنتيجة. وانكفأ البابا
عن موقفه المتسامح عندما اغتال الهراطقة قاصده
بيار دي كاسْتِيلْنُو. ودمّرت البلاد حملةٌ صليبيّة
استمرّت ثمانية عشر عامًا. ففرنسيّو الشمال، بقيادة
سيمون دي مُونْفُور عصوا أوامر البابا، ونهبوا منطقة
اللانْغِدُوق، وأفسحوا المجال فتغلّبت روح الفتح
والكسب الماديّ على روح الفتح الدينيّ، فغرقت
الهرطقة في الدم، وأُدْمِج اللانغدوق بمملكة فرنسا.

وتركت حملتان صليبيّتان أخريان أثرهما العميق
في حبريّة إنّوقنطيوس الثالث، فالأولى كانت نهايتها
مؤسفة. أُعلِنت في ١١٩٩ وكان هدفها الاستيلاء
على مصر، إلّا أنّ تسلّط البندقيّة ومطامع الأمراء
غيّرت وجهتها. فالجيوش المسيحيّة المعَدَّة لنشر
الإيمان بين الكافرين، ولتحرير الأماكن المقدّسة،
توجّهت إلى القسطنطينيّة فاحتلّتها في ١٢٠٤،

وأنشأت «إمبراطوريّة الشرق اللاتينيّة» المصطنعة التي دامت سبعًا وخمسين سنة. وكان من نتائج السياسة الحمقاء هذه التي لم يوافق عليها إنّوقنطيوس إطلاقًا، أنْ حصل الانفصال النهائيّ بين بيزنطية والغربيّين، هذا الانفصال الذي عزّز موقع الكافرين وسهّل سقوط بيزنطية بَعْدَ قرنين ونصف قرن من ذلك التاريخ.

أمّا الحملة الصليبيّة الثانية فكانت نتيجتها أوفر خيرًا من تلك للمسيحيّة. إنّها الحملة التي دعمها إنّوقنطيوس الثالث ضدّ المسلمين في إسبانيا وجاءت صورة مسبقة مثاليّة عن الوحدة الأوروبيّة الروحيّة والعسكريّة. فإلى جانب قوّات قشتالة، وأراغون ونافارّا الشجاعة حارب في معركة لاس نافَس دي تُولُوسا[27]، فرسان وعساكر من فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا. وقبيل هذه المعركة الحاسمة تاريخ الغرب فيما بعد، أمر البابا بالقيام بتطوافات وممارسة الأصوام في العالم المسيحيّ كلّه. وفي ١٦ تمّوز/يوليو ١٢١٢ هزم جيش المسيحيّين جيش المسلمين بالرغم من أنّ الأخير كان خمسة أضعاف الأوّل عددًا.

في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٢١٥، عقد البابا في لاتران مجمعًا مهمًّا اشترك فيه أربعمائة أسقف من الغرب والشرق، وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديار وعدد وافر من السفراء. شجب المجمع ضلالات يواكيم دي فيُوره، وهو راهب من جنوب

(٢٧) Navas de Tolosa، من مقاطعة جيّان في إسبانيا، مشهورة بانتصار الجيوش المسيحيّة على الموحّدين (١٢١٢)؛ وأهمّيّة هذا الانتصار أنّه أوقف الزحف الإسلاميّ وأتاح للمسيحيّين السيطرة على سهول الأندلس.

إيطاليا، كان يطلق نظريّات مشبوهة حول تأثير أشخاص الثالوث الأقدس الثلاثة في عصور التاريخ البشريّ الثلاثة (وهي نظريّات أيّدها جزئيًّا جيوڤاني پاپيني). وشجب المجمع كذلك الهرطقة الألبيجيّة. واعتُمدت أنظمة جديدة للمدارس المسيحيّة، وللمحاكم الكنسيّة، والأسرار، والعلاقات بين المسيحيّين والمغاربة. وحدّد المجمع أخيرًا التاريخ لإرسال حملة صليبيّة جديدة إلى الشرق لم يشهدها إنّوقنطيوس، إذ إنّه مات في ١٦ تمّوز/يوليو ١٢١٦ في پيروزا حين كان يجول في إيطاليا داعيًا المسيحيّين إلى حمل السلاح، وإلى وضع حدّ للنزاع بين پيروزا وجنوى. طُبعت مؤلّفاته في كولونيا العامَ ١٥٥٢، وكان قد أسّس في رومة مستشفى الروح القدس.

١٧٦ - هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧)

من عائلة ساڤيللي مربيًّا لفردريك الثاني. حاول أن يتّبع سياسة إنّوقنطيوس، إلّا أنّ طبعَه الميّال إلى حياة التأمّل، وسوءَ إرادة الإمبراطور حالا دون تحقيق المخطّطات التي تصوّرها إنّوقنطيوس في مجمع لاتران. كان فردريك شخصًا وافر المواهب، يحبّ الآداب والفنون، ديبلوماسيًّا أكثر منه محاربًا، إلّا أنّه كان يقف موقفًا عنيفًا عندما يكون الأمر دفاعًا عن مصالحه. بذل جهده ليثبّت سلطته في صقلّية وفي جنوب إيطاليا، واستولى على سپوليتو التي كانت تخصّ الكنيسة، وتزوّج ابنة ملك القدس فحصل على لقب ملك القدس وعلى التاج العائد إليه، ونجح في خداع البابا بتأجيله باستمرار الشروع في الحملة الصليبيّة الجديدة، وبحمله البابا

هونوريوس على تتويجه ملكًا في ١٢٢٠. وفي مطلع هذه السنة، توّج ابنه ملكًا على ألمانيا بالرغم من أنّه كان قد وعد بأن يكتفي بمملكة صقلّية. فظهر واضحًا هدفه بأن يبعث إمبراطوريّة الغرب ويستولي على إيطاليا. وكانت قد تشكّلت عصبة نورمنديّة ضدّه حين توفّي البابا.

خلّد جيوتّو لقاء هونوريوس الثالث بالقدّيس فرنسيس في إحدى جداريّات باسيليكا أسّيزي.

١٧٧ - غريغوريوس التاسع (١٢٢٧-١٢٤١)

من أقرباء إنّوقنطيوس الثالث، ينتمي إلى عائلة سِينْيي. كان صديقًا للقدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، وأوّل كردينال حامي الرهبنة الفرنسيسكانيّة. أعلن «الفقير الصغير» قدّيسًا سنتَين بعد وفاته، في ١٢٢٨. أرغم فردريك على الانطلاق بالحملة الصليبيّة، إلّا أنّ الإمبراطور رجع بعد أن بلغ البحر متظاهرًا بالمرض، فحرمه البابا. وفي رسالة عامّة نُشرت في ١٠ تشرين الأوّل/أوكتوبر ١٢٢٧، فضح أمام العالم خداع الإمبراطور. وبعد شهرين، ردّ الإمبراطور على هذه الرسالة بإهانته البابا وبتنظيمه انتفاضة في رومة بمساعدة آل فرنجيباني. فاضطرّ غريغوريوس إلى أن يلتجئ إلى رِيتي. وفي سنة ١٢٢٨ أبحر فردريك باتّجاه الأراضي المقدّسة، إلّا أنّ مقاصده لم تكن مقاصد صليبيّ. ففي الطريق، استولى على جزيرة قبرص، ثمّ على جزء من فلسطين، ونجح في الحصول من السلطان على لقب ملك القدس، فتولّى العرش في ١٧ آذار/مارس ١٢٢٩. وعاد إلى صقلّية فهزم جيوش البابا التي كانت قد اجتاحتها. عقد مع البابا معاهدة سان جرمان (١٢٣٠)، وبموجبها يردّ

للكنيسة جميع أموالها، ويرفع البابا الحرمَ عنه. إلّا أنّ فردريك لم يكن ينوي بحالٍ احترام تعهّده. فنظّم شؤون صقلّية بروح سلطان مطلق من دون أن يرعى لحقوق الكنيسة عهدًا، ثمّ ارتدّ إلى الشمال، فجمع مجلسًا في رافِنا، وألغى حرّيّات المدن. فاستنجدت المدن اللُمبرديّة بالبابا الذي احتجّ على التدابير التي اتّخذها فردريك. فاندلعت الحرب، فهُزم اللمبرديّون في كورتينوفا، إلّا أنّ الجيوش الإمبراطوريّة فشلت في هجومها على ميلانو وبرِشْشيا (١٢٣٧). حاول البابا القيام بمفاوضات، إلّا أنّ فردريك ردّ على تلك المحاولة باكتساح سردينيا التي كانت تخصّ الكنيسة، وتوّج ابنه الطبيعيّ، إنزو، ملكًا على هذه الجزيرة. وفي ٢٠ آذار/مارس ١٢٣٩، حرم البابا الإمبراطورَ ثانية، ودعا إلى مجمع في رومة لم يستطع أن ينعقد لأنّ فردريك استولى على السفينة التي كان على متنها مئة من الأساقفة والقصّاد الحبريّين (أيّار/مايو ١٢٤١). وبعد أسابيع، وصل فردريك إلى رومة. أمّا البابا الذي كان يناهز المئة فمات خائبًا أملُه.

وفي عهد حبريّة غريغوريوس التاسع جرت معركة لِيغْنِيتْز (١٢٤١) التي طردت المغول من أوروبّا إلى الأبد. وعندما كان الصراع ضدّ فردريك يتيح لغريغوريوس أن يتنفّس، كان البابا يكرّس وقته لإجراء الإصلاح في القانون الكنسيّ. ولهذه الغاية، عهد إلى القدّيس ريموندو دي پينيافورْت[٢٨]، مؤسّس رهبنة النعمة التي كانت غايتها افتداء الأسرى

(٢٨) ريموندو دي پينيافورْت، قدّيس (١١٨٠-١٢٧٥)، في الأصل راهب دومنيكانيّ. أحد مؤسّسي رهبنة سيّدة النعمة (١٢١٨). أعلن قدّيسًا في ١٦٠١. وهو في إسبانيا شفيع رجال القانون.

المسيحيّين الذين وقعوا في أيدي الكفّار؛ عهد إليه أن يصوغ «مراسيم» جديدة. وفي براءته «باري العلوم»[29]، وضع غريغوريوس الأسس لجامعة باريس محدِّدًا بدقّة علاقات الجامعة المستقلّة بحكومة الملك. واهتمّ أيّما اهتمام أيضًا بإصلاح محاكم التفتيش ورعى بحمايته الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، في حين كان أمرُ الإمبراطور أن يُحرق أحياءً الرهبان المنتمون إلى هاتين الرهبنتين. واللافت أنّ القدّيس لويس ملك فرنسا كان يعهد في ذلك الوقت إلى هؤلاء الرهبان بأن يُراقبوا حسن سير المؤسّسات الإداريّة في المملكة وفقًا لمبادئ العدل والحقّ.

١٧٨ - قلسطينس الرابع (١٢٤١)

حين اجتمع الكرادلة، إثر موت غريغوريوس، لينتخبوا بابا جديدًا، حَجَر عليهم أحد آل أورسيني في مكان محاطٍ بأسوار، ومن جرّاء أعمال العنف التي أُخضعوا لها، قضى العديد منهم وأصيب آخرون بأمراض. فكان هذا أوّل مجمع مقفل في تاريخ الكنيسة[30]. كانت قوّات فردريك مخيّمة أمام المدينة الخالدة. وبعد شهرين من التداول

(٢٩) *Parens Scientiarum*.

(٣٠) يعقد الكرادلة نوعين من الاجتماعات: الأوّل ويسمّى Consistoire، يقومون فيه بدور مساعدين للبابا ويجتمعون بطلب منه (قانون ٣٥٣ بنوع خاصّ من الحقّ القانونيّ)؛ والثاني وهو مخصّص لانتخاب البابا، ويسمّى Conclave (بمعنى أصل الكلمة = بالمفتاح)؛ وله ترتيبات خاصّة جرى تعديلها مرارًا تأمينًا لحرّيّة الانتخاب بتجنّب أيّ تأثير خارجيّ مهما كان نوعه ومن أيّ جهة جاء.

والمذاكرات، انتُخِبَ بابا العجوز جوفرْوَا كاسْتِيلْيُوني، إلّا أنّه مات بعد سبعة عشر يومًا بعد أن حرم ماتياس أورسيني بسبب تصرّفاته العنيفة واحتقاره الكرادلة.

١٧٩ - إنّوقنطيوس الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)

سِنِيبالْدو فِيِسْكي، كان أستاذًا سابقًا للحقّ القانونيّ[31] في جامعة بولونيا (إيطاليا)، وظلّ طوال حبريّته أمينًا للأفكار التي كتبها من قبل وهي: «إنّ البابوات، بما هم خلفاء ليسوع المسيح، الملك الحقيقيّ والكاهن الحقيقيّ بحسب رتبة ملكيصادق، تلقّوا الملكيّة السياسيّة والملكيّة الحبريّة في الوقت نفسه، أي السلطان الأرضيّ والسلطان السماويّ». هذه العبارة تلخّص العقيدة التي جابه بها الكرسيّ الرسوليّ الإمبراطوريّة، في صراع يائس دام إحدى عشرة سنة هي سنوات حبريّة إنّوقنطيوس الرابع، مكمّل سياسة إنّوقنطيوس الثالث الأمين، لأنّ البابا كان يعتبر نفسه صاحب السلطان الأسمى، الروحيّ والسياسيّ الأرضيّ معًا.

على إثر موت البابا قلسطينس، ظلّ الكرسيّ الرسوليّ شاغرًا سنتين، لأنّ الكرادلة الذين هالهم المجمع المقفل الإلزاميّ كانوا قد غادروا رومة. لذلك، فإنّ أوّل تدبير اتّخذه إنّوقنطيوس إبرامه سلامًا مع فردريك في ١٢٤٤. وكان القدّيس لويس، ملك فرنسا، قد حثّ البابا على اعتماد هذا الحلّ السلميّ

(٣١) الحقّ القانونيّ مُصطَلَح للتعبير عن القانون الكنسيّ أو دراسة القوانين الكنسيّة.

الذي ظهر عديم الجدوى. وعندما دعا فردريك البابا
إلى نارْني للقائه والاتّفاق على جميع المسائل
العالقة، رفض إنّوقنطيوس الدعوة وهرب إلى فرنسا
حيث دعا إلى عقد مجمع في ليون. ولمّا كان
فردريك يرفض المشاركة في حملة صليبيّة جديدة،
فقد حرمه البابا. فتوجّه الإمبراطور الداهية إلى
لويس التاسع، القدّيس، فسأله أن يتدخّل حَكَمًا بين
رومة وپاليرْمُو. فقبل لويس الدعوة، إلّا أنّ فردريك
لم يَفِ بوعدٍ من وعوده وظلّ يضطهد رجال الكنيسة
المخلصين للبابا، وبلغ به الأمر أن فرض عليهم
ضريبة ليجمع أموالًا ضخمة بهدف إعداد حرب على
البابا. أمّا الحبر الأعظم فأطلق مشروع حملة صليبيّة
ضدّ الإمبراطور، لكنّه فشل، كما فشل مشروع حملة
صليبيّة في الشرق. وقد شجّع موقف البابا الحازم
المدنَ الإيطاليّة فأعلنت الحرب على الإمبراطور.
وجاءت الحرب في البدء لصالح الإمبراطور
ومؤيّديه، إلّا أنّ جيش بولونيا هزم في النهاية جيش
فردريك الذي كان يقوده ابنه الطبيعيّ، إنْزُو الذي
وقع أسيرًا (٢٦ أيّار/مايو ١٢٤٩). وفي ١٣ كانون
الأوّل/ديسمبر ١٢٥٠، مات فردريك نتيجة إصابته
بالزُّحار؛ وبعد أن قبل الحلّ من أسقف پاليرْمُو،
دُفن في كاتدرائيّة عاصمة صقلّية.

خَلَفَ فردريك على عرش ألمانيا ابنُه كونْراد
الرابع، في حين كان إنّوقنطيوس يقدّم إلى ابن
الإمبراطور مانْفريد، وهو ابن سِفاح، تاج صقلّية،
فقبله وأظهر أنّه جدير بخلافة أبيه.

أمّا في ألمانيا فقد دعم البابا غليوم الهولنديّ
وأعلن حملة ضدّ كونراد الذي توفّي في ١٢٥٤،
ومعه انقرضت سلالة هُوهِنْشْتَوفِن. وعقبَ ذلك فترةٌ

من الفوضى في ألمانيا استمرّت عدّة سنوات سمّيت
«المرحلة الانتقاليّة الكبرى»، وانتهت في ١٢٧٣ بعد
انتخاب رودولف دي هابْسْبورغ.

على إثْر موت فردريك عاد إنّوقنطيوس إلى رومة
وهو يطلق الحرم تلو الحرم في كلّ اتّجاه، ويخوّل
السلطة المدنيّة استخدام التعذيب في محاكمة
الهراطقة. لم يصب إنّوقنطيوس منزلة رفيعة كبابا،
فقد انشغل بالسلطان الزمنيّ أكثر من اهتمامه بالسلطة
الروحيّة. غادر رومة باتّجاه صقلّية وغايته محاربة
مانْفريد والاستيلاء على الجزيرة، إلّا أنّه لفظ أنفاسه
في نابولي في ٧ كانون الأوّل/ديسمبر ١٢٥٤، بضعة
أشهر فقط بعد وفاة كونراد هوهِنْشتوفن.

١٨٠ - إسكندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١)

كان الباباوات قد قهروا الإمبراطوريّة فآلت إلى
خراب. وبلغت سطوة الأحبار الأعظمين أوجها
فظهروا سلاطين زمنيّين وروحيّين. على أنّ أحدًا ما
كان ليتوقّع في ١٢٥٤ الخاتمة المأسويّة التي حصلت
في ١٢٩٤ وابتداء حقبة المنفى في أڤينيون.

كان ينتسب إسكندر الرابع إلى عائلة سينْيِي ومن
أقرباء غريغوريوس التاسع وإنّوقنطيوس الثالث. تابع
سياسة سلفه وحاول أن يلطّفها ما استطاع إلى ذلك
سبيلًا. في صقلّية، استمرّ الصراع إلى أن أُرغم
مانفريد على الانسحاب من الجزيرة أمام شارل
دانجو الذي توّجه أُرْبانُس الرابع.

في ١٢٦٠، عيّن البابا إسكندر القدّيس ألبرتُس
الكبير، الملفان العالميّ (Doctor universalis) أسقفًا
على راتيسبون. وفي السنة نفسها استمرّت، ربّما في
پيروزا، أوّل حركة الحجّاج «المتسوّطين»، وهي

واحدة من أبرز الظواهر في العصر الوسيط. وهم أناس كانوا يقطعون مئات الأميال متّجهين إلى روما، وهم يجلدون أجسادهم بالسياط طوال الطريق دليلًا على ممارستهم التوبة.

١٨١ - أُرْبانس الرابع (١٢٦١-١٢٦٤)

جاك پانْتاليون كان اسمه. وهو ابن إسكافيّ وضيع من تروا (Troyes)، في فرنسا. كان بطريركًا على القدس عندما انتُخب بابا في ڤِيتِرْب حيث انعقد مجمع الكرادلة. أخطأ حين قدّم تاج صقلّية إلى شارل دانْجو، أخي القدّيس لويس، وألزمه أن يعترف بأنّه تابع للكرسيّ - المقدّس، وبأن لا يتدخّل أبدًا في شمال إيطاليا. ووعد شارل بأن يفي بالالتزام، إلّا أنّه تدخّل في لومبرديا كما تدخّل في روما نفسها، حيث حصل على لقب شيخ (في مجلس الشيوخ) ليضمن لنفسه وضعًا قويًّا ضدّ البابا.

أُرْبانس الرابع هو الذي أنشأ، في ١٢٦٤، عيد القربان المقدّس. وكان القدّيس توما الأكوينيّ مستشارًا له.

١٨٢ - إقليمنضس الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨)

غِي لِه غْرُو (Guy Le Gros) فرنسيّ الأصل أيضًا. كان مستشار القدّيس لويس ومحاميه. قامت سياسته على تعطيل الأفعال الخطيرة التي كان يحرّكها شارل دانجو الذي كان قد بدأ مسيرته السياسيّة تابعًا للكنيسة، فصار فيما بعد عدوًّا لها.

أثار الاستبداد الفرنسيّ سخط الصقلّيّين فاستنجدوا كونرادان، آخر عضو حيّ من عائلة هوهنشتوفن، إلّا أنّ شارل هزمه وأمر بإعدامه، فنفّذ

الأمر في پاليرْمو (١٢٦٨) بخلاف إرادة البابا. وبُعَيْد ذلك، قتل شارل زوجة كونْرادان وأولاده. فكانت خاتمتهم المأسويّة هذه أحد أكثر الأحداث دَمَويّة ووحشيّة في هذه الحقبة. ورغبةً من البابا في توجيه شهوات شارل إلى أهدافٍ أخرى، اقترح عليه استرجاع بيزنطية وإعادة الإمبراطوريّة اللاتينيّة في الشرق التي زالت حديثًا، والتي كانت قد انهارت صاغرة في ١٢٦١. إلّا أنّ الإمبراطور البيزنطيّ ميخائيل الثامن پاليولوغس (Paléologue)، استطاع اجتناب هذا الخطر.

بعد بضعة أسابيع على انتخاب البابا إقليمنضس الرابع، ولد دانتي ألْغِييري في فلورنسا. وفي حين كانت مأساة كونرادان تجري أحداثها في نابولي، كان القدّيس توما الأكوينيّ يكتب في ڤِيتِرب مقالته **في السلطة**. وأثناء الفترة التي شغر فيها الكرسيّ المقدّس إثر موت إقليمنضس الرابع، والتي استمرّت ثلاث سنوات، توفّي القدّيس لويس في تونس ٢٥ آب/أغسطس ١٢٧٠، وهو التاريخ الذي تحتفل الكنيسة فيه بعيده.

١٨٣ - غريغوريوس العاشر (١٢٧١-١٢٧٦)

كان تِيبالْدو ڤيسْكونْتي، أسقف پْليزانْس، يحارب في الأراضي المقدّسة مع الصليبيّين عندما بلغه خبر انتخابه بابا. تُوّج في روما العام ١٢٧١ واتّخذ اسم غريغوريوس العاشر وصار بابا عظيمًا، عادلًا، صالحًا. أحاط نفسه بمستشارين رائعين ومنهم القدّيس بوناوَنْتورا والقدّيس توما. تنوّعت أعماله، وكانت كلّها ذات أهمّيّة كبرى للعالم وللكنيسة. حاول أن يبعث الإمبراطوريّة الألمانيّة الساقطة، وأن

يصلح شؤون الكنيسة، ويطلق حملة صليبيّة جديدة، ويصالح كنيسة رومة وكنيسة بيزنطية. أدرك أنّ الفوضى في ألمانيا تسبّب أذى لأوروبّا كلّها، فأيّد فورًا، في الأوّل من تشرين الأوّل/أوكتوبر من العام ١٢٧٣، انتخاب الأمراء رودولف دي هابْسْبورغ إمبراطورًا. وتمّ لقاء بين البابا والإمبراطور العام ١٢٧٥ في لوزان حيث كرّس الكاتدرائيّة المكرّسة للعذراء. وفي ١٢٧٤، دعا إلى مجمع في ليون، (المجمع المسكونيّ الرابع عشر)، لتحقيق الوحدة مع الكنيسة الشرقيّة. وكان منتظرًا وصول القدّيس توما، إلّا أنّ الموت عاجله وهو في طريقه إلى ليون وله من العمر ثمانية وأربعون عامًا. ومات المعلّم الملائكيّ في فُوسَّانووڤا. وقبل أيّام من انتهاء المجمع مات المعلّم الساروفيميّ، القدّيس بوناوَنْتورا، أكبر قدّيسي الرهبنة الفرنسيسكانيّة منذ أيّام المؤسّس، والذي كان تأثيره حاسمًا في انتخاب غريغوريوس العاشر، كما أنّ تدخّله من أجل وحدة الكنائس أثّر أيّما تأثير في أعمال مجمع ليون. لقد حضر هذا المجمع خمس مائة أسقف منهم بيار تارانْتيز، البابا إنّوقنطيوس فيما بعد، وسفراء ملوك فرنسا، وإنكلترا، وألمانيا وصقلّية، وبطريركا القسطنطينيّة وأنطاكية، وممثّلو المنظّمتين العسكريّتين: منظّمة الهيكل، ومنظّمة فرسان مار يوحنّا. وفي ٢٤ حزيران/يونيو وصل سفراء ميشال باليولوغُس (Paléologue) الذين عرضوا إتمام الوحدة لأنّ الإمبراطور كان يخشى تدخّلًا غربيًّا جديدًا، منذ سقوط الإمبراطوريّة اللاتينيّة. إعترف المبعوثون البيزنطيّون بأوّليّة رومة وذكر اسم البابا في الطقوس الشرقيّة. وأعلنت الكنيسة اليونانيّة خضوعها لكنيسة

رومة. رتّلت عندئذ الجمعيّة نشيد الشكر (Te Deum)[٣٢]، وبعد الخطاب الذي ألقاه غريغوريوس العاشر، أنشدت قانون الإيمان، وردّدت ثلاث مرّات منبثق من الآب والابن. جرى هذا في ٦ تموز/يوليو ١٢٧٤، فظنّ القوم أنّ الانشقاق انتهى. ومع هذا، فإنّ الإكليرس اليونانيّ بقي ثابتًا على موقفه وحال دون تحقيق الوحدة.

وأصاب البابا في المجمع نجاحًا آخر، إذ خُوِّل، لفترة ستّة أعوام، أن يجمع «العِشر للصليبيّة»، بهدف تنظيم حملة صليبيّة جديدة. وانضمّ إلى المشروع ملوك فرنسا، وأراغون (في إسبانيا)، وإنكلترا، وصقلّية. وبدا أنّ الوحدة المسيحيّة قد تحقّقت، ولكن ما إن توفّي البابا حتّى حصلت انشقاقات فرّقت المسيحيّين.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أحد القوانين التي وافق عليها المجمع يتناول انتخاب البابا، وينظّم المجمع المقفل بالتفصيل. والأصول التي اعتمدت مستوحاة من الأعراف المطبّقة في المدن الإيطاليّة، وخصوصًا تلك التابعة لدوقية البندقيّة التي زادت قوّتها بشكل ملموس في غضون القرن الثالث عشر.

توفّي غريغوريوس العاشر في بيروزا وهو في طريق عودته من ليون. وتمّ إعلانه طوباويًّا في ١٧١٣.

---

(٣٢) هو نشيد الشكر في الطقس اللاتينيّ ومطلعه: «نسبّحك يا الله/ نعترف بك يا سيّد...» وهو مؤلّف من ثلاثة أقسام: القسم الأوّل مختصّ بالآب، والثاني بالابن، وقسم ثالث يبدو أنّه أضيف في حقبة لاحقة، وهو ذو طابع توسّليّ يبدأ بـ«خلّص شعبك يا ربّ، وبارك ميراثك...» وينتهي بـ«بك، يا ربّ، وضعت رجائي/ فلن أخيب أبدًا». وصار مطلع هذا النشيد يعني «الشكر»، يُنشد في المناسبات الكبرى.

١٨٤ - إنّوقنطيوس الخامس (١٢٧٦)

هو بيار دي تارانْتيز، أوّل بابا من رهبنة الدومنيكان، كان قد حضر مجمع ليون، وينعم بشهرة واسعة بحكمته وعلمه. تدخّل ليضع حدًّا للنزاع القائم بين شارل دانجو ورودولف، إلّا أنّه توفّي قبل أن يبلغ قصده. أُعلن طوباويًّا في ١٨٩٨.

١٨٥ - أدريانس الخامس (١٢٧٦)

تمّ انتخابه بحضور شارل دانْجو الذي صادف وجوده آنذاك في رومة. وأعمال العنف، التي ارتُكِبت في أثناء انعقاد المجمع المقفل تذكّر بتلك التي أوقعت ضحايا كثيرة في مجرى انتخاب غريغوريوس العاشر. دامت حبريّته خمسة أسابيع (من ١١ تمّوز/يوليو إلى ١٨ آب/أغسطس ١٢٧٦).

١٨٦ - يوحنّا الحادي والعشرون (١٢٧٦-١٢٧٧)

هو البرتغاليّ الوحيد الذي ارتقى عرش القدّيس بطرس. كان اسمه پدرو ريبولي جِيُولاني. كان عليه أن يتّخذ اسم يوحنّا العشرين، لأنّ يوحنّا العشرين كان بابا منافسًا غير شرعيّ، إلّا أنّ اسمه أثبت خطأً على الجدول الذي وضعه غريغوريوس السادس.

نجح في تحقيق السلام بين ألفونس العاشر ملك قشتالة (في إسبانيا) وفيليب الحكيم ملك فرنسا. حاول أن يطبّق المبادئ التي قُرّرت في ليون بشأن وحدة الكنائس، إلّا أنّه لم ينجح في ذلك. كان يرغب في إطلاق حملة صليبيّة جديدة عندما توفّي في ڤِيتِرب بانهيار غرفته عليه. هو أحد كبار علماء

عصره وموضوع تقدير عظيم، في مجال المذهب المدرسيّ وفي حقل الطبّ. في مجمع ليون، كان طبيب غريغوريوس العاشر الملازم له. ومؤلّفاته كانت معروفة في بلدان عديدة.

١٨٧ - نقولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨٠)

هو ثالث بابا من عائلة أورْسيني، وابن ماتياس أورْسيني الذي كان قد عذّب الكرادلة وأهانهم في مجرى المجمع المقفل الشهير في ١٢٤١. ولأنّه ساعد أهله وبالغ في إيلائه مصالح عائلته اهتمامه، ألقاه دانتي، في **الملهاة الإلهيّة**، في الجحيم حيث اعترف البابا بأخطائه جميعها.

أقلقته شواغل عدّة. حاول أن يقيم علاقات حسنة ببيزنطية، وأن يحدّ من سلطان شارل دانجو المتعاظم، فهدّده بأن ينزع منه لقب عضو مجلس الشيوخ في رومة، ولقب الوصيّ على مملكة توسكانا. ضمن الإمبراطور رودولف استقلال الدولة البابويّة استقلالًا تامًّا إزاء الإمبراطوريّة.

مات نقولا الثالث في سُوريانُو، بالقرب من ڤِيتِرب قبل أن يحقّق انتصارًا تامًّا على شارل، انتصارًا كان من شأنه أن يحول دون حصول الأحداث المأسويّة التي جرت في عهد خلفه.

١٨٨ - مرتينس الرابع (١٢٨١-١٢٨٥)

إتّخذ الفرنسيّ سيمون دي بْرِيُون لدى انتخابه اسم مرتينس الرابع لأنّ البابوين اللذين حملا اسم مارينس أثبتا على جدول الباباوات باسم مرتينس.

كان مرتينس آلةً بيد مواطنه ملك صقلّية الذي

نجح في أن يستعيد امتلاك كلّ ما كان قد فقده أثناء حبريّة نقولا الثالث. وأعيد إليه لقب عضو مجلس الشيوخ ونائب الإمبراطور. وعندما تحالف شارل مع البندقيّة ضدّ بيزنطية، فإنّ البابا مرتينس أسدى إليه مساعدته بدلًا من أن يدعم الإمبراطور الذي كان قد ارتدّ إلى الكثلكة. وبُعَيْدَ ذلك، فإنّ أندرونيك الثاني، ابن ميشال پاليولوغس (Paléologue) نقض الوحدة مع الكنيسة الغربيّة. وفي ٣١ آذار ١٢٨٢، انتفض الصقليّون، وساعدهم البيزنطيّون في انتفاضتهم ضدّ السيطرة الفرنسيّة، فقتلوا، تقريبًا، جميع ظالميهم في مجرى ما سمّاه المؤرّخون «صلاة المساء الصقليّة». ولقد استطاع اثنان فقط من النبلاء النجاة من هذه المجزرة الرهيبة.

إعتلى العرش بطرس الثالث ملك أراغون (إسبانيا)، صهر مانفريد، فصار بالتالي خليفة سلالة هوهِنْشتَوفن. وانتفض الشعب أيضًا ضدّ الفرنسيّين في مناطق أخرى من إيطاليا.

روّعت هذه الأحداث البابا الذي كان يقطن في أورڤييتو نتيجة خطأه الأوّليّ باستسلامه لشارل دانجو ومماشاته سياسته المشؤومة. ومات في پيروزا.

١٨٩ - هونوريوس الرابع (١٢٨٥-١٢٨٧)

إنْتُخِب جاك ساڤيللي في پيروزا، فحَرَم جاك الثاني ملك أراغون، ابن بطرس الثالث لاعتباره مغتصبًا السلطة في صقلّية. وكان جاك قد سجن في صقلّية، شارل الثاني، ابن شارل دانجو. ولكي يسهّل ارتداد العرب والمسيحيّين المنشقّين، أنشأ في جامعة باريس منابر لتعليم العربيّة ولغات شرقيّة

أخرى. وجثمانه مدفون في ضريح فخم في كنيسة القدّيسة مريم في رومة.

١٩٠ - نقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢)

جيرولامُو ماسشي، هو أوّل بابا من الرهبنة الفرنسيسكانيّة، انتُخِبَ بعدما ظلّ الكرسيّ شاغرًا أحد عشر شهرًا. في ١٣ أيّار/مايو ١٢٩١، سقطت مدينة عكّا بيد المسلمين الذين قتلوا حماتها المسيحيّين. وكان سقوط هذه المدينة إيذانًا بانتهاء الاندفاع في حملات صليبيّة؛ إذ إنّ نداء البابا الذي كان يرغب في القيام بحملة صليبيّة جديدة لم يلقَ صدى إلّا لدى ملك إنكلترا.

في صقلّية، تدخّل نقولا الرابع لصالح شارل الثاني دانجو فتوّجه ملكًا، إلّا أنّ الجزيرة كان قد استولى عليها الأراغونيّون، ورودولف دي هابسبورغ كان قد مات في ١٢٩١.

من أهمّ أعمال البابا نقولا ذي الثقافة الواسعة، إنشاؤه جامعتَي مونْبِلْيِيه (فرنسا)، ولِشْبونة (البرتغال).

١٩١ - قلسطينس الخامس (١٢٩٤)

طبعت حبريّة قلسطينس، وهو آخر بابا يحمل هذا الاسم، مأساة تعكس النزاع الذي اندلع في تلك الحقبة بين الصفاء الروحانيّ والعنف الزمنيّ. وقد تابع هذا النزاع الحبر الخياليّ في عصرنا قلسطينس السادس الذي اخترعه پاپيني في مصنّفه **رسائل إلى البشر**.

إختار پاپيني هذا الاسم الذي ينطوي على

تكملة، لأنّ قلسطينس الخامس (پيترو أنجيلاري دا مورّوني) كان راهبًا فرنسيسكانيًّا في عداد «الروحانيّين»، وهم أحد الفرعين اللذين انقسمت إليهما الرهبنة. أمّا الفرع الثاني فهو فرع «الدَّيْريّين».

كان «الروحانيّون» يعيشون في الفقر متّبعين تعليم «الفقير الصغير»، ويسكنون في المغاور أو في مناسك صغيرة معزولة، ومثالهم الأعلى انتخاب بابا ملائكيّ (Papa angelicus)، متجرّد تمامًا عن الأمور الدنيويّة وقادر على أن يفتدي البشريّة. ويبدو أنّ المثل الأعلى هذا تحقّق عندما اختار الكرادلة المجتمعون في پيروزا، بعد سنتين من التداولات، پيترو أنجيلاري، وهو أحد الرهبان «الروحانيّين» الذي كان يعيش منعزلًا على سفح جبل مايِيلّا، بالقرب من سولمونا حيث ولد الشاعر أوڤيديوس، على حدود الدولة البابويّة والمنطقة النابوليتانيّة. والموضع موحش حتّى إنّه يوفّر اليوم أيضًا مكانًا مثاليًّا للخلوة والصلاة. في تلك المغاور كان يعيش في ذلك الزمان مئات من الرهبان الفرنسيسكان، أتباع يواكيم دِل فِيُوري ومواصلي تعليمه، والذين كانوا يأملون حصول تغيّر جوهريّ في التاريخ وحدوث الدورة الجديدة للإنجيل الأبديّ برعاية الروح القدس وحمايته. فحين انتخب الكرادلةُ الناسكَ القدّيس ووصل إلى أقيلا شارل الثاني دانجو، ملك صقلّية، وابنه شارل مارتيل، يقودان باللجام الحمار الذي يحمل على ظهره البابا الجديد، حافي القدمين، متواضعًا تواضع الراهب البسيط، ظنّ الناس أن نبوّة الروحانيّين قد تحقّقت، وأملوا بأن يتمّ تطهّر العالم وفقًا لتعليم يواكيم دل فيوري. وهرع إلى أقيلا عشرون ألف شخص

ليقدّموا الإكرام إلى الحبر الجديد الذي رأوا فيه صورة المسيحيّين الحقيقيّين ومثالهم الأعلى. إلّا أنّ قلسطينس الخامس ما كان يفقه شيئًا من أمور العالم. فقد جاء به شارل الثاني إلى نابولي وجعله يوافق على قراراته كلّها. والشاعر جاكوپوني دي تودي، وهو أيضًا راهب فرنسيسكانيّ ومؤلّف قصيدة **كانت الأمّ الحزينة**[٣٣] خصّه بقصيدة يقول له فيها: «إنّك تخيّب آمال العالم، فاللعنة ستحلّ...». وقد تمّ هذا التكهّن. فعندما حرّر قلسطينس «الروحانيّين» من أيّ التزام بالرهبنة الفرنسيسكانيّة وحوّلهم إلى «نسّاك فقراء»، حضر في ١٣ كانون الأوّل/ديسمبر ١٢٩٤ أمام الكرادلة، فنزع ثيابه الحبريّة، وجلس أرضًا، وأعلن أنّه ينسحب ثانية إلى القفر ليحفظ ضميره نقيًّا ويتابع حياته النسكيّة. توفّي في السجن في ١٩ أيّار/مايو ١٢٩٦. أُعلِن قدّيسًا في ١٣١٣. صادفه دانتي في الجحيم وطابقَ بينه وبين ظلّ الذي لفظ «الرفض الكبير» «Il gran rifiuto». ففي النشيد السابع والعشرين من الجحيم (في **الملهاة الإلهيّة**)، حين يصادف الشاعر بونيفاقيوس الثامن، فإنّ هذا يشير ثانية إلى قلسطينس، ويعرض المفتاحين اللذين يتيحان للبابا أن يفتح السماء ويغلقها، فيقول:

«... إنّهما مفتاحان
لم يرغب فيهما سلفي»

بهذه الفاجعة الوسيطة الجديرة بأن يكون وراءَها دانتي وجاكوپُوني دي تُودي، تقفل حقبة كبرى من

(٣٣) **كانت الأمّ الحزينة** (Stabat Mater dolorosa)، قصيدة كلاسّيكيّة تنطوي على وصف مراحل آلام المسيح وصلبه فموته. وهي مترجمة إلى العربيّة وترتّل في رتبة درب الصليب لدى الموارنة: «كانت الأمّ الوجيعة/ والدموع منها سريعة/ واقفة تحت الصليب» وقد وضع لها ألحانًا من الموسيقى الكلاسّيكيّة كبار المؤلّفين.

تاريخ البابوات، وتبدأ حقبة أخرى للكرسيّ المقدّس نسيجها آلام وإذلال.

١٩٢ - بونيفاقيوس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣)

بعد انكفاء قلسطينس الخامس وارتقاء بونيفاقيوس الثامن العرش البابويّ هبّت على العالم روح انتفاضة. «فالروحانيّون» الفرنسيسكان كانوا يؤكّدون أنّ تنازل قلسطينس باطل، وبالتالي فإنّ البابا الجديد ليس شرعيًّا. ووقف موقفًا مؤيّدًا لهذه القضيّة آل كُولونّا وفيليب الجميل ملك فرنسا. أمّا بونيفاقيوس فقد حرم «الإنجيل الأبديّ»، فاتّهمه «الروحانيّون» بأنّه خان روح المسيح والنظام الإنجيليّ.

كان جاكوپوني دي تُودي أحد خصوم بونيفاقيوس. ففي قصائده الناريّة، كان يهاجم البابا وجامعة باريس التي كان علماؤها يهدمون في العالم التراث الروحيّ الأسّيزيّ. فأُوقِف وبقي في السجن خمس سنوات. وكان لهذه المجادلة العنيفة أن تؤدّي، بعد عشرات السنين، إلى انقسام الرهبان الفرنسيسكان بين «ديريّين» من جهة، ومتمسّكين «بالقانون القاسي» من جهة أخرى، وهو انقسامٌ ما زال قائمًا حتّى يومنا هذا.

إنّ الحركة المهيبة هذه، وليدة الاندفاع العامّ نحو حياة صافية، شريفة، عدوّة للترف، والغنى، والفساد، وهي آفات كانت تعشّش في القلوب، بلغت ذروتها مع أثر دانتي، وهو أثر رئيسيّ في العصر الوسيط، والتعبير الأصيل عن روح النقاوة في البحث عن الكمال، وفيه يرى «فقير الله الصغير» ينعم في الفردوس وبونيفاقيوس يقبع في الجحيم،

وهو بالتالي يمثّل الأسلوب الذي كان الناس يحكمون به في ذلك الزمان على كبار عصرهم.

عرف دانتي بونيفاقيوس حين مثّل فلورنسا في سفارة بعثت بها عاصمة توسكانا إلى رومة في ١٣٠١. ودانتي الجيبلينيّ، في يقينه أنّ الإمبراطوريّة العالميّة خير صيغة مثاليّة ليعيش العالم في سلام، وأنّ الإمبراطور مستقلّ إزاء البابا، كان يدافع عن قضيّة يستحيل تطبيقها باعتبار أنّ الإمبراطوريّة كانت قد فقدت قوّتها وأنّ ملك فرنسا في طريقه إلى الحلول مكانه باسم نظام سياسيّ هو نظام الملكيّة الوطنيّة، الذي صار في ما بعد نظام أوروبّا كلّها، ويستبعد فكرة نظام زمنيّ عالميّ. لم يلبث النزاع أن انفجر بين ملك فرنسا وبونيفاقيوس. فالبابا كان يحلم بسيطرة الكنيسة عالميًّا وفقًا لفكر غريغوريوس السابع وإنّوقنطيوس الثالث. أمّا فيليب الجميل، وبتأثير الأفكار الدانتيّة التي كان يمدّه بها مستشاره بيار دي بُوا (Pierre du Bois)، فكان يرى نفسه حاكمًا مملكة عالميّة، هي صورة مصغّرة عن النظام المطلق وأنظمة الطغيان العصريّة. كان البابا الجديد على حقّ في قرارة نفسه، لأنّه، بفضل النظام العالميّ الذي كان يحلم به، كان يفكّر في تحقيق التفاهم بين الأمراء، خصوصًا بين فرنسا وإنكلترا، وبالدعوة إلى حملة صليبيّة جديدة. ولمّا كانت الحرب على إنكلترا يتمّ دعمها ماديًّا بالأموال الكنسيّة، فقد طلب الإكليرس وساطة البابا لحماية أملاكه. فأصدر البابا البراءة **الإكليرس والعلمانيّون**[٣٤] في ١٢٩٦ يمنع فيها تحت طائلة

(٣٤) *Clericis laicos*.

الحرم أن تحسم الضرائب من أموال الكنيسة، أو تدفع عليها. فخضعت كلٌّ من ألمانيا وإنكلترا، أمّا ملك فرنسا فقد حظّر على المسافرين الذين يغادرون فرنسا أن يحملوا معهم أيَّ مبلغ من المال، ولو كان في نيّتهم القيام بعمل برّ لدى الكرسيّ المقدّس. وبدا النزاع داهمًا، إلّا أنّ البابا نجح في تحسين العلاقات بإرساله كتابين لطيفين إلى فيليب الجميل.

في ١٣٠٠، نظّم بونيفاقيوس أوّل يوبيل في الكنيسة الذي لم يحضره، مع هذا، أيّ حاكم مهمّ. وحيال عدد الحجّاج الغفير، فكّر البابا في أنْ يطلق باتّجاه الجميع، نداءً من أجل حملة صليبيّة جديدة. وبحسب بعض المؤرّخين، ظهر أمام الجمهور مرارًا عدّة، حاملًا الشعارات الإمبراطوريّة وهاتفًا بأعلى صوته: «أنا هو القيصر، أنا هو الإمبراطور». وانفجر نزاع جديد بين البابا وفرنسا، عندما نُشرت في هذا البلد براءةٌ حبريّة مزوَّرة، ونُشر في الوقت عينه جواب مزوَّر يشتم الملكُ فيه البابا. وردًّا على دعوة البابا إلى عقد مجمع جديد، دعا فيليب حالًا مجلس الطبقات إلى الاجتماع؛ وفي هذا المجلس ظهرت، لأوّل مرّة، «البورجوازيّة» أو «الطبقة الثالثة» إلى جانب النبلاء والإكليرس. وبالرغم من الإثارات التي حرّكها فيليب، فلم يستطع الاستمرار في موقفه لأنّ الجيش الفلامَنْدي هزم، بمساعدة الإنكليز، الفرسان الفرنسيّين في كورْتْرِي، وزادت البراءة البابويّة **واحدة مقدّسة** (*Unam sanctam*) العلاقات بفرنسا سوءًا. فقد أكّدت أنّ السلطة الروحيّة من دون غيرها أهلٌ لأن تنشئ السلطة الزمنيّة وتحكم عليها إذا انكفأت عن طريق الخير. والبراءة هذه لم تأتِ بجديد إذا قورنت بالبراءات السابقة، لكنّها،

بسبب الظروف الخاصّة، بدت وكأنّها بيان جديد يعلن السلطة الواحدة العالميّة بالتوافق مع العبارات التي لفظها البابا في رومة لمناسبة سنة اليوبيل. وبناء على نصائح غليوم دي نوغاريت، قرّر الملك عندئذ أن يقبض على البابا ويقتاده إلى فرنسا ويقاضيه أمام محكمة وطنيّة. وأعدَّ نوغاريت بالتعاون مع بعض آل كولونّا، أعداء البابا اللاجئين إلى فرنسا، حملة تنطلق في شهر آذار/مارس ١٣٠٣. وكان قد بدأ إعداد تظاهرات في باريس لتهيئة الرأي العامّ لمشروع عقد المجمع الوطنيّ، فاطّلع بونيفاقيوس على ما كان يُحاك، فحرّر البراءة **على عرش بطرس** (*Super Petri solio*) وكانت معدّة لتُنْشَر في ٨ أيلول/سبتمبر، وفيها يحرم الملكَ ويحلّ رعاياه من قَسَم الأمانة للتاج. فبادر نوغاريت فورًا إلى الردّ. ففي ٧ أيلول/سبتمبر، وصل إلى أنانْيِي حيث كان يُقيم البابا، وكان بصحبته شيارّا كولونّا. تخلّى الجميع عن البابا إلّا الكردينالين: بطرس الإسبانيّ وبُوكاسِيني. أمّا بونيفاقيوس، فانتظر أعداءَه في قاعة العرش حاملًا بيديه المفاتيح والصليب، فواجههم بقوله: «ما دام أنّي خُذِلت كما خُذل يسوع المسيح، فإنّي عازم على أن أموت ميتة بابا». فأهانه الغزاة، بل إنّ بعض المؤرّخين يقولون إنّ نُوغاريت صفعه. وأجاب عن كلّ الأسئلة بتواضع: «هوذا عنقي، هوذا رأسي». وأُخضع للتعذيب والتهديد طيلة ثلاثة أيّام للحصول على دعوته إلى عقد مجمع وطنيّ، المجمع نفسه الذي حكم عليه. وفي هذه الأثناء، استطاع الكردينال بوكاسيني أن يستنفر الشعب الذي هبَّ وهاجم الفرنسيّين، وجَرَح نُوغاريت، وطرد عصابة كولونّا. فاستطاع البابا أن يعود إلى رومة

حيث مات بعد شهر من ذلك الحادث، في ١١ أيلول/سبتمبر ١٣٠٣. وبعد بضع سنوات فقط ممّا جرى في أنانيي قبض الملك فيليب على البابا وبدأت بذلك مرحلة يدعوها تاريخ الكرسيّ المقدّس «سبي بابل». فطوال سبعين سنة، بدت سلطة البابا وكأنّها أداة بيد السلطة الزمنيّة فحسب. ويمكن القول إنّ العصر الوسيط انقضى بانقضاء هذه الحقبة.

١٩٣ - بندكتس الحادي عشر (١٣٠٣-١٣٠٤)

هو الكردينال نقولا بوكاسيني، الراهب الدومنيكانيّ الذي وقف إلى جانب البابا في أثناء المحنة الكبرى التي عاناها في أنانيي، وحرّض الشعب على نوغاري. كان رجلًا قدّيسًا، داعية سلام وعاملًا له، تقيًّا. توصّل إلى مصالحة الكرسيّ المقدّس وفرنسا، ورفع الحرم عن الملك، لكنّه حرم نوغاريت وشيارّا كولونّا. رفض أن يعلن بونيفاقيوس هرطوقيًّا كما كان يطلب إليه الملك فيليب. توفّي في بيروزا، وأُعلن طوباويًّا في ١٧٣٦.

١٩٤ - إقليمنضس الخامس (١٣٠٥-١٣١٤)

تشكّل، شيئًا فشيئًا، فريقان في مجمع الكرادلة في رومة: الفريق الإيطاليّ والفريق الفرنسيّ. على إثر موت بندكتس الحادي عشر، ظهرت راجحة ظهورًا واضحًا كفّة الفريق الفرنسيّ. فقد فرض الفرنسيّون انتخاب أسقف بوردو، ريمون بِرْتراند دِي غوت الذي أيّده آل أورسيني أيضًا. وتجنّبًا لتدخّل أفرقاء رومانيّين، نقل البابا الجديد بلاطه إلى ليون حيث تُوِّج في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٣٠٥. بقي

فترة من الوقت حائرًا في تحديد مقرّ إقامته، فراح يسافر من مكان إلى مكان في فرنسا حتّى انتهى به الأمر أخيرًا إلى الاستقرار في أفينيون ربيع سنة ١٣٠٩. هناك عاش في دير للرهبنة الدومنيكانيّة التي كان ينتمي إليها شخصيًّا. فبدأ الكرسيّ المقدّس عهدًا من حياة العبوديّة التي تخلّص منها بعد سبعين سنة بفضل توسّلات القدّيسة كاترين السيانيّة. إبّان هذه الفترة، صارت أفينيون ملكًا للكرسيّ المقدّس، لكن نظرًا إلى وضعها، فقد كانت واقعة تحت مراقبة القوّات الفرنسيّة مباشرة، فكانت السيطرة، بالتالي، على سيّد أفينيون أمرًا سهلًا. ففي مجرى المداولات في بْوَاتِييه، ألغى البابا أوامر بونيفاقيوس ضدّ ملك فرنسا، وأدخل دعوى عدوّ فيليب السابق الدائرة (Curie) الباباويّة. ولم يتمكّن من إقناع الملك بالعدول عن مطالبه الباطلة إلّا في مجمع ڤيينّا (١٣١١)، ومنها إعلان بونيفاقيوس هرطوقيًّا، ونبش رفاته وإحراقها في الساحة العامّة. فعلّقت حينئذ دعوى بونيفاقيوس. ولم يكن إقناع الملك صعبًا لأنّه كان في ذلك الوقت منخرطًا في دسائس أُخَر. فقد شرع في حملة على حرّاس الهيكل (Templiers)، وهي المنظّمة العسكريّة والدينيّة التي تأسّست في ١١١٨ وتميّزت في فلسطين إبّان الحملات الصليبيّة. فقد كان أعضاؤها توصّلوا إلى السيطرة على ثروات طائلة، وكان نفوذهم في البلاطات كبيرًا جدًّا. وموقف الملوك الأوروبّيين خصوصًا فيليب الجميل، ملك فرنسا، إزاء الهيكليّين، يذكّر بما حصل، بعد أجيال، من اضطهاد أطلقته الأنظمة الملكيّة ضدّ اليسوعيّين. لقد كان الهيكليّون يُتَّهمون بأسوأ التهم، من فجور، وفسق، وتدنيس الكنائس والعبادة إلخ.

كان البابا يعدّ العدّة لفتح تحقيق في نشاطات المنظّمة حين علم أنّ نوغاريت، الاختصاصيّ بالضربات المفاجئة، قد أوقف جاك دي مولاي، كبير رؤساء الهيكليّين. طلب الملك إلى البابا أن يعلن تضامنه مع هذا التدبير، إلّا أنّ إقليمنضس رفض الاستجابة. أعلن كبير رؤساء محاكم التفتيش في فرنسا، غليوم الباريسيّ، دعمه الملك، فبدأت إحدى أهمّ الدعاوى في التاريخ. فالمتّهمون المئة والثمانية والثلاثون اعترفوا كلّهم تقريبًا بأنّهم أنكروا يسوع المسيح وبصقوا على الصليب، وأعلنوا لاحقًا، كلّهم تقريبًا أيضًا، بأنّ هذه الاعترافات لا قيمة لها إطلاقًا لأنّها انتزعت منهم بالتعذيب. وإقليمنضس نفسه، إزاء فظاعة هذه التصريحات، سمح بالتعذيب. فأُشعِلت محرقات عديدة في فرنسا، وإسبانيا، وإنكلترا، وألمانيا، وإيطاليا، إلّا أنّ ملك فرنسا بلغ بالاضطهاد أفظع درجاته. في ١٣١٢، نشر البابا البراءة **للعناية** *(Ad providam)* أعلن فيها إلغاء منظّمة الهيكليّين، واستولى الملك على أموالهم، وهذا كان الهدف الأسمى لهذه الحملة. وفي ١١ آذار/مارس ١٣١٤، أُحرق جاك دي مولاي حيًّا في باريس بعد أن تراجع عن اعترافه السابق بأنّه مذنب.

أمّا في الإمبراطوريّة فما كان الوضع ليستقرّ. فهنري اللوكسمبورجيّ انتُخِبَ إمبراطورًا في ١٣٠٨ وتوّجه في رومة مندوبو البابا. وكان ملك فرنسا قد دعم مرشّحًا آخر هو شارل دي ڤالُوا، فنشأت نزاعات جديدة بين البابا والملك. غير أنّ مرشّح البابا لم يطل به الأمر حتّى أفصح عن مطامحه الجيبيلينيّة والتخطيط للاستيلاء على إيطاليا. في هذه

الأثناء انتهى دانتي من تأليف كتابه **في النظام الملكيّ** *(De monarchia)* وفيه يقف موقف تأييد الإمبراطور.

وتجاه الترف، والفساد، ومحسوبيّة الأقارب التي كانت تسود في بلاط أڤينيون (إقليمنضس عيّن خمسة من أفراد عائلته كرادلة)، ارتفع صوت غليوم ديران (Guillaume Durand)، أسقف مِنْد (Mende)، مطالبًا بإصلاح الكنيسة «في رأسها وفي أعضائها». كما ارتفع صوت الفرنسيسكانيّ الشابّ بيار أوليڤ (Pierre d'Olive) يُطري مذهب الفقر الإنجيليّ وفقًا لتعليم القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ.

أنشأ إقليمنضس الخامس جامعتَيْ پيروزا وأُورْليان. وقد رسم أندريا الفلورنسيّ صورة البابا في الجداريّة التي خصّصها لتمثيل «انتصار القدّيس توما»، في معبد الإسبانيّين في كنيسة القدّيسة مريم الجديدة في فلورنسا.

١٩٥ - يوحنّا الثاني والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤)

هو أهمّ باباوات أڤينيون. اسمه جاك دُوز (Jacques d'Euse)، ابن إسكافيّ من كاهور (Cahors). كان أمين سرّ سلفه، وأسقف أڤينيون. انتُخِب بعد فترةٍ شغر فيها الكرسيّ المقدّس أكثر من سنتين تجابه أثناءها علنًا الأحزابُ الثلاثة التي كان يشكّلها الكرادلة. وكان لكلٍّ من الإيطاليّين، والفرنسيّين، والفاشكونيّين مرشّحُه.

ما إنْ انتخب يوحنّا، حتّى خطرت بباله أوّل فكرة في تنظيم حملة صليبيّة جديدة، إلّا أنّ زمان وحدة المسيحيّين وحماستهم كان قد ولّى. فأوروبّا كانت مقسّمة، ومُثُل الملوك العليا أرضيّة أكثر منها

روحيّة. فالإمبراطوريّة مقسومة بين مرشّحَيْن منتخَبَيْن: فردريك الجميل دوق النمسا، ولويس دوق باڤاريا. في ١٣٢٢، كسب لويس الباڤاريّ الجولة إلّا أنّ البابا رفض تتويجه بسبب سياسة الإمبراطور في إيطاليا، بل إنّه حرمه بعد سنتين. فمضى الإمبراطور إلى إيطاليا وأقام في رومة بابا منافسًا، هو نقولا الخامس الذي توّج لويس الباڤاريّ في ١٣٢٨. وما انقضت إلّا ثلاثة أشهر حتّى قام شعب رومة بانتفاضة فأرغم الإمبراطور على مغادرة المدينة الخالدة. أعلن البابا المنافس خضوعه ليوحنّا الثاني والعشرين في ١٣٣٠. كان الوضع في رومة ينذر بالخطر، فالشعب بدأ يتَمَلْمَل وزمن كولا دي رِينْزو كان قريبًا.

كان يوحنّا الثاني والعشرون يكرّس وقته للدرس حين تسمح له بذلك الصراعات والمؤامرات. لقد كان شاعرًا وكاتبًا. تدخّل في المسائل العائدة إلى الموسيقى الدينيّة فأفصح عن آرائه في البراءة **علوم القدّيسين** *(Docta sanctorum)*، وبفضل مبادرة منه ومساعدة أُنشئت في جامعات باريس، وسَلَمَنْكا (إسبانيا)، وبولونيا (إيطاليا)، وأوكسفورد (إنكلترا)، منابر لتدريس اللغة العبريّة، واللغة العربيّة، بل والكلدانيّة. وريمون لِيُولّ[٣٥] هو مَن أشار عليه

(٣٥) ريمون لِيُولّ أو رامون لُوليو، لاهوتيّ وفيلسوف إسبانيّ. ولد في جزيرة مايُورْقا (١٢٣٣-١٣١٦). جمع في شخصه خلاصة الثقافة الشاملة من فلسفة، ولاهوت، وعلم لغات، والزهد والتصوّف، والأدب... كثير الأسفار والمشاريع، وأهمّها ثلاثة: وضع كتب لدحض مزاعم الكفّار؛ تأسيس مدارس لتعليم اللغات بهدف التبشير؛ وتبشير المسلمين. درس العربيّة وكتب بها وسعى إلى تعليمها. أشهر مؤلّفاته الفنّ الكبير ***Ars magna***.

باتّخاذ هذه التدابير الموفّقة، وهو الذي طبع بصماته عميقة على الحركة الثقافيّة والدينيّة في عصره.

أنشأ يوحنّا الثاني والعشرون بيت مال البابويّة لدعم تنظيم الحملة الصليبيّة، وبناء القصور البابويّة في أڤينيون، ومساعدة الأعمال الخيريّة، وتشجيع العلم وأعمال الرسالة. فسار في هذا الحقل على الخطّ الذي سلكه أصحاب السلطان الدنيويّ الذين كانوا يرسّخون سلطتهم على التنظيم الماليّ الحديث وترتيب تحصيل الضرائب في دولهم. وكانت «السّنويّات» التي يدفعها للكرسيّ المقدّس مَن حصلوا على وظائف عليا ذات مرتّبات رفيعة، أحد أهمّ التدابير التي وفّرت لبيت المال أكبر المبالغ وللكرسيّ أدنى مكانة. وحمل الكثيرون في ألمانيا وفي إيطاليا على اتّجاه الكنيسة الماديّ هذا، فأعدّوا بهذه المواقف الطريق لحركة لوثر الإصلاحيّة.

ومن على منبر أڤينيون، حيث كان يعظ غالبًا، أبدى يوحنّا الثاني والعشرون رأيًا استهجنه اللاهوتيّون، وانعكس سلبًا على شعبيّته. فقد أكّد أنّ نفوس المختارين لا تنعم برؤية الله مباشرة إلّا بعد الدينونة الأخيرة، فردّ عليه خصومه في موضوع المعتقد، أوكّام والفرنسيسكان «الروحانيّون» أو «الإخوة الصغار»، فاتّهموه بالهرطقة. فرجع يوحنّا الثاني والعشرون عن رأيه وهو على فراش الموت، معلنًا أنّه دافع عن هذا الموقف، ليس بصفته رئيسًا على الكنيسة، بل بصفته الشخصيّة إنسانًا يتعاطى علم الإلهيّات. كان متواضعًا وعاش في الفقر. نظّم تنظيمًا تامًّا دولته وشؤونها الماليّة، إلّا أنّ دقّة التنظيم هذه جرّت عليه نفور المؤمنين الذين كانوا يرون في أڤينيون مدينة منشغلة فقط بفرض ضرائب

باهظة. وكانت سلطة الكنيسة تتناقص بقدر ما كانت ثروتها الماديّة تتنامى.

رسم جِيُوتّو صورة البابا على مذبح باسيليكا لوك (Lucques)، في توسْكانا.

١٩٦ - بندكتُس الثاني عشر (١٣٣٤-١٣٤٢)

هو جاك فوزنييه، ابن خبّاز، ينتمي إلى رهبنة سيتو (Cistercien)، رجل متقشّف، فاضل. حاول أن يعوّض الأضرار التي سبّبها للإيمان المسيحيّ النظام الماليّ المفرط الذي أنشأه سلَفُه. ومع هذا، فقد شرع في بناء قصر الباباوات في أڤينيون الذي يتجاوز بعظمته شبح الكاتدرائيّة الصغير، كما لاحظ بدقّة لويس فون پاستور. وكانت إحدى علامات الأزمنة أنّ بابا تحرّكه دوافع ونوايا طيّبة لا يتوصّل حتّى إلى كبح رغبة الكنيسة في أن تعيش في العالم بتنافس دائم مع الملوك والأباطرة. لكنّ بندكتس الثاني عشر لم يستطع أن يحقّق نواياه الطيّبة. فلم يتمكّن من منع انفجار الحرب بين فرنسا وإنكلترا، ولا أن يجمع قوى الدول المسيحيّة لمباشرة حملة صليبيّة جديدة، أو إعادة توحيد الكنيسة رغم الجهود التي بذلها للتقرّب من القسطنطينيّة.

في ٨ نيسان/أبريل ١٣٤١، في الكابيتول بروما، توّج عضو مجلس الشيوخ أورْسُوس دانڤيللارا فرنشيسكو پتراركا «أكبر شاعر في التاريخ» في حين كان الشعب يهتف: «عاش الكابيتول!» فبدا أنّ مجد روما عاد إلى الوجود في هذه الحماسة. إذ إنّ شابًّا في الثامنة والعشرين من عمره، هو كولا دي رينْزُو، كان يحضر هذا المشهد الحماسيّ ويحلم بأن يعيد إلى روما عظمتها الغابرة بمشاركة البابا أو بدون

مشاركتهم. إنّ ثورة اجتماعيّة وسياسيّة كانت في طور الإعداد لتقضي على الأرستقراطيّة وتجعل من شعب روما حافظ السلطة الوحيد وفقًا **للقانون الملكيّ** (*Lex Regia*) الذي اكتشفه سريعًا كولا دي رينزو بين خرائب روما. كان عصر التاريخ القديم يعود إلى الوجود بأساطيره كلّ أساطيره، وعصر الانبعاث يستهلّ بداياته.

١٩٧ - إقليمنضس السادس (١٣٤٢-١٣٥٢)

بيار روجيه دي بُوفُور، الراهب البندكتانيّ، رئيس أساقفة روان، الكردينال الذي اتّخذ اسم إقليمنضس صادف حظًّا في السياسة أكبر من حظّ سلفه بندكتُس الثاني عشر. فقد نجح في إقامة هدنة بين الفرنسيّين والإنكليز في مطلع حرب كان لها أن تدوم مئة سنة، وناصر شارل الرابع اللوكْسَمْبورجيّ الذي كان يدير شؤون الإمبراطوريّة من پراغ وخاضعًا للبابا عدوّ خصمه لويس الباڤاريّ. توصّل بعد جهد إلى تهدئة «الإخوة الصغار» وتقبّل خضوع غليوم دي أوكّام. أمّا الخطر الكبير هذه المرّة فكان مصدره روما. فإنّ كولا دي رينْزو، باعتماده عقيدة «**القانون الملكيّ**»، أثار الشعب يوم إثنين العنصرة ١٣٤٧، وأعلن نفسه في الكاپيتول حاكمًا عسكريًّا. هاجم حالًا آل كولونّا، وهزم جماعتهم في شوارع روما، وعمّد ابنه البكر بدم أعدائه، وسوّى بالأرض، في پالسترينا، قصر هذه العائلة المخيفة. وأرسل إلى ملوك أوروبّا وأمرائها جميعهم سفراء يحملون إليهم تيجانًا من فضّة، ليطلعهم على انبعاث روما وعلى حقّه في حكم العالم. كان الشعب يعبد حاكمه العسكريّ هذا، إلّا أنّ ما يثير الفضول أكثر من أيّ أمر آخر،

هو أنّ الأمراء، في هذه الفترة الحماسيّة، تقبّلوا
رسالته، وتأثّروا بنفوذ رينْزو المتميّز ببلاغته وثقافته.
وقد خصّه پترارکا بقصيدة عنوانها «روح لطيف»،
ودعمه حياته كلّها. وواضح أنّ رينْزو كان يحلم
بتوحيد إيطاليا، وبأن يُتَوَّج، هو، ملكًا عليها، بعد
أن تلقّى في رومة لقب فارس الروح القدس. وخاف
البابا أن يفقد مدينته، فأسرع في إرسال قاصد
رسوليّ، هو الكردينال برتْراندْ دي تو، إلى رينْزو
الذي استقبله بوقاحة مديرًا له ظهره. كان مخطّط
رينْزو يقوم على قلب الوضع، أي بأن يخضع البابا
إلى سلطانه في رومة بدلًا من أنّ إخضاع المدينة
لسلطان البابا. أمّا البابا، في رأي رينزو، فيجب أن
يكون أمره مرتبطًا بإرادة شعب رومة الذي هو
صاحب السيادة الوحيد، كما يجب أن يحلّ مكان
الإمبراطور الألمانيّ إمبراطور إيطاليّ. غير أنّ حلم
رينْزو لم يتحقّق، فقد أرغمه آل كولونّا على مغادرة
رومة واللجوء إلى ماييلّا، حيث كان الإخوة الصغار
أتباع قلسطينس الخامس مستمرّين في انتفاضتهم
وممارسة حياة الصلاة والتقشّف. فأمضى رينْزو
بضع سنوات معهم إلى اليوم الذي تنبّأ له راهب
بمستقبل مجيد، فاقتنع بهذه النبوءة، فغادر ملجأه،
ومضى إلى پراغ فحاول إقناع الإمبراطور شارل
الرابع بأنّهما إذا اتّحدا فسيسيطران على العالم. إلّا
أنّ شارل الرابع أسلَمَه إلى البابا الذي اعتقله في
سجن أڤينيون، مكبّلًا بالسلاسل، ذليلًا، لعلّه يلاقي
موتًا دنيئًا. غير أنّ پيتْراركا أنقذه. فقد كان من بين
الكتّاب أكثرهم استقلالًا في الرأي وأكثر مَن يُخشى
أمره منهم. كان يهاجم البابا في رسائله وفي
قصائده، ويشدّد على ضرورة عودته إلى رومة. وأُنقِذ

رينْزو فأُرسِل في ١٣٥٣ إلى إيطاليا ليصحب
الكردينال ألْبُورْنوث، رئيس أساقفة طليطلة السابق
وقاهر المسلمين في طريقة. كانت مهمّة الكردينال
إعادة السلام إلى المدن التي كان تؤلّف الدول
البابويّة في إيطاليا، وخصوصًا إلى رومة. عُيّن كولا
دي رينْزو شيخًا يمثّل مدينة رومة إلّا أنّه خيّب أمل
الشعب، إذ تحوّل إلى طاغية يعتمد أشدّ أنواع
العنف. في ٨ تشرين الأوّل/أوكتوبر ١٣٥٤، هاجم
الشعب الكابيتول، فقُتل في الهجوم الشيخ الذي كان
يحلم بأن يعيد إلى رومة مجدًا جديدًا، وألقيت رفاته
في نهر التيبر. وتغنّى الشعراء والموسيقيّون بذكرى
أوّل رجل سياسيّ في عصر الانبعاث، رجل من
الشعب، إنسانيّ النزعة، صديق پيتراركا وعدوّ
الإقطاعيّين، أشاد بشخصيّته اللورد بايْرون، وبولوير
ليتّون، وڤاغنِر، ودانّونْزيو. وقد رُفِع له تمثال على
أقدام الكابيتول يشرف على السلّم الكبير الذي يؤدّي
إلى «مذبح السماء» (Aracoeli).

في ١٣٥٢، بعثت القدّيسة بريجيت إلى البابا
إقليمنضس السادس عدّة رسائل من وحي يسوع
المسيح لتحذّره وتتوسّل إليه العودة إلى روح
الإنجيل.

١٩٨ - إنّوقنطيوس السادس (١٣٥٢-١٣٦٢)

إسطفانس أوبير الذي اتّخذ اسم إنّوقنطيوس
السادس بدأ حبريّته في ظلّ طالع سعيد من إحدى
نبوّات القدّيسة بريجيت مضمونها: «إرادته الصالحة
تغني عن أعماله وتلقى مكافأة». غير أنّ الإرادة
الطيّبة ما كانت كافية لإعادة النظام إلى مجلس
الكرادلة الذي كان يسيطر في أڤينيون، ويسعى

لإخضاع إرادة البابا إخضاعًا تامًّا لإرادة الأمراء (الحكّام) الذين كان يمثّلهم أصحاب المصالح: الكرادلة. وكان الفريق الفرنسيّ مهيمنًا على الفرقاء الآخرين. فكّر البابا في إعداد الطريق للعودة إلى روما، وهي المهمّة الرئيسة التي أوكل أمرها إلى الكردينال ألبورنوث، مؤسّس المعهد الإسبانيّ في بولونيا (إيطاليا). غير أنّ إنّوقنطيوس السادس توفّي قبل أن يباشر العودة إلى روما، ليحقّق حلم الباباوات وحلم شعب روما ضحيّة المنازعات بين عائلتي كولونّا وأورسيني.

في ١٣٥٤، وهي السنة التي تمّ فيها غرق مثال العظمة الأعلى الذي حلم به رينزو في نهر التيبر، كان الكاتب بُوكاتشيُو في أڤينيون سفيرًا لفلورنسا. وكانت مدينة نهر أرنو (فلورنسا) تعدّ العدّة بين تلالها الساحرة المتناغمة، لتقفز القفزة الكبرى إلى الكمال الذي جعل منها وريثة أثينا.

١٩٩ - أُرْبانس الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠)

هو غليوم دي غريموار وقد أعطته مجموعة أخبار ألمانيّة في عصره اسم «نور العالم» (Lux Mundi). إنّه بابا العودة إلى روما. دعاه پيتراركا «ممثّل الشمس والعدالة» في نشيد خصّه به في ١٦ تشرين الأوّل/أوكتوبر، حين كان أُرْبانس الخامس يدخل المدينة الخالدة دخول الظافرين، يصحبه الكردينال ألبُورنوث صانع هذه الأعجوبة الحقيقيّ، أعجوبة أعدّها بنشاط سياسيّ بالغ طوال أربع عشرة سنة في إيطاليا.

في ١٣٦٨، توّج أُرْبانس شارل الرابع إمبراطورًا على روما مسجّلًا التصالح بين الكرسيّ المقدّس

والإمبراطوريّة. وفي ١٣٦٩، وفد إلى روما إمبراطور بيزنطية، يوحنّا الخامس پاليولوغُس (Paléologue) الذي جحد الانشقاق وانضمّ إلى الكثلكة. إلّا أنّ خطوة الإمبراطور هذه لم تأتِ، لسوء الحظّ، بالنتائج المرجوّة.

وتجنّبًا لاندلاع الحرب ثانيةً بين فرنسا وإنكلترا، وإذ أثارت فيه الذعرَ الاضطراباتُ التي عادت تهدّد إيطاليا، وتحت ضغط الكرادلة الفرنسيّين، رجع أُرْبانس إلى أڤينيون حيث مات بعد قليل بحسب نبوءة القدّيسة بريجيت.

هناك واقعة تثبّط العزائم في الغرب وتلقي ظلًّا مأساويًّا على حبريّة أُرْبانس الخامس. فأحد الأهداف الذي دفع إمبراطور بيزنطية إلى التقرّب من روما أمله في أن يَلقى لدى الأمراء الغربيّين الدعم الضروريّ للقيام بحملة صليبيّة جديدة، وإقصاء الأتراك عن بيزنطية، إذ إنّهم كانوا يتقدّمون باتّجاهها تقدّمًا مستمرًّا. كان الكفّار يهدّدون العالم المسيحيّ وليس مَن يعي الخطر. فالمدن الواقعة على البحر المتوسّط، البندقيّة، وجنوى، وپيزا، والمدن الأخرى رفضت مساعدة الحملة مكتفية وراضية بأعمال التجارة مع الأتراك وما تحقّقه من ازدهار ولو على حساب بيزنطية وعلى حسابها هي، أيضًا، لأنّ الأتراك كانوا يتقدّمون من دون توقّف، وكان كلّ اتّفاق تعقده البندقيّة، مثلًا، مع الكفّار، ينجم عنه سقوط قسم من الأراضي البندقيّة في يد السلطان. فسياسة الغرب التجاريّة هذه القائمة على ازدهار خادع، في ظلّ اتّفاقات بعدم الاعتداء ما كان الأتراك يحترمونها أبدًا، وكانت على المسيحيّين وخيمة. فأوّل نتيجة لهذا الموقف السياسيّ المغفّل

كانت سقوط القسطنطينيّة، يليه سقوط جميع ممتلكات البندقيّة في شرق البحر المتوسّط. وتحت ستار الاتّفاقات مع المدن الغربيّة، كان الأتراك يتابعون تقدّمهم نحو الشمال والغرب. فهُزِمت على التوالي بلغاريا، وصربيا، والدولتان الرومانيّتان، ومولداڤيا، وڤالاشيا بعد مقاومة بطوليّة، وسقطت تحت النير التركيّ، في حين كان الغربيّون يوقّعون اتّفاقات تجاريّة مع مبعوثي السلطان ويصدّرون منتوجاتهم إلى أسواق الشرق، وهم يفكّرون في أنّ التاريخ إنّما يكتب في الأسواق.

أمّا في إنكلترا، فقد طلب البابا إلى الملك إدوار الثالث أن يدفع الضريبة التي كان التزم بتأديتها يوحنّا بلا أرض (Jean sans Terre)، إلّا أنّ الملك رفض تسديدها. واستشير في الموضوع يوحنّا ڤيكلف فردّ بأنّ الوعد الذي قطعه يوحنّا بلا أرض باطل وغير ذي أثر.

مات أُربانس الخامس في أوج حركة إصلاحيّة. فقد حاول بجميع الوسائل كبحَ الجشع الماديّ الذي كان يظهر في سلوك موظّفي بيت مال البابويّة، ووضعَ حدًّا للخلل في أعمال الدوائر. أُعلِن طوباويًّا في ١٨٧٠.

٢٠٠ – غريغوريوس الحادي عشر (١٣٧٠-١٣٧٨)

هو آخر بابا فرنسيّ. كان يحمل اسم عمّه إقليمنضس السادس: بيار – روجيه دي بوفور. رجل مثقّف وحكيم. درس على القانونيّ الشهير في بيروزا: بييترو بالدو دللي أوبالدي. كان محبًّا للفنون والآداب وجمع في مكتبة أڤينيون عددًا كبيرًا من

المخطوطات الثمينة. ديبلوماسيّ رفيع، نشط وسيطًا بين فرنسا وإنكلترا، وأعاد التفاهم بين الإمبراطور وملك هنغاريا. أثارت تجاوزات نظام الماليّة استياءً في إنكلترا، حيث كان ڤيكلف (Wyclif) يثور على رجال الإكليرس، وفي بوهيميا. في إيطاليا، قامت فلورنسا على رأس عصبة كانت تناضل ضدّ قصّاد البابا الفرنسيّين وتهدّد بفَصْل أراضي الدولة البابويّة عن رومة. فأرسل البابا إلى إيطاليا روبير الجنيڤيّ الذي هزم الإيطاليّين في تشيزينا (Cesena) في ١٣٧٧ وسبّب لاحقًا مجزرة حقيقيّة بين المهزومين رغم تدخّل البابا للحؤول دونها. وكانت الشابّة كاترين السيانيّة قد حاولت، عبثًا أن تصالح الفلورنسيّين مع البابا غريغوريوس الحادي عشر، لكنّها استغلّت وجودها في أڤينيون لتدعو البابا كي يرجع إلى إيطاليا. وهذه القدّيسة، وهي من ألمع شخصيّات الكنيسة الغربيّة وأكثرها صفاءً، وشفيعة إيطاليا إلى جانب القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، وجّهت إلى البابا رسائل خلقيّة سامية أيّما سموّ، تشكّل وثائق بليغة عن هذه الحقبة التي كانت فيها النفوس تصبو إلى عودة خليفة بطرس إلى رومة، وإلى إشاعة السلام في شبه الجزيرة الإيطاليّة. فاقتنع غريغوريوس بكلام كاترين، وأبحرَ في ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٣٧٦ من على الشاطئ الفرنسيّ ونزل على مصبّ نهر التيبر في ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٣٧٧ بعد سفر فاجع توسّل في أثنائه مساعدة كاترين في لحظة كان مركبه يشرف فيها على الغرق. وكان رجوعه انتصارًا. توفّي في السنة التالية بعد أن بنى برج الأجراس في كنيسة القدّيسة مريم الكبرى، وهو آخر نموذج من الهندسة الرومانيّة في المدينة الخالدة.

٢٠١ - أُرْبانس السادس (١٣٧٨-١٣٨٩)

كان شعب رومة يريد بابا رومانيًّا، وهو أمر
صعب آنذاك لأنّ أكثريّة الكرادلة كانوا فرنسيّين.
وأمام خطر انتفاضة أنذر بها اجتياح الشعب لاتران،
انتخب مجمع الكرادلة بَرتُولُومِي پرِنْيِيانُو، رئيس
أساقفة باري، وهو من أصل نابوليتانيّ. وافق على
انتخابه جميع الكرادلة ومنهم روپِرْتو الجنيڤيّ
(de Genève) وبدرو دي لونا اللذان صارا فيما بعد
بابوَيْن منشقَّيْن. أثار مسلك البابا الجديد استغراب
الكثير ومسّ شعورهم. تصرّف بدون ديبلوماسيّة
إطلاقًا، بل بدون رحمة أحيانًا، وكان السبب في
القطيعة التي شطرت الكنيسة الغربيّة قسمين طوال
سنوات عديدة. فذات يوم، بعد أن أفصح عن
استيائه من كثرة الفرنسيّين في مجمع الكرادلة،
استشاط غضبًا روبير الجنيڤيّ الملقّب بـ «جلّاد
سِيزِينا»، فغادر رومة وانكفأ إلى أنايني حيث أعلنه
المنشقّون بابا باسم إقليمنضس السابع وكان يؤيّدهم
في ذلك ملك فرنسا ويدعمهم جيشه. هكذا بدأ
الانشقاق. وانبرى ملوك أوروبّا وشعوبها حالًا
يؤيّدون هذا أو ذاك من البابوين. فأيّدت البابا
المنشقّ فرنسا، وإسبانيا، وإسكوسيا، وإيطاليا
الجنوبيّة، في حين ظلّ على الأمانة لأُرْبانس
السادس ألمانيا، وبولونيا، وهنغاريا، ووسط
إيطاليا، وشمال إسكنديناڤيا. وأعلنت القدّيسة
كاترين السيانيّة والقدّيسة كاترين السويديّة، ابنة
القدّيسة بريجيت، وقوفهما إلى جانب بابا رومة. أمّا
القدّيس منصور فِرّير (V. Ferrer) والقدّيسة كوليت
الفرنسيّة فأيّدا إقليمنضس. ولكان وضع أُرْبانُس
تحسّن نظرًا إلى كثرة الذين تبعوه، لولا أنّه أساء

استعمال السلطة بما أفصح عن خلل عقليّ يعاني
منه. ففي الحرب التي أعلنها على حنّة ملكة نابولي،
تصرّف تصرُّفَ قائد مرتزقة، مثيرًا الرعب في السكّان
المدنيّين ومُظهرًا وحشيّة بالغة. وكانت تلك مناسبة
مؤاتية لجميع الهراطقة والساخطين. فجان ڤيكلِف،
في إنكلترا، أثار الفلّاحين ضدّ الإكليرس والنبلاء؛
وحصلت ثورة مشابهة في بوهيميا؛ وفي إيطاليا،
راح الرهبان والعلمانيّون وقتئذٍ يعلنون مجيء المسيح
الدجّال، وفقًا لتنبّوءات يواكيم دِل فِيوري. وفي
١٣٨٥، قام فريقٌ من الكرادلة ضدّ أُرْبانس السادس
الذي تمكّن من توقيف المتمرّدين وحكم على خمسة
منهم بالإعدام. لكنّ اثنين من المذنبين، وكان قد
عفا عنهما، انضمّا إلى البابا المنافس.

وفي ١٣٨٠، في أثناء حبريّة أُرْبانس السادس ذي
الذكرى المؤسفة، توفّيت كاترين السيانيّة في مسقط
رأسها. كانت قد حاولت تسكين فورات الغضب
لدى البابا، لكنّ محاولاتها ذهبت سدى. لقد
خصّها الكاتب الدنماركيّ المعاصر، يوهانّس
يُورْغِنسن بدراسة رائعة عن سيرتها. والكاتب نفسه
هذا وضع سيرة للقدّيس فرنسيس الأسّيزيّ وللقدّيسة
بريجيت السويديّة.

كانت كلّ الدلائل تشير إلى أنّ حزب أُرْبانس
السادس سينهار مع غياب البابا، وأنّ الكرادلة
الباقين الأوفياء له سيعلنون خضوعهم لإقليمنضس
لتستردّ الكنيسة وحدتها. لكنّ هذا لم يحصل.

٢٠٢ - بونيفاقيوس التاسع (١٣٨٩-١٤٠٤)

إختار الكرادلة الأربعة عشر المجتمعون في رومة
پيِتْرو تُوماتْشِيللي، كردينال نابولي، بابا جديدًا،

فاتّخذ له اسم بونيفاقيوس التاسع. وأوّل ما حقّقه توصّله إلى عقد السلام مع نابولي. كان مختلف الطبع تمامًا عمّا كان عليه سلفه، فحظي منذ اللحظة الأولى بتعاطف الشعب معه. في ١٣٩٤، مات البابا المنافس إقليمنضس السابع، فتُوهِّم أنّ الانشقاق سيزول، إلّا أنّ الكرادلة الفرنسيّين اختاروا خليفة لإقليمنضس بشخص پدرو دي لونا الذي اتّخذ اسم بندكتس الثالث عشر. لم يَنْصَعْ الأراغونيّ القاسي لإيعازات جامعة باريس التي كانت تقوم بدور الحكم فحاولت إرغام البابوين على الاستقالة بعد أن عيّنت لجنة مختلطة لتختار البابا الجديد. وموقف پدرو دي لونا الذي كان يعيش متوحّدًا ومتقشّفًا في قصره بأڤينيون، قاد إلى ما يُعرف في تاريخ الكنيسة بـ«سَحْب الطاعة» الذي مارسته فرنسا، وقد تبنّاه مجمع وطنيّ عُقد في ٢٨ تمّوز/يوليو ١٣٩٨. وتخلّى عن پدرو دي لونا قشتالة، وناڤارّا (اثنتان من ممالك إسبانيا)، وكذلك القدّيس منصور فرّير وعددٌ من الكرادلة. وتبنّى الإكليرس الفرنسيّ ما يشبه دستورًا مدنيًّا، واتّخذ إزاء البابا تدابير أشدّ قساوة من تلك التي اتّخذها نابوليون تجاه بيّوس السابع، وأعلن استقلاله عن رومة وعن أڤينيون. وهذا الموقف فتح الباب أمام الغاليكانيّة[٣٦] التي ظهرت في ما بعد مرارًا إبّان مجرى التاريخ. ومع هذا، ففي ١٤٠٣ أبلغت جامعة باريس پدرو دي لونا «إعادة الطاعة»، طالبة إليه الدعوة إلى عقد مجمع عامّ في مهلة سنة. وبفعل طبع بندكتس الثالث عشر

(٣٦) الغاليكانيّة، في الدين الكاثوليكيّ مذهب لاهوتيّ ونزعة سياسيّة يهدفان إلى استقلال الكنيسة الوطنيّة عن الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ.

الشديد الحذر، فإنّ فكرة مجمع مستقلّ عن إرادة البابوَيْن راحت تشقّ طريقها إلى النفوس في تلك الحقبة.

أسّست رهبنة نسكيّة جديدة، حديثة العهد، في هولندا، باسم «إخوة الحياة المشتركة». من هذه البيئة التي كانت تصارع لتجديد الحياة المسيحيّة ظهر أهمّ كتاب بعد الإنجيل هو **الاقتداء بالمسيح**، المنسوب إلى توماس الكَمْپيسيّ، أحد أعضاء الجماعة التصوّفيّة في ڤِينْدشايم، المركز الأساسيّ لهذه الرهبنة.

٢٠٣ - إنّوقنطيوس السابع (١٤٠٤-١٤٠٦)

قُزْماتُو دي ميليوراتي، كان كردينالًا على بولونيا ورئيس أساقفة راڤينا؛ لمع بمواهبه العلميّة وبثقافته الإنسانيّة أكثر ممّا لمع بمواهبه الكهنوتيّة. كرّس كلّ اهتماماته لجامعة رومة المنشأة حديثًا التي استدعى إليها العالِمَيْن الإنسانيّين الشهيرين پُوجِيُو بْراتِشِيوليني وليونَرْدُو بْروني.

إنعقد المجمع الوطنيّ الفرنسيّ في باريس سنة وفاة إنّوقنطيوس السابع.

٢٠٤ - غريغوريوس الثاني عشر (١٤٠٦-١٤١٥)

هو أنجِيلو كُورِّير، بندقيّ، كان له من العمر سبعون عامًا حين انتخبه الكرادلة المجتمعون في رومة. قرّ رأي المجمع عليه شرط أن يستقيل إذا استقال پدرو دي لونا. كان مؤمَّلًا بهذه الطريقة حلُّ مشكلة الانشقاق الخطيرة والتمكّن من تنصيب بابا واحد. غير أنّ بندكتُس الثالث عشر لم يرضخ، ولم

يرضخ غريغوريوس الثاني عشر. وتأزّم الوضع حين انعقد المجمع في پيزا (١٤٠٩) وانتخب الكرادلة والأساقفة بابا آخر بشخص كردينال ميلان: پييترو فِيلارْجيس، من أصل يونانيّ، اتّخذ اسمًا له إسكندرَ الخامس. فصار للمسيحيّين عندئذ ثلاثة باباوات، ذلك أنّ الاثنين اللذين أقالهما المجمع رفضا التنازل عن التاج. في ١٤١٠، خلف الكردينال بَلْطاسار كوسّا إسكندرَ الخامس متّخذًا اسم يوحنّا الثالث والعشرين. وكان من المقرّر أن ينعقد مجمع في رومة، إلّا أنّ المدينة الخالدة نهبتها العساكر النابوليتانيّة، فالتجأ يوحنّا الثالث والعشرون إلى ألمانيا حيث كان الإمبراطور سيغيسموند قد حقّق الوحدة بتفاهمه مع أخيه ڤِنْسِسْلاس. فقرَّر الإمبراطور التدخّل لإعادة الوحدة إلى الكنيسة، فأرغم يوحنّا الثالث والعشرين على الدعوة إلى مجمع، فتمّ انعقاده في كونْستانزا في ١٤١٤. وعندما أدرك يوحنّا الثالث والعشرون أنّ الشخصيّات المجتمعة لا تُقيم وزنًا لشخصه، غادر المجمع ولجأ إلى شافهاوس. فاستخلص المجمع آنذاك أنّ سلطته نابعة مباشرة من الله، وأنّه، بالتالي، أرفع سلطة من البابا. وهكذا تابع أعماله بشكل ملائم، خصوصًا أنّ البابا الشرعيّ، غريغوريوس الثاني عشر، ارتضى التخلّي عن العرش. وقد أبلغ مبعوثه، يوحنّا دُومِنِيتْشي، المجمعَ قرار البابا الذي توفّي بُعَيْد ذلك. وبقي في الساحة بندكتُس الثالث عشر الذي كانت تعترف به إسبانيا وجنوب فرنسا. واتّصل الإمبراطور سِيغِيسْمُونْد بملك أراغون (إسبانيا)، فأرسل هذا مندوبَيْن إلى مجمع كونْستانزا. وفي ٢٦ تمّوز/ يوليو ١٤١٥، أُعلِن پدرو دي لونا هرطوقيًّا

ومنشقًّا. أمّا بندكتس الثالث عشر فلم يعترف بصحّة هذا القرار، وامتلأ مرارة، فحَبَسَ نفسه في قصر پِنِيسْكولا[٣٧] حيث مات سنة ١٤٢٢.

بعد يومين من تنحّي غريغوريوس الثاني عشر، حرم مجمع كونستانزا جان هوس، هرطوقيّ پْراغ، وتلميذ فِيكْلِف. فأُحرِق حيًّا في ٦ تمّوز/يوليو ١٤١٥ في كونستانزا. كان هوس رمز المقاومة ضدّ الألمان، فصار ضحيّة الإمبراطور سِيغِيسْمُوند الذي رأى فيه منافسًا خطيرًا له في بوهيميا. وما لبث الفلّاحون أن انتفضوا في جميع أنحاء البلاد، فخنق الإمبراطور الانتفاضة بوحشيّة. وعلى إِثْر سقوط بندكتس الثالث عشر، بقي مجمع كونستانزا السلطة الوحيدة المعترف بها في جميع الدول المسيحيّة الغربيّة. وفي ١١ تشرين الثاني نوفمبر ١٤١٧، انتخب المجمع بابا جديدًا، فانتهى بذلك الانشقاق الغربيّ.

٢٠٥ – مرتينس الخامس (١٤١٧-١٤٣١)

هو أوتون كولونّا، آخر بابا من عائلة كولونّا الرومانيّة النافذة. إنتخب في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر يوم عيد القدّيس مرتينس، فاتّخذه اسمًا له عندما أصبح حبرًا أعظم. كان الإمبراطور يرغب في إقناعه بالبقاء في ألمانيا، أمّا الفرنسيّون فكانوا يأملون استقدامه إلى أڤينيون، وأمّا هو، أحد أفراد عائلة كولونّا، فكان يصعب عليه تفضيل أيّ مكان على رومة ليكون كرسيَّه الحبريّ. ومع هذا فلم

(٣٧) مدينة إسبانيّة من مقاطعة كَسْتيلِيون اليوم، تقع على مرتفع منعزل على الشاطئ، جعل فيها پدرو دي لونا (بندكتس الثالث عشر) مقرَّه.

يستطع أن يرجع مباشرة إلى المدينة الخالدة، فأقام زمنًا في مَنْطُو وفي فلورنسا، حيث استقبل يوحنّا الثالث والعشرين. أكّد له البابا المنافس السابق تنازله ومات بعد ذلك بزمن يسير، فدفن في بيت عماد المدينة، وقد زيَّن قبره مِيكِيلُوتْزو ودوناتيللو.

لم يستطع مرتينس أن يعود إلى رومة إلّا حين رضيت ملكة نابولي، حنّة الثانية التي بها انقرضت سلالة أنجو، أن توقّع معاهدة سلام وتغادر المدينة الخالدة. ولدى وصول مرتينس إلى المدينة وجدها خرابًا، مهجورة، بائسة. وأحد أهمّ أفضاله أنّه أعاد تعميرها ونفخ فيها حياة جديدة. وجاء إلى رومة بخيرة الفنّانين من عصر الانبعاث الأوّل: غِيبِرْتي، بِزانِيللو، مازاتْشِيُو، جَنْتِيلي دا فابْريانو، إلخ.

بعد مجمع كونستانزا، ظهر واضحًا أنّ الدول الأوروبيّة أفلحت في تحقيق استقلالها، وأنّ الكنيسة لم تعد تملك السلطان الذي كانت تنعم به إبّان حبريّة غريغوريوس السابع وبعض خلفائه. سارت أوروبّا نحو الانبعاث، وهو عصر راحت فيه الدول تفصح باطّراد عن وحدتها وقوّتها، بحيث إنّ الآداب والفنون، بتأثير العصر القديم، وبفضل معتنقي الفلسفة الإنسانيّة وعملهم البنّاء، جعلت من الإنسان مقياس الأشياء جميعًا. وصار جسم الإنسان العاري، والجميل، الكامل والمستقلّ، رمز هذه الحقبة المميّزة تمامًا فكريًّا عن العصر الوسيط، أفي مجال الفكر الدينيّ كان أو الخلقيّ. وما كان لهذه الذهنيّة الجديدة أن يغيب تأثيرها عن الكنيسة، بل إنّ خطأ الكنيسة في السنوات التالية، كمَن، بالضبط، في استسلامها إلى مباهج الفلسفة الجديدة، وهي وثنيّة أكثر منها مسيحيّة.

وفقًا لما كان قد تقرّر في مجمع كونستانزا، كان على البابا أن يدعو إلى عقد مجمع آخر يقوم بإصلاح الكنيسة من أعلى الهرم إلى أسفله. لم يكن مرتينس الخامس من محبّذي عقد المجامع، لكنّه كان وفيًّا للالتزامات التي تمَّ التعهّد بها. فدعا إلى اجتماع جديد في پاڤيا، ومنها نُقل، بسبب الطاعون، لينعقد في سيينا (١٤٢٣). على أنّ الأحداث في أوروبّا - الحرب ضدّ المسلمين في إسبانيا، وهي آخر فصل من استرجاع البلاد من أيديهم، والحرب بين فرنسا وإنكلترا، والاضطرابات في بوهيميا - لم تسمح بأن يكون الإقبال عليه كبيرًا بقدر الرغبة في ذلك. فحلّ البابا الاجتماع واختار مدينة بال في سويسرا مركزًا للمجمع فيما بعد، حيث كان على الكرادلة والأساقفة أن يجتمعوا بعد سبع سنوات.

أخذ مؤرّخون عديدون على مرتينس الخامس قلّة اهتمامه بمعالجة الأضرار التي كان يعاني منها مبنى القدّيس بطرس. على أنّ العمل الذي حقّقه كان باهرًا. يكفي أنّه أعاد بناء رومة في وقت كان الجميع قد هجر مدينة نهر التيبر، والذئاب تهدّد حياة مَن بقي فيها من السكّان وتنبش الجثث في المقابر، واللصوص يعرّون مبانيها الفخمة من أواخر آثار روعتها، والكنائس تحوّلت إسطبلات. إذ تكفي هذه الأعمال لتكوّن فضلًا له خالدًا. زد على ذلك أنّ مرتينس الخامس رعى القدّيسَيْن الأكثر شهرة في زمنه: القدّيس برنردينس السيانيّ، والقدّيسة فرنسواز الرومانيّة. وفي مجرى مجمع الرهبان الفرنسيسكان العامّ في أسّيز، في حزيران/يونيو ١٤٣٠، انفصل الديريّون نهائيًّا عن المتمسّكين بالقانون القديم. وقد

أعطى برنردينس الوعظَ الفرنسيسكانيّ زخمًا جديدًا، مركّزًا على الشرور التي تلقي بثقلها على معاصريه، وأذن له مرتينس أن يعظ في رومة طوال ثمانين يومًا، وحضر شخصيًّا لسماع عظاته القاسية. وفي الفترة نفسها، كانت فرنسواز الرومانيّة، أرملة لورَنْزو بُونْزِياني، جمعت حولها خادمات القدّيسة مريم، وهنّ نساء تقيّات كرّسنَ ذواتهنّ لأعمال المحبّة. فأنعم مرتينس عليهن برعايته. وقبل أن يموت دعا إلى عقد مجمع بال.

٢٠٦ - أفجينيوس الرابع (١٤٣١-١٤٤٧)

غبريال كونْدولْمير، كان ينتمي إلى أشراف البندقيّة، وهو ابن أخت غريغوريوس الثاني عشر الذي عيّنه أسقفًا على أبرشيّة سيينّا ورقّاه إلى الكرديناليّة. طبع حبريّته الطويلة النزاعُ الكبير الذي حصل في مجمع بال. في ١٤٣١، أعلن حلّ المجمع، إلّا أنّ عددًا كبيرًا من الكرادلة المشتركين فيه تخلّوا عن البابا وأعلنوا أنّ الحبر الأعظم، كائنًا مَن كان، لا يستطيع أن يحلّ مجمعًا. ونقولا دي كوسا، في كتابه **في التوافق الكاثوليكيّ** *(De concordantia catholica)* يؤكّد أنّ امتياز العصمة إنّما يعود إلى المجمع وحده. ويؤكّد القضيّة نفسها الكردينال إينِياس سيلْفِيوس پيكّولوميني الذي صار البابا بيّوس الثاني، ويتوافق مع كليهما المندوب البابويّ عينه الكردينال قيصاريني. وإنقاذًا لمبدأ الأوّليّة وبناءً على نصيحة سيغيسموند الذي كان قد تلقّى التاج الإمبراطوريّ في رومة ١٤٣٣، ألغى أفجينيوس الرابع قرار حلّ مجمع بال واعترف بصفته المسكونيّة. إلّا أنّ الوضع لم يتطوّر لصالحه.

فالمتطرّفون في المجمع كانوا يريدون أن يحوّلوه [المجمع] إلى سلطة دائمة ومرجع أعلى، ليحرموا الكنيسة من طابعها الملكيّ [ذي الرأس الواحد]. وازدادت الحال سوءًا في إيطاليا، فاضطرّ أفجينيوس إلى أن يلجأ إلى فلورنسا بعد أن اجتاح فيليب ماريا ڤيسكونتي، من ميلانو، الدول البابويّة. وفي ١٤٣٥، صوّت المجمع على إلغاء «السنويّات»، أي الضرائب، والحقوق، والرسوم التي كان يجبيها الكرسيّ المقدّس. وحصلت القطيعة، أخيرًا، حين نقل البابا المجمع إلى فيرّارا، في إيطاليا، في حين بقي في بال العدد الأكبر من الكرادلة وعلى رأسهم لويس أليمان، أسقف آرْل (Arles).

في ذلك حصل اعتراف إمبراطور القسطنطينيّة بسلطة البابا، وما كان الأمر منتظرًا. فما بقي من الإمبراطوريّة البيزنطيّة السابقة كان يتملّكه باستمرار هاجس الاجتياح التركيّ. فشبه الجزيرة البلقانيّة كلّها تقريبًا تمّ الاستيلاء عليها، وإلى الشمال، كانت الإمارتان الرومانيّتان، ڤالاشِيا ومُولْداڤيا، تصارعان للمحافظة على استقلالهما بوجه الغزاة الكفّار. فجاء حينئذ يوحنّا پاليولوغُس (Paléologue) إلى إيطاليا، يصحبه بطريرك القسطنطينيّة، فاشتركا، بناءً على دعوة البابا، في مجمع فيرّارا الذي جرى نقله بسرعة واضطرارًا إلى فلورنسا بسبب الطاعون الذي كان يهدّد المدينة. وفي ٥ تموز/يوليو ١٤٣٩، تمّ التوصّل إلى اتّفاق، وترك بِينُوتْزو غُوتْزُولي شهادة على روعة المجمع وعظمته في الجداريّة التي يمكن الاستمتاع بمرآها حتّى اليوم في قصر آل ريكاردي في فلورنسا.

كانت المسائل الأربع التي طرحت على بساط

البحث وتمّ حلّها، هي التالية:

١ - ومَن الابن، أي إنّ الروح القدس منبثق من الآب والابن.

٢ - الفطير، أي الخبز الذي يستعمله الغربيّون للإفخارستيّا.

٣ - المطهر.

٤ - أوّليّة البابا.

يؤكّد الاتّفاق سلطة البابا مستخفًّا بالذين كانوا مجتمعين في بال. إلّا أنّ مسألة اتّحاد الكنائس لم تجد لها، وللأسف، حلًّا نهائيًّا على إثر مجمع فلورنسا. فإنّ قسمًا من الإكليرس اليونانيّ لم يقبل الوحدة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنّ بيزنطية سقطت بعد سنوات قليلة في يد الأتراك واضمحلّت الإمبراطوريّة البيزنطيّة إلى الأبد.

أمّا مجمع بال، وانتقامًا من الإهانة التي ألحقها به مجمع فلورنسا، فقد صوّت على خلع أفجينيوس الرابع وأعلنه هرطوقيًّا في ١٥ تمّوز/يوليو ١٤٣٩. وفي ٥ تشرين الثاني/نوفمبر أعلن بابا دوقَ سافوا أميدِي الثامن الذي اتّخذ له اسم فليكس الخامس.

كان آخر بابا منافس يعيش حياة نسكيّة تقريبًا. كان قد أسّس في ريباي (Ripaille)، في سويسرا، منظّمة فرسان القدّيسين موريس ولعازار وشعارها «خدمة الله هي تولّي المُلك» (Servire Deo regnare est). كان أميدي سياسيًّا بارعًا وإنسانًا لا غبار عليه، إلّا أنّ زمن الباباوات المنافسين كان قد ولّى، فلم يعترف به أحد. وفي ١٤٤٩، بعد موت أفجينيوس الرابع، تنحّى فليكس الخامس واعتزل في دير القدّيس فرنسيس في لوزان، إلّا أنّه حافظ على

المركز الكنسيّ الأوّل بعد البابا، كما احتفظ بعدّة امتيازات غير عاديّة.

شُهِرَ أفجينيوس الرابع برعايته الفنون. فقد استقدم إلى رومة فرا أنجيليكو من فلورنسا، وجان فوكيه ودوناتيللو. وأوكل صنع الباب البرونزيّ على مدخل باسيليكا مار بطرس الرئيسيّ إلى أنطونيو فيلاريتي الذي قضى في صنعه اثنتي عشرة سنة من دون انقطاع. وكان الموسيقيّ البلجيكيّ، غليوم ديفي (Dufay) ملحقًا بالمعبد البابويّ وألّف في رومة: «مناضل الكنيسة» (Ecclesiae militans) وهي ترتيلة خاصّة لتتويج البابا، و«حديثًا الورود» (Nuper rosarum flores) لمناسبة تكريس كاتدرائيّة فلورنسا، في ١٤٣٦.

في ٣٠ أيّار/مايو ١٤٣١، مطلع حبريّة أفجينيوس، كان الإنكليز قد أحرقوا جان دارك، فتاة أورليان.

٢٠٧ - نقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥)

أوّل الباباوات الكبار في عصر الانبعاث، رجل عميق الثقافة.

كان سلطان الكنيسة الروحيّ قد فقد هيبته بالرغم من الوحدة التي تمّت في فلورنسا مع الكنيسة الشرقيّة. فالأمراء الذين كانوا يعترفون بالبابا حَكَمًا في الأمور الكنسيّة بدأوا يفصحون عن نيّتهم في أن يصيروا رؤساء لكنائسهم الخاصّة، أو أقلّه، أن يحصروا بيدهم أكثر الامتيازات المعترف بها من اختصاص البابا. فإذا كان اتّفاق ڤيينّا (١٤٤٨) المعقود بين إينياس سيلڤيوس پيكولوميني، ممثّل البابا، والأمراء الألمان يعطي البابا ثانية بعضًا من امتيازاته السابقة، إلّا أنّ الوضع، بالرغم من ذلك،

ظلّ يثير القلق. ففرنسا كانت قد أعلنت الحرّيّات الغاليكانيّة، وشارل السابع حقّق الاستقلال الذاتيّ للكنيسة الفرنسيّة، وذلك بجعله البرلمان يصدّق على **الإبرام العمليّ** *(Pragmatique Sanction)* قانونًا أساسيًّا للدولة. فغدا الإكليرس الفرنسيّ مرتبطًا بالملك الذي كان يلقّب نفسه مُصلح الكنيسة الوحيد، ويخفض إلى الحدّ الأدنى الضرائب التي يجب أن تدفع للماليّة البابويّة.

وضع اتّفاق ڤيينا حدًّا لمجمع بال الذي غادر أعضاؤه المدينة في ١٤٤٨، معترفين بصحّة انتخاب نقولا الخامس. وقد كتب الكردينال پيكّولوميني في السنة نفسها: «أنّ أوقاتًا عصيبة تنتظرنا».

في ٢٩ أيار/مايو ١٤٥٣ سقطت القسطنطينيّة ومات الإمبراطور في المعركة. كانت تلك ضربة قاسية للمسيحيّة، وبخاصّة لنقولا الخامس الذي حاول حالًا أن ينظّم حملة صليبيّة. إلّا أنّ أحدًا لم يُعِر الأمر اهتمامًا. فالعصبة التي أَلَّفها في إيطاليا من نابولي، وفلورنسا، والبندقيّة، وميلانو في ١٤٥٥ أعادت السلام إلى شبه الجزيرة، لكنّ أحدًا لم يقم بخطوة لمواجهة الاتراك، بل العكس ما حصل. فقد أسرع الجميع لتوقيع معاهدات تجاريّة معهم والإخلاد إلى حياة «التعايش» الهانئة ظاهرًا والخادعة في الحقيقة، في حين كان الأتراك يستولون أواخر حصون المسيحيّين في اليونان وفي الأرخبيل، بل إنّ التعايش السلميّ دَفَع الأتراك إلى أن يبلغوا أسوار ڤيينا وإخضاعهم شعوبًا بأسرها لنير الهلال، أي لأشدّ الاستعباد وحشيّة.

وحادث آخر هزّ البابا هو محاولة اغتياله التي

نظّمها إتيان پوركارو، وهو نبيل فلورنسيّ مولع بالتاريخ القديم، منافس كولا دي ريِنْزو، ومدافع عن الحرّيّات الجمهوريّة. فقد هاجم إتيان المذكور، ذات يوم، الڤاتيكان بقصد اغتيال الأب الأقدس والكرادلة، وتحرير المدينة الخالدة في زعمه. لكنّه اعتُقِل وأُعدِم وهو يصرخ: «إيه يا شعبي! في هذا اليومَ يموت محرّرك!». في ١٤٥٠، احتفل نقولا الخامس بالسنة المقدّسة في روما بالسلام الداخليّ الذي تحقّق على إثر اتّفاق ڤيينا، ولإعلان قداسة برنردان السيانيّ. إلّا أنّ محاولة پوركارو وسقوط القسطنطينيّة سدّدا ضربة قاسية لصحّة البابا.

والبابا نقولا المشبع بالثقافة الإنسانيّة كان أحد أوفر رعاة الآداب والفنون فهمًا في أثناء حقبة كان الأمراء يحسنون فيها حماية الفنّانين. فقد كلّف ببناء باسيليكا القدّيس بطرس الجديدة المهندس الفلورنتينيّ لاون باتِّيستا أَلْبِرْتي مؤلّف كتاب شهير: **في شؤون العمارة**. إلّا أنّه لم يبق من تصاميمه القديمة التي عُدِّلت بعد موت نقولا الخامس، إلّا أجنحة آل بورجيا. وبْرامانْتي هو الذي أكمل وتابع أعمال البناء. واكتسبت أهمّيّة مكتبة الڤاتيكان التي أغناها البابا بالمراجع التي اشتراها لها. فقد نُقِلت إلى إيطاليا ألوف من المخطوطات اليونانيّة تمّ إنقاذها بعد سقوط بيزنطية فاشتراها الأب الأقدس. وكانت مكتبته الخاصّة أغنى المكتبات في القرن الخامس عشر. والكاردينال بيسّاريون اليونانيّ القسطنطينيّ، عمل في فلورنسا على تعريف الفلسفة الأفلاطونيّة التي حلّت محلّ فلسفة أرسطو التي كانت قد بلغت أوج الشهرة والانتشار في العصر الوسيط. كما يعود تكوين روح النهضة إلى مَرسيلو

فِتْشينو ومعتنقي الفلسفة الإنسانيّة الأفلاطونيّين في
فلورنسا الذين تابعوا التقليد الذي خطّه بِتّساريون.

وعمل فنّانون عديدون في رومة تحت رعاية البابا
المباشرة، ومن هؤلاء فرا أنجليكو، وأندريا دِل
كستانيو، وبيرو دِلّا فْرَنْتشيسكا، وبِنوزو غُوتْزُولي.
فطفا روح الانبعاث، وهو في جوهره وثنيّ، على
بيت بطرس. وقبل هذا التاريخ، كان كالُوتْشيو
سالوتاتي قد بدأ الكلام على الإنسان المتفوّق وعلى
أخلاقيّته، وهو ما تحوّل بسرعة إلى فضيلة العصر،
مثال أعلى بعيد عن المسيحيّة، آل فيما بعد إلى
«إرادة القوّة» لدى نِيتْشِه. وعرفت الفنون تطوّرًا
خارقًا، أمّا الكنيسة، بخضوعها لخلقيّة الجسد،
فتركت الرذيلة والجريمة تستوليان على الڤاتيكان.
وبعد خمسين سنة من موت نقولا الخامس، بلغت
الكنيسة قعر الانحطاط الخلقيّ فأحدث ذلك تمرّد
لوثر.

إبّان حبريّة نقولا الخامس، عاش جان كابِسْتْران
ووعظ في ١٤٥٢. توّج البابا في روما فردريكَ
الثالث وأعطاه لآخر مرّة لقب إمبراطور وبارك زواجه
من إليونور البرتغاليّة. ومذ ذاك ولّى زمن
التتويجات.

٢٠٨ - كالِسْتُس الثالث (١٤٥٥-١٤٥٨)

ألُونسُو دي بورْجيا، كان أستاذًا في جامعة لِريدا
(Lerida) (إسبانيا)، ثمّ قدم إلى إيطاليا ليكون في
خدمة ملك آراغون، ألفونسو الخامس (ألفونسو
الأوّل في نابولي). إنتقل ليكون تحت إمرة البابا
مرتينس الخامس، فعُيّن أسقفًا على بَلَنْسية (إسبانيا).
وعندما تصالح ألفونسو الأوّل ومرتينس الخامس،

سمّاه البابا كردينالًا. أعطت عائلتُه الكنيسةَ أحد
أشهر قدّيسيها، القدّيس فرنسيس دي بورجيا، وأحد
أسوأ الباباوات، إسكندر السادس. ولمّا كان قد
تربّى في إسبانيا ونشأ في جوّ الحركة الساعية
لاستعادة الأرض من سلطان المسلمين، فقد كان
محاربًا أكثر منه ذا فلسفة إنسانيّة. وعليه، فمنذ بداية
حبريّته استحوذ على تفكيره مشروع حملة صليبيّة.
وكي يقوم بتنفيذها، أنشأ أسطولًا أبحر في ١٤٥٦
بقيادة الكردينال لويجي سْكارامپو فهاجم الأتراك في
الأرخبيل اليونانيّ. تجاه اللامبالاة التامّة التي
أظهرها الملوك الأوروبّيّون المنشغلون، بشكل
خاصّ، بنزاعاتهم المحلّيّة الصغيرة، وبالطريقة
الفضلى ليصرفوا في بلادهم المال المعَدّ للحملة،
نهض كالِسْتُس الثالث وحده ليجابه الخطر الوحيد
الحقيقيّ القاتل الذي كان يهدّد المسيحيّة. فأرسل
الكردينال خوان كرڤاخال والقدّيس جان كاپِستران
إلى بلغراد حيث كان جان كورڤان هُنْيادي - أمير
ترانْسِلڤانيا الرومانيّ الذي شغل ابنه ماتِيّاس عرش
هنغاريا - يحارب الأتراك ويقود جيشه شخصيًّا.
هُزِم الكفّار واستطاعت المسيحيّة أن تتنفّس
وتستريح. وفي هذه الأثناء، كان أمير مولْداڤيا،
إسطفان الكبير، يقهر أيضًا الأتراك الذين كانوا قد
أرسلوا جيشًا لمحاربته. في هذه الفترة الخطيرة من
تاريخ أوروبّا، كانت مولْداڤيا، وعلى رأسها إسطفان
الكبير، وهنغاريا، وعلى رأسها عائلة هُنْيادي،
الدولتَيْن الوحيدتَيْن اللتين حملتا على محمل الجدّ
الأتراك وكرّستا جهدهما لمقاومتهم. كانت
القسطنطينيّة قد سقطت، وصار نصف القارّة تقريبًا
تحت سيطرتهم، غير أنّ الأمراء المسيحيّين كانوا

منهمكين بمشاريع أخرى، والبندقيّة تتاجر مع
الكفّار. وظهر في ألبانيا بطل آخر يقاوم الأتراك،
هو إسكندر-بك، فساعده كالِسْتُس الثالث ما استطاع
المساعدة. وكانت السياسة الوحيدة الفعّالة ضدّ
الأتراك تقوم على دعم هؤلاء الأبطال الوطنيّين
المناضلين على أرضهم، ينظّمون الجيوش ويهزمون
الأعداء الذين حاولوا اجتياز نهر الدانوب، والتغلغل
في أوروبّا الوسطى. وقد استفاد من مساعدة
البابوات الماديّة والروحيّة، لتلك الغاية، جان
كورْڤان، وإسطفان الكبير، وإسكندر-بك، أبطال
المقاومة ضدّ المسلمين في القرن الخامس عشر.

ولسوء الحظّ، فإنّ الحنيفيّة هيمنت على سياسة
كالِسْتُس الداخليّة، فقد أنعم بالكردينالية على اثنين
من أبناء إخوته: رودريغو ولويس خوان دي بورْجيا؛
وفي ١٤٥٧، عيّن الأوّل منهما نائب مستشار
الكنيسة. سيم رودْريغو كاهنًا في ١٤٥٦، إلّا أنّه ما
انقطع عن سلوك مسلكًا في حياته يخالف مبادئ
الكهنوت. وفي ١٤٩٢ عصب على جبينه تاج
البابويّة.

في ٧ تمّوز/يوليو ١٤٥٦، أعلن كالِسْتُس الثالث
إعادة الاعتبار إلى جان دارك. وظهرت له العذراء
في سيِنّا، وهو حدث خلّده سانو دي پيِتْرو في
لوحة جميلة محفوظة حتّى يومنا في أكاديميّة هذه
المدينة.

٢٠٩ - بيّوس الثاني (١٤٥٨-١٤٦٤)

إغناطيوس سِيلْڤيوس پيكّولوميني، ولد قرب
سيِنّا. لدى انتخابه اتّخذ اسم بيّوس تيمّنًا باسم
إغناطيوس التقيّ (بيّوس Pius باللاتينيّة معناها التقيّ)

بطل الملحمة التي ألّفها الشاعر اللاتيني
ڤيرْجيليوس. درس في سيِنّا وفلورنسا. إشترك في
مجمع بال حيث تعرّف إلى الكردينال كاپْرانيكا
وعمل أمين سرّه رَدَحًا من الزمن. دخل في خدمة
البابا المنافس فليكس الخامس، ثمّ الإمبراطور
فردريك الثالث، وتوّجه الإمبراطور شاعرًا في
فرانكفورت. ألقى محاضرات عدّة في جامعة ڤيِنّا
عن شعراء العصر القديم ففتح طريق العلوم الإنسانيّة
أمام المثقّفين الألمان. وضع قصّة أوريال ولوكْريسيا
(Euryale et Lucrèce) متأثرًا ببوكاتشيو، ونشرت في
١٤٤٤. سيم كاهنًا في ١٤٤٥ فتحت حياته منحًى
جديدًا. أعلن توبته واعترف بجميع أخطائه الماضية.
عيّن أسقفًا على سيِنا في ١٤٤٩، ثمّ كردينالًا في
١٤٥٦. حين تلقّى التاج البابويّ كانت تشغله فكرة
واحدة فحسب: الشروع في صليبيّة جديدة. وفي
أجواء اللامبالاة التامّة التي أظهرها الأمراء، نشر
براءته **لقد دعانا بيّوس** *(Vocavit nos Pius)* في
تشرين الأوّل/أوكتوبر ١٤٥٨، ودعا الملوك إلى
مانْتوا، فانتظر أربعة أشهر حتّى يلتئم شملهم. ومع
هذا فقد وضع اتّفاق، واتّخذ قرار بمباشرة حملة
صليبيّة تكون مدّتها ثلاث سنوات. على أنّ شيئًا لم
يتمّ من هذا القبيل. في ١٤٦٣، تسلّم البابا قيادة
الحملة وأطلع العالم المسيحيّ على الأمر. تحالفت
البندقيّة مع هنغاريا؛ هاجم إسكندر - بك الأتراك؛
وأعلن بيّوس الثاني إسطفان الكبير المولداڤيّ
«رياضيّ المسيح» (Atleta Christi)؛ هرع ألوف
الرجال إلى رومة قادمين من كلّ النواحي في
أوروبّا. وحدهم الملوك لم يبالوا بالأمر. بعد حجّ
قام به البابا إلى أسّيزي، انتقل إلى أنكوم حيث

تخلّف الأسطول عن الظهور. وعندما وصلت، بعد طول انتظار، مراكب الحربيّة إلى المرفأ، كان بيّوس الثاني يُحْتَضر. وعندما علم بالأمر قال: «ما كان ينقصني حتّى اليوم إنّما هو الأسطول. أمّا اليوم، فالأسطولُ سيفوتني». توفّي في ١٥ آب/أغسطس ١٤٦٤، يوم عيد انتقال العذراء، وماتت الحملة الصليبيّة معه.

كان من الشخصيّات المميّزة في زمانه، ليس بوصفه بابا ورجلًا كنسيًّا وحسب، بل بصفته كاتبًا وعالمًا. كان صديق نقولا كوسا الذي كلّفه بإعداد مشروع لإصلاح الكنيسة، وصديق القدّيس أنطونيوس الفلورنتينيّ الذي ساعده وأيّده في هذا المجال، على أنّ المشروع لم يوضع موضع التنفيذ بفعل معارضة الكرادلة، خصوصًا الذين كانوا ينوون أن يجعلوا من البابا رئيسًا وحسب لمجمع الكرادلة، وأن ينزعوا منه كلّ طابع ملكيّ.

أهم مصنّف وضعه بيّوس الثاني كان الجزء الأوّل من مجموعة واسعة في **وصف الكون**. لم يستطع أن يكتب منها إلّا الجزء الخاصّ بآسية، وبعض تصاميم أوّليّة من الجزء الثاني المخصّص لأوروبّا. كانت أفكاره حول جغرافية العالم ثوريّة، وقد استوحاها فيما بعد كريستوف كولومبس لينطلق في أسفاره باتّجاه الغرب. إنّه البابا الوحيد الذي ترك مذكّرات مكتوبة بصيغة يوميّات. **وشروحه** تنطوي على صورة ناجحة جدًّا لشخصيّات كثيرة من معاصريه، وسلسلة أوصاف للطبيعة تعتبر خير ما كُتِب حتّى عصر غوته. كان رومنطيقيًّا، مثلما كان پترارْكا من قبل. نظرًا إلى حبّه جمالات الطبيعة، فقد دُعِي «محبّ الغابات». أسّس جامعات بال، ونانْتْ وانْغُولْشْتاذْتْ. إتّخذ

تدابير لمعارضة تجارة العبيد واضطهاد اليهود. في ٢٩ حزيران/ يونيو١٤٦١، أعلن كاترين السيانيّة مواطنته قدّيسة. تعاقد مع پِنْتوريكيو ليرسم الجداريّات في الكاتدرائيّة السيانيّة، إحدى روائع معلّم پيروزا؛ جداريّات تمثّل مشاهد من حياة بيّوس الثاني وهي محفوظة حفظًا تامًّا.

٢١٠ - بولس الثاني (١٤٦٤-١٤٧١)

هو پييتْرُو بارْبُو، بندقيّ الأصل، عيّن كردينالًا في ١٤٤٠. حاول أن ينظّم حملة صليبيّة لأنّ مدينته البندقيّة، كانت مهدّدة في ذلك الوقت أكثر منه في أيّ زمن آخر، غير أنّ المنافسات والمنازعات بين الدول المعادية للبندقيّة حالت دون تحقيق مطمحه. حصلت انتفاضة قام بها في حبريّته أصحاب النزعة الإنسانيّة. كانت الدوائر الرومانيّة تستخدم سبعين موظفًا مهمّتهم إعداد خلاصات عن الطلبات التي تَرِدُ إلى الڤاتيكان وتحرير مشاريع الأجوبة. وكان هؤلاء يُدعون «الملخّصين». وفي عمليّة إصلاحيّة صُرِف الكثيرون ممّن يعتبرون لا جدوى منهم، فأثار ذلك غضب أحدهم پْلاتينا (بَرتُولُومِي ساكّي)، فوجّه إلى البابا رسالة وقحة ملأى بالإهانات. فسُجِن أربعة أشهر في قلعة سانْتْ-أنْج. كان المهتمّون بالفلسفة الإنسانيّة في رومة يؤلّفون عصبةً وعلى رأسهم پُومْپُونيوس لائِتُوس الذي أنشأ «أكاديميّة رومانيّة» مَثَلها الأعلى إقامة جمهوريّة جديدة في رومة مستوحاة من الجمهوريّة القديمة، وكان يُحتفل في اجتماعات هذه الأكاديميّة بعبادات تثير الشكوك بأمرها معدّة لأمور الجسد أكثر منها لشؤون الروح. فكتب هؤلاء سيرة البابا بولس الثاني التي أخذها

المؤرّخون زمنًا طويلًا مأخذ الجدّ، في حين لم تكن إلّا عملًا قام به أنَسِيّون أهينوا وخابت آمالهم. فمنع البابا نشاطات هؤلاء الثوريّين القابعين في القاعات الحالمين ببعث العصر القديم من دون أن يدركوا مسيرة الزمن والتغيّرات التي تأتي بها.

وفي عهد حبريّة بولس الثاني جرت محاولة لتحقيق الوحدة بين روما والكنيسة الروسيّة، إلّا أنّها فشلت. وبنى ابن أخي البابا، الكردينال ماركو بارْبو قصر ڤينِتْزيا (البندقيّة) في وسط روما، وقد سمّي بهذا الاسم تكريمًا لعائلة الحبر الأعظم. وبولس الثاني هو البابا الذي أنشأ عادة تقديم القلنسوة إلى الكرادلة. في ١٤٦٤، قدم إلى إيطاليا اثنان من الطباعيّين الألمان، شڤاينْهايم وپانّارْتسْ، واستقرّا في سوبياكو بالقرب من روما، فأنشآ أوّل مطبعة إيطاليّة، ثمّ انتقلا إلى روما نفسها حيث أسّس بولس الثاني «مكتبة النشر الڤاتيكانيّة» (Libreria Editrice Vaticana).

٢١١ – سِكْسْتُس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤)

عندما انتُخِب حبرًا أعظم كان رئيسًا عامًّا للرهبنة الفرنسيسكانيّة. هو فرَنْشِيسْكُو دِلّلا رُوڤِيرِي، ولد في ساڤوني. وهو عمّ الذي صار بابا باسم يوليوس الثاني (الرقم ٢١٥) دلّلا روڤِيرِي. كان أستاذًا في جامعات بولونيا، وسيينا، وپيروزا، وفلورنسا، ولاهوتيًّا مشهورًا. إلّا أنّ اختياره للبابويّة لم يكن موفّقًا. ففي عهده بلغت الحفيديّة أوجها، وتحوّلت الكنيسة إلى مؤسّسة دنيويّة يشرف عليها ويحرّكها الكرادلة من عائلة روڤيري، وهمّهم كلّ همّهم السيطرة بأنفسهم على مدن ودويلات وتبديد أموال خزائن الڤاتيكان. فِيدْرو رياريو، ابن الأخ الأحبّ

على قلب البابا، والذي كان كردينالًا، مات في الثامنة والعشرين من العمر وقد أنهكته الرذائل وحياة المجون. وكان أخوه هيرونيمس أسوأ حالًا: كان متزوّجًا من كاترينا سفورزا، دوقة ميلانو، فحاك مؤامرة ضدّ آل مديتشي في فلورنسا. فقام أفراد من عائلة پاتْزي بمهاجمة آل مديتشي في قلب الكاتدرائيّة أثناء القدّاس (١٤٧٨). فقُتل جوليان دي مديتشي، واستطاع النجاة لوران الذي انتقم من آل پاتزي انتقامًا مريعًا. فانفجر نزاع بين البابا وآل مديتشي، فرُشِقت فلورنسا بالحرم. وكي يسدّ الأموال الباهظة التي كان ينفقها أبناء إخوته، رفع سكستس الرابع أسعار الغفرانات، والضرائب، ورسوم الوظائف الكنسيّة. وأنعم على رهبنته بامتيازات كبيرة في براءته **البحر العظيم** *(Mare magnum)* (١٤٧٤). أمّا في الڤاتيكان، فكانت التجاوزات سلسلة لا تنقطع، ومال المسيحيّة يفور في جيوب العائلة، في حين كان الأتراك يستولون على أوترانْت، حتّى كان المعاصرون يردّدون: «الأتراك الحقيقيّون إنّما هم أبناء إخوة البابا».

رأى الملوك الكاثوليك أنفسهم مضطرّين، تجاه نفوذ المسلمين واليهود وتأثيرهم، إلى اتّخاذ تدابير لحفظ الإيمان المسيحيّ صافيًا في إسبانيا، فوقّعوا اتّفاقًا مع الكنيسة الرومانيّة. عيّن توركيمادا[٣٨] رئيس

(٣٨) هو توماسْ دي توركيمادا (Torquemada)، راهب دومينيكيّ (١٤٢٠-١٤٩٨). حين عُيّن مفتّشًا أكبر العامَ ١٤٨٢ كان شهيرًا بعلمه وتقواه. مارس مهمّته بنشاط فريد وتعصّب لا هوادة فيه. ومحاكم التفتيش أنشئت بسبب الشِّيَع التي تكاثرت وراحت تنشر تعاليم هرطوقيّة في قضايا لاهوتيّة وفي شؤون الحياة الروحيّة، فأحدثت اضطرابًا اجتماعيًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا. فكانت محاكم التفتيش ذراع الكنيسة وذراع السلطة السياسيّة.

هيئة التفتيش. وبالرغم من جميع الانتقادات التي انتشرت في الحقبة الرومنطيقيّة ضدّ توركيمادا وضدّ محاكم التفتيش، يمكن التأكيد أنّ إسبانيا تمّ إنقاذها بفضل التدابير التي اتّخذت في هذه الفترة، وأنّ عظمتها ولدت حين وقّع الملوك الكاثوليك الاتّفاق مع الكنيسة. وبعد زمن قصير سيطرت إسبانيا على أوروبّا فترة طويلة، في ميداني السياسة والثقافة. والأكيد أنّ ما يسمّى «فظاعات التفتيش» استحقّ هذه التسمية، إلّا أنّ ما لا يقلّ عن ذلك حقيقة أنّ إسبانيا كانت بحاجة إلى تطهير بعد قرون عدّة من الطغيان الإسلاميّ.

أمّا أعمال سِكستُس الرابع راعيًا للفنون وبنّاءً فمدهشة. فقد استقدم إلى روما معلّمه اليونانيّ أرْغِيرُوپُولس، والألمانيّ رُوشْلِين، وعالم الفلك الألمانيّ أيضًا رجيومُونْتانُس، وعددًا كبيرًا من الفنّانين والعلماء. وبنى، فكرّس في ١٥ آب/أغسطس ١٤٨٣ المعبد السكستيّ تغطّية جداريّات رائعة رسمها أشهر مصوّري تلك الحقبة مثل سِينيُوريللي، وألپيرُوزيني، وبوتيتشللي، وروزِللي، وپينتُورِيكيُو، وغيرلانداجو. وعمل في الڤاتيكان أيضًا، في هذه الفترة ميلُوتْزو دي فورلي، إلّا أنّه لم يَبْقَ من جداريّاته إلّا رؤوس ملائكة تعتبر خير صور للأطفال. وبنى البابا أيضًا جسر سكستس على نهر التيبر، وأعاد تنظيم المكتبة الڤاتيكانيّة. أعلن بوناوَنْتورا قدّيسًا. وإبّان حبريّته، نافست روما فلورنسا في عهد آل مديتشي. إلّا أنّ الكنيسة كانت قد بلغت قعر الذلّ. فالحفيديّة، والسيمونيّة، والرخاوة السياسيّة والمادّيّة لم تسيطر من قبل، إطلاقًا، على الڤاتيكان كما سيطرت في عهده.

واسكندر السادس إنّما ورث وضعًا قائمًا من قبل.

نقش قبر سِكستُس السادس النحّات پُولِلايُولُو، وهو إحدى روائع عصر الانبعاث.

٢١٢ - إنّوقنطيوس الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢)

على إثر موت سكستس الرابع، انتفض سكّان روما معارضين انتخاب جوليان دِللا روڤيري. ودفع الشعبَ الهائجَ قرفُه من التجاوزات ومن الحفيديّة السائدة إلى نهب قصر جيروم رِيارِيُو. ومع هذا، فقد استطاع جوليان دللا روڤيري، بمناورات مشبوهة، أن يفرض انتخاب جان باتِيسْتا تْشِيبُو، كردينال القدّيسة سيسيليا، الجَنَويّ، حليف عائلة دُورِيا.

كان جان باتِيسْتا ضعيف الطبع، مستعدًّا للتغاضي عن الرذيلة والفساد، وله ولدان غير شرعيّين. إهتمّ إنّوقنطيوس الثامن بشؤون عائلته أكثر من اهتمامه بشؤون الكنيسة. أنعم برتبة كردينال على لُورَنْزو تْشِيبُو، وهو ابن غير شرعيّ لأخيه، وعلى جان دي مديتشي الذي صار فيما بعد لاون العاشر، ابن لورنزو دي مديتشي. زوّج ابنه فْرَنْشِيسْكِيتُّو إلى مادلين دي مديتشي وأسكنه في الڤاتيكان. وكانت السيمونيّة وفساد الأخلاق قد بلغا أوجهما، ولن يلبث ساڤُونارُولا أن يرفع صوته عاليًا منددًا بهذه المفاسد.

في ١٤٩٠، عبثًا حاول إنّوقنطيوس الثامن أن ينظّم حملة صليبيّة، لكنّه نجح في أن يجتذب إلى الڤاتيكان أميرًا تركيًّا، هو أخو السلطان بايزيد الثاني الطامح إلى العرش، وسلّمه مبالغ وافرة من المال ليستخدمه في مجابهة السلطان. وخفض عدد

الكرادلة إلى خمسة وعشرين كي لا تنقص المكاسب. وكان أمراء الكنيسة يعتمدون الحبر الأعظم مثلًا يُحتذى فيخصّصون حياتهم لاهتمامات دنيويّة.

وأكبر خطأ مفجع أتاه إنّوقنطيوس براءته **طامحون إلى الذرى** *(Summis desiderantes)* التي صدرت في ٤ كانون الأوّل/ديسمبر ١٤٨٤، وتتناول دعاوى السحر، فزادت الأخطاء التي ارتكبتها محاكم التفتيش. فكلّ النفوس الرفيعة، واللاهوتيّون، والفنّانون، والكتّاب، والفلاسفة، وقفوا في القرن الخامس عشر، موقفًا مناهضًا الاعتقاد الذي ينسب إلى الساحرات قدرات فائقة الطبيعة. لقد جعلوا منهنّ مصدر الشرور كلّها. إتّهموهن بأفظع الجرائم، وبأنّهنّ على علاقة بالشيطان، وبإحداث زوابع وخيمة النتائج للحقول، وبإفساد النفوس، وتعقيم الماشية، إلخ. فشُنَّت على حليفات الشيطان أولئك اضطهادات مريعة. وأوردت البراءة التي أجازت تلك الاضطهادات لائحةً كاملة بأعمال السحر، فعاقبت المعتقدات والتخيّلات الشعبيّة الزائفة. وصنّف عضوان سابقان في محاكم التفتيش، الراهبان الدومنيكيّان الألمانيّان، هنري أنْستِيتُوريس وجاك سِپرِنْغِر، كتابًا عنوانه **مِطرَقة الساحرات** *(Malleus maleficarum)*، مستوحى من البراءة المذكورة، وطُبع في ستراسبورغ في ١٤٨٧. وشكّل هذا الكتاب المرجع الأعلى الذي استُشْهِد به في جميع دعاوى السحر حتّى منتصف القرن السابع عشر. والاضطهادات التي لحقت بالساحرات والإدانات التي انصبّت عليهنّ، أفي البلدان الكاثوليكيّة كان أم في البلدان البروتستانتيّة فيما

بعد، واستمرّت حتّى منتصف القرن الثامن عشر، جاءت نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للبراءة **طامحون إلى الذرى**. على أنّ اليسوعيّ فردريك سبي قاوم هذه الفظائع البعيدة عن المسيحيّة. وقبل أن يوافي الأجلُ إنّوقنطيوس الثامن، رفع الصوت على هذه التجاوزات وهذا الفساد الراهب الدومنيكيّ الفلورنسيّ سافونارولا. كان يجول في شوارع فلورنسا، يتبعه الأولاد، وهو يصيح «إنّ سيف الله يهدّد الأرض». لقد هبّت على الأرض ريح صفاء. وفي ٢ كانون الثاني/يناير ١٤٩٢، سقطت غرناطة، وبسقوطها انتهى احتلالُ العرب إسبانيا. وبعد موت البابا بتسعة أيّام، كان كريستوف كولومبس ينطلق إلى اكتشاف أميركا.

وأحد أكثر الأخطاء غرابة وصعوبة على الفهم أتاها هذا البابا مَنْعُه أوّل مؤتمر دوليّ للفلسفة دعا إليه پيك دي لا مِيرانْدُولا، المفكّر الإيطاليّ العبقريّ، وكان له من العمر آنذاك ثلاثٌ وعشرون سنة مع عزمه على تحمّل نفقات المؤتمر. وكان في نيّته أن يتلو في المؤتمر رسالته: **في كرامة الإنسان** *(De dignitate hominis)*، وفيها يدافع عن أنّ الله منح الإنسان الحرّيّة، والقدرة على اختيار مصيره، أي أن يعود فيسقط في الحيوانيّة أو أن يتحوّل إلى كائن مختار، شبيه بالملائكة. وخير وسيلة ملائمة لتحقيق التطوّر والكمال، بحسب قول پيك دي لا ميراندولا، إنّما هي الثقافة التي تتيح للبشر أن يلتقوا على تكريم الحقيقة التي بدأ بممارستها مفكّرو العصر القديم وتابعها المسيحيّون. كان فكر بيك دي لا ميراندولا جميعة (synthèse) الفلسفة الكلاسّيكيّة الأفلاطونيّة والفلسفة المسيحيّة. لم يعش طويلًا

(١٤٦٣-١٤٩٤)، غير أنّه يعتبر أحد أكبر العقول توقّدًا في كلّ العصور. ولو أتيح له أن يعقد المؤتمر الذي أراد تنظيمه في رومة، وكان ملحوظًا أن يجمع العلماء والمفكّرين من جميع البلدان ومن كلّ الاختصاصات المعروفة آنذاك، لكان ذلك حدثًا بالغ الأهمّيّة في تاريخ ثقافة العالم الغربيّ. وقد منع إنّوقنطيوس هذا المؤتمر. وعندما كان هذا البابا الضعيف على فراش الموت طلب الصفح من الكرادلة لكونه لم يحسن إتمام واجبه، وتلقّى الأسرار الأخيرة. وقد نقش النحّات پوللايولو قبره الموجود في باسيليكا القدّيس بطرس.

٢١٣ - إسكندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣)

رُودْرِيغُو دي بُورْجيا، ولد في شاطبة (بلنسية - إسبانيا) العام ١٤٣١. كان نائب مستشار الكنيسة عندما انتُخِب بابا بعد سبعة أيّام من المداولات لعبت السيمونيّة أثناءَها دورها، بحيث كتب لويس پاستور في مؤلّفه الضخم **تاريخ الباباوات**: «إنّ أيّام الخزي والعار بدأت في الكنيسة الرومانيّة». كان قد رُزِق أربعة أولاد من ڤانُوتْزا كاتانيي، برز منهم في تاريخ حبريّته المؤسف، جان، وقيصر، ولوكريسيا. كان همّ البابا الحقيقيّ الوحيد السهر على مصالح عائلته والحصول على أراضٍ جديدة لأولاده. لم تَفُتْه صفات سياسيّة، حتّى إنّه حلم بإصلاح الكنيسة، لكن حالت دون ذلك نقائصه ورذائله. إتّخذ بعض التدابير لوضع حدّ للسارقين واللصوص الذين كانوا يفسدون الدويلات البابويّة، وحاول أن يحرّر الكرسيّ المقدّس من دسائس الفئات الأرستقراطيّة. أمّا في السياسة الخارجيّة فلم يُحْسِن السباحة في

التيّار، فكان السبب في اجتياح ملك فرنسا شارل الثامن إيطاليا. فانفتح عندئذ عصر جديد من الكوارث على إيطاليا. إذ حاولت مذ ذاك كلّ الدول الأوروبيّة، ألمانيا، وفرنسا، وبنوع أخصّ إسبانيا، أن تتدخّل في الشؤون الإيطاليّة وتستولي على قسم فآخر من أراضيها. إضافة إلى ذلك، فإنّ الشعب الذي أخذ به اليأس ممّا كان يجري في رومة، كان مستعدًّا لأن يرتضي أيّ تسلّط أجنبيّ على أمل أنّ ملكًا صالحًا وحكيمًا قد يستطيع أن يفرض على الكنيسة الإصلاح الذي لا بدّ منه، ويرعى مقدّرات إيطاليا البائسة.

في أيلول/سبتمبر ١٤٩٣، دخل شارل الثامن إيطاليا. كان في العشرين من عمره وقصده الاستيلاء على مملكة نابولي التي كان رينه دانْجُو قد أورثها لويس الحادي عشر، وإقامة قاعدة في المدينة للانطلاق منها بحملة، واستعادة القسطنطينيّة، وتجديد إمبراطوريّة الشرق. لم يَلْقَ شارل مقاومة، وزحفه في إيطاليا كان نزهة ممتعة. لَقِيَ ترحيبًا حماسيًّا في فلورنسا لأنّ ساڤونارولا نفسه كان قد أعلن وصوله. أمّا آل مديتشي فهربوا من المدينة. وأمّا إسكندر السادس فانكفأ إلى قلعة سانت - أنج، لكنّ شارل لم ينتزع منه التاج البابويّ كما راودته الفكرة لأوّل وهلة، بل أرغمه فقط على أن يحترم أموال منافسيه وأعدائه، وبخاصّة أموال يوليو دِللا روڤيري. في ٢٢ شباط/فبراير ١٤٩٥، دخل شارل نابولي فنادت به الجماهير إمبراطورًا على القسطنطينيّة وملكًا على القدس. على أنّ تحالفًا ما لبث أن نشأ بين البابا، والبندقيّة، والإمبراطور، وملك إسبانيا، ودوق ميلانو فأرغمه على الانسحاب

والعودة إلى فرنسا، «فتبدّد الضباب في إيطاليا» كما كتب كُومِّين، مؤرّخ هذه الحقبة. لم تربح فرنسا شيئًا في إيطاليا، وعاد آل بورجيا إلى مناوراتهم واغتيالاتهم السرّيّة. تلقّى جان، ابن إسكندر، لقب دوق غانديّا وأراضي بنيفِنت التي كانت ملك الكنيسة سابقًا. وجوفروا بورجيا تزوّج بابنة ألفونس الثاني ملك نابولي؛ أمّا لوكريسيا التي كانت قد انفصلت عن جان سفورزا، دوق پسارو، فتزوّجت ثانية بألفونسو بِسْشِيليا، ابن ألفونسو الثاني الطبيعيّ. وبعد أن قُتِل زوجها الثاني، تزوّجت للمرّة الثالثة بألفونسو ديستي، دوق فِرّارا، وعاشت حياة هادئة هانئة، تهتمّ بالفنون وبعائلتها. وكي يثبّت التحالف الجديد بين البابا وملك فرنسا، تزوّج قيصر بشارلوت ألبير، ابنة ملك نافارّا، وتلقّى لقب دوق ڤالانس، في جنوب فرنسا، فلقّب «بالڤالانسيّ» أو الدوق «الڤالانسيّ». وفي ١٥٠٠ افتتح لويس الثاني عشر ميلانو، في حين كان قيصر يستولي على مدن إيطاليا الوسطى واحدة تلو الأخرى، معتمدًا القوّة حينًا، والحيلة والخيانة أحيانًا. كانت الدويلات البابويّة تتّسع حدودها؛ وفكّر قيصر، بناءً على نصيحة مكيافللي، بتوحيد إيطاليا. هذا المشروع الواسع النطاق ما كان له أن يتحقّق إلّا في القرن التاسع عشر. كان المثال الأعلى الإنسانيّ الذي وضع مكيافللي مواصفته «أميرًا» مميّزًا بذكائه، وإرادته، وبراعته السياسيّة، مجرّدًا من أيّ شاغل خلقيّ، ممثّلًا نموذجيًّا لحقبة فرغت فيها قلوب الكبار من الروح المسيحيّة. وكان النموذجُ الحيّ لـ«أمير» مكيافللي: قيصر بورجيا.

في فلورنسا، كان قد ارتفع صوت هادر مرعب

ضدّ الفساد وضدّ انحطاط البابا. إنّه صوت الراهب الدومنيكانيّ هِيرُونيمس سافونارولا، رئيس دير مار مرقس، عدوّ آل مديتشي، واعظ ملهم، مدافع عن قضيّة الله. كان قد بدأ، في ١٤٩١، يفسّر رؤيا يوحنّا في الكاتدرائيّة، ويتنبّأ بتجديد الكنيسة ومعاقبة إيطاليا. وعندما أعلن وصول شارل الثامن الذي أطلق عليه لقب قُورُش في مواعظه زادت شهرته في المدينة أيّما زيادة. وعندما هرب آل مديتشي من فلورنسا، عادت المدينة إلى تطبيق دستورها الديمقراطيّ، وفرض سافونارولا سياسة داخليّة ملائمة للفقراء، وعلى هذا شجّع «جبال التقوى»(٣٩) التي كانت تعمل في إيطاليا منذ أن أنشأها الرهبان الفرنسيسكان. وأعلن يسوعُ المسيح «ملكَ فلورنسا»، مدينةٍ اختارها الله، ومنها، كمثل ناصرة جديدة، سيطلع خلاص العالم. وكانت حشودٌ من الأولاد تجوب الشوارع، وتدخل المنازل، فتخرج اللوحات والتماثيل العارية وتكدّسها في الساحات، فتحرقها لتصفية الأخلاق والعادات، ومحو الشرّ الذي كان قد غزا القلوب. وما كان أحد ليعارض عمليّات الإحراق تلك التي أبادت روائع فنّيّة عديدة. وتغلغلت فكرة التوبة في المدينة كلّها، فكان الشعب يهرع إلى الكنائس، وكلام سافونارولا يفعل في القلوب فعل كلام إلهيّ. وكانت تتردّد في أرجاء مدينة الانبعاث الزاهرة تأوّهات التائبين وهتافات

---

(٣٩) «جبل التقوى» ترجمة حرفيّة لـ «Mont de piété»، وكذلك بالإسبانيّة والإيطاليّة، ومعناها بالإيطاليّة «بنك التقوى». هو مؤسّسة ماليّة بعيدة عن روح الكسب تهدف إلى مساعدة المحتاجين، بتوفيرها لهم قرضًا بفائدة زهيدة مقابل رهن حاجات تخصّهم. وكانت هذه المؤسّسات قائمة حتّى عهد قريب في إسبانيا.

الواعظ الثائر الذي كانت روما علوّه الأكبر. فاستدعاه البابا ليشرح أمامه تنبّؤاته، فرفض سافونارولا أن يغادر فلورنسا. ومنعه إسكندر عن الوعظ، إلّا أنّ سافونارولا لم يمتثل بل ضاعف هجومه على رذائل روما. وفي أيّام المرفع ١٤٩٧، أعدّ محرقة في ساحة الولاية فأُحرِقت آلات موسيقى، وعطوراتٌ، وكتبٌ، ولوحَات وسط تصفيق الجماهير الممتلئ حماسةً. وفي ٤ آذار/مارس تحدّث عن «الكنيسة العاهرة... الفتاة الفاقدة الحياء». وفي ١٨ حزيران/يونيو رشقه البابا بالحرم. أمّا الشعب من جهته، فقد تعب من كثرة التقشّف، وتخلّى عن نبيّه. وسُجِنَ سافونارولا في برج قصر الولاية وعُذِّب. هناك كتب آخر أناشيده إرحمني [٤٠] العامر بالجمال وبحرارة التقوى المسيحيّة. وفي ٢٣ أيار/مايو، أعلنت محكمة أنّ سافونارولا مذنب، ووافق البابا على الحكم، فأُحرِق حيًّا في الساحة، في الوقت الذي أُحرِق فيه أيضًا راهبان دومنيكيّان: سلڤسترس ودومنيك؛ وما زال ممكنًا أن يُقرأ اليوم، محفورًا في أرض الساحة نصُّ صلاة تذكاريّة. ورغم المبالغات التي كان اعتمدها سافونارولا، فنواياه كانت ممتازة. كان هدفه الوحيد إصلاح الكنيسة، وواضح أنّ أفكاره لو طُبِّقت، لما كان لوثر ولا كلڤين لقيا النجاح الذي حقّقاه عدّة سنواتٍ بعد موت النبيّ الفلورنتينيّ.

ومع موت سافونارولا، صارت طريق الفتوح حرّة أمام قيصر. وبما أنّه تخلّى عن الثوت الأرجوانيّ،

(٤٠) باللاتينيّة «Miserere»، وهو مطلع المزمور ٥٠: «إرحمني يا الله...».

ولم يعد من خطر يهدّد الدوق الڤالنتيّ في فلورنسا، فقد توجّه إلى الشمال واحتلّ أوربينو ودوقيّة كاميرينُو. وسنة ١٥٠٠، وهي سنة مقدّسة، وفرت مبالغ من المال نقدًا لخزائن آل بورجيا، وأتاحت متابعة الفتوحات في إيطاليا لصالح قيصر.

في ١٤٩٢، اكتشف كريستوف كولومبس العالم الجديد. وتدخّل إسكندر السادس وسيطًا بين إسبانيا والبرتغال. [٤١] وبناءً على طلب الملكَيْن الكاثوليكيّين رسم الخطّ الفاصل بين ما سيعود من الأراضي المكتشفة لكلّ من إسبانيا والبرتغال في العالم الجديد، وقد أُثبت هذا الاتّفاق في معاهدة تُورْدِسيلياس [٤٢]. وبموجب قرار البابا المستوحى من الحقّ الطبيعيّ كما علّمه القدّيس توما الأكويني، فإنّ شعوب العالم الجديد لا يصحّ أن ترتدّ إلى المسيحيّة إلّا بمحض إرادتها.

مات إسكندر السادس في ١٥٠٣. كان قيصر مريضًا فلم يتمكّن من التدخّل في اختيار البابا الجديد بالرغم من التدابير التي كان قد اتّخذها سلفًا ليضمن الاحتفاظ بالمراكز والامتيازات التي كان ينعم بها. وقد صرّح فيما بعد لمكياڤللي بقوله: «لقد احتطت لكلّ شيء. الأمر الوحيد الذي لم أتحسّب له، هو أن أجدني، في هذه اللحظة، في صراع مع الموت».

وإسكندر السادس، مثله مثل باباوات عصر

(٤١) الملكان الكاثوليكيّان هما ملكا إسبانيا فِرْدِنَنْدُو وإيزابيل. وفي أيّام ملكهما تمّ سقوط آخر معقل عربيّ في إسبانيا واكتشاف العالم الجديد: أميركا (١٤٩٢).

(٤٢) تورْدِسيلياس، قرية من مقاطعة بلد الوليد (ڤالياذُوليد) – إسبانيا. وقّعت فيها المعاهدة المذكورة العام ١٤٩٤.

الانبعاث جميعًا، كان راعيًا للفنون وبنّاء. بنى
سانڤاللو، الجدار الذي يصل قصر سانت - أنج
بالڤاتيكان؛ كما بنى برج بورجيا، وفيه رسم
الخطوط العريضة لجداريّات جميلة جدًّا. وصنع
صورته الرسّام تيسيان. وغطّى إسكندر السادس
سقف معبد من معابد كنيسة القدّيسة مريم الكبرى
بأوّل كمّيّة من الذهب الذي جيءَ به من أميركا.
وفي ١٥٠٠، انتهى ميكال أنج من نحت رائعته «الأمّ
الحزينة» التي شهرته أيّما شهرة، وهي محفوظة في
باسيليكا القدّيس بطرس.

بدأت أسطورة آل بورجيا تنتشر في أوروبّا بعد
موت إسكندر مباشرة، وقد ساهم سفراء البندقيّة
بترويجها مساهمة كبرى، باعتبار أنّ البندقيّة كانت
تخشى قيصر وتعارض مشاريعه الفتوحيّة. والشخص
الأكثر براءة في هذه العائلة، لوكريسيا، كان أوّل مَن
تناوله النتاج الأدبيّ. ففكتور هوغو عرضه على
الجمهور في إحدى مسرحيّاته التاريخيّة التي وضع
موسيقاها دونيتزيتّي. ومنذئذ تقدّم الروايات والأفلام
مسلسلات عن آل بورجيا في نتاج سيّئ ساعد
أسطورة «سمّ آل بورجيا» على الانتشار شعبيًّا. وأمام
هذا الاجتياح من أكاذيب وسوء ذوق، حاول عدد
من الكتّاب ومن ذوي العلم أن يعيدوا الحقيقة إلى
نصابها، ويعيدوا بالتالي الاعتبار إلى البابا وإلى
قيصر. أمّا المعجبون بمكياڤللي من الإيطاليّين
والأجانب، مثل جُوزِيپي بْرِيتْزُوليني، وبلاسكو
أيبانييث وآخرين، فقد وفّقوا في أن يثبتوا أنّ إسكندر
وقيصر كانا مثل رجال عصرهم، لا خيرًا من
معاصريهم ولا شرًّا منهم. وواضح أنّ أعداء الكنيسة
استخدموا هذين الشخصين ليقيموا دعايتهم المناهضة

للكثلكة على حجج تاريخيّة. فإسكندر لم يكن أسوأ
الباباوات، وما كان قيصر أسوأ السياسيّين، بل إنّ
كليهما أصابهما سوء الحظّ فتحوّلا رمزين للشرّ.
ووجودهما في الڤاتيكان كان واحدًا من أسباب
الإصلاح اللوثريّ وأعمال العنف التي تبعت ذلك.

٢١٤ - بيّوس الثالث (١٥٠٣)

فْرَنشيسْكو پِيكُولُومِيني، من أقرباء بيّوس الثاني،
كان أحد الكرادلة القلائل الذين رفضوا أن يبيعوا
صوتهم في الانتخاب السابق. إتّخذ اسم بيّوس
الثالث، وصمّم على إصلاح الكنيسة، وإعادة السلام
إلى العالم المسيحيّ. كان يقول: «لا أريد أن أكون
بابا السلاح، بل بابا السلام». غير أنّ الوقت لم يتح
له أن ينفّذ وعده. في عهده القصير غابت الحفيديّة
عن الڤاتيكان. كان معجبًا أشدّ الإعجاب بالفنّان
ميكال أنج، فكلّفه بصنع خمسة عشر تمثالًا لمذبح
كاتدرائيّة سيينا، غير أنّ هذا التكليف لم يتمّ تنفيذه
أبدًا. توفّي بيّوس الثالث ولمّا يمضِ على انتخابه إلّا
ستّة وعشرون يومًا، فاعتُبِر غيابُه المبكر «شرًّا كبيرًا
حلّ بالكنيسة».

٢١٥ - يوليوس الثاني (١٥٠٣-١٥١٣)

بعد موت بيّوس الثالث انتخب يوليوس دِلّلا
روڤيري. فرض نفسه على الجميع بقوّة شخصيّته.
كان مُعدًّا لأن يكون بابا الحرب، واسمه نفسه،
تكريمًا ليوليوس قيصر، كان يدلّ على برنامجه
السياسيّ. بقي قيصر الآخر، قيصر بورجيا، الذي ما
تنازل عن دويلاته، وكان البابا الجديد قد وعده
بتسميته قائدًا عامًّا للجيش البابويّ، فحصل عكس

ذلك: قُبِض عليه في ١٥٠٤، وسجن في قصر تمكّن
أن يهرب منه ويلتجئ إلى بلاط صهره ملك ناڤارّا
(إسبانيا). على أنّ ابن إسكندر السادس هذا، مثال
«الأمير»، قُتل في معركة تافهة (١٥٠٧) عند إسوار
ڤيانا وهو يقود جيش ملك ناڤارّا. دفن في كنيسة
ڤيانا، إلّا أنّ أسقف پامْپلُونا أخرج فيما بعد رفاته
من القبر، لأنّه اعتبر وجودها في كنيسة انتهاكًا
للقدسيّات، فلم يبق بعد ذلك سوى ذكرى حزينة من
ذاك الذي اتّخذ له شعارًا القول الكلاسّيكيّ الشهير:
«إمّا قيصر وإمّا لا شيء» (Aut Caesar aut nihil).

أنشأ يوليوس الثاني في ١٥٠٦ الحرس البابويّ،
ويُحتمل أن يكون ميكال أنج مَن صمّم زيّهم.
إستعاد البابا على رأس الجيش الجديد هذا السيطرة
على إيطاليا الوسطى، پيروزا وبولونيا، وطرد منهما
العائلتَين المالكتَين، آل باليُوني وآل بِنْتيفُوليُو، وارتدّ
إلى البندقيّة التي كانت قد استولت على عدّة أراضٍ
خاصّة بالبابا. وكي يتمكّن من مواجهة البندقيّة،
تحالف يوليوس مع الفرنسيّين. في ١٥٠٩ هزم جيش
لويس الثاني عشر البندقيّين في أنيادِللو. على أنّ
البابا أدرك أنّ لويس الثاني عشر ليس حليفًا مريحًا،
وجهد، منذئذ، في تحقيق وحدة شبه الجزيرة
الإيطاليّة ليردّ البرابرة. فوجد الدعم الأهمّ للحملة
الجديدة هذه لدى السويسريّين، وعلى رأسهم متّى
شينّر، أسقف صهيون؛ وكان هذا الأسقف أحد
ألمع شخصيّات عصره: رجل من رجالات الكنيسة،
جنديّ ومعتنق الفلسفة الإنسانيّة في آن؛ صار أوفى
حليف ليوليوس الثاني. لكنّ الحلف المقدّس الذي
نظّمه البابا، هزمه في راڤينا قائد جيش لويس الثاني
عشر، غاستون دي فوا الذي قُتِل في المعركة. ومذ

ذاك دارت دائرة الحرب على الفرنسيّين فخسروا پاڤيا
وميلانو، واستطاع آل سفورزا العودة بمساعدة
البابا. خاف الإمبراطور وملك فرنسا من انتصارات
يوليوس الثاني الذي كان يهدّد بإعادة توحيد إيطاليا
تحت سلطة أمير واحد، وكان الأمير هذه المرّة هو
البابا، فقرّرا القيام بعمل ما. فكّر لويس الثاني عشر
في أن يفرض عليه اتّفاقًا عمليًّا جديدًا، وحاول
الإمبراطور أن يعقد مجمعًا عامًّا. لكنّ البابا يوليوس
الثاني هو الذي عقد مجمعًا في لاتران (في ١٩
نيسان/أبريل ١٥١٢)، فلم يجرؤ الإمبراطور على أن
يخالفه علنًا، بحيث إنّ لويس الثاني عشر كان
الدعامة الوحيدة للمجمع الانشقاقيّ الذي انفرط
عقده، ولم يُحدِث صدى. في هذه الأثناء، مرض
البابا وظُنّ أنّه صائر إلى الموت، لكنّه أدهش
الجميع إذ نهض من فراشه وعاد إلى الحياة كما من
قبل (آب/أغسطس ١٥١١).

إفتُتِح المجمع المسكونيّ الثامن عشر في ١٢
أيّار/مايو ١٥١٢. إشتركت فيه إسبانيا وإنكلترا،
وانضمّت إليه ألمانيا في الخريف التالي. ما أمكن
التوصّل إلى اتّفاق لأنّ يوليوس الثاني، الملقّب
«بالمخيف»، توفّي في ٢١ شباط/فبراير ١٥١٣،
وسط جماعة من الكرادلة كانوا يقبّلون يده، وهم
يدركون أنّ الكرسيّ المقدّس يفقد بفقدانه واحدًا من
ألمع أحباره. كتب غريغوروڤيوس معلّقًا على موت
البابا يوليوس الثاني يقول: «أدركت رومة أنّ نفسًا
ملكيّة غادرت هذا العالم».

عمل أكبر فنّاني ذلك العصر لحساب البابا
يوليوس الثاني، ومنهم: ميكال أنج، ورافائيل،
وبرامنتي. في ٣١ تشرين الأوّل/ أوكتوبر ١٥١٢،

وبعد أربع سنين من العمل، أنهى ميكال أنج رسم المعبد السكستيّ. وكلّفه البابا بناء ضريح ضخم يضمّ مئات من التماثيل الرمزيّة، لكنّ العمل لم يتحقّق أبدًا، فميكال أنج لم ينفّذ من المشروع المصمَّم إلّا تمثال موسى، أحد أروع التماثيل في عصر الانبعاث، تمثالًا يسهر على قبر يوليوس الثاني في كنيسة القدّيس بطرس المقيّد بالسلاسل في رومة. وفي ١٨ نيسان/أبريل ١٥٠٦، وضع يوليوس الثاني الحجر الأساسيّ لكاتدرائيّة القدّيس بطرس الجديدة التي وضع تصاميمها برامنتي، وفي حين كان ميكال أنج يعمل في المعبد السكستيّ، كان رافائيل يصوّر مقاصير الفاتيكان ويغطّي جدران الغرف المختلفة بجداريّات رائعة، ما تزال حتّى اليوم محفوظة في أحسن حال. وتظهر صورة البابا يوليوس الثاني في اثنين من هذه الأعمال.

وأسّس البابا في فانو أوّل مطبعة باللغة العربيّة. وإبّان سني حبريّته العشر، أُبدِعت بعض أهمّ الأعمال الفنيّة في عصر الانبعاث، التي جعلت من إيطاليا يونانَ ثانية وأثّرت في مصير البشر حتّى يومنا هذا. وإذا كان يوليوس الثاني وكرادلته نسوا الله غالبًا ليتفرّغوا إلى السياسة، فإنّ الفنّانين معاصريهم كانوا رسل الكمال، والجمال الخلقيّ والروحيّ، وعالجت أعمالهم الأخطاء التي سقط فيها خلفاء بطرس.

٢١٦ - لاون العاشر (١٥١٣-١٥٢١)

كان يوحنّا مديتشي في الثامنة والثلاثين من العمر عندما تمّ انتخابه في مجمع مقفل، لم تستطع السيمونيّة أن تقومَ بدورٍ فيه بفضل التدابير التي

اتّخذها مسبقًا يوليوس الثاني. كان البابا الجديد، وهو ابن لُورَنْزُو العظيم، أنيقًا وذكيًّا، عارفًا بأمور الفنّ أكثر منه بقضايا اللاهوت، فبرع في إضفاء أكبر بهاء على عصر الانبعاث. مدحه الشعراء، وخاصّة أريُوسْتُو، وعظّموا أعماله، وخلّد أكبر الفنّانين صورته. كان راعي فنون أكثر منه بابا. وفي أيّام حبريّته بدأ صوت لوثر يرتفع في ألمانيا.

كان مجمع لاتران يتابع جلساته. ألّف لاون العاشر حالًا ثلاث لجان:

الأولى: مهمّتها درس إقامة سلام بين الأمم.

الثانية: كي تعنى بإيجاد وسيلة لإلغاء الاتّفاق العمليّ الذي كان ملك فرنسا قد فرضه في ١٤٣٨.

الثالثة: كي تعدّ مشروع إصلاح عامّ للكنيسة.

وفي أواخر سنة ١٥١٣، أعلن لويس الثاني عشر موافقته على المجمع بعد مفاوضات ديبلوماسيّة ناشطة.

تركّزت سياسة لاون العاشر الخارجيّة في البدء على المشكلة الميلانيّة. فمدينة القدّيس أمبروسيوس التي كان يحتلّها السويسريّون كانت هدف ملك فرنسا وشغله الشاغل. ولم يغيّر مجرى الأحداث موت لويس الثاني عشر وارتقاء فرنسوا الأوّل العرش. إنتصر ملك فرنسا على السويسريّين في مارينيان (١٥١٥) واستعاد السيطرة على ميلانو. أمّا البابا الذي كان قد حاول تجنّب الحرب، فقد أقام علاقات بالمنتصِر وحصل على توقيع اتّفاق في ١٥١٦ ألغي بموجبه الاتّفاق العمليّ. ومقابل ذلك، حصل ملك فرنسا على الحقّ بتسمية أساقفة ورؤساء أديار فيثبّتهم البابا في مناصبهم. وقد أفسح هذا

التدبير المجال لتجاوزات لا حدّ لها خصوصًا في القرن الثامن عشر، لأنّ هذه التسميات كانت كلّها مصادر لمنافع يحقّقها الملك. والعلاقات التي أقرّها اتّفاق ١٥١٦ بين الملك والكرسيّ المقدّس ظلّت إيّاها حتّى الثورة الفرنسيّة. وبعد هذا النجاح الذي قوّى سلطة الملك وجعل منه رأس الكنيسة الحقيقيّ في فرنسا، من دون أن يبعده عن الفاتيكان، عقدت فرنسا، في السنة نفسها، اتّفاق «السلام الدائم» مع سويسرا، وهو اتّفاق أتاح لها أن توفّر لنفسها المدد من الرجال. وأن تطمئنّ إلى أمن تامّ يسود منطقة تسدّ المنفذ على أيّ عدوّ قد يأتي من جهة الشرق. وهكذا، بدا فرنسوا الأوّل، في بداية عهده، ملكًا ذكيًّا، بارعًا.

وبعد وقت قصير، نشأ تحالف بين الإمبراطور، وملك إسبانيا، وملك إنكلترا، وكان على البابا أن ينضمّ إليه. أمّا غاية هذا التحالف فإطلاق حملة صليبيّة ضدّ الأتراك الذين كانوا قد اكتسحوا مصر. لكنّ الحقيقة هي أنّ ملوك أوروبّا ائتلفوا ضدّ فرنسوا الأوّل. وفي هذه الفترة، بدأ الصراع على الترشيحات لعرش الإمبراطوريّة التي انتهت بانتخاب شارل الأوّل الهابْسْبورغيّ الذي جَمع إلى تاج الإمبراطوريّة تاج إسبانيا أيضًا. أمّا المرشّح الآخر فكان ملك فرنسا الذي مَحضَه البابا في البداية دعمه. غير أنّ لاون العاشر، وقد راعه نفور الشعب من احتلال الفرنسيّين ميلانو، ورغبة منه في استغلال شارلكان، في حال انتخابه، ضدّ نشاطات لوثر المتزايدة، قرّر تأييد الهابْسْبورغيّ. وساعدت عوامل أخرى على تأمين الفوز لشارل منها: الذهب الذي قدّمه آل فُوغّر، ورؤساء المصارف الألمانيّة

الأثرياء، وعساكر فون سِيكِينْغِن، والأنفة الوطنيّة الألمانيّة. وفي ٢٨ تمّوز/يوليو ١٥١٩ صار لإسبانيا، وألمانيا، وأميركا ملك وحيد أوحد. وبدأت المعركة بين السلالة النمساويّة وفرنسا، معركةٌ استمرّت أربعين سنة. على أنّه بالرغم من المظاهر، فلم تكن هذه هي المشكلة الخطيرة التي تواجهها الكنيسة، بل تلك التي أثارها راهب مغمور من رهبنة القدّيس أغوسطينُس وأضفت على كلمة «إصلاح» معنى جديدًا. والواقع، أنّه منذ العصر الوسيط، استرعى إصلاح الكنيسة البابوات والقدّيسين، وقد اتّخذت تدابير مرارًا عديدة، وتألّفت لجان ودارت مداولات ومناقشات تناولت تعديلًا جوهريًّا يجري على التنظيم الكنسيّ. إلّا أنّ المشاكل الفنيّة في عصر الانبعاث، وأعمال الإنشاء والبناء، والجداريّات، والآثار الأدبيّة التي كانت تضفي على رومة ألَقها الوحيد في تاريخ الثقافة الأوروبيّة، حوّلت البابوات عن الهموم الأخرى.

في مطلع القرن السادس عشر، عَنَت كلمة «إصلاح» الانفصام الذي أحدثه لوثر في قلب الكنيسة الغربيّة، وهو انفصام كان أمكن اجتنابه حقًّا لولا انقلاب العصر: فالمدرسيّة (Scholastique) لم تعد تنعم بشهرتها السالفة، والنزعة الفرديّة لدى إنسان عصر الانبعاث كانت تدفعه إلى التملّص من سلطة الكنيسة، وتدفعه إلى البحث عن الحقيقة بوسائله الخاصّة باتّصاله المباشر بالكتاب المقدّس. وفي المقابل، كان دعاة الحكم السياسيّ المطلق، الحيتان، كما يدعوهم هوبّس[٤٣]، يحوّلون الدول إلى

(٤٣) هو توماس هوبّس Hobbes، الفيلسوف الإنكليزيّ (١٥٨٨-١٦٧٩). إشتهر بمؤلّفه لفياثان، وفيه ينزع نزعة مادّيّة في=

كيانات تزداد استقلالًا يومًا بعد يوم عن السلطة
الروحيّة. وقد كتب لوثر إلى صديقه لانغ في
١٥١٧: «إنّ أرسطو ينهار». وحلّ تعليم القدّيس
أوغسطينس محلّ تعليم أستاذ القدّيس توما الأكوينيّ
[أرسطو].

والإصلاح البروتستانتيّ له أيضًا أصول ذات طابع
اجتماعيّ وفكريّ. فالإكليرس العاديّ، والأشراف
الصغار أو الفرسان، كانوا يجهرون بتمرّدهم على
رؤساء الإكليرس وكبار الأشراف. فالإكليرس
العاديّ، أو الكهنة الذين كانوا على اتّصال مباشر
بالشعب ما كانوا يتقاضون رواتب ثابتة، وكانوا،
على العموم، يعيشون في حالة بؤس. والفرسان
(Die Ritter) كانوا، إلى جانب الرهبان والكهنة
البائسين، أوائل حلفاء لوثر، ذلك أنّهم، إذ جُرّدوا
من أموالهم، كانوا على استعداد لأن يستولوا على
أيّ ثروة لا حامي لها، في بلد يعاني نتائج الأزمة
الاقتصاديّة الناجمة عن اكتشاف أميركا، والتي
حوّلت التجارة والمواصلات من المتوسّط إلى
الأطلسي. ففي الأوساط الاجتماعيّة هذه المغتاظة
من تجاوزات المصرفيّين الألمان واليهود
واستغلالهم، كان للسخرية التي غمر بها إيرَسْمُس
الروتردامي (١٤٦٧-١٥٣٦) الكنيسة أصداء هادرة.
كان إيرَسْمُس في البدء حليف لوثر، ثمّ صار له
عدوًّا. كان التحق مدّة أربع سنوات بدير للقانونيّين
الأوغسطينيّين، وبدون أن يقطع صلته إطلاقًا
بالكنيسة، ما كان يقيم ذبيحة القدّاس، ويعيش حياة
لا طابع كهنوتيًّا لها أبدًا. كان مؤلّف **مديح الجنون**

= الحقل الفلسفيّ، ويدافع عن النفعيّة في الأخلاق، وعن
الاستبداد في السياسة. ومشهور قوله: «الإنسان ذئب للإنسان».

يناضل من أجل العودة إلى ينابيع المسيحيّة الأولى،
لكنّه يعيش عيشةَ وثنيّ قديم، يحتقر القداسة، ويخلق
جوًّا متفجّرًا بأفكاره التي استفاد لوثر منها ليحطّم
وحدة العالم المسيحيّ. لقد بدأ كلّ شيء، كالعادة،
بجدال فكريّ. دخل العالِم بالفلسفة الإنسانيّة
رُويْشلان (Reuchlin) في جدال مع بعض اللاهوتيّين
في كولونيا، موضوعه تفسير كتب اليهود وترجمتها.
لكنّ رويشلان ما هاجم الكنيسة قطّ في هذا
الموضوع. وحين تدخّلت رومة في النقاش الذي
سمّي «مشاحنات علماء العبريّات»، كانت شُعلة
التمرّد ملتهبة، وكانت «رسائل الأشخاص المُغْفَلين»
أولبريخ ڤون هوتن وكروتوس روبيانس زاخرةً بشتائم
موجَّهة إلى السلطات الكنسيّة، قد صادفت أوّل
نجاح.

أمّا النار القويّة فقد اضطرمت بسبب الغفرانات.
وإذا استخدمنا تعليل پاپيني التناقضيّ ظاهريًّا، قلنا
إنّ ميكال أنج ومنحوتاته كانوا السبب غير المباشر
للإصلاح الپروتستانتيّ. يقول پاپيني: إنّ البابا
يوليوس الثاني كان يكنّ لميكال أنج إعجابًا كبيرًا،
ولكي يَكِلَ إليه تنفيذ عمل خليق بعبقريّته، كلّفه بناءَ
ضريح ضخم تزيّنه تماثيل عديدة؛ ولكي ينفح هذا
الضريح بجوّ يليق به، قرّر البابا أن يبني باسيليكا
القدّيس بطرس الجديدة؛ ولكي يجمع المبالغ
الضخمة من المال اللازم لهذا الهيكل، فقد زاد
يوليوس الثاني وخليفتاه، لاون العاشر وأدريانس
السادس، بيع الغفرانات. والفضيحة التي أثارها بيع
الغفرانات الاستغلاليّ، سرّع تفاعل الأزمة اللاهوتيّة
في نفس راهب أوغسطينيّ اسمه مرتين لوثر، فأثارت
ردّة فعله بدورها انقسام المسيحيّة في الغرب.

أمّا تعليل پاپيني فصحيح، وأمّا ما جرّ الإصلاح فلا يصحّ حصره بسبب واحد. فعصر الانبعاث نفسه، كما قال المؤرّخ ميشيله، كان قد كوّن لدى الكاثوليك الألمان نفسًا سكسونيّة، وما كان لوثر إلّا الدفع الذي فجّر حركة قوميّة ذات انعكاسات وأصداء دينيّة عميقة، كان الهدف منها تحقيق فصل روحيّ بين العالم الجرمانيّ والعالم اللاتينيّ. واتّخذ بيع الغفرانات مظهرًا جديدًا في ١٥١٤، حين وجد لاون العاشر نفسه بحاجة إلى المال ليتابع أشغال كنيسة القدّيس بطرس، فأصدر منح غفرانات جديدًا. كُلِّفَ ألبير البْرانْدبُورْغيّ، رئيس أساقفة مايانْس، بنشر البراءة الخاصّة بذلك. فكلّف، بدوره جان تيتْزيل، الراهب الدومنيكانيّ والخطيب الشهير، بأن يذيع أمر الغفرانات هذه. ولسوء الحظّ، فإنّ نصف المبالغ التي جُبِيَت كانت معدّة لتسديد ديون ألبير البراندبورغيّ إلى مصرف فوغر الأوغسبورغيّ. وقد خوّل البابا لاون العاشر ألبير أن يستعمل ذلك المال في هذا السبيل. فعرف لوثر بالأمر في ١٥١٧، فباشر الصراع.

ولد مرتين لوثر في أيسلبين العامَ ١٤٨٣. كان أبوه يعمل في المناجم. درس في جامعة إرفورت، ثمّ دخل رهبنة الأوغسطينيّين وعيّن أستاذًا في جامعة ڤيتّنبرغ العام ١٥٠٨. وفي السنوات التي تلت شغله المنصب التعليميّ، اتّخذ موقفًا وبدأ يحارب علانية النظريّات الرسميّة في الكنيسة في موضوع الشهوة، والخطيئة الأصليّة، وحرّيّة الاختيار، والنعمة.

إنّ القضيّة الأساسيّة التي قال بها لوثر ودافع عنها هي أنّ الإنسان، بفعل الخطيئة الأصليّة، فقد حرّيّة الاختيار، وبالتالي، فإنّ جهاده ضدّ الشرّ جهد

باطل، لأنّ الانتصار على الشرّ مرتبط مُستطاع فقط برحمة الله وبنعمة المسيح.

ولوثر إنسان بسيط وعاطفيّ رغم دروسه وشهاداته العلميّة، ثار على العقل وطاقته فأنكر حرّيّة الإنسان ومسؤوليّته، واستسلم، كأيّ كائن بدائيّ، إلى الجبريّة بالخضوع لقرار أعلى ذي طابع نهائيّ مطبوع في النفس منذ أن خُلِقت. وهكذا انطبعت البروتستانتيّة بطابع الجبريّة الذي أبرزه ماكس ڤيبر (Max Weber) بشكل واضح، إذ رأى في الحركة الدينيّة التي أطلقها لوثر السبب الأساسيّ للمذهب الرأسماليّ. وفي الواقع، فإنّ الوسيلة الوحيدة التي يستطيع البروتستانتيّ استخدامها ليستطلع حياته الأبديّة، أي ليعرف ما إذا أعدّه الله لحياة النعيم أو حكم عليه بعذاب جهنّم، هي أن يتململ لعلّه يصل إلى تحقيق أكبر الانتصارات الممكنة. فالذي ينتصر هنا والآن (Hic et nunc)، هو من المختارين. أمّا الذي يفشل، فمحكوم عليه بالعذاب الأبديّ في الحياة الأخرى. وهذا ما يفسّر عبارة لوثر المشهورة: «إخطأ ما شئت لكن ليكن إيمانك أقوى»[٤٤]، ما يعني أنّ مشكلة الخطيئة والقداسة، هنا والآن، خاضعة لمسألة الإيمان بالله؛ فهو هو، الله، مهما كانت أعمالنا، قرّر مصيرنا الأبديّ. فمن العبث أن نصنع أعمالًا صالحة، فالمحبّة والقداسة والطهارة أعمال نافلة، لأنّ الشيء الوحيد المهمّ هو

(٤٤) العبارة مصوغة باللاتينيّة، لغة التعليم الفلسفيّ واللاهوتيّ آنذاك وهي: Pecca fortiter sed crede fortius. وفي شعر أبي نواس الذي سبق لوثر أكثر من سبعة قرون نجد قولًا مشابهًا لقول الألمانيّ:

تكثّر ما استطعتَ من الخطايا   فإنّك واجدٌ ربًّا غفورًا

الإيمان بالله، وبأنّه وحده قرّر مصيرنا قرارًا نهائيًّا. فعقيدة الاختيار المسبق تنقض نقضًا واضحًا العقيدة الكاثوليكيّة القائلة بحرّيّة الاختيار والتي تتيح لكلّ إنسان أن يحصل، هنا والآن على الحياة الأبديّة السعيدة بواسطة أعماله. فالنعيم والجحيم في نظر الكاثوليك إنّما هما حصيلة طريقة سلوكنا في الحياة.

في ١٥١٧ وقف لوثر ضدّ الغفرانات ولصق القضايا الخمس والتسعين على باب كنيسة قصر ڤيتنبرغ. فردّ عليه تِتزِل فورًا، إلّا أنّ نظريّات لوثر كسبت شعبيّة وانتشرت في ألمانيا كلّها. فتجمّع حول الواعظ الجديد، لوثر، المستاؤون الكثر في ألمانيا، المتأهّبون للانتفاض على السلطة البابويّة والسلطة الإمبراطوريّة. لم يدرك لاون العاشر خطورة الأزمة. ففي مطلع ١٥١٧، كتب جان فرنسوا پيكو دي لاميراندُولا، حفيد عالم الثقافة الإنسانيّة المشهور، إلى البابا يقول: «إذا كنتَ، أنتَ الراعي الأعلى، ترفض الاعتناء بالأمراض والجروح، فأخشى أن يأتي مَن أنت نائبه... ليبدّد، ويقطع، بالحديد والنار، الأعضاء المريضة». وبعد ذلك بسنة، كلّف لاون العاشر غبريال دللا ڤُولْتا، نائب الرهبان الأوغسطينيّين العامّ، بأن يحصل من لوثر، بتدبير مسلكيّ، على الامتناع عن هجماته، وعلى خضوعه للعقيدة التقليديّة. أمّا لوثر فدبّج في ٣٠ أيّار/مايو مذكّرة رفض فيها أن يتراجع. وفي ٥ آب/أغسطس، أوضح الإمبراطور مكسيميليان إلى البابا الخطر الاجتماعيّ والسياسيّ الذي كان يمثّله للإمبراطوريّة تعليم لوثر، وعرض عليه دعمه الكنيسة المطلق. إلّا أنّ الراهب الأوغسطينيّ لم يؤثّر فيه أيّ

تهديد. فعندما ذهب مبعوث البابا، الكردينال غايِتان، إلى ألمانيا ليحصل من لوثر على تراجعه عن نظريّاته وإلّا فإنّه يُحكَم عليه بالهرطقة، هرب لوثر وهو يطلق إلى البابا نداء. وفي تشرين الأوّل/أوكتوبر ١٥٢٠، نشر بيانًا موجّهًا إلى «أشراف ألمانيا»، كان إعلان حرب أطلقها على الكنيسة. وفي الوقت نفسه، عرض عليه مساعدته الفارس الشقيّ فرانْز ڤون سيكِنْغِن. وراحت جميع التيّارات الثوريّة تصبّ في الحركة الهرطوقيّة. في ١٥ حزيران/يونيو ١٥٢٠، حرم البابا قسمًا من نظريّات لوثر ببراءته **انهض يا ربّ** (*Exsurge Domine*) التي أحرقها الراهب في ساحة ڤيتنبرغ في ١٠ كانون الأوّل/ديسمبر من السنة عينها بحضور طلّابه وتلاميذه. كان ذلك التصرّف عصيانًا فاضحًا. وفي ٣ كانون الثاني/يناير ١٥٢١، تمّ حَرْم لوثر وتلاميذه بالبراءة **يليق بالحبر الرومانيّ** (*Decet romanum pontificem*).

دعا الإمبراطور الجديد شارل الخامس المجلسَ إلى اجتماع في ڤُورْمسْ وذلك في ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٥٢١، فعرض مندوب البابا، إسكندر، على الإمبراطور وعلى الأمراء المجتمعين، الهرطقة في تعليم لوثر. إلّا أنّ الإمبراطور، بتأثير من الدويلات الألمانيّة التي كانت ترفض اتّخاذ تدابير ضدّ لوثر، وبتأثير من عصابات سيكنغن التي كانت تطوّق المدينة، استدعى المتمرّد إلى ڤورمس ليشرح موقفه أمام المجلس، فكانت رحلة لوثر من ڤيتنبرغ إلى ڤورمس نصرًا حقيقيًّا. فقد أعلن، بحضور الإمبراطور، أنّ عقيدته أُنزلت عليه وحيًا، وأنّ البابا والمجامع على خطأ. فصرفه الإمبراطور ودعا

المجلس فصوّت على قرار يلزم الأمراء بأن يطردوا لوثر، أو أن يعتقلوه إذا رفض مغادرة الأراضي الإمبراطوريّة. فما أمكن تطبيق هذا التدبير لأنّ لوثر كان قد اختطفه في ٤ أيّار/مايو بعضُ الفرسان المقنَّعين أرسلهم فردريك، ناخب ساكس، واقتادوه إلى قصر ڤارتبورغ، بالقرب من أيْسِناخ بقصد حمايته.

وكان الوضع قد تحوّل في إيطاليا، في هذه الأثناء، لصالح الإمبراطور. فلاون العاشر الذي كان الفرنسيّون في ميلانو يهدّدونه تهديدًا مباشرًا، تحالف مع شارل الخامس. ولم تلبث إسبانيا أن صارت الدعامة الأوفر ثباتًا للإيمان الكاثوليكيّ في الصراع الروحيّ القاسي الذي نشب.

كان زفنكلي قد بدأ يبشّر في سويسرا. وبعد وقت قصير حصل الصدام الذي ما كان منه مَفَرّ بين شارل الخامس وفرنسوا الأوّل. وفي معركة ماليانا (٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٢١)، هزم السويسريّون، خلفاءُ الإمبراطور، الفرنسيّين، وأعيدت ميلانو إلى آل سفورزا. وأثار هذا الانتصار حماسة البابا، فغفل عن العناية بنفسه من برد أصابه، فمات في الأوّل من كانون الأوّل/ديسمبر، وهو في الخامسة والأربعين من عمره. وبموته انتهت أمجد حقبة في عصر الانبعاث الرومانيّ. على أنّ التألّق الفنّيّ المستوحى من العصر القديم الوثنيّ كان وبالًا على الكنيسة، وجاءت نتائجه خطيرة، خصوصًا على الكنيسة الغربيّة. فالشاعر أريُوسْتو كان يأمل من لاون العاشر إصلاحات ومآثر لم يباشرها البابا أبدًا. فالنشيد السابع عشر من ملحمة «رولان الغاضب» كان أجمل وأكثر تفاؤلًا من أن يطبّق على

تاريخ ألمع حبريّة، وربّما أكثر حبريّة عرفتها الكنيسة إطلاقًا زاخرة بالأخطار.

٢١٧ - أدريانُس السادس (١٥٢٢-١٥٢٣)

على إثْر وفاة البابا لاون وبعد أسبوعين على انعقاد المجمع المقفل من دون أن يتوصّل الكرادلة إلى اتّفاق، رشّح يوليوس المديتشيّ، أدريانس فلورنز، الهولنديّ من أوترخت، كردينال تورتوزا، أستاذ إيرسْمُس ومربّي شارل الخامس. لم يغفر الرومانيّون أبدًا وجود هذا الأجنبيّ على عرش بطرس. إلّا أنّ الفيلسوف الإسبانيّ لويس ڤيڤيس أدرك الداعي لهذا الاختيار، معتبرًا إيّاه حاجزًا يحول دون الإرث الذي خلّفه لاون العاشر، حين كتب إلى البابا الجديد يقول: «إنّ حياتك التي لا تشوبها شائبة وحدها رفعتك إلى أعلى مرتبة على الأرض».

وفي الواقع لم تشب البابا أدريانس السادس شائبة. فقد صَرَفَ من البلاط الشعراء جميعهم، وألغى الوظائف التي لا نفع منها، واقتصد في المصاريف، وأدخل التقشّف على الحياة في الفاتيكان. وفي خطاب ألقاه في شهر أيلول/سبتمبر ١٥٢٢، أعلن أنّ شيئين لا ثالث لهما يثيران اهتمامه: تحقيق وحدة الأمراء المسيحيّين لمحاربة الأتراك، وإصلاح الديوان الرومانيّ. كان يتكلّم لغة سافونارولا. لقد وُصِفَ هذا الذي كان معاونًا للكردينال الكبير خِيمِينِيث بأنّه «بربريّ»، إلّا أنّ تصرّفه أنقذ الكنيسة من مزيد من الدواهي. إنّ سفير البابا إلى المجلس الذي دعا إليه الإمبراطور في نورمبرغ في الأوّل من أيلول/سبتمبر ١٥٢٢،

كيبريغاتي، اعترف بأخطاء الكنيسة، إلّا أنّ صراحته لم تجدِ نفعًا. فمع أنّ الأمراء الحاضرين كانوا يقفون ضدّ لوثر، فإنّ معاونيهم ومستشاريهم كانوا يعملون له. لم يؤدِّ اجتماع المجلس إلى نتيجة. وفي هذه الأثناء، كان لوثر قد غادر قصر ڤارتبورغ ورجع إلى ڤيتنبرغ، وكانت الثورة الدينيّة والاجتماعيّة تشقّ طريقها، ولوثر يُعترَف به زعيمًا. غير أنّ موقفه لم يشبع رغبات الناس الذين وضعوا ثقتهم به. فقد ترك الأمراء يسحقون الفلّاحين المنتفضين، فيما هم واثقون بما قد قاله لهم سابقًا. خانهم غوتز ڤون برليشِنغُن الذي قاد في البدء زُمَر الفلّاحين، وأطلق لوثر بوجه الثائرين منشورًا يقول فيه من جملة أقواله الفظيعة، إنّ الأمراء قادرون تمامًا أن يضمنوا النعيم ولو قتلوا الفلّاحين. خُنِقَ التمرّد في نهر من الدم وجاءَت التدابير الانتقاميّة من أفظع ما عرفته أوروبّا في تاريخها كلّه. أمّا المسؤول الأوّل عن هذه المجزرة الوحشيّة فلوثر. وإحدى أهمّ نتائج الإصلاح الذي استغلّه الأمراء الألمان ببراعة لصالحهم كان تنامي قوّتهم وسلطتهم. ففي ذلك الوقت أنشأ ألبِرْت البْراندبُورْغي، رئيس المنظّمة التوتونيّة، دوقيّة بروسيا. وفي ١٥٢٥، مع نهاية حرب الفلّاحين وانتصار اللوثريّة في ألمانيا، جاء خلق دولة بروسيا الحدث السياسيّ الناجم مباشرة عن حركة الإصلاح والأخطر نتائج على مستقبل أوروبّا.

كان الإصلاح يتقدّم أيضًا في سويسرا بإدارة زفنكلي الذي حاول أدريانس أن يعيده إلى الإيمان الحقيقيّ. وفي ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٥٢٣ تبنّى مجلس مدينة زوريخ نظريّات زفنكلي وهي أشدّ

أصوليّة من نظريّات لوثر، فرأت النور في سويسرا الشماليّة كنيسةٌ جديدة.

وكان خطرٌ جسيم آخر يهدّد المسيحيّة من الخارج. فقد احتلّ الأتراك بلغراد في ١٥٢١، وجزيرة رودس في ١٥٢٢. على أنّ هذا لم يضع حدًّا للنزاعات بين الملوك المسيحيّين. حاول البابا عبثًا أن يُقِرّ السلام في أوروبّا، في حين كان الإمبراطور بواسطة سفيره مانويل، وملك فرنسا بواسطة الكردينال سودريني، يحاول كلٌّ من جهته أن يخضع البابا لسياسته. إختار أدريانس الإمبراطور عندما أدرك أنّ سودريني يُعدّ انشقاقًا جديدًا بمساعدة فرنسوا الأوّل. فأنشئت رابطة في ١٥٢٣ ضدّ الملك ضمّت الحبر الأعظم، والإمبراطور، وملك إنكلترا، وأرشيدوق النمسا فردينان، شقيق شارل الخامس، ودوق ميلانو، وفلورنسا، وجنوى إلخ. أُعلِنت الرابطة باحتفال مهيب جرى في كنيسة القدّيسة مريم الكبرى في رومة. وفي ١٤ أيلول/سبتمبر مات آخر بابا من خارج إيطاليا. كان متعَبًا وحزينًا من جرّاء الأنباء التي تصل من الشرق عن زحف الأتراك المظفَّر. ومع أنّه جلس وقتًا قصيرًا على العرش البابويّ، فإنّ سياسته كانت حازمة وأتت بنتائج مفيدة لأوروبّا. غير أنّ رومة لم تقرّ بعظمته. كان ينقص الرومانيّين كارثةٌ مريعةٌ لتوقظهم من السبات الذي أغرقتهم فيه مباهج عصر الانبعاث الفنيّة، والسياسة الخالية من الروح المسيحيّة التي اعتمدها بعض باباوات كانوا قد تناسوا المسيح.

٢١٨ - إقليمنضس السابع (١٥٢٣-١٥٣٤)

كان يوليوس المديتشيّ نسيبًا للاون العاشر وعمل

أمين سرّ له. فكّر أوّل عهده في أن يقف موقفًا محايدًا بين الإمبراطور والملك فرنسوا الأوّل، غير أنّه كانت تفوته البراعة الديبلوماسيّة الضروريّة في لعبة يعوزها الدهاء. دفعه دخول الفرنسيّين ميلانو ظافرين، في ١٥٢٤، إلى التحالف مع فرنسوا الأوّل، ما جرّ عليه غضب شارل الذي كتب له: «سأذهب يومًا إلى إيطاليا لأنتقم. وقد يكون مَرتين لوثر، اليوم أو غدًا، إنسانًا جليل الفائدة لي». هذه العبارة المرعبة تحقّقت بسرعة. ففي ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٥٢٥، هزم شارل الخامس الفرنسيّين في پاڤيا، واقتيد فرنسوا الأوّل أسيرًا إلى مدريد. أمّا البابا، ولكي يتجنّب دخول المنتصرين رومة، فاضطرّ إلى أن يدفع مبلغًا باهظًا لشارل الخامس.

كان الأتراك يواصلون تقدّمهم باتّجاه قلب أوروبّا، والحرب الاجتماعيّة تدمي ألمانيا. قرّر البابا أن يوقّع معاهدة تحالف مع الإمبراطور وأن يعترف بفَرنشيسْكو سفُورْزا دوقًا على ميلانو. لكن خطأ ارتكبه شارل جرّ بُعَيْدَ ذلك ويلات انصبّت على أوروبّا وعلى رومة. فقد أرغم شارل أسيره فرنسوا على توقيع معاهدة مدريد (١٤ كانون الثاني/يناير ١٥٢٦) فقدت فرنسا بموجبها كلّ شيء وتحوّلت إلى قوّة من درجة ثانية. وكان واضحًا أنّ فرنسوا بعد أن وقّع المعاهدة ما احترمها عندما رَجع إلى بلاده. فأنشئ تحالف إمبراطوريّ باسم رابطة كونياك المقدّسة، ضمّ البابا، والملك فرنسوا، والبندقيّة، وميلانو. وفي ٢٩ آب/أغسطس ١٥٢٦، هزم الأتراك الهنغاريّين في موهاكس واستولوا بعد أيّام قليلة على بُودابِسْتْ. وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر، دخلت قوّات آل كولونّا، حلفاء الإمبراطور، رومة ونهبوا بعض

كنائسها. وكان الإمبراطوريّون يتقدّمون في إيطاليا. أرسلت فلورنسا مكيافللي سفيرًا لملاقاة جيوش الرابطة في حين عُيّن مؤرّخ فلورنتينيّ آخر، غيتشارديني، حاكمًا عامًّا للدويلات البابويّة وقائدًا عامًّا للجيش البابويّ. وفي حين كان وضع الإمبراطور شارل الخامس مُتأرجحًا، والتوازن قائمًا بين الجيشَيْن لنقص في العزم والمال، جاء تدخّل جورج ڤون فرُونْدِسْبِرغ على رأس جماعات من المرتزقة الألمان يرجّح كفّة شارل الخامس. كان فروندسبرغ اقترض مالًا، وجنّد عشرة آلاف شابّ تقريبًا من البروتستانت، ووعدهم بالثروة والانتقام بعرضه عليهم رومة غنيمة حرب. وكان هؤلاء المتعصّبون يرون قتل البابا ونهبَ عاصمة الكثلكة مثالهم الأعلى. في شباط/فبراير ١٥٢٧، اجتمع الجيش الإمبراطوريّ وجيش فروندسبرغ، فزحف عشرون ألف جنديّ على رومة. هاجم الألمان، والإسبان، والإيطاليّون المدينة الخالدة في ٦ أيّار/مايو فما استطاعوا أن يقهروا مقاومة المحاصَرين إلّا بعد هجمات ثلاث متوالية. إستمرّ القتال في الشوارع، وصمد الحرس السويسريّ حتّى آخر رجل منهم، فكتب محرّر مجريات شاهدهم يقاتلون ويسقطون على سلالم كنيسة القدّيس بطرس، قال: «يسقط السويسريّون بعزّ» (Cadunt gloriose Helvetii). لجأ البابا إلى قلعة سانت-أنج فيما كان المرتزقة الألمان يُعملون القتل في الناس ويجرون وراء الأسلاب، فلقي اثنا عشر ألف رومانيّ حتفهم. ودخل العساكر الأجلاف المعبد السكستيّ ومقاصير رافائيل واستقرّوا فيها بخَيْلِهم. وبعد شهر من الحصار اليائس، سقطت قلعة سانت-أنج بدورها وأُخِذَ البابا إقليمنضس أسيرًا. كما أنّ الطاعون والجوع فتكا

بالغزاة. وفي القصر البابويّ، أنشأ النحّات بَنْفِنُوتو تْشِيلِليني صندوقًا يجمع الكنوز البابويّة كي يدفع البابا تعويضات الحرب. وهكذا اختفت تيجان بابويّة وكنوز فنيّة عديدة. أُطلق سراح البابا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٢٧ فلجأ إلى أورڤييتو. وُضع اتّفاق سلام وقّعه في برشلونا، في ٢٩ حزيران/يونيو ١٥٢٩، مفوّضون مطلقو الصلاحيّة، حبريّون وإمبراطوريّون، كما أنشأوا تحالفًا ضدّ الكافرين. وفي ٥ آب/أغسطس، وقّع شارل الخامس وفرنسوا الأوّل بدورهما السلام في كَمْبرِي (Cambrai)، وعادت منطقة البُورْغونيي إلى التاج الفرنسيّ.

في ٢٤ شباط/فبراير ١٥٣٠، توّج إقليمنضس شارل في بولونيا. وفي ٢٠ آب/أغسطس استسلمت فلورنسا، وكان ميكال أنج شغل رئاسة نظام الدفاع فيها. وعاد آل مديتشي إلى السلطة.

طبعت خاتمة حبريّة إقليمنضس السابع أحداثٌ مهمّة. فالمؤتمر الذي عقده في ماربورغ اللوثريّون وتلاميذ زفنكلي (١٥٢٩) لم يحقّق الوحدة بين الفريقين الإصلاحيَّيْن. وفيليب هيسّ الذي كان زفنكلي قد كسبه إلى جانبه كان يفكّر في إقامة إمبراطوريّة إنجيليّة بمساعدة الفرنسيّين والأتراك. دعا الإمبراطور إلى اجتماع مجلس في ٨ نيسان/أبريل ١٥٣٠ في أوغسبورغ لم يأتِ بنتيجة، فقد ترك فيليب هيسّ المدينة في حين كان الإمبراطور يوقّع معاهدة دفاع مع الدول الكاثوليكيّة الأخرى. وفي السنة التالية، ألّف الأمراء البروتستانت رابطة شمالْكالْدْ التي انضمّت إليها فرنسا، وإنكلترا، والدنمارك، ودوق باڤاريا للمحافظة على حرّيّة ألمانيا بوجه الإمبراطور. في ١٥٣٢، أرعب

الإمبراطور نجاحُ الأتراك الذين حاصروا ڤيينّا، فدعا إلى عقد مجلس في راتسبونا. وقّع الكاثوليك والپروتستانت في نيرمبرغ صلحًا دينيًّا، أو بالأحرى هدنة لم تمنع انتشار الإصلاح في ڤيرتنبرغ، وتشكيل «مملكة صهيون» الذي حقّقه تجديديّو العماد في مُونْشْتِر. وانتشرت اللوثريّة في أوروبّا. فكثير من الأمراء المسيحيّين كانوا يحلمون بالاتّكال على الأتراك ليرفعوا عن أنفسهم النير الإمبراطوريّ من دون أن يدركوا النتائج المفجعة التي تجرّها سياسة التنازلات تجاه الكفّار.

سجّلت الديبلوماسيّة الفرنسيّة نجاحًا مهمًّا بالاحتفال في نيس بزواج هنري، دوق أورْلِيان وملك فرنسا العتيد من كاترين المديتشيّة، ابنة أخي البابا. التقى فرنسوا إقليمنضس في نيس وطُرحت مسألة مصالحة الإمبراطور والملك. وكان لا بدّ من عقد مجمع جديد، إلّا أنّ شروط الأمراء الألمان الذين تزايد خضوعهم للوثر انتهت بالمفاوضات إلى الفشل.

وانفجرت ثورة دينيّة جديدة في إنكلترا. فالملك هنري الثامن قطع العلاقات بروما بسبب معارضة الكنيسة طلاقه زوجته، ورغبته في الزواج من إحدى سيّدات البلاط التي وقع بحبّها: آن بولين. بعد ستّ سنوات من الجدل العقيم، أعلنه مجلس من الإكليرس، بناءً على رغبته، رئيسًا أعلى لكنيسة إنكلترا. في ١٥٣٢، اعترف به مجلس النوّاب مشترعًا أعلى في الأمور الدينيّة بكلّ ما يخصّ كنيسة إنكلترا. واتّخذ الانشقاق طابعًا رسميًّا عندما أعلن إقليمنضس السابع زواج هنري من امرأته الأولى صحيحًا وحرم الملك وآن بولين. وبعد أن تزوّج

هنري من آن، عاد فتزوّج خمس مرّات وهلكت نساؤه على يد الجلّاد. والثورة الدينيّة هذه التي أضرمها طبع الملك الشهوانيّ، آلت إلى الإضرار بالشعب كما حصل في ألمانيا. فالإكليروس الكاثوليكيّ جُرِّد من أمواله، وراح البؤس يعمّ ويزداد لأنّ الثروات التي صودرت نمّت أملاك الطبقة الأرستقراطيّة، في حين باقي الشعب ظلّ قابعًا في الفقر. وقد حدث الأمر نفسه في البلدان السكندينافيّة. وفي الوقت عينه نزع الملوك نزعة مطلقيّة. فصارت الكنيسة وسيلة بيد السلطة الزمنيّة، وكفّ تفوّق روما على الملوك البروتستانت. وراحت الدولة تتّخذ شيئًا فشيئًا شكل لَوِياثان حديث كما عرّفها هُوبِّس في ما بعد.

وفي سويسرا، هزم الكاثوليك زفنكلي في معركة كاپّل (١٥٣١)، إلّا أنّ الإصلاح تابع طريقه.

مات إقليمنضس السابع وسط تفكّك سلطة الكنيسة الرومانيّة الروحيّة تفكّكًا حقيقيًّا. فهو بطبعه المتردّد، الضعيف، لم يعرف مجابهة تقدّم البروتستانتيّة، هذه الصورة العرقيّة للروحانيّة الألمانيّة التي اكتسحت بسرعة جميع الشعوب في شمال أوروبّا. على أنّ إمبراطوريّة روحيّة أخرى فتحت أبوابها على روما: إنّها القارة الأميركيّة، حيث عرف إقليمنضس أن ينظّم أعمال الرسالة ويكسب ملايين النفوس للكنيسة. في أيّام حبريّته، تأسّست رهبنات عديدة مثل: «شركة الحبّ الإلهيّ» التي أنشئت سنة ١٥١٧، و«أخويّة المحبّة» التي أسّسها في ١٥١٩ يوليوس المِدِيتْشيّ نفسه، التِياتِينيّون، والكبّوشيّون، وهو فرع من الرهبنة الفرنسيسكانيّة أسّسه متّى باشْشِيو. وأخيرًا، أفصح إغناطيوس دي لويولا، يوم

عيد انتقال العذراء سنة ١٥٣٤، إلى فريقٍ قليل العدد من أصدقائه على تلّة مونمارتر عن قصده إنشاء جمعيّة روحيّة للدفاع عن تراث المسيح. هكذا ولدت «جماعة رفاق يسوع» (الرهبانيّة اليسوعيّة) التي ناضلت بنشاط كبير في جميع أنحاء العالم، باسم الكنيسة وباسم عقيدتها المستقيمة. لقد هبّت ريح جديدة، ووسط الهزائم الظاهريّة، كانت الكنيسة تنبعث وتستعدّ لمرحلة جديدة من مراحل الحياة.

لقد أحبّ إقليمنضس السابع الفنون وفاءً منه لأصله الفلورنتينيّ ولانتمائه لآل مديتشي. كلّف ميكال أنج بناء ضريح المديتشيّين في فلورنسا، وبناء المكتبة اللورنزيّة. والفنّان سبستيان دل پيومبو رسم صورة البابا. وفي عهد حبريّته نشرت آثار ذات أهمّيّة كبرى تمثّل مميّزات عصر الانبعاث مثل: تاريخ فلورنسا الذي ألّفه مكياڤللي وقدّمه إلى البابا. وبنڤنوتو تْشِلليني الذي نفح فنّ الصياغة سنًى لم يعرفه من قبل، عمل لحساب البابا وصنّف من أشهر الكتب وأكثرها توثيقًا في تلك الحقبة: **السيرة الذاتيّة**، سيرته التي نقلها غوته إلى اللغة الألمانيّة فيما بعد. فهذا المؤلّف يعكس العادات، والأفكار، والحياة اليوميّة في عصره ويبرز النزعة الفرديّة لدى معاصريه. ونحت تشلليني **فرساوس** *(Persée)* الذي يُعتبر أحد أكمل التماثيل في كلّ العصور، وهو موجود في «مقصورة آل لانزي»، في فلورنسا.

٢١٩ - بولس الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩)

هو إسكندر فارنيزي. كان إسكندر بورجيا قد عيّنه كردينالًا وما كانت سيرته في شبابه مثاليّة. كان له أولاد غير شرعيّين، وفي أيّام حبريّته عادت

الحفيديّة فظهرت في مراكز السلطة. غير أنّه أدرك خطورة الظروف في تلك الفترة فكرّس جهده، بفطنة واندفاع للدفاع عن قضيّة الكنيسة، والنضال ضدّ الأتراك، وذلك بتوفيره ما استطاع من المساعدة لشارل الخامس، وبمباشرته عمليّة الإصلاح الكنسيّ حين دعا إلى عقد مجمع في ترِنْتو (المجمع التريدنتينيّ) (١٥٤٥-١٥٦٣)، وهو المجمع الذي أطلق انبعاث الكثلكة، وسجّل بدء عهد جديد في تاريخ الباباوات. وقد تمّ تحقيق هذا العمل العظيم بفضل المساعدة التي قدّمتها إسبانيا إلى الكنيسة، ليس بواسطة قوّاتها التي استولت على أراضٍ جديدة في البلاد الأميركيّة وحسب، بل أيضًا بفضل القوى الروحيّة التي جنّدتها في وقت كان الكفّار يتحالفون مع فرنسوا الأوّل، والپروتستانتيّة قد اجتاحت ألمانيا، وإنكلترا، وسويسرا، وبلدان شمال أوروبّا. وقد وفّر القدّيس إغناطيوس دي لويولا والقدّيسة تريزا الأڤيليّة للكنيسة قوى روحيّة جديدة وغيّرا نفسيّة معاصريهما. وإذا بعهد جديد يبدأ لاسترجاع المبادرة[٤٥]، واستعادة النفوس ومكانة الكنيسة. وقد أخذ المتصوّفون واللاهوتيّون الإسبان على عاتقهم تأمين انتصار الإيمان المستقيم في عالم سيطر على نصفه الهرطقة والفساد.

لقد حاول البابا الجديد منذ العام ١٥٣٥ الدعوة إلى مجمع مسكونيّ جديد، إلّا أنّ هنري الثامن وفرنسوا الأوّل رفضا الفكرة، بل إنّ ملك إنكلترا حكم بالموت على الكردينال فِيشر أوّل شهيد سقط

(٤٥) العبارة Reconquista: وتعني بالإسبانيّة «استرجاع ما كان انتزع»، وصارت اسم علم لتعني استرجاع الملوك المسيحيّين الأراضي التي كان العرب قد احتلّوها في إسبانيا.

على يد انشقاق إنكلترا عن الكنيسة. وبعد بضعة أيّام سقطت ضحيّة ثانية على يد الملك: توماس مُور. إلّا أنّ البابا لم يتخلَّ عن مشروعه. ففي سنة ١٥٣٧، عيّن كرادلة جددًا أشخاصًا مشهورين برغبتهم في تحقيق الإصلاح، وبصفاء أنفسهم وأخلاقهم. وهكذا انضمّ إلى مجلس الكرادلة منهم: غاسپار كُونْتاريني، سفير ڤينّا السابق في رومة وأحد أشهر رجالات عصره، والإنكليزيّ المنفيّ رِجِينالْدْ پول، وپييترو كارافا (البابا لاحقًا باسم بولس الرابع)، وجان دي بللي أسقف باريس، وآخرون ألّفوا لجنة مهمّتها إصلاح الكنيسة. وقد نشر التقرير الذي وضعوه في ١٥٣٨.

لقد كان صعبًا التوصّل إلى عقد مجمع وأوروبّا منقسمة كما كانت، بسبب النزاع الناشب بين الإمبراطور وملك فرنسا من ناحية، وبسبب الانشقاق البروتستانتيّ من ناحية ثانية. أرسل بولس الثالث كونتاريني سفيرًا إلى ألمانيا، فتوصّل إلى إرساء الأساس لنقاش بين الفئات البروتستانتيّة المختلفة والكنيسة، إلّا أنّ تدخّل كلفين وضع حدًّا للمداولات.

وُجّهت الدعوة إلى المجمع ليوم ٢٢ أيّار/مايو ١٥٤٢، في مدينة ترِنْتو، في منطقة التيرول الإيطاليّة التي تخصّ فردينان شقيق الإمبراطور. وقد استُثْني من الدعوة المنشقّون. وكانت ترِنْتو، بفضل موقعها الجغرافيّ توفّر اتّصالًا سهلًا بألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا. على أنّ الحرب بين شارل الخامس وفرنسوا الأوّل أخّرت هذه المرّة أيضًا افتتاح المجمع حتّى ١٣ كانون الأوّل/ديسمبر ١٥٤٥، أي بعد سلام كْرِيبي (١٥٤٤) الذي وضع حدًّا للحرب

بين المتخاصمَيْن. رفض البروتستانت المشاركة في المجمع. أمّا لوثير، ولكي يبرّر موقف تلاميذه وحلفائه، فقد كتب نشرة بعنوان «ضدّ البابويّة التي أسّسها الشيطان في رومة» أثارت السخرية والاشمئزاز بسبب لهجتها المهينة والفظّة. وسنة بعد ذلك، في ١٨ شباط/فبراير ١٥٤٦، مات لوثير في أيْسلِبين، مسقط رأسه.

شارك في المجمع أربعة كرادلة، وأربعة رؤساء أساقفة، واثنان وعشرون أسقفًا، وخمسة رؤساء عامّين، إلخ. وكان هناك مندوبو البابا: جان ماري دِل مُونْتي (البابا يوليوس الثالث فيما بعد)، ومرشيللو تْشِرْڤيني (البابا مَرتشيللو الثاني فيما بعد)، وريجينالدو پول، وسلميرون ممثّل الرهبنة اليسوعيّة، ولايينيث رئيس اليسوعيّين العامّ فيما بعد، ودُومَنغُو سُوتُو نائب عامّ الرهبنة الدومنيكانيّة، وملتِشور كانُو الأستاذ في جامعة القلعة (Alcala) بإسبانيا، والراهبان الفرنسيسكانيّان لويس كِرڤاخال وأندره ڤيغا، من جامعة سلمنكا (إسبانيا) إلخ. هاجم المجمع فورًا الانشقاق البروتستانتيّ وأعلن سلطة التقليد في الكنيسة عارضًا عقيدتها بشأن الخطيئة الأصليّة، والأسرار، إلخ. وظهر وباء في ترِنْتُو فوفّر حجّة للبابا كي ينقل المجمع إلى مدينةٍ إيطاليّة، خوفًا من أن يسيطر عليه الإمبراطور. فانتقل في الواقع إلى بولونيا (١٥٤٧). إلّا أنّ شارل كان أعطى المندوبين الإسبان والألمان أوامره بأن يمكثوا في ترِنْتو. وفي ١٧ أيلول/سبتمبر ١٥٤٩، حلّ البابا المجمع بواسطة مندوبه دِل مونتي. وبُعَيْد ذلك مات بولس الثالث في رومة.

لقد اعتمد البابا سياسة بارعة وبنّاءة. فلم يكتفِ

بأن حاول مصالحة المتخاصمَيْن اللذين عرّضت صراعاتهما أمنَ العالم المسيحيّ وحياته للخطر: (فرنسوا الأوّل تحالف مع السلطان سليمان القانونيّ ليستقوي على منافسه الإمبراطور)، بل تدخّل مباشرة بأسطوله الحربيّ في الحملة على أفريقيا الشماليّة، فقصفت مراكب البابا، إلى جانب مراكب شارل الخامس، مدينتَي تونس والجزائر. ومع هذا، ففي ١٥٣٨، انتصر الأسطول التركيّ على الأسطول المسيحيّ في پْرِيڤِيْزا، في البحر الأيُونيّ، واستولى الأتراك على إمارتَيْ ڤالاشِيا ومُولْداڤيا شمال نهر الدانوب. ووقع شرق المتوسّط، ووسطه، وقسم من أوروبّا الوسطى، وأوروبّا الشرقيّة كلّها، تحت سيطرة الهلال. وخشيت البندقيّة من انتصارات الكفّار، ومن أن تفقد مستعمراتها، فعقدت معاهدة منفصلة مع الأتراك.

ورغم نقائص بولس الثالث، ومن بينها الحفيديّة، فقد كان خيرَ مَن عرف من شخصيّات عصره الحاجة الماسّة إلى إصلاح عميق، واستطاع أن يجمع حول هذه الفكرة أشهر الأسماء في أيّامه ومنهم: ڤكتوريا كولونّا، الشاعرة التي كسبها التيّار الإصلاحيّ، وكذلك صديقها ميكال أنج الذي قدّم إلى حبيبته المثاليّة سلسلة من القصائد الرائعة. وبولس الثالث، بوصفه آخر بابا في عصر الانبعاث، أدرك أيضًا أهمّيّة الفنون، وكان الأخير بين كبار رعاتها. ففي عهد حبريّته أتمّ ميكال أنج تصويره «الدينونة الأخيرة» في المعبد السكستيّ، وعُهِدَ إليه ببناء قبّة القدّيس بطرس التي تشرف حاليًا على تلال المدينة الخالدة وسطوحها. وإلى ميكال أنج أيضًا عُهِد مشروع ترميم الكاپيتول مع قصوره وسلّمه الضخم.

وأنهى ميكال أنج أيضًا أعمال قصر فرنيزي في روما الذي كان قد باشره سانْغاللو، ويعتبر أجمل قصور روما. ورسم تِيسِيان صورة البابا وصور أحفاده. ومدحه الشاعر أريوستو في ملحمته «رولان الثائر». كما أنّ كُوپِرْنيكوس قدّم إليه رسالته «ثورات الأجسام السماويّة». وڤاساري رسم جداريّاته في الڤاتيكان وصنّف كتابه المشهور: **السِّيَر**، وهي وثائق ذات أهمّيّة كبرى تتناول أشهر فنّاني عصر الانبعاث. ثمّ إنّ ثِرْبانْتِيس، الكاتب الإسبانيّ الأشهر ومؤلّف دون **كِيخُوت**، ولد في ١٥٤٧، السنة التي نُقِلَ فيها المجمع من ترِنْتو إلى بولونيا.

٢٢٠ - يوليوس الثالث (١٥٥٠-١٥٥٥)

ما كان جان ماري تْشِيُوكّي دِلْ مُونْتي أهلًا للرسالة الصعبة التي ألقيت على عاتقه. فقد عادت الحفيديّة في عهده لتسيطر على الڤاتيكان. والأعياد، والألعاب، والسباقات التي أدخلها إسكندر السادس في القصر البابويّ، استمالت البابا الجديد أكثر ممّا استهوته شؤون الكنيسة.

كان هنري الثامن قد مات في كانون الثاني/يناير ١٥٤٧، وفرنسوا الأوّل في آذار/مارس من السنة نفسها. وعادت كنيسة إنكلترا إلى دائرة الكثلكة بفضل ماري، ابنة هنري وزوجة فيليب الثاني ملك إسبانيا. أمّا في فرنسا فكانت الأمور تسير إلى الأسوأ، واستدعى الملك الجديد، هنري الثاني، المندوبين الفرنسيّين من مجمع ترِنْتُو الذي دعا إليه البابا في الأوّل من أيّار ١٥٥١. أمّا السبب الرسميّ لهذا الاستدعاء فكان أنّ فرنسا ترى نفسها حرّة من أيّ هرطقة، فلا ضرورة تلزمها إذن بالمشاركة في

مجمع يبحث بالضبط في الهرطقة. إلّا أنّ الدافع الحقيقيّ هو أنّ هنري كان يتمنّى الحصول على رضى الأمراء الپروتستانت الذين عقد معهم تحالفًا سنة ١٥٥٢. ومقابل دعمه إيّاهم، فإنّ فرنسا تنال «الأبرشيّات الثلاث»: مِتْز، تُول، وڤِردان.

ورغم تخلّف فرنسا، تابع المجمع سيره واتّخذ قرارات مهمّة بشأن القربان الأقدس، وسرّ التوبة، والمسحة الأخيرة، إلخ. أمّا جهود الإمبراطور لإقناع الپروتستانت كي يبعثوا بمندوبين إلى المجمع، فقد باءت بالفشل. وعندما اندلعت الحرب ثانيةً بين الإمبراطور والأمراء الپروتستانت الذين تساعدهم فرنسا (وهي التي كانت في الوقت نفسه تضطهد الپروتستانت في أرضها)، اضطرّ المجمع إلى أن يعلّق أعماله مدّة سنتين، نظرًا إلى أنّ جيوش الهراطقة كانت تتقدّم باتّجاه ترِنْتو.

لقد ترك يوليوس الثالث ذكريات قليلة. في عهد حبريّته بُنِيَت ڤِيلّا جوليا في روما، وهي حاليًّا المتحف الأتْرُوسْكيّ. وفي ١٥٥١، عيّن پالِسْترينا مدير جوقة كنيسة القدّيس بطرس، وقد قدّم إليه الموسيقيّ الشهير هذا الجزء الأوّل من مجموعة قدّاساته الملحَّنة، سنة ١٥٥٤.

٢٢١ - مَرْتشِلّلو الثاني (١٥٥٥)

مَرتشِلّلو تْشِرڤِيني، كردينال الصليب المقدّس في القدس، جلس على العرش البابويّ أسابيع قليلة، إلّا أنّه ترك بعده ذكرى راسخة. لقد ألغى جميع الاحتفالات التي كانت تقام لمناسبة انتخاب البابا، وحرّم على عائلته القدوم إلى روما. كان صديقًا لميكال أنج، الفنّان الذي قدّر معلومات البابا في فنّ

العمارة وقد أولى المكتبة الڤاتيكانيّة عنايته. وتخليدًا لذكره ألّف پالِسترينا «قدّاس البابا مَرشِلّو»، وهو أحد أشهر الأعمال الموسيقيّة في العالم الكاثوليكيّ. وإحدى أخوات هذا البابا كانت أمّ القدّيس رُوبِرتُو بِلّلَرْمينو. رسم جاكُوبُو پُونتُورْمو صورةَ البابا القدّيس هذا، ولدى موته بكاه جميعُ مَن كانوا يؤيّدون إصلاحًا صارمًا في الكنيسة.

٢٢٢ - بولس الرابع (١٥٥٥-١٥٥٩)

هو جان-بيار كارافّا النابوليتانيّ المنشأ. كان سابقًا قاصدًا رسوليًّا في بلاط فرناندو الكاثوليكيّ، في مدريد، سنة ١٥١٥. شهد في ١٥٢٧ «نهب رومة» وكان يكره الإسبان، وتأثّرت سياسته، لسوء الحظّ، بهذا الحقد. لقد كان بابا صارمًا، متقشّفًا، تحثّه الرغبة في إصلاح العادات في الكنيسة على إثر الحقبة الفاجعة التي دشّنها إسكندر بورجيا، غير أنّه رعى الحفيديّة وجاء بأقاربه إلى أعلى المراتب الكنسيّة. فشارل كارافّا، وهو عسكريّ دَمَويّ، فاسد الأخلاق، عُيّن كردينالًا وأُرسِل سفيرًا إلى بلاط هنري الثاني حيث حصل على تأييد كاترين دي مديتشي وعائلتَي مونتمورنسي ودي غيز القضيّةَ البابويّة.

جنّد البابا بولس الرابع، تعزيزًا لجيشه، ثلاثة آلاف سويسريّ أطلق عليهم اسم «كتائب الملائكة المُرسَلين من السماء». وبالرغم من ذلك، فقد انهزمت العساكر البابويّة أمام جيش دوق ألبا في پاليانو في ١٥٥٧. وبعد هذا التاريخ بأسابيع قليلة، حقّق الإسبان، في فلاندر، انتصارهم على الفرنسيّين في سان-كنتان، فانهارت سريعًا مشاريع البابا

وخططه ضدّ الإسبان. وقّع، في پالسترينا، مفوَّضو فيليب الثاني ومندوبو البابا معاهدة سلام حالت دون أن، تقع المدينة الخالدة ضحيّة النهب ثانية. وفي ١٥٥٩، رسّخت أخيرًا معاهدة كاتو-كامبريزي السلام بين إسبانيا وفرنسا بعد أربعين سنة من الحرب. وطّدت إسبانيا سيطرتها على ميلانو وعلى جنوب إيطاليا، في حين جَلَت فرنسا عن الساڤوا لتردّها إلى عمانوئيل - فيليبرت، إلّا أنّها احتفظت باللورين وكاليه.

وفي ألمانيا أيضًا، انتهت الصراعات الدينيّة باتّفاق السلام الذي وقّع في أوغسبورغ سنة ١٥٥٥، إلّا أنّ هذا السلام لم يكن نهائيًّا. فالفقرة المشهورة: **محفوظ للكنيسة**[٤٦] لحظت حرمان أيّ من أمراء الكنيسة من أمواله إذا التحق بالپروتستانتيّة. وما كان السلام ليدوم طويلًا لأنّه كان يوفّر حرّيّة العبادة للأمراء من دون غيرهم. أمّا الشعب، خلافًا لذلك، فكان عليه أن يتبع دين مليكه[٤٧]، وهكذا فقد اضطرّ سكّان الپلاتينا (Palatinat) إلى أن يغيّروا معتقدهم أربع مرّات في أربعين سنة. وزاد البؤس شدّة بعد صلح أوغسبورغ الذي أنشأ انقسامات جديدة في ألمانيا: أحد هذه الانقسامات ذاك الذي حصل بين الشعب والأمراء كنتيجة محتّمة لسياسة لوثر؛ والانقسام الآخر بين الكاثوليك والپروتستانت الذي دام أجيالًا.

إنّ جميع هذه الانهزامات على الجبهات الحربيّة

---

(٤٦) Reservat ecclésiastique.

(٤٧) واشتهرت بهذه المناسبة العبارة Cujus regio ejus religio: مَن له الملك له الدين أيضًا؛ ويقابلها بالعربيّة «الناس على دين ملوكهم».

والدينيّة كدّرت بولس الرابع، فانصرف بكلّ قوّته إلى الاهتمام بشؤون الكنيسة الداخليّة. ساعد أبناء إخوته فخانوه، فانتهى به الأمر إلى أن طردهم من رومة. وجعل من التفتيش محكمة رعب حقيقيّة. وقد انتقد الكرادلة أنفسهم ميله للتدخّل شخصيًّا في الدعاوى. وأنشأ **الدليل** الذي كان يحرّم مطالعة كتب عديدة غير مؤذية، بحيث اقتضت الحال إعادة النظر في الجدول لاحقًا. واليهود الذين نعموا في السابق بحماية البابوات، أرغموا على اعتمار قبّعات صُفر. وقبل أن يموت، وقد أخذ به التعب وشقّ عليه الفشل، عَلِم أنّ إيزابيل، ابنة هنري الثامن وآن بولين، بدأت باضطهاد الكاثوليك. وكان أحد الضحايا شكسبير.

على أنّ بولس الرابع، وبالرغم من أخطائه، كان بابا صالحًا، وكان صرامته أحيانًا ضروريّة بعد السنوات التي أهمل فيها الأحبار الأعظمون رسالتهم، فانصرفوا، مثل لاون العاشر، إلى الاهتمام بالفنون أكثر منهم بالدين.

يوم مات بولس الرابع، حرّض أعداؤه الشعب فانتفض فأحرق قصر محاكم التفتيش، وهدم تمثالًا للبابا ورمى برأس التمثال في نهر التيبر. دفن البابا بولس في كنيسة القدّيس بطرس، إلّا أنّ بيّوس الخامس أمر بنقل رفاته إلى كنيسة القدّيسة مريم المينرڤا.

يبرّر لويس پاستور في كتابه **تاريخ الكنيسة** التصرّف القَمْعيّ القاسي الذي اعتمده بولس الرابع، مؤكّدًا أنّ لا أحد كان استطاع أن يفعل خيرًا ممّا فعله بابا مثله، ليقضي على التجاوزات التي ارتكبتها الكنيسة في عصر الانبعاث. فالبناء المرمَّم أمكنَ

رفعه على الأُسس التي أرساها البابا كارافّا. أمّا خطأه الفاجع أكثر من أيّ خطأ آخر فكان موقفه المناوئ لإسبانيا، في وقت كانت الكثكلة تعتمد على فيليب الثاني وأوروبّا تعيش في ما يشبه ظلّ سيادة سياسيّة ودينيّة إسبانيّة. وقد أدرك بولس الرابع خطأه في آخر حياته فأثنى على فيليب الثاني وحزمه في محاربة الهراطقة. في ١٥٥٦ توفّي القدّيس إغناطيوس دي لويولا مؤسّس اليسوعيّين.

٢٢٣ - بيّوس الرابع (١٥٥٩-١٥٦٥)

هو جان أنج دي مِدِيتْشي، إلّا أنّه لا ينتمي إلى العائلة الفلورنتينيّة الشهيرة. أصله من ميلانو. كان قد درس الطبّ، والحقوق والفلسفة. ميّال إلى الفنون والديبلوماسيّة، لطيف الطبع، معتدل. عرف أن يُصحّح أخطاء سَلَفه وأن يضع حدًّا للحفيديّة. إختتم مجمع ترِنْتو في عهده أعماله بطريقة موفّقة. في ٢٩ تشرين الثاني/نوڤمبر ١٥٦٠، نشر البابا براءة يدعو فيها المجمع إلى الانعقاد ثانية في ١٨ كانون الثاني/يناير ١٥٦٢. كان لفرنسا مصلحة في انعقاد المجمع لأنّ أراضيها كانت مسرحًا لحرب أهليّة، مع أنّها ناهضت انعقاد المجمع الأوّل بتأثير موقف البروتستانت. وكان المجمع عازمًا على محاربة الهرطقات والقضاء عليها وإصلاح العادات داخل الكنيسة بفضل **القوانين** و**قرارات الإصلاح**. قبلت أحكامَه الدول الكاثوليكيّة. ونشرها فيليب الثاني بعد أن احتفظ لنفسه بـ«صلاحيّات تاجه». أمّا في فرنسا فقد حصل بعض التمييز بين قوانين الإيمان وقرارات الإصلاح، ذلك أنّ النزعة الڤاتيكانيّة كانت تزداد رسوخًا في مملكة عُبِد ملكها بعد ذلك بقرن وكأنّه إله.

كان للمجمع نتائج مهمّة في العالم الكاثوليكيّ وسجّل انطلاقة في تجدّد الإيمان. إنّ المرحلة السابقة لم تبلغ حدّ تقويض الأسس التي قام عليها تراث القدّيس بطرس، بالرغم من أنّ الاهتمامات الدنيويّة شغلت الباباوات ورجال الإكليرس وهزّت أركان الإيمان وأحدثَتْ ردود الفعل المعروفة لدى سافُونارُولا ولوثر، ولدى أناس معتدلين، وكاثوليك مخلصين مثل ميكال أنج وفكتوريا كولونّا. الكنيسة كانت كما في السابق، إلّا أنّ روحًا جديدًا كان ينعش مدبّري شؤونها. نشأت مؤسّسات جديدة، وتأسّست رهبانيّات جديدة بعد مجمع تْرِنْتو الذي أنهى اجتماعاته في ٤ كانون الأوّل/ ديسمبر ١٥٦٣. وبعد ذلك بسنة أنشأ البابا **اعتراف الإيمان التريدنتينيّ**، وهو وهي صيغة يؤدّي القَسَمَ عليها الأساقفة وأساتذة الجامعات قبل أن يتولّوا مَهامَّ وظائفهم.

وفي القِسم الأوّل من هذه النهضة، قام بدور مهمّ شارل بُورُّومِيُو، ابن أخي البابا، وهو شخص بارز بسموّ خلقه، وقد رُفع له تمثال ضخم، يمثّل تمثيلًا حيًّا روح العصر الباروكيّ المناضل الرفيع، يشرف على مياه البحيرة الكبرى، في أرونا، شمال ميلانو. أسّس شارل بورّومِيُو الأكاديميا الفاتيكانيّة في ١٥٦٢ وكان أحد أشدّ الكرادلة نفوذًا، وأكثرهم اتّزانًا وثقافة في عصره. وما زال مُمكنًا أن ترى في روما، في كنيسة القدّيسة بْراكْسِيد، الطاولة التي كان يأكل عليها مع فقراء المدينة الخالدة.

جدير بالذكر أنّ فاجعة دمويّة حصلت في عهد حبريّته. فدوق پاليانو الذي كان بولس الرابع قد رفعه إلى أعلى المراتب ثمّ نُبذ بعد خيانة آل كارافّا،

قتل زوجته. فطلب شعب رومة بأن تُنْزَل بآل كارافّا عقوبة تجعل منهم عبرةً، خصوصًا أنّ الرومانيّين طفح كيل نفورهم من هَيْمنة السياسة الحفيديّة، والتجاوزات، وأعمال العنف التي طبعت الفترة التي شغل فيها آل بورجيا، وفارْنيزي، ورِڤِيري، ومَدِيتْشي أعلى المناصب في الكنيسة. وكذلك فيليب الثاني الذي لم ينس الحقد الذي أفصح عنه آل كارافّا تجاه إسبانيا، أراد أن يكون العقاب شديدًا. وهكذا كان. فُتِحَت دعوى جزائيّة بحقّ جميع أفراد العائلة. فحُكِم على الكردينال شارل كارافّا وعلى دوق پُولِيانُو بالموت، لكنّ آخرين فرّوا من السجن. ونال البراءة الكردينال ألفونسو كارافّا وحده لأنّه لم يُثْبَت عليه أيّ ذنب. أحدثت هذه القضيّة ارتياحًا وهلعًا كبيرين، لكنّها كانت ناجعة لأنّها وضعَتْ حدًّا للحفيديّة ولو بمقدار. فالبابا بيّوس الرابع نفسه الذي قَسا على آل كارافّا، لم يتردّد في مساعدة أقاربه وتسهيله ارتقاءَهم اجتماعيًّا، وأحدهم صار فيما بعد القدّيس شارل بورّوميو الذي كان، لحسن الحظّ، ألمعَ مستشاريه.

ورعى بيّوس الرابع الفنون. فقد ساعد ما أمكنَه ميكال أنجلو، سواء لمتابعة أشغاله في باسيليكا القدّيس بطرس، وكان على وشك أن تنتهي، أو لبناء باب پيا (Porta Pia)، واستعمال خرائب حمّامات دِيُوكْلِيتِيانُس ليبني في المكان كنيسة مسيحيّة على اسم القدّيسة مريم سيّدة الملائكة.

مات أكبر فنّان في كلّ العصور (ميكال أنج) في روما سنة ١٥٦٤، عجوزًا مُجَلّلًا بالمجد. أمّا رفاته الذي كان البابا يودّ أن يُدْفَن في كنيسة القدّيس بطرس، فقد نُقِل إلى فلورنسا تنفيذًا لرغبة الفنّان

التي ضمّنها وصيّته. لقد كان ميكال أنج يحبّ فلورنسا وطنًا له حقيقيًّا، وبلغ منه هذا الحبّ أن حارب دفاعًا عنها عندما انتفض شعبُها على طغيان آل مديتشي، وترك بين جدرانها بعض روائعه الخالدة. وجسده يرقد حاليًّا في پانتيون عظماء الفلورنتيّين، في كنيسة الصليب المقدّس، بجوار دانتي، ومَكيافللي، وغالِيليُو، وروسّيني: علماء، وكتّاب، وفنّانين تركوا بالغ الأثر في نفوس الناس وغيّروا وجه العالم.

مات بيّوس الرابع في ١٥٦٥ ودُفِن في كنيسة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة، الكنيسة التي بناها صديقه ميكال أنج.

٢٢٤ – بيّوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢)

يُعتبر الأحبار الأربعة الذين تعاقبوا على كرسيّ بطرس بعد بيّوس الرابع مؤسّسي العصر الباروكيّ الحقيقيّين، وهو العصر المشَرَّب بروح المجمع التريدنتينيّ. فقد التأم فنّ جديد، وفلسفة جديدة، وأدب جديد، وعقليّة جديدة في الكنيسة وفي الفاتيكان، لتجعل من حقبة الانبعاث الدينيّ هذه أحد أشهر عصور الكنيسة. وقد وُسِمَت هذه الحقبة بالانتصار المسيحيّ في ليپانتو. غير أنّ النصف الثاني من القرن السادس عشر يمثّل مرحلة صعبة للباباوات وللملوك الكاثوليك عمومًا. فالملكة إليزابيت كانت تضطهد الكاثوليك في إنكلترا؛ والكلڤينيّون يثيرون حروبًا أهليّة في فرنسا؛ وإنكلترا وهولندا، مع أنّ الجيوش الإسبانيّة كانت تحتلّ هذه الأخيرة، تهاجمان الإمبراطوريّة الاستعماريّة الجديدة التي خلقتها إسبانيا، وتنسّقان حملة مناهضة للكثلكة

دافعها الرغبة في الاستيلاء على الممتلكات الجديدة في ما وراء البحار؛ والأتراك مستمرّون في التقدّم نحو الغرب. غير أنّ الباباوات الأربعة الذين دشّنوا الحقبة الباروكيّة، - بيّوس الخامس، وغريغوريوس الثالث عشر، وسِكستُس الخامس، وإقليمنضس الثامن -، أنقذوا الكنيسة بقداستهم وحكمتهم من هجمات الپروتستانتيّة في الغرب، ومن الكفّار في الشرق.

أنطونيو-ميكال غيسلِيري وُلِد في الپيمُونْت لعائلةٍ فقيرة جدًّا. كان يرعى الغنم وهو بعدُ صغيرٌ. دخل الرهبانيّة الدومنيكانيّة وصار قاضيًا في محكمة التفتيش في كوم (Côme). عيّنه البابا بولس الرابع أسقفًا على سُوتْري (Sutri) وكردينالًا على سانْت-سابين. وبعد انتخابه بابا لم يُقْلِع أبدًا عن حياة التقشّف الرهبانيّة، وكان يطمح، بحسب أقوال معاصريه، إلى تحويل رومة ديرًا. طرد المهرّجين من البلاط الفاتيكانيّ، واشترك في التطوافات لابسًا زيَّ راهب. عزّز محاكم التفتيش من دون أن يقع في المبالغات التي سقط فيها بولس الرابع. إتّخذ مستشارًا له القدّيس شارل بورّوميو. وكان لهذين الرجلين القدّيسين أن يحلّا مشاكل منوّعةً ومعقّدة.

ومن أخطر هذه المشاكل الجدال في مسألة النعمة، وهي مشكلة أثارتها الپروتستانتيّة وأبرزَتْها واضحة نظريّات ميشال دي بايْ، الأستاذ في جامعة لوڤان. فهو، باعتماده على تفسير ناقص للقدّيس أوغسطينس، يؤكّد أنّ الإنسان، قبل سقوطه في الخطيئة، كان يملك القدرة التامّة على التمييز بين الخير والشرّ، أي إنّه كان يمتلك الحرّيّة المطلقة، لكن بعد السقوط في الخطيئة، فقد استسلم الإنسان

للشهوة ففقد كلّ حرّيّته تقريبًا. وفي المرحلة التي توصف بأنّها «نظام الطبيعة المعوَّض»، وحدها النعمة الإلهيّة قادرة أن تَسِمَ الإنسان الصالح وتبعده عن الشرّ، في حين الإنسان الشرّير، المُعَدّ للخطيئة وللجحيم بقرار إلهيّ سابق، وبالتالي، بنقص النعمة، فلا ينال الخلاص. هذه النظريّة التي قامت عليها الجانسينيّة تظهر متّصلة اتّصالًا وثيقًا بالحبريّة اللوثريّة. في ١٥٦٠، حرّمت جامعة باريس قسمًا منها. وفي ١٥٦٧، حرّمها أيضًا بيّوس الخامس. وأعلن دي باي خضوعه للكنيسة، إلّا أنّ النظريّة حافظت على تأثيرها في الأوساط اللاهوتيّة والفكريّة.

كان الوضع السياسيّ في فرنسا خطيرًا جدًّا. فالكالڤينيّة بدأت تستميل النبلاء، وصار للهرطقة قوّة مسلّحة فجّرت نزاعات لا عدّ لها. وانتقل إلى الكالڤينيّة أميرالات، وقوّاد، وأشخاص ذوو مكانة من العائلات الأرستقراطيّة الكبرى مثل عائلات شاتيّون، وبُورْبُون. وانتظم الهُوغُونِيُّون في حزب هو الذي حاكَ مؤامرة أمْبُوازْ وهدفها اختطاف الملك فرنسوا الثاني وهو فتى ضعيف الشخصيّة. غير أنّ المؤامرة فشلت وحُكِمَ على رأسِها، الأمير كوندي، بالموت، إلّا أنّ الملكة الأمّ، كاترين دي مديتشي، عَفَتْ عنه. وكذلك اعتنق الهرطقة ملك ناڤارّا. وفي هذا السياق، عاشت فرنسا عشرات من السنين في ظلّ الحرب الأهليّة والدينيّة إلى أن جحد هنري الرابع علنًا البروتستانتيّة سنة ١٥٩٣، وأصدر مرسوم نانْتْ (١٥٩٨).

تدخّل البابا بيّوس الخامس في النزاع فأرسل إلى فرنسا أسقف سِبِنيدا ميشال دِللا تُورّي ليعمل على

تطبيق مبادئ مجمع ترِنْتو، كما أرسل جيوشًا بابويّة لتساعد قوّات الحزب الكاثوليكيّ. وتمّ توقيع اتّفاق السلام في ١٥٧٠ في سان-جرمان أُقِرَّ فيه للبروتستانت قَدْرٌ من الحرّيّة.

ولم تكن الحال بأحسن من ذلك في مدريد. فإنّ طموح فيليب الثاني إلى مراقبة كلّ شيء في دولة ذات نظام سلطويّ مطلق، ورغبته في تحويل محاكم التفتيش أداةً بيد السلطة الزمنيّة، عجّلا في خَلْق حالة من التوتّر مع الڤاتيكان. فعندما اتُّهم بَرتُولُومِيُو كارّانْزا، مطران طليطلة، بالهرطقة، فسُجِن وسُلّم إلى محاكم التفتيش الملكيّة، تدخّل البابا كي يطلق سراحه. ويعود الفضل في عدم حصول القطيعة بين البابا والملك إلى لباقة المبعوث البابويّ، جان باتيست كاستانيا وإلى أنّ إسبانيا كانت، في ذلك الوقت، أمتَنَ دعامة للكَثْلكة في عالم تتهدّده البروتستانتيّة. فالتحالف بين مدريد والڤاتيكان كانت تفرضه الضرورة في ظرف تاريخيّ معيّن، وهذا التحالف أنقذ الكثلكة.

في إنكلترا قامت إليزابيت، ابنة آن بولين، بتنظيم الكنيسة الأنغليكانيّة، واضطهدت الكاثوليك، وصادرت أموالهم. وكانت ماري سْتيوارت، ملكة سْكُوتيا وحامية الكاثوليك، على وشك أن تتلقّى المساعدة من عدّة ملوك أوروبّيين، ومن بينهم فيليب الثاني، بقصد تهديد إليزابيت وإرغامها على التخفيف من عنف سياستها. إلّا أنّ سعي ماري خُنِقَ في المهد لأنّ ملكة إنكلترا قبضَتْ عليها وقطعَتْ رأسَها في ١٥٨٧.

أدرك بيّوس الخامس أنّ إليزابيت كانت تتعاطى مع الديانة على هواها، وتعتمد على الأنغليكانيّة

باعتبارها قوّة سياسيّة جديدة، فحرمَها في ١٥٧٠ بالبراءة «الله المالك» (*Regnans Dei*) التي أعفت الكاثوليك الإنكليز من قَسَم الأمانة للعرش. وكانت هذه آخر مرّة في تاريخ الكنيسة يحرم فيها البابا ملكًا.

عندما طلب السلطان سليمان الثاني من دوج البندقيّة أن يسلّمه جزيرة قبرص، فكّر البابا في إنشاء حِلف مسيحيّ لمجابهة الأتراك وتجميد هجومهم. غير أنّ إسبانيا، والبندقيّة، وفرسان مالطة وبعض المدن الإيطاليّة، وحدها لبّت النداء. أمّا فرنسا، والبرتغال، وبولونيا، وألمانيا، وروسيا فقد فضّلت البقاء خارج التحالف لأنّها ما كانت تعي الخطر الداهم. فأنشئ أسطول حربيّ كبير بلغ عدد مراكبه مئتين، ورجاله ثلاثين ألفًا، وعيّن قائدًا أعلى له دون خوان النمسويّ، ابن شارل الخامس الطبيعيّ. وكان يقود الأسطولَ البابويّ ماركو أنطونيو كولونّا، ابنُ أخي ڤكتوريا كولونّا، وأسطولَ البندقيّة الأميرال سبستيان ڤرنييه. حصلت المعركة في لِيپانْتُو بالقرب من الشاطئ اليونانيّ في ٧ تشرين الأوّل/أوكتوبر ١٥٧١ وتمّ فيها القضاءُ على الأسطول التركيّ قضاءً تامًّا. إشترك ميغال دي ثِربانْتِيس [٤٨] في هذه المعركة الهائلة، فوقع أسيرًا في أيادي الأتراك واقتيد إلى أفريقيا (الجزائر). وصل خبر الانتصار المسيحيّ إلى رومة بعد أسبوعين، فجعل البابا بيّوس الخامس من يوم الانتصار في لِيپانْتُو عيدًا سنويًّا باسم سيّدة

(٤٨) ميغال دي ثربانتيس (١٥٤٧–١٦١٦). يعود ذكره تخصيصًا هنا إلى أنّه صار من بعد أشهر أدباء إسبانيا، ومن أبرز الكتّاب العالميّين بفضل نتاجه الأدبيّ عمومًا، وكتابه **دون كيخوت دي لا مانتشا** خصوصًا.

الانتصار. ثمّ نقل البابا غريغوريوس العيد إلى الأحد الأوّل من تشرين الأوّل/أكتوبر تحت اسم سيّدة الورديّة.

على أنّ الانتصار المسيحيّ الكبير الذي وضع حدًّا للتفوّق العثمانيّ في البحر المتوسّط، لم يحسن الكاثوليك الاستفادة منه. ففي سنة ١٥٧٣، عقدت البندقيّة، بواسطة ملك فرنسا، سلامًا منفردًا مع الأتراك على أسس توافق الكفّار. إلّا أنّ البابا لم يعش طويلًا ليطّلع على هذه الخيبة. فقد مات في أوّل أيّار/مايو ١٥٧٢، وكُفّن بثوب الرهبانيّة التي طلع منها. وأُعلِن قدّيسًا في ١٧١٢.

كان بيّوس الخامس مناوئًا لنزعة الثقافة الإنسانيّة، وناهض مناهضة تامّة الأسلوب الذي اعتمده باباوات عصر الانبعاث في تسيير شؤون الكنيسة. فقد كان يعتبر الأعمال الفنيّة، خصوصًا الصور والتماثيل العارية وقد صارت عنوان فخر للحقبة السابقة، انبعاثًا جديدًا للعقليّة الوثنيّة.

في عهد حبريّته شرع المهندس المعماري ڤينيولا في بناء كنيسة اليسوعيّين في رومة، تطبيقًا للتصاميم التي كان قد وضعها ميكال أنج.

٢٢٥ - غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥)

هو هوغو بُونْكُومِپانيي. كان كردينال كنيسة القدّيس سِكْسْتُس، وقام بمهامّ عدّة في الخارج منها قاصدٌ رسوليٌّ في مدريد، في بلاط فيليب الثاني. شُهِر بأنّه محامي القدّيسين ونصير المرسَلين. في عهد حبريّته، طبّق القدّيس شارل بورّوميو مبادئ الإصلاح الكنسيّ الكاثوليكيّ، ونظّم القدّيس فيليب

نيري عمل العلمانيّين الرسوليّ، والقدّيس رُوبِرتُو بِللرْمِينو دُعِيَ إلى رومة حيث علّم في المدارس التي أنشأها البابا حديثًا. وقد نَعِمَ اليسوعيّون خصوصًا بثقة البابا غريغوريوس وقاموا برسالات مهمّة في أوروبّا وفي القارّات الأخرى. وغريغوريوس هو البابا الذي حوّل المدرسة الرومانيّة إلى الجامعة الغريغوريّة التي طمح إليها القدّيس إغناطيوس. وهو هو، البابا غريغوريوس الذي وسّع المدرسة الجرمانيّة والهنغاريّة التي تأسّست سنة ١٥٥٢ وبدأت فيها تنشئة أجيال من الكهنة عملوا لاحقًا في ألمانيا وبلاد المجر. وكذلك أنشئت المدرسة الإنكليزيّة في ١٥٧٩، وعرفت باسم إكليريكيّة الشهداء، لأنّ جميع تلاميذها تقريبًا كان مصيرهم الاستشهاد لدى عودتهم إلى بلادهم[٤٩].

وفي إسبانيا، قامت القدّيسة تريزا الأفيليّة بإصلاح الرهبانيّة الكرمليّة، وقد صدّق البابا قانونها سنة ١٥٨٠. وفي هذه الحقبة عاش القدّيس يوحنّا الصليب وألّف[٥٠].

في عهد حبريّة غريغوريوس الثالث عشر حصل

(٤٩) تجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ الفضل يعود إلى هذا البابا، غريغوريوس الثالث عشر، في إنشاء المدرسة المارونيّة في رومة سنة ١٥٨٣، وهي المدرسة التي أنبتت الكثيرين من رجال الدين والعلم الموارنة الذين خدموا الكنيسة الجامعة، ونشروا بذور النهضة في الشرق، وأسهموا في حركة الاستشراق في أوروبّا.

(٥٠) إلى جانب إصلاح الرهبانيّة الكرمليّة، فإنّ القدّيسة تريزا والقدّيس يوحنّا الصليب من أكبر الروحانيّين (الصوفيّين) الكاثوليك. والقدّيسة تريزا أولى امرأة تُعلَن ملفانة/ معلّمة الكنيسة (١٩٧٠). وقد نقل المترجم أهمّ آثارها إلى العربيّة. كما نقل بعض آثار القدّيس يوحنّا، وهو من معلّمي الكنيسة أيضًا (١٩٢٦).

أحد أسوأ الأحداث المأسويّة في التاريخ الأوروبّيّ. فقد دفع كاترين دي مِدِيتْشِي الحسَدُ من التأثير الذي كان يمارسه كُولِينِي في الملك، فنظّمت عمليّات قمع رهيبة ضدّ البروتستانت. وقد اغتيل الأميرال كولييني نفسه، وكان كالڤينيًّا، ليلة عيد القدّيس برتلماوس (٢٤ آب/أغسطس ١٥٧٢)، وقضي على ألوف من الهراطقة في شوارع باريس وفي المدن الفرنسيّة الأخرى، فكانت ضحايا قمع جماعيّ نتيجة مؤامرات حيكَت في البلاط. وعندما اطّلع البابا، بعد أيّام، على أنباء المذابح التي حصلت، بكى غمًّا. ومع هذا، فإنّ الحروب الدينيّة التي كانت تقطّع أوصال فرنسا لم تعرف نهايتها عقب هذه الليلة المرعبة، بل استمرّت عشرين سنة بعد ذلك.

أمّا سياسة غريغوريوس تجاه إنكلترا فكانت غامضة جدًّا. ففي عهده، وضع بعض المغامرين مخطّطًا للاستيلاء على إيرلندا، وصمّم آخرون على اغتيال إليزابيت. لكنّ الملكة أجهضَتْ بسهولة هذه المخطّطات التي كانت نتيجتها المباشرة زيادة وتيرة الاضطهادات تدريجيًّا ضدّ الكاثوليك الإنكليز. فتدخّل البابا لدى فيليب الثاني ليقنعه بالقيام بحملة ضدّ إنكلترا بهدف القضاء على الملكة الهرطوقيّة. وأرسل اليسوعيّ أنطونيو پُوسِّڤِينُو إلى موسكو ليتباحث مع القيصر إيڤان الرهيب. ففشل الرسول في مهمّته. فالقيصر كان في حرب مع ملك بولونيا وكان ينتظر پوسّڤينو بنيّة استخدامه وسيطًا لوضع حدّ للمناوشات. وبفضل البراعة المنحرفة التي ميّزت السياسة الروسيّة دائمًا، فقد حدّثَ الرسول البابويّ عن ضرورة تحقيق تحالف مسيحيّ ضدّ الأتراك، وعن احتمال عودة روسيا إلى الإيمان الكاثوليكيّ.

بل كان قصدُه من ذلك أن يفتح لنفسه ممرًّا نحو بحر البلطيق عبر بولونيا. لكن قصدَه لم يتحقّق. وعاد پوسّڤينو إلى رومة من مهمّته صفر اليدين، لكنّه كتب **شروح حول مُوسكوڤيا**، وهي أوائل التقارير الكاملة عن روسيا، والحياة فيها، وتاريخها، وجغرافيّتها.

ومقابل ذلك الفشل، فإنّ الرسالات في أفريقيا، وآسيا، وأميركا، خصوصًا تلك التي أطلقها اليسوعيّون، حقّقت نجاحًا باهرًا. وجاءَت الأعمال التي حقّقتها هذه الرهبانيّة، في تلك الحقبة، على درجة عالية من الأهمّيّة أفي المجال الدينيّ كان ذلك أم في الحقل العلميّ.

عندما زار ميشال دي مُونْتاني، مؤلِّف الـ **محاولات**، رومة في ١٥٨٠ و١٥٨١، وجدها ضاجّة بالنشاط العمرانيّ، فكتب عن ذلك صفحات رائعة في يوميّات رحلته. فينابيع ساحة نافونا وفوّاراتها، وپانتيون «ساحة الشعب»، أنشأها في هذه الفترة مهندسون ذوو شهرة. وكان جياكُومُو دِلّلا پُورْتا يدير الأشغال في كنيسة القدّيس بطرس، ويشرف بمعاونة لُونْغي، على إنهاء شكل الكاپيتول الحاليّ استنادًا إلى التصاميم التي وضعها ميكال أنج. وفي ١٥٧٥، شرع في بناء قصر الكِويرينالي على التلّة التي تحمل الاسم نفسه.

على أنّ أهمّ إصلاح تحقّق في حبريّة غريغوريوس فهو إصلاح التقويم السنويّ الذي سمّي منذئذ: التقويم الغريغوريّ. فقد ضبط السنة الطقسيّة الكنسيّة على معطيات علم الفلك. على أنّ هذا الإصلاح لم يتمّ تبنّيه في البلدان الغربيّة إلّا في القرن الثامن عشر، بل إنّ بعض بلدان أوروبّا الشرقيّة لم تعتمده إلّا في القرن العشرين.

٢٢٦ - سِكْستس الخامس (١٥٨٥-١٥٩٠)

فليكس پيريتّي، كان من عائلة متواضعة من قرية مغارة البحر (Grotte a Mare) في منطقة المارْش. دخل الرهبنة الفرنسيسكانيّة في التاسعة من عمره. سار من نجاح إلى نجاح في حياته. إشترك في مجمع ترنتو وحظي بشهرة واسعة بالوعظ. عيّنه كردينالًا البابا بيّوس الخامس في ١٥٧٠. أمّا البابا غريغوريوس فلم يعهد إليه بأيّة وظيفة، فاضطرّ الأخ فِلِيتْشي إلى أن يعيش على هامش الحياة الڤاتيكانيّة طوال حبريّة غريغوريوس مكرّسًا نشاطه للدرس. لم يكن البابا يكنّ الودّ لهذا الراهب الفرنسيسكانيّ منذ أن كان قد تبع الكردينال بيونكومپاني إلى مدريد، وكان الفرنسيسكانيّ يبادله بالمثل، فإنّه كان يلومه على عدم معاقبته قاتل ابن شقيقته، زوج ڤكتوريا أكُورُومْبُوني الذي روى لُودْڤِيك تِيك قصّته المأسويّة.

إنتُخِب سِكستس الخامس بالإجماع فباشر حالًا إعادة تنظيم الدويلات البابويّة. حسمت قوّاته بسرعة أمر العصابات، وازداد شيئًا فشيئًا دخل خزينة الڤاتيكان، ممّا أتاح للبابا مساعدة الأمراء المسيحيّين، خصوصًا الملك فيليب الثاني الإسبانيّ ضدّ إليزابيت ملكة إنكلترا. ورغم تنافر مزاجَي الحبر الأعظم وملك إسبانيا، فقد كان واجبًا أن يتفاهما، ذلك أنّ مصالح الكنيسة كانت تلتقي ومصالح مدريد، بطلة العقيدة المستقيمة في الحرب الدينيّة التي كانت تدمي أوروبّا. وما يفسّر النزاع بين البلاطَيْن هو أنّه إذا كان فيليب الثاني يحلم بالاستناد إلى الكنيسة ليحكم إمبراطوريّته الواسعة بصورة أفضل، فإنّ البابا لم يكن يهمّه إلّا استقلال الكنيسة بإزاء السلطة الزمنيّة. ومع ذلك، فحين بدأ فيليب

الثاني يُعدّ أسطوله «الأسطول الذي لا يُقْهَر» (Invincible armada) بقصد اجتياح إنكلترا والقضاء على الهرطقة، قدّم إليه البابا مبلغ ثمان مئة ألف ريال سنويًّا. لكنّ الأسطول الإسبانيّ قضت عليه رياح البحر العاتية أكثر ممّا تسبّبت بهزيمته المراكب الإنكليزيّة. وكان من شأن هذه الهزيمة غير المنتَظَرة أنّها قضت على آمال البابا بإعادة إنكلترا إلى طريق الإيمان الحقيقيّ. وكانت خيبة سكستس الخامس كبيرة كخيبة فيليب نفسه. فقد بدأت تشغل باله الحالة في فرنسا، كما كانت نيّة فيليب الحصول على تاج هذا البلد. فالبروتستانت كانوا يعترفون بهنري، ملك ناڤارّا، رئيسًا أعلى لهم، وهو الذي صارَ ملكًا على فرنسا باسم هنري الرابع. كان هنري دي غِيز يدير «الرابطة»، وهي الحزب ذو النزعة الشعبيّة. أمّا الحزب الكاثوليكيّ فقد تجمّع، من دون حماسة، حول الملك هنري الثالث، وهو شخص خِلوٌ من الموهبة السياسيّة ومن الهيبة، فتحالف محازبو دوق غِيز مع إسبانيا. تحارَبَ الكاثوليك والبروتستانت على أرض فرنسا، يدعم الأوّل إسبانيا، في حين إنكلترا تساعد البروتستانت. وكان سيّد البلاد الحقيقيّ دوق غيز الذي دبَّر الملك اغتياله. فحرم البابا الملك الذي اغتيل، بدوره، على يد دومنيكانيّ متعصّب، جاك كليمان في ١٥٨٩. فترشّح للخلافة على العرش اثنان: مرشّح الرابطة، الكردينال شارل دي بُورْبُون؛ ومرشّح الهُوغُونِيّين (= الكالڤينيّين) هنري الناڤاريّ الداهية. سعيًا إلى الحصول على تأييد البابا، بعث هنري برسول إلى رومة يَعِد البابا بأنّه سيعود إلى الأرثوذكسيّة. أمّا سكستس الفَطِن فلم يتّخذ موقفًا

مؤيّدًا للمرشّح الإسبانيّ أو لهنري. وحال الموت دون تدخّله في الصراع الحامي الذي انتهى بانتصار ملك ناڤارّا.

لم يكن سكستس الخامس سياسيًّا ومنظّمًا فحسب، فاعتُبِر من أكثر الباباوات الحازمين والخلاّقين في القرن السادس عشر، بل كان أيضًا محبًّا للفنون ومصلحًا عاقلًا. حدّد عدد الكرادلة بسبعين، ونظّم الجمعيّات الڤاتيكانيّة القديمة كما أنشأ جمعيّات جديدة. عيّن كرادلة شخصيّات رفيعة تنعم برصيد معنويّ كبير ممّا أضفى على الكنيسة مظهرًا متوافقًا وقرارات مجمع تِرِنْتو وأفكار الإصلاح المعاكس. جعل اعتماده على اليسوعيّين من دون اعتماد أسلافه وأمر بأن يُدرَج في جدول الكتب المحرّمة *(Index)* كتاب **المجادلات** الذي وضعه مَن أصبح كردينالًا وقدّيسًا فيما بعد: روبرتو بِللرمينو.

وكما أجَلّ شعب رومة سكستس الخامس السياسيّ، ومنظّم الأسطول الڤاتيكانيّ وشؤون الخزينة والجيش، فقد احترمه أيضًا لصفاته في الصرامة والاستقامة والقداسة والتواضع، حتّى بات اسمه محاطًا بهالة أسطوريّة. فالشاعر تُورْكُواتو طاسّو مؤلّف **أورشليم المحرّرة** كان ممّن نعموا برعايته. وقد بنى سكستس الخامس القناطر المدعوّة «الماء السعيد»، وهي القناطر التي توصل الماء إلى رومة من التلال المجاورة. والعمودان اللذان كان أحدهما على اسم الإمبراطور تراجان، والآخر على اسم مَرْكُوس أُورِيلِيوس كُرّسا للرسولين بطرس وبولس. وشقّ سكستس طريقًا جديدًا في روما سمّيت منذئذ الطريق السكستيّة، وأمر بأن تُنْصب أمام باسيليكا القدّيس بطرس المسلّة القديمة التي

كان كاليغولا قد أتى بها من هِلِيوبُوليس[٥١] والتي ظلّت مدفونة قرب الڤاتيكان طوال قرون. وجاء نُصُبُ المسلّة عملًا هندسيًّا وفنيًّا جريئًا حقّقه دومنيكو فُونْتانا، المهندس الأوّل في البلاط، الذي لقّب مقابل ذلك بـ«فارس المسلّة». وقد تغنّى طاسّو بهذا الإنجاز الكبير. ويمكننا أن نقرأ على قاعدة المسلّة هذه العبارات: «المسيح انتصر، المسيح يملك، المسيح يأمر»، وهي عبارات أمر البابا بحفرها لعلاقتها المباشرة بالأحداث التي كانت المسلّة قد شهدت عليها في روما: أي اضطهاد المسيحيّين، واستشهاد الباباوات الأوّلين، وانتصار المسيح والكنيسة النهائيّ الذي يمكن أن تكون له المسلّة شاهدًا. وقد رُفِعت مسلّات أُخَر مصريّة في «ساحة الشعب» أمام اللاتران، وأمام كنيسة القدّيسة مريم الكبرى، وأمام كنيسة الصليب المقدّس. وهذه المسلّات جميعها التي تزيّن اليوم ساحات روما، كان الأباطرة قد جلبوها من مصر، واستراحت طوال قرون مدفونة في التراب والنسيان، لأنّ أحدًا من المهندسين ما كان يستطيع أن يقدّر إمكانيّة رفعها أو أن يتصوّر الآليّات اللازمة لتحقيق ذلك.

بدأت أعمال البناء في ١٥٨٩، وانتهت في عهد الباباوات اللاحقين، وهي الأعمال التي وفّرت للأحبار مقرًّا جديدًا بالقرب من القدّيس بطرس: هو الڤاتيكان، مقرّ البابا حاليًّا. إلّا أنّ العمل المعماريّ الأهمّ الذي تحقّق في عهد سكستس الخامس وغيّر وجه روما، إنّما هو قبّة القدّيس بطرس التي بناها

(٥١) مركز سكّانيّ شمال شرق القاهرة في مصر القديمة، نعم بنفوذ كبير، سياسيّ ودينيّ، بفضل الكهنة خَدَمَة هيكل الإله «را».

دِلّا پُورْتا وفُونْتانا تبعًا للتصاميم التي وضعها ميكال أنج. إنّ هذه القبّة التي يصحّ أن نسمّيها تلّة روما الثامنة، تشرف على المدينة الخالدة بقوامها الضخم المتناسق، رمزًا للسلام والجلال المسيحيّين. لقد كُرّست في ١٤ أيّار/مايو ١٥٩٠. والمهندس فونتانا شيّد أيضًا مبنى المكتبة الڤاتيكانيّة الجديدة.

دُفِن سكستس الخامس في كنيسة القدّيسة مريم الكبرى، تجاه قبر البابا پيّوس الخامس الذي حفظ له سكستس احترامًا خاصًّا.

٢٢٧ - أُرْبانس السابع (١٥٩٠)

تمّ انتخاب جان باتيستْ كاشتانيا، كردينال القدّيس مارسيل، بضغط مباشر من ملك إسبانيا الذي أبلغ المجمع المقدّس أسماء خمسة كرادلة يمكن اختيار أحدهم، وكانت اللائحة تضمّ اسم البابا لاحقًا أُرْبانس السابع الذي لم يشغل كرسيّ بطرس سوى اثني عشر يومًا. وبدأت بالرواج في تلك الحقبة ما سُمّي «نبوءة القدّيس ملاخيا». وهذه النبوءة مجموعة من الأحكام على الحبريّات التي تبدأ مع قلسطينس الثاني وتنتهي بانتهاء العالم. وملاخيا هذا كان قدّيسًا إيرلنديًّا توفّي في ١١٤٨. كتب سيرته القدّيس برنردس، صديقه، غير أنّه لم يُشِرْ إطلاقًا إلى «نبوءته»، التي بدأت تنعم بشيء من الشهرة في آخر القرن السادس عشر. في ١٥٩٥، نشر الراهب البندكتانيّ، أرنولْد وِيون، سيرة القدّيس ملاخيا في كتابه **شجرة الحياة** (*Lignum vitae*)، وهو مجموعة سِيَر القدّيسين الذين انتموا إلى تلك الرهبانيّة. غير أنّ السيرة منحولة ومُغْفَلة، ولا أحد يعرف لماذا نُسبت النبوءة إلى القدّيس الإيرلنديّ.

٢٢٨ - غريغوريوس الرابع عشر (١٥٩٠-١٥٩١)

تدخّلت إسبانيا أيضًا في انتخاب البابا الجديد، الكردينال سفوندراتي، صديق القدّيس شارل بورّوميو والقدّيس فيليب نيري، الذي اختار اسم غريغوريوس تكريمًا لغريغوريوس الثالث عشر الذي كان قد عيّنه كردينالًا. كان غريغوريوس الرابع عشر يفتقر إلى الصفات السياسيّة، على كونه تقيًّا على ضعف، فوقع تحت تأثير ابن أخيه بولس - إميل سفُونْدراتي، إذ كان البابا قد عيّنه كردينالًا ومنحه لقب أمين سرّ الدولة. إنحاز عن الخطّ المستقلّ الذي رسمه سكستس الخامس، فاتّبع وابن أخيه السياسة التي فرضتها إسبانيا، وأيّدا في فرنسا «الرابطة» ضدّ هنري النافاريّ. هُزمت الجيوش البابويّة في حين كانت تحاول مساعدة جماعة «الرابطة» المحاصرين في باريس. وآلت الأموال التي جمعها سكستس الخامس بكثير من الدراية إلى صناديق «الرابطة» التي خسرت المباراة سريعًا.

٢٢٩ - إنّوقَنْطيوس التاسع (١٥٩١)

تولّى الحبريّة العظمى شهرين فقط وانتخبه الكرادلة رغمًا عنه.

كان جِيُوڤاني - أنطونيو فاكِيِنِتّي معروفًا بتعاطفه مع إسبانيا. نشأ حزب قويّ في مجلس الكرادلة مناهض لإسبانيا، إلّا أنّه ما كان يجرؤ على الظهور. ورغبة من هؤلاء الكرادلة في كسب الوقت، اختاروا لعرش بطرس عجوزًا مريضًا كانوا يدعونه، في رومة، الحبر السريريّ (Pontifex Clinicus)، وقد

اتّبع بشأن فرنسا سياسة سلفه. وحقّقت الجيوش البابويّة بعض النجاح بقيادة إسكندر فَرْنِيزي.

٢٣٠ - إقليمنضُس الثامن (١٥٩٢-١٦٠٥)

كان الكردينال هِيپُوليت ألْدُوبْرانْدِيني، الفلورنتينيّ، الاسم الأخير من الممكن اختيارهم للبابويّة في اللائحة التي عرضها سفير إسبانيا. ومع أنّه ناهض الحفيديّة عندما كان كردينالًا، فقد منح هذه الرتبة إلى ابنَيْ أخيه تشِنْسِيو وپيترو ألْدوبراندِيني، وقد صار الثاني منهما أمين سرّ الدولة. على أنّ كليهما برعا فأضفيا على مقامهما ألقًا خليقًا بالروح الجديد الذي ساد تلك الحقبة.

كانت الأمور في فرنسا تتطوّر ببطء، إذ إنّ هنري النافاريّ حقّق بعض انتصارات، إلّا أنّه كان متأرجحًا بين إسبانيا والڤاتيكان، فلم يتمكّن من تأمين وضع مستقرّ. لقد أرسل سفيرًا إلى رومة، غير أنّ البابا ما كان يستطيع الركون إلى وعود هرطوقيّ. في ٢٥ تمّوز/يوليو ١٥٩٣، جحد هنري الكالڤينيّة فأسقط البابا الحرم عنه، ولو بشيء من الصعوبة، لأنّه كانت لديه دوافع للشكّ بإخلاص هنري الرابع، كما كان مقتنعًا بردّ فعل الإسْكُوريال[٥٢]. كانت توبة هنري ميمونة للسلام الأوروبّيّ، فأعادت التوازن بين مدريد وباريس، ووضعت حدًّا للحروب الدينيّة في فرنسا. فبفضل التدخّل المباشر الذي قام به إقليمنضس الثامن وسفيره، وقّع اتّفاق سلام بين البلدين المتنافسين، في ڤرڤان (Vervins) في ٢ أيّار/

(٥٢) الإسْكُوريال، قصر ودير، بناه فيليب الثاني ملك إسبانيا على بعد خمسين كيلومترًا من مدريد. جعله مقرًّا له، وفيه مدافن ملوك إسبانيا.

مايو ١٥٩٨، وفيه يعترف فيليب الثاني بهنري الرابع ملكًا على فرنسا. وفي ١٣ نيسان/أبريل ١٥٩٨، كان ملك فرنسا قد صدّق منشور نانت الذي يضمن حرّيّة المعتقد والعبادة في جميع أنحاء المملكة، وهذا ما لم يُتِح للهوغونتيّين أن يستمرّوا منتظمين في إطار كنيسة وحسب، بل أيضًا كحزب قائم داخل التنظيم الرسميّ للدولة الفرنسيّة. إنّ هذه الحرّيّة البالغة التي أعطيت حزبًا معارضًا - في حين أنّ القاعدة السائدة في معظم بلدان أوروبّا كانت تقول بأن مَن لا يقرّ بإيمان الحاكم فعقوبته الموت أو النفي - لم تكفّ عن أن تُحدث بعض آثارها عشرَ سنوات بعد ذلك التاريخ، حين اشتعل الصراع ثانية بين الكاثوليك والپروتستانت. وفي ١٦٠٣، سمح هنري الرابع بعودة اليسوعيّين، وكانوا قد طردوا من المملكة بعد محاولة الاعتداء التي قام بها أحد تلامذتهم على الملك (١٥٩٤).

كان أحد أبرز اهتمامات إقليمنضس الثامن تنظيم حملة صليبيّة على الأتراك الذين كانوا يهدّدون الغرب ثانية. فتلقّى الإمبراطور النمساويّ، رودولف، وهو الهدف الأوّل لتهديد الأتراك، مساعدة البابا، إلّا أنّ الجيوش الإمبراطوريّة والبابويّة مُنِيَتْ بعدّة هزائم في وجه العدوّ المخيف. ورفض هنري الرابع أن يشترك في الحملة الصليبيّة، بل فضّل التحالف مع الأتراك الذين كانوا يضمنون للفرنسيّين امتيازات تجاريّة في إمبراطوريّتهم الواسعة.

وتبخّر آخر أمل باسترجاع إنكلترا إلى الكنيسة، لدى موت إليزابيت، مع خلفها جاك الأوّل، ابن

ماري ستيوارت، الذي ما إنْ اعتلى العرش حتّى أخذ يضطهد الكاثوليك. وحصل الأمر نفسه في السويد، حيث انتُخِب سيغْمُونْد واسا ملكًا على بولونيا وكان تاج السويد يعود إليه، فكان عليه أن يقيم علاقة وثيقة بالڤاتيكان. إلّا أنّ واسا انهزم واضطرّ إلى أن يعود إلى بولونيا، فصارت السويد بروتستانتيّة. أمّا في بولونيا فإنّ السياسة البارعة التي اعتمدها اليسوعيّون حملت الروتانيّين على قبول الوحدة مع رومة، مع المحافظة على كتاب طقوسهم القديمة واحترام شروط الوحدة الدينيّة التي وضعها مجمع فلورنسا في ١٤٣٩.

وفي ١٥٨٨، انفجر جدال حول مفاعيل النعمة الإلهيّة، عندما نشر اليسوعيّ الإسبانيّ، لويس مولينا، الأستاذ في جامعة إيڤورا البرتغاليّة، كتابًا عنوانه **التوفيق بين حرّيّة الاختيار وعطايا النعمة**. كان مولينا يؤكّد أنّ النعمة التي يمنحها الله لا تصير فاعلة إلّا عندما يقبلها الإنسان بحرّيّة اختياره، وهكذا، فإنّ عمل التقديس ليس إلّا نتيجة التعاون المتزامن بين الله والإنسان، بين النعمة والحرّيّة. فردّ الدومنيكان مؤكّدين أنّ الله وحده يحكم حرّيّتنا ويقرّر جميع أعمالنا، فليس هناك إذًا اتّفاق، بل اندماج حرّيّة الإنسان بنظام العناية الإلهيّة. وقد اتّخذ الجدال أبعادًا خطيرة فاضطرّ البابا إلى أن ينشئ، في ١٥٩٧، «جمعيّة المساعدات» (De auxiliis) لتهدئة الوضع وحلّ المشكلة. وكان إقليمنضس من مؤيّدي الطرح الدومنيكانيّ الذي يلتقي مع التعليم التوماويّ التقليديّ، غير أنّ الحبر الأعظم لم يستطع أن يشهد حلّ الخلاف لأنّه توفّي في ١٦٠٥. ووضع بولس الخامس حدًّا للمناقشات بأن منع طبع أيّة

نشرة أو كتاب من دون إذن المجمع المقدّس ومحاكم التفتيش.

وكدّرت أحداث مأسويّة السنوات الأخيرة من حبريّة إقليمنضس، كان أوّلها الحكم على جِيُورْدانُو بْرُونُو، الراهب الدومنيكانيّ السابق الذي أُعدِم حرقًا في ١٧ شباط/فبراير ١٦٠٠. كان برونو من مواليد نابولي. ترك الرهبنة الدومنيكانيّة، واتّصل بالكالڤينيّين في جنيف وبالأوساط الأنغليكانيّة في إنكلترا. وبعد أن رجع إلى أوروبّا القارّيّة، دافع عن طروحات هؤلاء وأولئك في البندقيّة وفي باريس. كتب أهم أعماله التي وضعها بأسلوب بشكل حوارات، في لندن بين ١٥٨٣ و١٥٨٥. كان مذهبه الحلوليّ يرتكز على القول بأنّ الإنسان ليس إلّا التعبير عن الكلّيّ، أي عن الجوهر الإلهيّ نفسه، وهو جوهر لا نهاية له مثله مثل الكون. وهكذا تنتفي فكرة المفارقة وتظهر الخليقة فيضًا ضروريًّا صادرًا عن الله ينكشف بواسطتها. وهذه الأفكار دافعَ عنها سْبِينُوزا فيما بعد. فالإلهيّات، بالتالي، هي علم لأنّ موضوعها هو الكون، أي الله. فدينَ بسبب هذه النظريّات في البندقيّة أوّلًا، ثمّ في رومة، فمات رافضًا المصلوب. لم يُثِرْ موته أيّ احتجاج لدى معاصريه، لكنّ أعداء الكنيسة استغلّوا هذه الميتة سنوات فيما بعد، فجعلوا من برونو بطل الحرّيّة والفكر، وعندما استلمت الأحزاب العلمانيّة السلطة في إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر، رفعت نصب عدّة لجيورْدانو برونو في كثير من المدن الإيطاليّة ويقوم أحدها في سوق الزهور (Mercato dei Fiori) حيث مات الجاحد.

أمّا القضيّة الثانية فكانت قضيّة بِياتْرِيس تْشِنتِشي

التي استغلّها الأدب في كلّ العصور. تنتمي بياتريس إلى عائلة رومانيّة عريقة، العائلة التي كان منها كْرِيشِنْتِيُو ويوحنّا العاشر. أساء أبوها معاملتها واضطهدها فدبّر «ملاك قتل الوالد»، كما يسمّيها الشاعر شيلي، بالاتّفاق مع أخيها وزوجة أبيها، اغتيال ربّ العائلة. حُكِم عليها بالإعدام ونفّذ الحكم بها وبأخيها في الوقت نفسه. وما زالت مصيبتها تستحوذ اهتمام الكتّاب. فقد وضع أنطوان أرتو مسرحيّة حول آل تشِنتشي، وخصّها الأميركيّ فريدريك پْرُوكُوش، حديثًا، بقصّة.

في نهاية القرن السادس عشر، قام أمير ڤالداشِيا ميشال الشجاع على الأتراك، وبعد أن هزمهم في كالُوغارِيني، جمع الإمارات الثلاث في رومانيا وجعلها مملكة واحدة.

وتمّ تحقيق أعمال مهمّة في عهد البابا إقليمنضس الثامن. فإنّ طاسّو الذي كان ينعم برعاية تشِنسيو ألدوبرانديني، كان يعيش في الڤاتيكان حيث وضع ملحمته الدينيّة في خلق العالم. وأتمّ جِياكُومو دلّلا پُورْتا بناء قصر الڤاتيكان في ١٥٩٦. وكتب الكردينال قيصر بارونيو، معرّف البابا، القسم الأكبر من مؤلّفه الشهير **مجريات الكنيسة**. وفي ١٥٩٤، دُشّن وكُرّس المذبح الحبريّ تحت قبّة كنيسة القدّيس بطرس.

٢٣١ - لاون الحادي عشر (١٦٠٥)

رشّح الكرادلة قيصر بارُونيو، لكن بما أنّه كان قد انتقد نهج الإدارة الإسبانيّة في جنوب إيطاليا، فقد رفض الملك اسمه. فاختير إسكندر دي مديتشي الذي أيّده الكردينال ألدوبرانديني والكرادلة

الفرنسيّون، إلّا أنّ حبريّته لم تدم سوى بضعة
أسابيع. وتحمل اسمه دارة مديتشي القائمة بجوار
حديقة الپنتشيو في رومة. كان، قبل حبريّته، رئيس
أساقفة فلورنسا وصديقًا للقدّيس فيليب نيري. وقد
لَقِيَ انتخابه ترحيبًا لدى الجميع، إلّا أنّه مات في
الفترة التي كانت أوروبّا تدخل، بالضبط، فترة
نزاعاتٍ وجدالاتٍ دينيّة.

٢٣٢ - بولس الخامس (١٦٠٥-١٦٢١)

هو كَمِيلُو فَرنيزِي. تزامنت حبريّته واندلاع حرب
الثلاثين سنة التي انفجرت داخل حدود إمبراطوريّة
آل هابسبورغ، وهي حرب أضرم نارها انتفاض
التشيكيّين البروتستانت، وعمّت ألمانيا ثمّ أوروبّا
بأسرها. إنتهت هذه الحرب في ١٦٤٨ بمعاهدة
وِسْتفاليا التي سجّلت انحدار النمسا ونشوء قوى
سياسيّة جديدة مثل هولندا والسويد. قلّ شأن سلطة
البابا بشكل محسوس وشهد على ذلك بوضوح
النزاع الذي نشب مع البندقيّة. فقد ولّى العصر
الوسيط الذي كان الأباطرة فيه يجثون أمام الحبر
الأعظم، والسلطان المطلق الذي كان الملوك
الأوروبّيّون يعتدّون به حملهم على مواجهة السلطة
الروحيّة من دون خوف، بل إنّهم غالبًا ما كانوا
يسيطرون عليها كلٌّ في بلاده. ومثل إنكلترا بليغ في
هذا المجال.

حصل أوّل ردّ فعل ضدّ البابا في البندقيّة. فقد
منع مجلس شيوخها بناءَ كنائس جديدة من دون إذن
منه؛ ثمّ حرّم على العلمانيّين أن يوصوا بأموالهم إرثًا
لرجال الكنيسة. وإمعانًا من المجلس في احتقار
القانون الكنسيّ سُلِّم أسقف ورئيس دير إلى المحاكم

المدنيّة. في ١٦٠٦، وإزاء هذا الموقف المعادي من
دون مبرّر، حرم البابا جمهوريّة البندقيّة. فهدّد
الأسطولان الإنكليزيّ والهولنديّ البابا، ووقف
غاليكانيّو فرنسا موقفًا مؤيّدًا للبندقيّة. وكتب پاولو
ساربي (P. Sarpi)، الراهب البندقيّ مقالة انتقد فيها
موقف بولس الخامس، فعُيّن مستشارًا في مجلس
الشيوخ. خضع قسمٌ من رجال الإكليروس في
البندقيّة إلى السلطات، ما عدا اليسوعيّين،
والكبّوشيّين وآخرين رفضوا الانصياع فغادروا
البندقيّة. وكتب بلّلرمينو، وسُواريث، ولاهوتيّون
كبار آخرون مؤلّفاتٍ دفاعًا عن موقف الحبر
الأعظم. وقد وضع هنري الرابع، ملك فرنسا، حدًّا
لهذا النزاع في ١٦٠٧. وأعلنت البندقيّة عفوًا استُثْنِيَ
منه اليسوعيّون، فألغى البابا الحرم. كان يمكن
القول، مبدئيًّا، إنّ البندقيّة هُزِمت، إلّا أنّ البابا، في
الحقيقة، أدرك الوضع الجديد الذي خلّفه النزاع مع
صاحبة السموّ. لم يعد للمنع والحرم سلطانهما
السابق. والدول الكاثوليكيّة المستقوية بقدرتها
وبإمكانيّة تحالفات أوروبيّة حتّى مع البروتستانت،
صارت ترى في الڤاتيكان قوّةً سياسيّة يمكن تهديدها
ومهاجمتها بالسلاح.

في إنكلترا حيكت مؤامرة على الملك جاك الأوّل
وعائلته ولقيت تشجيعًا من الكاثوليك الناقمين
لتعرّضهم للاضطهادات؛ إلّا أنّ الملك كشف
المؤامرة، وتنفيذًا لانتقامه، فرض على الكاثوليك
صيغة قَسَم جديدة تحتلّ السلطة المدنيّة فيه المقام
الأوّل، وبذلك يُبْعَد الكاثوليك عن الطاعة الكنسيّة.
فانقسم كاثوليك إنكلترا فئتين: فئة ارتضت هذه
الصيغة، في حين رفضتها الفئة الأخرى. شجب

البابا صيغة القسم في ١٦٠٧ ممّا أدّى إلى حصول اضطهادات جديدة.

وكانت الغاليكانيّة تحقّق تقدّمًا ملحوظًا في فرنسا. فعندما حرمت رومة مؤلّفات أوغيست دي تو باعتبارها منحرفة الرأي، أحرق البرلمان الفرنسيّ لائحة الكتب المحرّمة. وأُحرِقت كذلك كتبٌ في باريس تدافع عن أوّليّة البابا، ككتب بللرمينو على سبيل المثال. غير أنّ الكاردينال دي سانس وإكليروسه اتّخذوا موقفًا ضدّ الغاليكانيّة، وقبل مجلس الطبقات في ١٦١٤ مبادئ الإصلاح التي صاغها المجمع التريدنتينيّ. وفي ١٦١٥، قبل الإكليروس الفرنسيّ بأجمعه قرارات التريدنتينيّ ولم يبدِ الملك معارضة.

أمّا في ألمانيا فالوضع كان أشدّ خطورة. ففي سنة ١٦٠٨، عندما تجمّع البروتستانت في وحدة إنجيليّة والكاثوليك في رابطة مقدّسة، بدا النزاع محصورًا تمامًا والقوى الأوروبيّة منضوية إلى هذين اللوائين الدينيّين. كانت إنكلترا وهولندا تؤيّدان الوحدة، أمّا إسبانيا فدعمت الرابطة. وأمّا فرنسا، والبابا خصوصًا، فبذلا الجهود تفاديًا للحرب. إنفجرت الانتفاضة في بْراغ حيث رمى البروتستانت بحكّام المدينة من النوافذ. هزم أتباع الإمبراطور الجيش التشيكيّ في ١٦٢٠ في معركة الجبل الأبيض. فرح العالم الكاثوليكيّ بالنصر، إلّا أنّ ذلك كان إيذانًا ببدء حرب الثلاثين عامًا.

كانت نشاطات بولس الخامس في الدويلات الحبريّة كثيرة واتّخذت طابعًا اجتماعيًّا صريحًا. فقد اهتمّ بالقرويّين الفقراء، وبتثقيف الشعب دينيًّا، وتثقيف الإكليرس، والمحافظة بدقّة على قرارات

المجمع التريدنتينيّ. أعلن شارل بورّومي قدّيسًا، وطوّب القدّيسة تريزا الأﭬيليّة، والقدّيس إغناطيوس دي لويولا، والقدّيس فيليب، والقدّيس فرنسيس كسافاريوس، والقدّيسة فرنسواز الرومانيّة. وتمّ بناء باسيليكا القدّيس بطرس في عهد حبريّته. وعُهِدت آخر الأشغال فيها إلى شارل مادِرْنا الذي عدّل في تصاميم ميكال أنج، وأضفى على الواجهة طابعًا باروكيًّا. في ١٦١٢، جاء البابا إلى رومة ثانية بالماء الذي كان تراجان قد جلبه بالقناطر، وبنى على تلّة الجانيكولو مركز التجميع الشهير المدعوّ «أكوا باولا». وقد بنى مادِرنا أيضًا، في هذه الفترة، الينبوعَيْن الموجودَيْن في ساحة مار بطرس. وقد وفّر البابا لأفراد عائلته مكاسب، كما صار مؤسّس عائلة بُورْغيزي التي، بفضل الكردينال شِيبِيُون بورغيزي وماركُو – أنطونيو بورغيزي، تركت في رومة بصمات لا تُمحى عن سلطانها وعن حسن ذوقها.

٢٣٣ – غريغوريوس الخامس عشر (١٦٢١-١٦٢٣)

كان إسكندر لُودُوفِيزي ينتمي إلى عائلة نبيلة من بولونيا (إيطاليا). كان طاعنًا في السنّ ومريضًا لدى انتخابه. دامت حبريّته سنتين فقط لكنّها جاءت مثالًا في حسن السياسة والتدبير. ساعده في مهمّته مساهمة فعّالة ابن أخيه لُودُوفِيكُو لودوفيزي، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ذو مواهب مميّزة لممارسة السلطة، فعيّنه كردينالًا.

إسترعت انتباه البابا مشاكل محلّيّة صغيرة، لكنّ السلام الأوروبّيّ كان منوطًا بها. أولى هذه المشكلات التي وجب على غريغوريوس حلّها كانت

أزمة النيابة الملكيّة (Palatinat)، وهي مقاطعة ألمانيّة
كان يتنازع حكمها الكاثوليك والپروتستانت. ونجاح
الكاثوليك في بوهيميا فرض متابعة النضال لتأمين
استمرار الإصلاح الكاثوليكيّ. إستولت جيوش
إسبانيّة وباڤاريّة على النيابة الملكيّة، وكان البابا قد
وعد بها مكسيمِلْيان، دوق باڤاريا، رئيس الرابطة
المناهضة للپروتستانت. إلّا أنّ الإمبراطور فردينان
الثاني، وهو عضو مهمّ في الرابطة، كانت له مطامع
في النيابة الملكيّة تلك. فاستطاع البابا، بمساعدة
راهب كبّوشيّ فهيم، الأخ هياسِينْتْ، أن يوفّق بين
الفريقين. واعترافًا من مكسيمليان بجميل البابا، قدّم
إليه مكتبة القصر في هايْدِلْبِرْغ فضُمّت إلى مكتبة
الڤاتيكان.

وطرحت منطقة ڤاليه (Valais) مشكلة خطيرة
أخرى. وهي منطقة غير ذات أهمّيّة ظاهرًا، لكن
وقوعها بين فرنسا، وإيطاليا، وسويسرا، جعل منها،
وهي وادٍ ضيّق، نقطة إستراتيجيّة كبيرة الشأن، لأنّها
كانت تتيح مرور الجيوش الإسبانيّة من لومْبَرْديا إلى
ألمانيا وهولندا. فلو أقفل الفرنسيّون هذا الوادي فما
استطاع الإسبان لاحقًا أن يتّصلوا بالشمال إلّا عن
طريق البحر. ووقعت المنطقة فريسة الصراعات
الدينيّة. فالبروتستانت كانوا يعتمدون على مساعدة
البندقيّة وعلى فرنسا؛ وبالرغم من كونهما دولتَيْن
كاثوليكيّتين، كانتا تحميان الپروتستانت وتتعاملان مع
الأتراك للنجاح في محاربة الإمبراطوريّة الإسبانيّة.
أمّا الكاثوليك فكانوا يتّكلون على إسبانيا والنمسا.
وفي ١٦٢٠، احتلّ الإسبان منطقة ڤاليه والنمساويّون
وادي مِينْسْتِر. لم يوافق هذا الحلّ فرنسا، ففضّ
الكردينال رِيشِيلِيُو المشكلة لصالحها بأن ضَمَن

الاستقلالَ الذاتيّ لسكّان الوديان، وسمح لهم
بممارسة الديانة الكاثوليكيّة من دون غيرها، ممّا
شكّل نجاحًا للبابا الحَكَم في مفاوضات السلام.

في ١٦٢٢، عُيّن كردينالًا أرْمانْ دي رِيشيليو،
أمين سرّ الدولة منذ ١٦١٦، ومحسوب الملكة ماري
دي مِدِيتْشي. لقد أصبحت فرنسا، بعد سنوات
قليلة، أهمّ قوّة في أوروبّا وحلّت بذلك محلّ
إسبانيا. غير أنّ روح العصر الذهبيّ، ونَفَس عظمةِ
إسبانيا الروحيّة استمرًّا في الأدب الفرنسيّ في القرن
السابع عشر. وعاد «السّيد» إلى الحياة مع بيار
كُورْناي.

أجرى غريغوريوس الخامس عشر في البلاط
البابويّ إصلاحًا بالغ الأهمّيّة. ففي براءته **ابن الآب
الأزليّ** *(Aeterni Patris Filius)* الصادرة في ١٦٢١،
حدّد الشكليّات الثلاث لانتخاب البابا: الانتخاب
بوحي الروح، والانتخاب بالخشوع، والانتخاب
بالصوت الحيّ. وهذه المبادئ ما زالت صالحة
اليوم، ولم تتعدّل إلّا جزئيًّا في مطلع القرن
العشرين. وفي البراءة الصادرة في ١٦٢٢ **يليق
بالحبر الرومانيّ** *(Decet romanum pontificem)*،
يحدّد بشكل ملموس تفاصيل الاحتفال الذي يصحب
الانتخاب. وما دفع البابا إلى تحديد مراسم
الانتخاب وترتيباته رغبته في أن يحول دون تدخّل
السفراء الأجانب في قرارات مجمع الكرادلة
الانتخابيّ. على أنّ حقّ النقض (Veto) الذي كان
يسمح للملوك الأجانب بالتدخّل في الانتخابات
برفض الكرادلة المعتبرين مناوئين لهم والحؤول دون
ارتقائهم إلى كرسيّ بطرس، ظلّ يُمارَس، بالرغم من
التدابير التي اتّخذها غريغوريوس الخامس عشر،

حتّى سنة ١٩٠٣، عندما عارضت النمسا انتخاب الكردينال رامپُولّا. وكانت تلك آخر مرّة يُستَخْدَم فيها النقض.

وفي ١٦٢٢، رغب البابا في خلق هيئة مركزيّة قادرة على أن تراقب وتدير النشاطات الكاثوليكيّة في العالم، فأسّس جمعيّة نشر الإيمان (De Propaganda Fide) ضمّت ثمانية عشر كردينالًا. كان غريغوريوس الخامس عشر تلميذًا سابقًا لليسوعيّين؛ أعلن قداسة إغناطيوس دي لُويُولا، وفيليب نِيري، وفرنسوا كُزافيه. وكذلك أعلن قداسة إيزيدُورُو الفلّاح، وتريزا الأڤيليّة. وقد صنع الفنّان بِرنيني تمثالًا نصفيًّا للبابا.

٢٣٤ - أُرْبانس الثامن (١٦٢٣-١٦٤٤)

الكردينال مافيُو بَرْبريني، من عائلة شهيرة من فلورنسا، والقاصد الرسوليّ سابقًا في باريس الذي رَقِيَ كرسيّ بطرس خَلَفًا لغريغوريوس الخامس عشر. تزامنت حبريّته مع ترسيخ الملكيّة المطلقة في فرنسا، ومع مناورات ريشيليو وخَلَفِه مازاران. أفصح أُرْبانس الثامن عن ميوله الأدبيّة فكتب باللاتينيّة وبالإيطاليّة قصائد ذات نفحة دينيّة، وشمل برعايته أشهر فنّاني عصره. أمّا خطأه الكبير، فكونه تخلّى عن غالِيليُو فكان ضحيّة الممارسات التعسّفيّة لمحاكم التفتيش.

كان النزاع بين الكاثوليك والپروتستانت يدمي أوروبّا. وكانت ألمانيا ميدان المعارك في حرب الثلاثين سنة التي تدخّلت السويد فيها بجيوشها القويّة بقيادة الملك غُوسْتاڤ - أدُولْف. وبدافع من حقده على سلالة هابسبورغ، تحالف ريشيليو مع السويديّين الذين هزموا الجيوش الإمبراطوريّة. كانت

قلعة الهُوغنوتيّين في فرنسا، لا رُوشِيل، قد سقطت في ١٦٢٨، بحيث إنّ ريشيليو اضطرّ إلى تخصيص نشاطه بالسياسة الخارجيّة وبالحرب في أوروبّا. ولسوء حظّ القضيّة الپروتستانتيّة والسويد، فإنّ الملك غوستاڤ - أدولف قُتِل في معركة لُوتزِنْ (١٦٣٢). وحاول شارل الثاني عشر، بعد قليل، أن يخلق، في محاولة جديدة، ما يسمّيه تُوَنبِي إمبراطوريّة عالميّة، إلّا أن محاولته باءَت بالفشل.

ما كان موقف البابا صريحًا خالصًا أثناء هذه الأحداث المأسويّة. وقد لامَ تعاطفَه مع فرنسا، حليفة الپروتستانت؛ السفير الإمبراطوريّ في رومة، الكردينال پاسماني. يطرح ألدوس هاكْسْلِي المشكلة التي تطبع هذه الحقبة كلّها في كتاب وضعه عن الأب جوزف، المستشار السرّيّ الخاصّ لريشيليو، فيرى أنّ الضرورات السياسيّة التي فرضتها النزعة نحو السلطان المطلق والنزعات الديكتاتوريّة التي كانت تحرّك نفسيّة ريشيليو وشخصيّته القويّة، حملت الكردينال ومستشاره على الاشتراك في الحرب. كانت الحرب كارثة حقيقيّة لألمانيا، ليس لأنّها دامت ثلاثين سنة وحسب، بل لأنّها كالحروب الدينيّة كافّة، تميّزت بوحشيّةٍ وعنفٍ لا مثيل لهما. فريشيليو، رغبةً منه في الحطّ من مكانة الأسرة الحاكمة النمساويّة ورفع مقام مليكه، استهان بمبادئ الديانة المسيحيّة فأبقى شعبًا بأسره في جوّ رعبٍ من الحرب دائم. ووخز الضمير الناجم عن التناقض بين التعليم المسيحيّ والتزامات السياسة هو الذي يعذّب وجدانَ الأب جوزف كما يلاحَظ في كتاب هاكسلي، الذي يعكس تمامًا أزمة وجدانيّة لدى معاصري هذا المستشار السرّيّ جميعًا.

كان الكردينال بارُونيُو، مؤلِّف مجريات الكنيسة، قد أطلق عبارة تنطوي على لوم للكنيسة إزاء موقفها الغامض من غاليليو. قال: «إنّ هدف الكتاب المقدّس تعليمنا كيف نذهب إلى السماء، وليس كيف حال السماء». والمقصود بهذا الكلام النزاع الذي نشب بين علماء الفلك ومحاكم التفتيش آنذاك. فهذه كانت تشكّك في النظريّات الحديثة التي أطلقها غاليليو، وكِپْلِرْ وغيرهما، المرتكزة بدورها على اكتشافات كُوپِرْنِيكْ. غاليليو غالِيلِيي كان فلورنسيًّا ودرّس الرياضيّات في جامعتَي پيزا وپادُوا، حيث صنع أوّل مِرْقب ساعد على اكتشاف جبال القمر، والأقمار الأربعة التابعة للمشتري، والبقَع الشمسيّة، وطبيعة السدم. وعلى ملاحظات غاليليو هذه قام علم الفلك الحديث، وأهمّيّتها غنيّة عن التعريف. وكان كوپرنيك قد أكّد الحقيقة العلميّة أنّ الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، وأنّ الملاحظة أثبتَت هذه الحقيقة. فانهارت نظريّة بَطلِيمُوس، إلّا أنّ أتباعه كانوا ما زالوا كُثُرًا داخل الكنيسة الكاثوليكيّة والپروتستانتيّة. كان المدافعون عن بطليموس يعتصمون بأنّ نظريّة غاليليو تناقض قول **الكتاب المقدّس**، فيؤكّدون أنّ الشمس تدور حول الأرض لأنّ يشوع بن نون قد أوقف مسيرتها، وهذا ما يفترض أنّها تتحرّك، وبالتالي فإنّ الأرض ثابتة. أمّا غاليليو فكان يؤكّد أنّ نظريّاته لا تناقض الكتاب بشيء. في ١٩ شباط/فبراير ١٦١٦، حرم المجمع المقدّس النظريّة القائلة بأنّ الأرض تدور وأنّها ليست مركز الكون، لأنّ الشمس ثابتة وبذلك تكون مركز الكون. وفي ٥ آذار/مارس حرمت تحديدًا وعلنًا أطروحة كوپرنيك باعتبارها تخالف

صراحة تعليم الكنيسة والكتاب، من دون أن يُذكر اسم غاليليو الذي كان قد خضع لقرارات محكمة التفتيش. لكنّ غاليليو عاد فأكّد نظريّته في كتاب **برج القوس**، آملًا في أن يحظى بتأييد البابا الجديد أُربانس الثامن، صديقه الشخصيّ. ففي كتابه **حوار الأنظمة الكبرى في الكون** الذي نشر في ١٦٣٢ وحظِيَ بموافقة السلطات الكنسيّة في فلورنسا بعبارة: «فليطبع» (Imprimatur) عرض ثانيةً نظريّاته وانتقد مخاصميه. ووعدت رومة بمنحه الموافقة شرطَ أن يعيد النظر في النصّ. إلّا أنّ غاليليو نشر الكتاب من دون تعديل. فكان من تصرّفه غير اللائق هذا أن جرَّ عليه حرمًا ثانيًا. استدعي غاليليو إلى رومة حيث أقام في القصر الخاصّ بسفير فلورنسا وحوكم، فحُكِمَ عليه بتلاوة مزامير التوبة طوال ثلاث سنوات. وعاش مدّة في سِيينا، ثمّ عاد إلى منزله في أرتْشِتْرِي (Arcetri)، بالقرب من فلورنسا. وهناك، في جوّ تامّ من الحرّيّة وضع كتابه **حوارات في العلوم الجديدة** الذي نُشر في لَيْدن في ١٦٣٨. كان قد اعترف «بخطأه» أمام محكمة التفتيش، إلّا أنّه ظلّ يكتب بحسب قناعاته. لم يُحكم عليه بالتعذيب ولم يصرخ معلنًا ما يؤمن به في وجه جلّاديه: «ومع هذا، فهي تدور». إنّ هذه الرواية مجرّد أسطورة اخترعها خصوم الكنيسة. ومع هذا، فإنّ الكنيسة ارتكبت خطأ بمحاربة فرضيّة علميّة لا تناقض **الكتاب المقدّس** بشيء، وبتأييدها أطروحة بَطْلِيمُوس في حقبة كان العلم في طريقه إلى تغيير نظريّات كانت حتّى ذلك الوقت مقبولة. لكن أن يُقال إنّ رومة كانت دائمًا عدوّة العلم، فالفرق شاسع بين هذا الكلام وذاك. ومحكمة التفتيش

نفسها، بعد أن سقطت في هذا الخطأ المؤسف، تصرّفت في السنوات التالية بحكمة أوفر ممّا فعلت سابقًا.

في ١٦٤٢ توفّي رِيشِيلِيُو فخلفه في السياسة الكردينال مازاران، الإيطاليّ الأصل.

إعتمد أُرْبانس الثامن الحفيديّة وجعل منها فنًّا حقيقيًّا. برع في جعل عائلته واحدة من أقوى عائلات إيطاليا، وأنعم بالكردينالية على أشخاص هم أهل لها.

بنى مادِرنا قصرًا في الساحة التي تحمل حتّى اليوم اسم عائلة بارْبَرِيني الذين عُرِفوا بنشاطهم وبرعايتهم الفنون. والبابا نفسه، وهو الكاتب ومحب الفنّ، كلّف برنيني بتشييد عدّة أبنية ونُصُب في رومة، فكان عصر انتصار الطراز الباروكيّ. وقد قدّر آل باربريني ڤيلاسكيث، ورسم ڤان ديك صورة البابا. وزار يوسّان وكلود لورّان رومة وعملا هناك. في ١٦٢٦، شرع مادِرنا في تشييد مقرّ البابا الصيفيّ في كاستيل غاندولفو. وأحيط الڤاتيكان بأسوار متينة. وفي عهد حبريّة أُرْبانس الثامن أسّس القدّيس منصور دي پول الرهبانيّة العازاريّة.

٢٣٥ - إنّوقنطيوس العاشر (١٦٤٤-١٦٥٥)

إنتُخِب جان-باتيست پامْفِيلي خلافًا لإرادة مازاران. وقد طبع حبريّته بطابع مميّز حدثان: صلح وِسْتْفاليا وحرم الجانْسِينيّة.

ومع أنّ إنّوقنطيوس العاشر يدين بانتخابه لتأييد آل باربريني، فقد اضطهد عائلة سلفه، وهي عائلة كان شعب رومة يكنّ لها الكراهية. فالتجأ هؤلاء

إلى فرنسا، وصودرت أموالهم، إلّا أنّ البابا ردّها إلى أصحابها بعد تدخّل مازاران لصالح محاسبيه. وإنّوقنطيوس الذي كان قد انتقد الحفيديّة في أيّام أُرْبانس الثامن، سقط في التجاوز نفسه؛ وفي وقت وجيز، ظهرت ماروزيا جديدة، هي أولمپيا مايْدَلْكيني، زوجة أخي البابا، بانت في الڤاتيكان واستطاعت أن تسيطر على شخصيّة البابا الضعيفة، وأن تحطّ، بحبائلها، من مكانة الكنيسة.

في ١٦٤١، وبعد حرب دامت ثلاثين سنة خلّفت دمارًا تامًّا في ألمانيا، بوشرت التحضيرات في مُونْسْتِر لإعداد تحقيق السلام بين فرنسا والنمسا، وفي أوسْنابْرُوك، بين النمسا والسويد. كانت النمسا قد انهزمت، وكان الجميع يطمحون إلى السلام، وقد هالهم الخراب والبؤس اللذان حلّا بالشعوب الأوروبيّة. على أنّ معاهدات السلام التي حملت اسم وستفاليا لم تُوَقَّع إلّا في ١٦٤٨، وكانت ذات أهمّيّة عظمى لأوروبّا. وكان ناخب بْرانْدبُورْغ، حليف السويديّين أحد أكبر المستفيدين من السلام على حساب باڤاريا، وولدت، بفضل هذا التوسّع في الأراضي، القوّة التي صارت لاحقًا پْرُوسِيا. وكسبت السويد غنى بفضل قسم من ألمانيا، كما أنّ فرنسا غنمت الألزاس، فانفرطت الإمبراطوريّة بفعل التدخّل المباشر الذي مارسته فرنسا والسويد في شؤونها. ولم يعد لقب إمبراطور ذا محتوى سياسيّ حقيقيّ، وصار يرتكز فقط على ما بقي من مكانة وسلطة شرعيّة على أرض محدّدة نعمت بهما السلالة النمساويّة. فألمانيا نفسها ظهرت منقسمة إلى ثلاث مئة وخمسين دويلة مستقلّة. أمّا من الناحية الدينيّة فقد فرض سلام وستفاليا مبدأ حرّيّة العبادة، ومبدأ

دين الدولة بمعنى أنّ «الناس على دين ملوكهم» (Cujus regio, illius religio)، الذي يلزم المواطنين اتّباع آلهة حكّامهم المعنيّين وتقديم العبادة إليهم. فاضطرب، هكذا، كلّ القانون العامّ الذي رفع بناءه الباباوات، والأباطرة، والجامعات إبّان العصر الوسيط تحت ثقل معاهدات وستفاليا التي فرضت مبادئ جديدة في القانون الدوليّ، بتأكيدها أوّليّة كلّ دولة على أيّة سلطة دوليّة. وتلقّت السلطة البابويّة ضربة قاسية. فإنّوقنطيوس العاشر، في براءته **غيرة بيت الله** *(Zelo domus Dei)* الصادرة في ١٦٤٨، أعلن باطلة ولاغية كلّ موادّ المعاهدة التي تلحق إجحافًا بالكنيسة، وبالدين الكاثوليكيّ، وبعبادة الله.

إنّ المبدأ الذي أُرسِيَتْ عليه معاهدات وستفاليا ويمثّل طابع الابتكار فيها هو مبدأ «التوازن الأوروبّيّ»، أي خلق دول في القارّة غير قادرة على أن تدمّر إحداها الأخرى، مقصورة على أراضٍ وقوى لا توفّر لها طاقة على فرض سيادة إحداها على أخرى منها. وبالفعل ذاته، فإنّ فكرة الإمبراطوريّة رُفضت وأُلغيت. وبديهيّ أنّ هذه المبادئ لم تأخذ بالحسبان طموحات الشعوب، ولا الأخلاقيّات. والشعوب إنّما انتفضت على هذه المبادئ في القرن التاسع عشر. وقد نشأ تفسير جديد لمعاهدات وستفاليا يهدّد أوروبّا، فصارت أمم كثيرة تعيش في ظلّ رعب «التوازن» الجديد الذي يراعي مصلحة الكبار ويحطّم الشعوب الصغيرة.

وكانت الحال في شبه الجزيرة الإيبيريّة متوتّرة أيضًا. فإسبانيا كانت قد احتلّت البرتغال. وفي ١٦٤٠، انتفض البرتغاليّون واستعادوا استقلالهم ومستعمراتهم. ولم يستقرّ الوضع بين البلدين إلّا في

١٦٨٨ بعد معاهدة لشبونة. لم تعد إسبانيا عندئذ تسيطر على أوروبّا، واضطرّت إلى أن توقّع السلام مع فرنسا في ١٦٥٩. وفي ١٦٤٧، انتفض سكّان نابولي على الإسبان بتحريض من مازانيللو، إلّا أنّ الانتفاضة فشلت. أمّا البابا فلم يكن راضيًا لأنّه خشي تعاظم قوّة فرنسا تعاظمًا سريعًا، هي التي فرضت سياستها على القارّة بأسرها بفضل معاهدات وستفاليا.

أُدينَتْ الجانسينيّة في ١٦٥٣، إلّا أنّ الجَدَل بشأن «إقليميّات» باسكال لن يسكن بسرعة. فما هي الجانسينيّة؟ ينطلق دعاة هذا المذهب من أنّ الكنيسة عليها العودة إلى الأصول والمحافظة على طابعها البدائيّ. والأساس العقائديّ للجانسينيّة يرتكز على تعليم القدّيس أوغسطينس، أمّا اسمها فمأخوذ من كورنيليوس جانْسِنْ، أسقف إيبر (Ypres) ومؤلّف كتاب **أوغسطينس** (١٦٤٠)، وفيه يستعيد أفكار ميشال دي باي (Bay)، الذي أدين في ١٥٦٧. ومع أنّ الجانسينيّين أعلنوا دائمًا أمانتهم للكنيسة، إلّا أنّهم كانوا يمارسون، في الحقيقة، العقيدة الكالفينيّة التي تدافع عن أفكار جانسينيوس نفسها في مؤلّفه **أوغسطينس** بموضوع النعمة والاختيار المسبق، أو قضاء الله الأزليّ.

كان قطب الحركة الروحيّة الجانسينيّة الذي أسّس في پور رُوايّال جماعة من المتوحّدين هو الأب دي سانْ-سِيران. وكانت عائلة أَرْنُو النواة المركزيّة لهذه الجماعة؛ كما كان أنطوان أرنو، الملقّب «بالكبير»، المعلّم في السوربون، الروح المحرّك لهذه الجماعة المستقرّة على خمسة وعشرين كيلومترًا من باريس، والتي انضمّ إليها فترة من الزمن پاسكال وعدّة

شخصيّات مشهورة في عصره. أمّا التقارب بين الجانسينيّة والپروتستانتيّة، وخصوصًا الكالڤينيّة، فلم يكن يظهر في بساطة الطقوس البدائيّة وفي احتقار السلطة الدينيّة ورموزها بمَن فيهم البابا والأساقفة وحسب، بل أيضًا في عقيدتها العميقة. فالجانسينيّة تقول إنّ الطبيعة البشريّة، بعد السقطة، صارت عاجزة أمام قرار النعمة، وإنّ لا عمل صالحًا، إطلاقًا، يستطيع أن يؤثّر في قرار الله الذي يولي نعمته وغفرانه إلى عدد من المختارين مسبقًا، فالإنسان أوّليًا (a priori) عاجزٌ عن أن يأتي عملًا صالحًا. وترى الجانسينيّة أيضًا أنّ المسيح مات من أجل هؤلاء المختارين وليس عن البشريّة بأكملها. وتقول أيضًا إنّ لا وجود لحريّة الاختيار، لأنّ عطيّة الإيمان وإرادة الاعتقاد منوطان بالنعمة من دون شيء آخر.

وعندما عُرِضت هذه الأطروحات على البابا، حكمت عليها لجنة من الكرادلة بأنّها هرطوقيّة. فانتصر اليسوعيّون أعداء الجانسينيّين.

وفي إنكلترا أيضًا، انتصرت الأنغليكانيّة مع المتزمّتين بإدارة كْرومْوِيل الذي دبّر قطعَ رأس الملك شارل الأوّل. واستمرّت الاضطهادات ضدّ الكاثوليك مثلها في زمن إليزابيت.

في ٧ شباط/فبراير ١٦٥٥، مات البابا إنّوقنطيوس في الڤاتيكان. بقيت جثّته ثلاثة أيّام من دون أن تُدفن، متروكة في غرفة من غرف القصر لأنّ أولَمْپيا مايَدلْكيني، زوجة أخي البابا النافذة، كانت ترفض شراء تابوت للبابا، معلنة أنّها ليست سوى أرملة مسكينة. وبعد أن دفع أحد كهنة مار بطرس القانونيّين ما يتوجّب لحفّاري القبور، أمكن أخيرًا

أن تُدفن جثّة البابا في كنيسة القدّيسة أغنيس، في ساحة ناڤونا، حيث كان برنيني قد بنى ينبوع الأنهر الأربعة. وكان ڤيلاسْكِيث قد رسم صورة البابا في ١٦٥٠.

٢٣٦ - إسكندر السابع (١٦٥٥-١٦٦٧)

كان الكردينال فابِيُوكيجي سفيرًا بابويًا في كولونيا. كان قد مثّل البابا في مؤتمر وستفاليا. وينتمي إلى عائلة كيجي، وهي عائلة مصرفيّين أصلها من سِيينّا، ومؤسّسها أوغسطين كيجي كان صديقًا للبابا لاون العاشر وللفنّان رافايل. ما إنْ انتُخِب حتّى عزل أولمپيا مايَدْلكيني واتّخذ تدابير للحؤول دون تجاوزات الحفيديّة. عيّن جُوليُو روسْپيلْيُوزي أمين سرّ الدولة. وفي ١٦٥٥، قصدت رومة ملكة السويد، كْريسْتِينا، ابنة الملك غوسْتاف-أدولْف، وارتدّت إلى الكثلكة وبقيت في رومة حيث ماتت في ١٦٨٩ ناعمة بتقدير الكتّاب والفنّانين.

بدا واضحًا أنّ سلطان الكنيسة بات محدودًا عندما وقّع كلٌّ من إسبانيا وفرنسا معاهدة البْرانْس (Pyrénées) في ١٦٥٩. لم يُدْعَ أيّ قاصد للبابا كي يحضر توقيع معاهدة بين قوّتين كاثوليكيّتين. إنتهت المنافسة بين البلدين لصالح فرنسا التي كانت قد وقّعت، منذ وقت قريب، تحالفًا مع ديكتاتور إنكلترا، كرامْوِيل، خصم الكاثوليكيّة. في ١٦٦١ مات مازاران، لكن علاقات فرنسا بالڤاتيكان زادت سوءًا مع دخول لويس الرابع عشر الحياة السياسيّة. فالملك الجديد باعتباره نفسه «الألوهة المرئيّة» و«نائب الله»، احتلّ أرض أڤينيون التي تخصّ البابوات. على أنّ معاهدة السلام التي وُقّعت في

بيزا العام ١٦٦٤، أعادت أڤينيون إلى الكرسيّ الرسوليّ، لكنّها أرغمت البابا على تقديم اعتذارات إلى الملك.

كانت المَلَكيّة المطلقة في أوجها، وأمل لويس الرابع عشر في أن يُنتخب إمبراطورًا على ألمانيا، إلّا أنّ حلمه تبخّر في ١٦٥٧ عندما اختار المقترعون الأرشيدوق لِيُوپُولْدَ النمساويّ خليفة لفردينان الثالث. وكان البابا إسكندر السابع قد أيّد الهابْسْبُورْغيّ ضدّ لويس الرابع عشر فسُرَّ لما حصل. وتحسّنت علاقاته بالبندقيّة التي سمحت بعودة اليسوعيّين الذين نُفوا أيّام النزاع مع بيّوس الخامس. وقدّم البابا مساعدات ماليّة إلى البندقيّة في حربها مع الأتراك.

في العام ١٦٥٦ ظهرت في باريس «الإقليميّة» الأولى Provinciale وفيها يحاول پاسكال أن يبيّن أنّ الجانسينيّة هي أصفى صورة عن المسيحيّة، ويشدّد على عقيدة النعمة كما تقول بها. وكان لهذه الرسالة التي أتبعها برسائل مماثلة، نجاح كبير، وأنقذ لفترة الانحطاط الذي أصاب هذا المذهب. وكان اليسوعيّون قد أطلقوا نظريّتهم المعروفة بـ«الاحتماليّة» التي روّج لها في كتبه الأب پيرو (Pirot). وقد شجب البابا إسكندر السابع المذهبَيْن كليهما: الجانسينيّة والاحتماليّة. وأعلن قداسة فرنسوا دي سال. وفي ١٦٦١ أوصى، في براءته **عناية** *(Sollicitudo)* بتكريم عذراء الحبل بلا دنس، ومنح البندقيّة ميزة الاحتفال بهذا العيد لثمانية أيّام.

جمع البابا حوله عددًا من البارعين في الثقافة الإنسانيّة، ونظم قصائد باللاتينيّة، نُشِرت تحت عنوان **هوايات شبابيّة لربّة الشعر** (Philomathi

Musae juveniles)، وجهّز جامعة رومة التي دعيت «الحكمة»، وأتمّ البناء الذي كان ميكال أنج قد أعدّ تصاميمه. وأسّس في رومة المكتبة التي تحمل اسم عائلته. وأكمل برنيني في ١٦٦٧ رواق الأعمدة الذي ينفتح على باسيليكا القدّيس بطرس، وكأنّه عناق والديّ يهمّ بضمّ العالم.

٢٣٧ - إقليمنضس التاسع (١٦٦٧-١٦٦٩)

إنتُخِب جِيُولِيُو روسْپِلِيُوني بموافقة جميع المَعنيّين، فلم يخيّب أحدًا. كان سابقًا أمين سرّ الدولة في حبريّة إسكندر السابع، وسفيرًا بابويًّا في مدريد حيث بقي تسع سنوات. محبّ للفنون، متّزن، صافي الذهن، مسيحيّ حقيقيّ في زمن بدأ يتجاهل القِيَم المسيحيّة. عيبُه الوحيد أنّه مات سنتين بعد انتخابه. استهواه في شبابه المسرح والأوپرا، هذا الفنّ الذي تطوّر واتّجه سريعًا إلى صيغ جديدة برعاية الكردينال روسْپِلِيُوزي. كان مستشاره في فنّ المسرح في مدريد لُوپِي دي ڤِيغا. في ١٦٣٤، وُضِعت في رومة أوپرا «سان أَلِسّيو» (= ألكسي): كان النصّ من جيولو روسْپِلِيُوزي والموسيقى من وضع إتيان لانْدي. أمّا الزخرفة فمن صنع برنيني. وقد ألّف مَن أصبح بابا عددًا آخر من الأوپرات. ففي ١٦٣٥، قُدِّمَتْ «القدّيسة ثيودورا»، و«القدّيس بونيفاقيوس»، و«القدّيس أوسْتاكيوس»؛ وفي ١٦٣٩، وبحضور الشاعر الإنكليزيّ ميلتون، قُدِّمت «مَن يتألّم يأمل» (Chi soffre, speri) التي وضع موسيقاها ماتْزُوكي وماراتْزُولي، وكانت طليعة الأوپرا المضحكة أو الهزليّة التي سيطرت على المسرح طوال قرنين.

في ١٦٦٩، توصّل إقليمنضس، بفضل تسامحه وحلمه، إلى اتّفاق مع الجانسينيّين. فقبل رهبان پور-روايال حرم بعض أطروحاتهم ووقّعوا تصريحًا بخضوعهم رُفِع إلى البابا الذي قَبِلَه. وكان بوسّييه أيضًا قد تدخّل في هذه المسألة. وقد وُصِف السلام الداخليّ الذي نعمت به فرنسا بأنّه «السلام الإقليمنضسيّ» تقديرًا للبابا. وأعلن أيضًا أرنو وتلاميذه خضوعهم. وقد خصّ هنري دي مونترلان حديثًا إحدى مسرحيّاته للنزاع الذي نشب في پور-روايال، وكان حصيلة مباشرة للنفوذ الروحيّ الذي كانت البروتستانتيّة تحاول ممارسته في قلب العالم الكاثوليكيّ، وهو نفوذ تلبّس أقنعة عديدة على ممرّ القرون التالية.

تدخّل البابا في الخلاف الجديد الذي شبّ بين إسبانيا وفرنسا. فعند موت شارل الثاني، ابن فيليب الرابع، ظهر مرشّحان للعرش الإسبانيّ: لويس الرابع عشر، ابن حنّة النمساويّة وزوج ماري-تريز، وكلتاهما بنتا ملكَيْن إسبانيَّيْن؛ وليوپولدْ النمساويّ، وأمّه ماريّا آنا وزوجته مرغريتا تيريزا كانتا أيضًا البنتَيْن الصغيرتَيْن لملكَيْن إسبانيّين. فكانت حقوق لويس الرابع عشر، بالتالي، أَوْلى من حقوق الإمبراطور، بحسب مبادئ قانون وراثة العرش. فوقّع الملكان معاهدة في ١٦٦٨ لمعالجة المسائل المرتبطة بالخلافة على عرش إسبانيا. فدخل لويس الرابع عشر فلاندرْ واستولى على عدّة مدن باسم «حقّ الاسترداد» الذي يخوّل الأولاد من الزواج الأوّل - وهي هنا، بالمناسبة، ماري-تريز ملكة فرنسا -، أن يستولوا على أموال الأب، وأن يُستبْعَد عن الإرث الأبناء المولودون من الزواج الثاني، أي

شارل الثاني في هذه الحالة. فوُقِّع اتّفاق سلام في إكس لا شاپيل في ١٦٦٨، واحتفظ لويس بمدن عديدة كان قد استولى عليها.

وساد الظنّ فترة أنّ فرنسا ستغيّر سياسة التعاون مع الأتراك، عندما أرسل لويس الرابع عشر جيوشًا لمساعدة البُندقيّين الذين حاصرهم هؤلاء في جزيرة كريت. صمدت البندقيّة ببطولة بمساعدة البابا والإمبراطور الذي أرسل أيضًا جيوشًا لنصرتها. إلّا أنّ الجزيرة سقطت في ١٦٦٩ بعد مقاومة طويلة مأسويّة. فقد قُتل ثلاثون ألفًا من البندقيّين ومئة ألف من الأتراك في المعركة الدمويّة هذه. وبعد ثلاثة أشهر، مات إقليمنضس التاسع في رومة قبل أن يَلقى إذلالًا آخر: فقد استقبل ملك فرنسا في ڤرساي سفير السلطان بمراسم شرف رفيعة.

٢٣٨ - إقليمنضس العاشر (١٦٧٠-١٦٧٦)

كان الكردينال إميليو ألْتييري في الثمانين من عمره عند انتخابه. ساعده في مهامّه البابويّة ابن أخيه الكردينال پالُوتْزي. كان الأفق الأوروبّيّ ملتهبًا ثانية. فلويس الرابع عشر هاجم فلاندر في ١٦٧٢ واستولى على بعض المدن على حساب إسبانيا. وأعلن الإمبراطور الحرب على فرنسا. لم يُجْدِ تدخّل البابا لإحلال السلام. وعرض الفيلسوف الألمانيّ لايبْنِتْز على ملك فرنسا مشروعًا سياسيًّا، مقترحًا عليه أن يهاجم مصر ليحرّر أوروبّا من الأتراك ويجمع قواه في إفريقيا. إلّا أنّ «الملك الشمس» تمسّك بالتحالف التقليديّ مع الأتراك. وفي بولونيا، استطاع جان سُوبيِسْكي أن يهزمهم في شُوسِيم وفي لِيمْبِرْغ. وفي ١٦٧٤، انتُخِب سوبيسكي

ملكًا على بولونيا، فيما كان النضال ضدّ الأتراك مستمرًّا.

أعلن إقليمنضس العاشر روزا دي لِيما قدّيسة، وهي أوّل قدّيسة أمريكيّة، كما أعلن قداسة فرنسيس دي بورجيا، رئيس عامّ اليسوعيّين، وأعلن يوحنّا الصليب طوباويًّا.

٢٣٩ - إنّوقنطيوس الحادي عشر (١٦٧٦-١٦٨٩)

يشكّل النزاع مع لويس الرابع عشر السمة الطاغية على حبريّة بِنِديتّو أودِيسكالْكي الذي عيّنه إنّوقنطيوس العاشر كردينالًا. كان حبرًا ذا مهابة سامية، مدافعًا عن الحرّيّات في أوروبّا، مناهضًا للانحرافات في العقيدة، ويصمّم للقيام بحملة صليبيّة على الكفّار. حرّم الاحتماليّة التي ابتدعها اليسوعيّون وكان لها في ذلك الوقت مؤيّدون، في حين هاجمها بشدّة غُونْثاليث دي سانْتاليا الأستاذ في جامعة سلمنكا. وحرّم البابا الربا الذي يمارسه اليهود، واتّخذ تدابير تحدّ من الترَف البالغ الرائج في رومة، وحارب الغاليكانيّة التي اصطبغت بأشدّ الأشكال عنفًا ورعونةً في عهد لويس الرابع عشر.

تمّ توقيع السلام، أخيرًا، بين فرنسا وإسبانيا في نِيميغ (١٦٧٨)، وبين فرنسا والنمسا سنة بعد ذلك التاريخ. وحقّقت فرنسا نصرًا آخر، فبلغ ملكها أوج سلطانه. كان همّه الأكبر إضعاف الإمبراطوريّة، وتبعًا لهذه السياسة الخطيرة جدًّا على أوروبّا، ساعد الأتراك في مهاجمتهم النمسا وصقلّية. حاصرت جيوش السلطان ڤيينّا. وفي ١٦٨٣، نجح إنّوقنطيوس الحادي عشر في أن يعقد الإمبراطور

وملك بولونيا تحالفًا، فحرّك الملك البولونيّ جيشه باتّجاه العاصمة المحاصرَة. وفي ١٢ أيلول/سبتمبر هزم الحلفاء المسيحيّون الأتراك أمام أسوار المدينة البطلة، فكانت نتائج تلك الهزيمة مفجعة وحاسمة على إمبراطوريّة الهلال. فكما أنّ معركة لِيبانْتُو قضت على تفوّق الأتراك البحريّ في المتوسّط، كذلك قطعت معركة ڤيينّا عليهم الطريق نهائيًّا في البرّ. بعد ذلك بقليل، في ١٦٨٨، هزم المسيحيّون أعداءَهم في بلغراد، فتنفّست أوروبّا الصعداء.

لقد كانت معركة ڤيينّا مهمّة للمسيحيّة بمقدار أهمّيّة معركة پواتييه، والزلّاقة، ولِيپانتُو. ظهر جان سُوبيِسْكي كأنّه منقذ أوروبّا، وظهر البابا صانعَ تحالفٍ بدا أساسيًّا في الإنقاذ. ولكانت الانتصارات على الأتراك توالت على الوتيرة نفسها لولا أنّ الملوك الأوروبّيّين اضطرّوا إلى أن يخصّصوا قسمًا من قواهم لمحاربة لويس الرابع عشر الذي كان دوره يقضي بالضغط على الإمبراطور كي يسحب جيوشًا من الجبهة الشرقيّة ليخفّف عن الأتراك. وبالرغم من كلّ شيء، فقد هُزِم الأتراك وأُرغِموا على توقيع سلام كارْلُوڤِيتْز في ١٦٩٩، وعلى مغادرة هنغاريا وتْرانْسِلڤانيا ما عدا منطقة تِيمِيشُوارا التي يقطنها رومانيّون. وهكذا بقي الأمراء الرومانيّون تحت السيادة التركيّة.

تطوّر الوضع في مرحلة أولى لصالح الكاثوليك. فشارل الثاني، الآلة بيد لويس الرابع عشر، كان يسعى لأن يكون سلطانًا مطلقًا. توفّي بعد أن ارتدّ إلى الكثلكة سرًّا. خلفه أخوه جاك الثاني، كان هذا كاثوليكيًّا فشرع يعمل على إرجاع شعبه إلى الإيمان القويم. لكنّه كان أخرق في سعيه، فلم يأخذ

بالحسبان الحقوق التي حصّلها الشعب إبّان حكم
كْرُومْوِيل. سمح بعودة اليسوعيّين، وصار أحدهم،
الأب إدوار ﭘيتر، مستشارًا للملك. أرسل البابا إليه
سفارة فلقيت تكريمًا كبيرًا في قصر وندْسُور. على
أنّ ميل جاك الثاني إلى السلطان المطلق وقلّة براعته
في السياسة الداخليّة فجّرا انتفاضة فرضت غليوم
دُورانْج الهولنديّ الذي اتّخذ اسم غليوم الثالث،
فأعاد الحرّيّات، في ١٦٨٩، بـ«إعلان الحقوق»
وأنشأ المَلَكيّة البرلمانيّة، وظلّت الكاثوليكيّة
ممنوعة. على أنّ إنكلترا كانت تتّجه إلى المصير
المجيد الذي كان قدرها، بعد مرحلة انحطاط
خصوصًا في عهد شارل الثاني.

لقد اتّهم بعض المؤرّخين، ومنهم لِيُوپولْد رانْك،
إنّوقنطيوس الحادي عشر بأنّه حرّض جاك الثاني على
المبالغة في سياسته المؤيّدة للكاثوليك، وأنّه كان
يعرف مخطّطات غليوم، لكنّه لم يبلّغها جاك، ولو
فعل لكان أنقذ جاك الكنيسة. على أنّ وثائق نُشِرت
حديثًا تظهر أنّ إنّوقنطيوس فعل ما استطاع فعله
ليكبح تعصّب جاك، وأنّ لا شيء كان ليقنعه بأن
يؤيّد عودة أمير پروتستانتيّ إلى إنكلترا.

عاش إنّوقنطيوس أقصى درجات الفقر. لم ينعم
بشعبيّة كبيرة بفعل التدابير الصارمة التي اتّخذها بحقّ
الترف والعادات السيّئة. إلّا أنّ الجميع أدركوا لدى
موته، أنّ بابا كبيرًا ترك عرش القدّيس بطرس، بابا
يمكن مقارنته بسِكْستس الخامس. كان دقيقًا في
مسلكه، شجاعًا، سياسيًّا بارعًا، أمينًا للعقيدة،
وتدخّله أنقذ العالم المسيحيّ من الخطر الذي كان
يرهقه منذ قرون. فسُوبيسْكي هزم الأتراك على
أسوار ڤيينّا، إلّا أنّ البابا هو الذي كان قد حمله

على القتال. وكان راهب كبّوشيّ، القدّيس ماركو
داڤيانُو، مَن انطلق في المعركة حاملًا صليبًا بيده،
صارخًا بوجه الكافرين: «أهربوا أيّها الخصوم»
(Fugite partes adversae)، مقدّمًا إلى الجميع مثالًا
في البطولة. فالبابا كان حاضرًا في المعركة بهذه
الصورة، تلك المعركة التي قضت على القوّة التركيّة
في أوروبّا.

وقبل موت إنّوقنطيوس بأربعة أشهر، ماتت في
رومة كريستينا ملكة السويد. ودفن كلاهما في
باسيليكا القدّيس بطرس. وقد أُعلِن إنّوقنطيوس
الحادي عشر طوباويًّا منذ عهد قريب.

٢٤٠ - إسكندر الثامن (١٦٨٩-١٦٩١)

إنتخب پيتْرو أُوتّوبُوني، البندقيّ، بفضل الدعم
الذي قدّمه إليه فريق جديد في مجمع الكرادلة، هو
الفريق المدعو «الغيارى»، وهدفه الوحيد أن لا
يأخذ بالاعتبار إلّا مصالح الكرسيّ المقدّس، وأن
يتجاهل ما أمكنه ضغوط السلطة الزمنيّة.

عرف إسكندر الثامن الذي كان قد درس الحقوق
واشتهر بإدراكه وحكمته، أن يسكّن لويس الرابع
عشر ويتغلّب على المقاومات الأخيرة لدى
الغاليكانيّة والجانسينيّة. ورأى ملك فرنسا نفسه
مضطرًّا إلى أن يميل إلى الڤاتيكان حين رأى أنّ
إنكلترا تهدّده، بعد أن تحرّرت من الوصاية
الفرنسيّة، وتهدّده أيضًا رابطة أوغسبورغ.

وفي الكنيسة، اضطرّ البابا إلى أن يتدخّل مرارًا
ليضع حدًّا للانحرافات في العقيدة. فاثنان من
اليسوعيّين الفرنسيّين كانا يؤكّدان أنّ شخصًا لا
يعرف الله، أو أنّه يجهل وجوده آنيًّا، لا يمكن أن

يرتكب خطيئة مميتة، بل إنّ خطيئته تكون «فلسفيّة» فحسب. حرم البابا هذه الأطروحة في ١٦٩٠. وفي السنة نفسها حُرِمت أيضًا سلسلة من النظريّات الجانسينيّة أطلقها لاهوتيّون من لوڤان، كما حُرِم مذهب السكينيّة (Quiétisme) الذي قال به ميغال مُولِينُوس، وهو كاهن إسبانيّ دافع عن الأفكار التالية: إنّ أقصى حالات الكمال المسيحيّ تقوم على الراحة، أو السكينة، وفيها تتخلّى النفس عن كلّ رغبة في النشاط، وتفقد حتّى إدراكها ذاتها، تذوب في الله وتصير، بالتالي، لا مبالية بالعقائد والأعمال، بل لا تبالي حتّى بخلاصها. دخلت «السكينيّة» فرنسا فأحدثت نزاعًا بين بُوسّييه وفِنِيلون، فنُظِّمت سلسلة لقاءات ومؤتمرات لحلّ المشكلة. دافع فنيلون عن السكينيّة وأيّدته أشدّ دعاة هذا المذهب تصلّبًا، السيّدة غُويُون، في كتاب بعنوان **شرح أقوال القدّيسين المأثورة**. أُخضِع الكتاب للفحص في رومة فحُرم. خضع فنيلون بتواضع لقرار الحبر الأعظم، غير أنّ الشرّ كان قد حصل. وانبعثت ثانية النزعة الشعوريّة الفرديّة، والعقلانيّة المرتكزة على عقيدة «السكينيّة»، كما كتب مُورّيه، في **اليُوتُوپيّات الثوريّة**. وما يسمّيه پول هازار في كتابه الشهير **أزمة الضمير الأوروبيّ**، تعود جذوره إلى آخر هذا القرن حيث تلوح العقائد التي زوّدت القرن اللاحق زخمًا ثوريًّا.

عيب إسكندر الثامن الوحيد أنّه ساعد ابنَي أخيه، ماركو وپييترو أوتّوبوني اللذين عيّنهما كردينالَيْن ومنحهما ثروات، إلّا أنّه أحسن إلى العالم المسيحيّ كلّه بمساعدته البندقيّين بحزم ضدّ الأتراك.

٢٤١ - إنّوقنطيوس الثاني عشر (١٦٩١-١٧٠٠)

أنطونيو پينياتيللي، كردينال نابولي السابق، انتُخِب ستّة أشهر بعد وفاة البابا إسكندر الثامن، وبعد معارضة متصلّبة من الحزبين الإسبانيّ والفرنسيّ. وكانت أولى التدابير التي اتّخذها نشره البراءة **يليق بالحبر الرومانيّ** (*Romanum decet pontificem*) في ١٦٩٢، التي تحرّم الحفيديّة على جميع خلفائه. فأُلغيت عدّة وظائف كانت تعود عن حقّ إلى أقارب البابا. وإذا أثبت أحد أقارب البابا الجالس على العرش تحلّيه بصفات مميَّزة فيمكن أن يُعيَّن كردينالًا، إلّا أنّ راتبه لا يمكن أن يتعدّى ألفَيْ ريال. والباباوات والكرادلة ملزَمون بأداء القسم على هذه البراءة. فأحدث هذا التدبير أثرًا بالغًا في العالم حتّى إنّ البلدان الپروتستانتيّة نفسها اهتزّت مشاعرها.

أمّا المشكلة السياسيّة التي استمرّت إبّان حبريّة إنّوقنطيوس الثاني عشر، والتي ما حُلّت إلّا بعد سنوات من موته، فكانت مشكلة الخلافة على عرش إسبانيا التي أشرنا إليها سابقًا. فبتأثير رئيس أساقفة إسبانيا الحاسم، الكردينال پُورْتُوكارِيرُو، قرّر شارل الثاني أن يتولّى العرش بعده فيليب دوق أَنجو، حفيد لويس الرابع عشر. في ٣ تشرين الأوّل/ أوكتوبر ١٧٠٠، كتب شارل الثاني وصيّته لصالح فيليب أنجو، فحطّم بذلك آمال لِيُوپُولْدْ الأوّل، إمبراطور النمسا. والتزَم فيليب بأن لا يطالب أبدًا بوراثة عرش فرنسا، فاعترف جميع الملوك الأوروبّيّين بفيليب الخامس، ما عدا الإمبراطور. غير أنّ التهوّرات التي ارتكبها لويس الرابع عشر

الذي كان يظنّ نفسه مُخوَّلًا التصرّف بالإمبراطوريّة
الإسبانيّة لأنّ حفيده يشغل عرش إسبانيا، باحتلال
عدّة مدن في فِلاندِرْ، دفعت النمسا وإنكلترا وهولندا
إلى التحالف ضدّه. فانتهت الحرب على عكس
مصالح فرنسا التي اضطرّت إلى أن توقّع معاهدة
أوترِخت (١٧١٣)، ومعاهدة راشتادْت (١٧١٤) وأن
تتخلّى عن كثير من ممتلكاتها. وكان الملك الشمس
إذ ذاك، بعد حكم باهر، يميل إلى الغروب.

لم يستطع إنّوقنطيوس الثاني عشر أن يشهد نهاية
الصراع حول وراثة عرش إسبانيا لأنّه توفّي في
١٧٠٠. وعلاقاته الطيّبة بليوبولد الذي عرفه حين
كان سفيرًا بابويًّا في ڤيينّا وساعده في صراعه ضدّ
الأتراك تبدّلت مع مرور الزمن. فالديبلوماسيّة
الفرنسيّة عرفت كيف تزيد الخلافات سوءًا بين رومة
وڤيينّا، بحيث إنّ إنّوقنطيوس أمام الخيار بين
مرشّحَيْن لعرش إسبانيا، أيّد المرشّح الفرنسيّ.

في ١٦٩٧، هزم الأميرُ أوجين دي سافوا، قائدُ
الجيوش المسيحيّة، القوّات التركيّة في زِنْتا.

٢٤٢ - إقليمنضس الحادي عشر (١٧٠٠-١٧٢١)

جان - فرنسوا ألباني، مُفكّر إنسانيّ ومحبّ
الفنون، عيّنه كردينالًا البابا إسكندر الثامن، واجه
مسؤوليّة الكرسيّ الرسوليّ وسط النزاعات المعقّدة
التي ولّدتها مسألة الخلافة على عرش إسبانيا.
فانقطعت العلاقات نهائيًّا بالبلاط النمساويّ الذي
منح لقب ملك بروسيا إلى ناخب براندِبورغ من دون
إستشارة البابا، إضافة إلى أنّ المملكة الجديدة كانت
تتألّف من ممتلكات المنظّمة التوتونيّة التي صودِرت

في السنوات الأولى لحركة الإصلاح، واعتبر
إقليمنضس حليفًا أمينًا لفرنسا. كانت الحرب قد
اندلعت بين النمسا وفرنسا. إحتلّت الجيوش
النمساويّة إيطاليا وهدّدت رومة. وفي ١٧٠٥، خلف
جوزف الأوّل على العرش الإمبراطور ليوبولد، وبعد
قليل، هزم الأميرُ أوجين الفرنسيّين. وآخر حرب
اندلعت بين البابا والإمبراطور كانت في ١٧٠٨
اضطرّ في أثنائها البابا إلى الإذعان، لأنّ الجيوش
النمساويّة كانت تتقدّم في إيطاليا وتقترب من حدود
الدولة البابويّة. إنتهت الحرب بانتصار النمساويّين،
وأُرْغِم إقليمنضس على الاعتراف بحقوق شارل
الثالث، شقيق الإمبراطور، في وراثة عرش إسبانيا.
وبالطبع، طرد فيليب الخامس السفير البابويّ من
مدريد واستولى على أموال الكنيسة. فبقي البابا
وحيدًا معزولًا بين عدوّين يحارب أحدهما الآخر في
أوروبّا للاستيلاء على تاج إسبانيا وإمبراطوريّتها
الاستعماريّة. وبموجب معاهدتَي أوترخت
وراشتادت، فقد البابا حقوقه في صقلّية التي منحوها
إلى أميدي دي سافوا. وأمام معارضة البابا هذا
القرار، اضطرّ رجال الكنيسة جميعهم إلى مغادرة
الجزيرة. وفي ١٧٢٠، بموجب معاهدة لندن،
أُلحِقت صقلّية بالنمسا، وتلقّى دوق سافوا مقابل
ذلك جزيرة سَرْدينيا ولقب ملك.

في ١٧١٥، توفّي لويس الرابع عشر، فتولّى
حكم فرنسا الوصيّ على العرش فيليب أورليان.
إتّحدت أوروبّا كلّها ضدّ فيليب الخامس الذي كان
يحلم باستعادة ممتلكاته في إيطاليا، بدفعه إلى ذلك
زوجته إيزابيل فارنيزي، ورئيس وزرائه الأب
ألبيرُوني. وكان فيليب الخامس قد قرّر في الوقت

نفسه أن لا يأبه إطلاقًا لمعاهدة أوترخت التي كانت تلزمه بالتنازل عن أيّ مطمع بعرش فرنسا. كانت طموحاته كبيرة، لكنّ تحالف فرنسا، وإنكلترا، والنمسا، وهولندا أرغمه على التنازل. وانتصارات الأمير أوجين على الأتراك الذين هزمهم ثانيةً هذا القائد المقدام (وقد وُقّعت معاهدة في پاسّارُوفيتز سنة ١٧١٨ تثبّت فتوحات النمساويّين) قوّضت مخطّطات الكردينال ألبيروني. هزم الإنكليز قرب رأس پاسّارو الأسطول الإسبانيّ الذي كان يستعدّ لاستعادة صقلّية، واجتاحت الجيوش الإنجليزيّة والفرنسيّة الأراضي الإسبانيّة، ووضعت معاهدة ڤيينّا (١٧٢٥) حدًّا لحرب دامت ربع قرن بين معارك ومفاوضات. وتصالح ملك إسبانيا وملك فرنسا وثبت التحالف بين العائلتَيْن المالكتَيْن حتّى سقوط الملكيّة الفرنسيّة. والبابا الذي قامَ بدورٍ فاعلٍ في إعادة السلام، وجد في هذه التطوّرات بواعث ابتهاج أكيد.

كان على إقليمنضس الحادي عشر أن يتّخذ قرارًا خطيرًا بشأن ما كان يُدعى الطقوس المالاباريّة والصينيّة. ففي إبّان القرن الثامن عشر، وجّهت إلى الهند والصين إرساليّتان: الأولى كان على رأسها اليسوعيّ روبرت نوبيلي، وعلى رأس الثانية كان ماثيو رِيتْشِي، الراهب اليسوعيّ أيضًا. أحسن الرجلان الواسعا الثقافة استخدام الفلسفة والدين المحلّيَّيْن، فنشأ سريعًا مذهب توفيقيّ يحاول أن يجمع الفلسفات التقليديّة والديانة المسيحيّة. وكان غريغوريوس الخامس عشر قد حرّم هذه التوفيقيّة في ١٦٢٣. أرسل إقليمنضس الحادي عشر إلى الصين شارل دي تُورنُون، بطريرك أنطاكية، وحرّم الطقوس

الصينيّة في ١٧١٥ بعد تحقيق طويل كان قد أجراه. كان الأب ريتشي قد خلق تيّارًا في الصين مؤاتيًا للمسيحيّة، وقد تبعه في هذا الاتّجاه خلفاء مشهورون في الإرساليّة مثل الأب شال والأب ڤِربِيسْت اللذين توصّلا إلى أن يكونا مستشارَيْن للإمبراطور. وقد تبنّت المسيحيّة الصينيّة فلسفة كونْفُوشِيُوس، بحسب استنتاجات الأبوين اليسوعيّين، مثلما أنّ المسيحيّة ضمّت إلى عقيدتها فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو. وفي ١٧٤٢، حرّم البابا بندكتس الرابع عشر الطقوس الصينيّة سعيًا منه لإنقاذ العقيدة الكاثوليكيّة كاملة. ومذ ذاك خفّ تأييد أباطرة الصين العقيدة الكاثوليكيّة. وسنة ١٧١٣، حرّم إقليمنضس الحادي عشر، في براءته **الابن الوحيد** (١٧١٥) مذهب الجانسينيّة، بتحريمه القضايا المئة التي قال بها كِيسْنِيل.

وأحد أهمّ أفضال إقليمنضس الحادي عشر أنّه فكّر في المساكين، وأجرى إصلاحًا كاملًا في نظام الكفّارات. وكانت هزيمة الأتراك النهائيّة، بعدما دخلوا في طور انحطاط سطوتهم، أهمّ حدث في حبريّته. أمّا من الناحية الفكريّة، فإنّ أحداثًا خطيرة ومشاكل ضميريّة طبعت أوائل القرن الثامن عشر. إذ إنّ كتبًا مثل **تاريخ النبوءات** لمؤلّفه فُونتِنِيل (Fontenelle)، و**القاموس التاريخيّ والنقديّ** الذي وضعه بايل (Bayle) كانت تعلن عمل الموسوعيّين، منافسًا للكنيسة. وكان التعليم - المعرفة - يشقّ طريقه إلى العالم، والكنيسة تجتاز في آخر القرن أقسى محنة عرفتها منذ أن قضى قسطنطين على دورة الاضطهادات.

٢٤٣ - إنّوقنطيوس الثالث عشر (١٧٢١-١٧٢٤)

ينتمي مِيكال أنج كُونْتي إلى عائلة إنّوقنطيوس الثالث. كان رجلًا سقيمًا وادعًا ولم تسجّل في حبريّته أحداث لافتة. ثبّت حقوق آل هابسبورغ في نابولي وصقلّية، وتنازل عن پارما وپلازنس اللتين كان يطالب بهما الإمبراطور شارل السادس. واضطرّ إلى أن ينعم بالكردينالية على الأب دِيبُوا، وهو شخص دسّاس خاضع لمشيئة الوصيّ، دوق أورليان الذي عيّنه وزيرًا للشؤون الخارجيّة في المملكة، ليحقّق تحالفًا جديدًا بين فرنسا وإنكلترا. ومع أنّه درس على اليسوعيّين، فإنّوقنطيوس كان أوّل بابا يتّخذ موقفًا مناهضًا للرهبانيّة اليسوعيّة التي بدأت حياة استشهاد بعد سنوات من ذلك.

٢٤٤ - بندكتس الثالث عشر (١٧٢٤-١٧٣٠)

پيتْرُو - فْرَنْشِسْكُو أورْسِيني كان آخر بابا من العائلة الرومانيّة الشهيرة واتّخذ اسم بندكتس الثالث عشر. كان ينتمي إلى حزب «الغيارى». كان متفوّقًا في الدروس اللاهوتيّة وعاش عيشة نسكيّة حقيقيّة. رفض العيش في قصر الفاتيكان فبنى لنفسه حجرة وضيعة في منزل منعزل. إنتقد بشدّة ترف بعض الكرادلة، وتدخّل بحزم ضدّ الجانسينيّة التي كانت ما تزال تعكّر الضمائر في فرنسا. أعلن قداسة يوحنّا الصليب، كما أعلن قدّيسًا لويس غُونْزاغا الذي كان مثالًا له في شبابه؛ وكذلك أعلن قدّيسين جان نِپُومِيسين، وغريغوريوس السابع، وإسْتانِسْلاس كوسْتكا.

عاش بندكتس الثالث عشر حياته كلّها على هامش العالم، مكرّسًا ذاته للدرس والاهتمام بالفقراء، فكانت خبرته السياسيّة معدومة تقريبًا. وهذا ما يفسّر النفوذ الذي مارسه شيئًا فشيئًا في قصر الفاتيكان شخص دسّاس ومأجور هو الكردينال نقولا كُوشِيا الذي كان بندكتس نفسه قد أنعم عليه برتبة الكردينالية. فبصفته مستشارًا للبابا، استولى من دون حقّ على مبالغ طائلة من المال ممّا أرهق ميزانيّة الفاتيكان. وبعد موت البابا، حوكم، فقُضي عليه بأن يُسجن، وصودِرَت أمواله جميعها. وقد أصاب لويس پاسْتُور بقوله إنّه لا يكفي أن يكون أحدٌ راهبًا صالحًا ليصير بابا ناجحًا.

أنعم بندكتس أيضًا بالكردينالية على فْلُوري، مربّي لويس الخامس عشر، الذي أضفَتْ سياسته العاقلة، البارعة، بريقًا مميّزًا على الفترة الأولى من حكم هذا الملك. وعندما توفّي فلوري (١٧٤٣)، وقع لويس الخامس عشر تحت تأثير محظيّاته اللواتي قُدْنَ فرنسا إلى شفير الكارثة. فهنّ هنّ، وخصوصًا السيّدة پومپادور، صديقة الموسوعيّين، مَن أقنعن الملك باتّخاذ تدابير بحقّ الرهبانيّة اليسوعيّة.

كُثُرٌ من معاصري بندكتس الثالث عشر اعتبروه قدّيسًا، إلّا أنّ صداقته لكوشيا، التي تظلّلها الكردينال فاستغلّ السلطة، خلقت له أعداء كثيرين وحطّت من مكانته.

٢٤٥ - إقليمنضس الثاني عشر (١٧٣٠-١٧٤٠)

كان البابا الجديد ينتمي إلى عائلة كُورْسِيني الفلورنسيّة التي منها القدّيس أندره كورسيني. بعد

انتخابه بسنة، فقد إقليمنضس الثاني عشر نظره، فآل تدبير شؤون الكنيسة إلى كبار موظّفي «الكوريا»، وخصوصًا إلى ابن أخيه نيري كورسيني، وكان قد عيّنه كردينالًا. كانت أحوال الدويلات البابويّة سيّئة خصوصًا أوضاعها الماليّة، نتيجة التبديد الذي قام به كُوشِيا، فباءَت جهود البابا لتصحيح الوضع بالفشل. غير أنّ الناحية السياسيّة في حبريّته كانت أسوأ. فالدول الأوروبيّة التي هيمنت عليها القوى المناوئة للكاثوليكيّة وللمسيحيّة، قليلًا ما كانت تكترث لحقوق الكرسيّ الرسوليّ. إندلعت حرب بين النمسا من جهة، وإسبانيا وفرنسا وسردينيا من جهة ثانية، بسبب وراثة عرش پولونيا. فاجتاح الفريقان الأراضي البابويّة مرارًا. هُزِم الإمبراطور فاضطرّ إلى مغادرة لُومْبارْديًا، فاستولى عليها ملك سردينيا. وفي ١٧٣٢، نزل الإسپان في إيطاليا فاحتلّوا نابولي وجنوب شبه الجزيرة، ونصّبوا شارل الثالث ملكًا على نابولي وصقلّية. وُقِّعت معاهدة في ڤيينّا في ١٧٣٥ قضت بأن يستعيد الإمبراطور لُومْبارْديًا، واعتُرِف بموجبها بشارل الثالث ملكًا على نابولي. واجتازت الجيوش الإسپانيّة والإمبراطوريّة الأراضي البابويّة حتّى إنّها دخلت رومة. وكان السكّان المدنيّون الضحيّة الكبرى لهذه الاجتياحات التي لم يكن باستطاعة البابا أن يجابهها بتدبير فعّال، نظرًا إلى أنّ أيّ ملك ما كان يكترث له. ففي جميع الدول الكاثوليكيّة تقريبًا، كانت سلالة البوربون هي الحاكمة، غير أنّ سياستهم ما كانت لتهتدي بعدُ بهذي المبادئ المسيحيّة، بل على العكس من ذلك، كانت ترتكز على القوّة وعلى مبدأ مصلحة الدولة. وكانت الماسونيّة تكسب كلّ يوم مريدين جددًا

وتجمع حولها القوى التي تعارض الكنيسة والمسيحيّة. أدرك إقليمنضس الثاني عشر الخطر الجديد هذا، فحرم هذه الشيعة بالبراءة **في الرفيع** *(In eminenti)* التي صدرت في ٢٨ نيسان/أبريل ١٧٣٨. وكانت هذه أوّل التدابير التي اتّخذتها الكنيسة بحقّ الماسونيّة.

حظيت المدينة الساقطة والمهملة، رافينّا، بحماية إقليمنضس الخاصّة. فبنى فيها قناة حتّى البحر، وحماها من الفيضانات بواسطة سدود وشبكة مائيّة اعتبرت أهمّ عمل هندسيّ في هذا القرن. وتحمل القناة حتّى اليوم اسم كورسيني. وجمهوريّة سان مارينو مدينة إلى إقليمنضس الثاني عشر باستقلالها.

والبابا الميّال إلى الفنون أكثر منه إلى السياسة، اهتمّ كثيرًا بالمتاحف والنُّصب في المدينة الخالدة. ففي ١٧٣٤ أسّس أوّل متحف للعاديّات في العالم ضمّ مجموعة رؤوس الأباطرة التي اشتراها من الكردينال ألباني. وبنى في وسط رومة ينبوع تريڤي، كما تابع أعمال لاتران، حيث تمّ إنهاء معبد كورسيني، أحد أجمل الأعمال الفنّيّة في تلك الحقبة، وتحت قبّتها دفن البابا.

أصيب إقليمنضس الثاني عشر بالعمى والمرض، فشهد، عاجزًا، انحطاط السلطة البابويّة وسط احتقار كبار الملوك إيّاها، وقد جرفهم فكر هذا القرن، أي فلسفة الأنوار، الذي قاد إلى سقوط ملك فرنسا وتدحرج رأسه. وكان إضعاف الكرسيّ الرسوليّ باعتماد سياسة تناهض مصالح البابا في إيطاليا وفي أوروبّا، خطأً جسيمًا بالغًا ارتكبته فرنسا، فقادها إلى ثورة ١٧٨٩. لم يدرك لويس الخامس عشر أبدًا الهوّة التي كان يدفع إليها النظام

الملكيّ. وكان عصر الأنوار عصر ظلمات لخليفة القدّيس بطرس.

٢٤٦ - بندكتس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨)

هو أحد ألمع الشخصيّات وأكثرها إنسانيّة في تاريخ الكنيسة. حكيم ومتواضع. حبر قطع دابر الحفيديّة، محبّ للفنون، صديق المساكين. كان بْروسپيرُو لَمْبِرْتِيني «البابا لَمْبرتيني» يتنزّه في شوارع رومة ويحادث الشعب، فلم ينس الشعب الرومانيّ صورته أبدًا. كان من عائلة رفيعة المقام في بولونيا حيث درس الحقوق واللاهوت. وعندما عيّنه البابا إقليمنضس الثاني عشر رئيس أساقفة على بولونيا استقبل شعبُ المدينة تعيينه بحماسة.

طبعت حبريّته حربٌ أخرى على نطاق أوروبّيّ هي حرب الخلافة على عرش النمسا. فعلى إثر موت الإمبراطور شارل السادس، انقرضت السلالة النمساويّة الذكوريّة، فارتقت العرش ماري - تريز بحسب رغبة والدها. إلّا أنّ شارل - ألبير، منتَخِب باڤاريا، طالب بالخلافة وحصل حالًا على تأييد پروسيا التي استولت على سيليزيا، كما حصل على تأييد فرنسا وإسبانيا. فتُوِّج في پْراغ (١٧٤٢)، مثله مثل شارل السابع. أمّا البابا فأيّد ماري - تريز، لكنّه اعترف بشارل السابع بعد تتويجه ممّا أدّى إلى تدخّل جيوش ماري - تريز في إيطاليا. وهكذا اجتاحت الجيوش الأجنبيّة مرّة جديدة الدويلات البابويّة. على أنّ شارل السابع توفّي سنة ١٧٤٥، فتمّ الاعتراف بزوج ماري - تريز إمبراطورًا باسم فرنسوا الأوّل. فلزم البابا موقف حياد مطلق، في حين كانت فرنسا وإسبانيا تدعمان مرشّحين آخرين

لعرش النمسا. وبالرغم من الموقف الحياديّ هذا، فإنّ الجيوش النمساويّة، والفرنسيّة، والإسپانيّة كانت تجول في شبه الجزيرة من دون أدنى احترام للحقوق البابويّة. في رسالة بعث بها إلى صديق، يقول بندكتس إنّه على استعداد لأن يكتب مقالة في استشهاد الحياد، فشهرت هذه العبارة منذئذ لأنّها تكشف قيمة حكمة الحبر الأعظم وروح الفكاهة لديه. ووقّع السلام، أخيرًا، في إكس - لا - شاپيل، في ١٧٤٨. تخلّت ماري - تريز، بموجب تلك المعاهدة، عن عدّة مدن بابويّة لإسپانيا. وفي باريس، كان يقال إنّ ملك فرنسا عمل عملًا جيّدًا لصالح ملك پروسيا.

بعد ثمان سنوات اندلعت حرب جديدة خسرت فرنسا على أثرها كلّ شيء حتّى إمبراطوريّتها الاستعماريّة التي استولى عليها الإنكليز. كان الثورة قريبة. والحرب التي أعلنها فردريك الثاني ملك پروسيا على النمسا في ١٧٥٦ سمّاها الملك الجنديّ حربًا دينيّة. ولأوّل مرّة في التاريخ تحالفت فرنسا والنمسا، الدولتان الكاثوليكيّتان ضدّ دولة پروتستانتيّة، فشجّع البابا هذا التحالف الذي لم يأتِ بنفع، لأنّ فردريك وسّع حدوده بشكل ملحوظ. فدخل عنصر جديد في اتّفاق الدول الكبرى.

أسّس بندكتس الرابع عشر رهبانيّتين جديدتين: رهبانيّة الآلام ورهبانيّة الفداء. أصلح **دليل الكتب** المحرّمة *(Index)* بروح متحرّرة، وخفّف من الأعياد الدينيّة التي بولغ بتكثيرها سابقًا، خصوصًا في الأراضي التابعة للبابا. وبفضل روحه المنفتح على التيّارات الفلسفيّة في زمانه، كانت له مراسلات مع

ڤولتر الذي أرسل إليه نسخة من مأساته محمّد
واستفاد من علاقاته بالبابا ليؤكّد تاليًا أنّ البابا يوافقه
على أفكاره. لكنّ بندكتس ردّ بأن حرم مؤلّفات
ڤولتر في ١٧٥٣ لأنّ روحها المناهض للدين كان
أساس الأفكار الجديدة في هذا القرن، ومنطلقًا لكلّ
الحركات التي بلغت ذروتها مع الثورة في ١٧٨٩.
في ١٧٥١ جدّد بندكتس في الدستور اعتنِ
(Providas) تحريم الماسونيّة الذي كان قد أطلقه
إقليمنضس الثاني عشر. وفي ١٧٥٨ عيّن الكردينال
سالدانيا زائرًا رسوليًا على اليسوعيّين في البرتغال.
وبدأت الدعوى الكبرى في هذا القرن. فاليسوعيّون
كان لهم أعداء كثيرون في كلّ مكان تقريبًا بسبب
نفوذهم، وبسبب غنى رهبانيّتهم ونشاطهم الذي لم
يكن دائمًا خاليًا من مجال للوم. فتدخّل المركيز
پومْبال (Pombal) لدى الحبر الأعظم وطلب إليه أن
يعيّن زائرًا رسوليًا. ولو أنّ بندكتس الرابع عشر أتيح
له أن يعيش بضع سنوات أكثر ممّا عاش، فلعلّه كان
تحاشى النزاع وباشر عمليّة إصلاح لدى اليسوعيّين
الذين سجّلوا أفضالًا لا تُقدَّر خصوصًا في ميدان
الرسالات. إلّا أنّ موت البابا عجّل الأحداث.

نَعِم بصداقة بندكتس الرابع عشر ورعايته المؤرّخ
مُوراتُوري، مؤسّس العلوم التاريخيّة في إيطاليا،
والرسّام پيرانيزي، الذي ما زالت محفوراته تشهد
على جمال رومة في القرن الثامن عشر، والمؤلّف
الموسيقيّ الألمانيّ غْلِيكْ الذي أسمع في رومة للمرّة
الأولى عمله «أنتيغون» في ١٧٥٦، ومنحه البابا لقب
فارس «المهماز الذهبيّ» إعجابًا منه بالموسيقار
الكبير هذا الذي أبدع نوعًا جديدًا في الأوپرا.

وأنشأ بندكتس الرابع عشر منبر التشريح، ومنبر

الفيزياء، ومتحف علم التشريح في بولونيا. وعيّن
امرأتَين أستاذتَين في الجامعة.

٢٤٧ - إقليمنضس الثالث عشر (١٧٥٨-١٧٦٩)

هيمنَتْ على حبريّة الكردينال كارلو رِيتْزُونيكُو،
البندقيّ الأصل، مشكلة اليسوعيّين. في القرن الثامن
عشر، بلغت رهبانيّة القدّيس إغناطيوس ذروة
سطوتها، أفي الميدان السياسيّ كان بفضل التأثير
الذي كانت تمارسه في جميع البلاطات الكاثوليكيّة
الأوروبيّة تقريبًا، أم في ميدان التجارة وفي عالم
التربية. فأكثريّة المدارس الأوروبيّة كانت تخصّ
الرهبانيّة ممّا كان يولّد البغض إزاءَها لدى
المؤسّسات العلمانيّة، ويثير روح المنافسة في
الرهبانيّات الأُخَر. كان الكردينال سالْدانيا حرّم على
يسوعيّي بلاده تعاطي أيّة عمليّة تجاريّة مهما كان
نوعها، وسحب منهم الإذن بالوعظ وسماع
الاعترافات. إحتجّ إقليمنضس الثالث عشر على
بعض التدابير التي اعتبرها شديدة الصرامة، إلّا أنّ
الأحداث تسارعت عندما حصلت محاولة اغتيال
ملك البرتغال، جوزف الأوّل، في أيلول/ سبتمبر
١٧٥٨. فاستغلّ مركيز پومبال الفرصة، وعداوته
لليسوعيّين معروفة، ليؤكّد أنّ اليسوعيّين هم الذين
دبّروا هذه المؤامرة، مع أنّ لا دليل إطلاقًا لتأكيد
هذه التهمة. ومع هذا، فقد طُرد اليسوعيّون من
البرتغال ومن مستعمراتها، وصادرت الدولة جميع
أموالهم. كما أنّ السفير البابويّ في لشبونة أُرغم
على مغادرة مركزه.

وبعد ذلك بقليل اتُّخِذت تدابير مماثلة في فرنسا

حيث كان الجانسينيّون، والغاليكانيّون، والفلاسفة ذوو النزعات الحديثة وعلى رأسهم ڤولتير، ينظرون إلى اليسوعيّين نظرتهم إلى أشدّ أعدائهم سطوة. والسيّدة پُومْپادُور التي كان اليسوعيّون يندّدون بحياتها المنكرَة، مارست ضغوطًا على الملك ليقرّر طرد الرهبانيّة. ففي ٦ آب/أغسطس ١٧٦٢، أمر الملك، في الواقع، بحلّ الرهبانيّة باعتبارها منافية لمصالح الدولة ومؤذية للدين والأخلاق. فنُفي اليسوعيّون من المملكة وصودرت أموالهم. وفي ١٧٦٥، حاول البابا الدفاع عنهم إلّا أنّ دستوره **مهمّة الرعاية الرسوليّة** (*Apostolicum pascendi* ***munus***) لم يُتَح له أن يُنشَر لا في فرنسا ولا في النمسا.

وقامت في مدريد انتفاضة على أثر قرار من الشرطة يَمنع اعتمارَ قبّعات عريضة الأطراف، فنُسبَت إلى اليسوعيّين واتّهموا بتحريض الشعب. فصدر قرار في ١٧٦٧ بطردهم من إسپانيا وبمصادرة أموالهم. وكان شارل الثالث ووزيره أراندا أعداء معلنين لرهبانيّة مار إغناطيوس، ومن مؤيّدي العقائد الجديدة المناهضة للكثلكة التي كانت منتشرة في القارّة الأوروبيّة كلّها. ونزل اليسوعيّون المبعدون من إسپانيا في جزيرة كُورْسيكا حيث عاشوا في البؤس إلى أن استطاع البابا أن يستقبلهم في أراضيه.

في نابولي، كان يملك فرديناند الرابع، ابن شارل الثالث، ملك إسپانيا، وكان صانع السياسة فيها تانُوتْشِي خصم اليسوعيّين. فحُلَّت الرهبانيّة أيضًا في ١٧٦٧.

ولمّا كان البابا ثابتًا في دفاعه عن اليسوعيّين، أثار موقفُه ردَّ فعل عفويًّا لدى فرنسا التي احتلّت

أفينيون، ولدى إسپانيا والصقلّيتين اللتين استَوْلتا على بَنيفِنْت وپُونتِكُورْفُو. وفي كانون الثاني/يناير ١٧٦٩، قدّم سفراء البلاطات البوربونيّة في رومة مذكّرة إلى الأب الأقدس يطلبون فيها حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة. وكان من هذه المذكّرة أن سُدِّدت للبابا ضربة سبّبت له سكتة، فتوفّي في ٢ شباط/فبراير ١٧٦٩. فدفن في باسيليكا القدّيس بطرس في مدفن هو رائعة فنّيّة من إبداع كانُوڤا.

كان إقليمنضس الثالث عشر راعيًا لعبادة قلب يسوع الأقدس. وكان اليسوعيّون قد حرّضوه على ذلك قبل سنوات، فكان هذا آخر انتصار لهم في عهده. وفي ١٧٦٣، عيّن البابا وِينْكِلْمان مفوَّضًا للآثار، فاستطاع العالم الألمانيّ هذا أن يكتب **تاريخ الفنّ لدى القدماء**، وهو مؤلَّف أرسى أسُس علم الآثار الحديث.

٢٤٨ – إقليمنضس الرابع عشر (١٧٦٩–١٧٧٤)

لُورِنْزُو غانْغانيلّلي، راهب فرنسيسكانيّ عيّنه البابا إقليمنضس الثالث عشر كردينالًا، انتُخِب بابا بالإجماع لأنّه كان يعتبر عدوًّا لليسوعيّين. فإمبراطور النمسا جوزف الثاني الذي كان حاضرًا في رومة متنكّرًا، حضر المجمع الانتخابيّ. وحبريّة غانغانيللي التي لم توفّرها الأهاجي، أتاحت المجال لآراء تفوتها الموضوعيّة بنتيجة حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة. فأصدقاء الرهبانيّة يصوّرونه بابا ضعيفًا، يسيطر عليه أمين سرّه وموضع ثقته بونتِمْپي الذي كان تعاطف الرومانيّين معه ضئيلًا جدًّا. أمّا أعداء اليسوعيّين، فكانوا، على العكس، يرون فيه شخصيّة

مميّزة، حازمًا، سخيًا. والثابت أنّه في شتاء ١٧٧٢-١٧٧٣ القاسي استطاع أن يساعد فقراء رومة الذين كانت المجاعة تتهدّدهم.

ما يمكن وَصفُه بأنّه «قضيّة القرن» بدأت في ٢٢ تمّوز/يوليو ١٧٦٩ يوم رفع الكردينال برنيس إلى الأب الأقدس مذكّرة البلاطات البوربونيّة في إسبانيا، وفرنسا، ونابولي، يطلبون فيها حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة حالًا. وقد حدّدت المهلة بشهرين. حاول البابا كسبَ الوقت بحرمانه الرهبانيّة العديد من حقوقها وامتيازاتها، إلّا أنّ أيًّا من هذه التدابير لم ينجح في التأثير في موقف الخصوم، مع أنّ القصد من تلك التدابير كان البرهان على أنّه ليس ضروريًّا حلّ الرهبانيّة ما دامت حياتها تتضاءَل شيئًا فشيئًا. إلّا أنّ الأب الأقدس لم يكلّف الكردينال تِيلادا الإسبانيّ إلّا في ١٧٧٢ ليعدّ منشور الإلغاء. وقد وقّع المنشور في حزيران/يونيو ١٧٧٣ تحت ضغط مُونِينُو سفير إسبانيا في رومة، ونشر في ١٦ آب/أغسطس في «كنيسة يسوع»، وهي كنيسة اليسوعيّين في رومة، ومطلعه «**إنّ ربّنا ومخلّصنا**» (*Dominus ac redemptor noster*). والذريعة الواردة فيه لتبرير الإلغاء هي أنّ اليسوعيّين لا يزرعون بذور الشقاق في منظّمتهم نفسها وحسب، بل بين الرهبانيّات الأُخَر أيضًا. واتّهموا أيضًا بأنّهم اتّخذوا موقفًا مخالفًا لموقف سائر المؤسّسات، والأكاديميّات، والمدارس، والمعاهد، بل حتّى موقف الملوك الذين رحّبوا بهم في دولهم. وهذا يعني أنّهم هدّدوا النظام القائم في البلدان المختلفة حيث أقاموا، غير أنّ لا تهمة واحدة وردت بشأن استقامة العقيدة والأخلاق في الشركة (الرهبانيّة). وبُلّغ المنشور

جميع معاهد اليسوعيّين وأديرتهم في رومة. وأوقف الأب رِيتْشِي، الرئيس العامّ، وسجن في قلعة سانْت-أنج مع العديد من مساعديه. دامت دعواه سنتين. ورغبةً من البابا في إنقاذ أموال اليسوعيّين من جشع الحكومات الطامعة بها، فقد عمّم البابا منشورًا آخر يأمر فيه الأساقفة باستلام تلك الأموال باسمه، ولمّا لم يكن هناك أساقفة كاثوليك في بروسيا وروسيا، فقد منع فردريك الثاني وكاترين الثانية، كلٌّ في بلاده، تعميم المنشور، واستطاعت الرهبانيّة متابعة وجودها وحياتها الشرعيّة في هذين البلدين. وإنّما غاية الملكين من اتّخاذ هذه التدابير كانت إظهار تحرّريّتها إزاء تعصّب البوربونيّين.

أحدث حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة ضجّة عظمى في العالم كلّه. فراحت توزَّع نشرات سرّيّة في رومة، تندّد بالبابا وبالكرادلة. وكان واضحًا أنّ هذه الحملة التي سبّبها تنفيذ منشور الحلّ كانت تخفي وراءَها نفوذ فلسفة الأنوار القويّ الذي تمارسه المحافل الماسونيّة وأتباعها، ومنهم بُومْبال وشُوازِيل، وزير لويس الخامس عشر. وإذا أردنا تحديد الوجه القانونيّ للقضيّة تحديدًا موضوعيًّا يلزمنا أن نراجع جميع المحفوظات التي ما زال متعذّرًا الوصول إليها حتّى اليوم. لقد كان الجميع متّفقين في الرأي على أنّ اليسوعيّين استغلّوا نفوذهم وغناهم، لكن كان واضحًا أيضًا أنّ تركيز الضغوط وممارستها على البابا لتصفية هذه الرهبانيّة، يعود إلى رغبة المحافل وخصوم الڤاتيكان بوجه عام في أن يروا زوال ما كان الدعامة الأشدّ للكنيسة. لقد كان مؤمّلًا أنّ نهاية اليسوعيّين تؤدّي حتمًا إلى نهاية الكنيسة نفسها. وهكذا كتب فون رانْك فقال: «اضطُهد

اليسوعيّون وحُقِد عليهم خصوصًا لأنّهم كانوا يدافعون عن العقيدة البالغة الدقّة والصرامة، أي تفوّق الكرسيّ المقدّس».

وتعبيرًا عن الشكر على منشور الإلغاء، أُعيدت إلى إقليمنضس الرابع عشر أفينيون، وبِنِفِنْت وبُونْتِيكُورْفُو. وكدَّر أواخر سني حبريّته تقسيمُ بولونيا التي توزّع بقاياها روسيا والنمسا وپروسيا، وتنبّؤات امرأة تدعى برنردين بارُوتْزي أعلنت موت البابا بعبارات خليقة بساحرات القرون الوسطى.

في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٧٧٤، مات البابا غانغانيللي ميتة تقويّة. وقد انحلّ جسده انحلالًا سريعًا، ممّا حمل على إشاعة القول إنّ اليسوعيّين قد يكونون سمّموا له. إلّا أنّ التشريح بيّن أنّ ذلك الكلام محض نميمة. ومات الأب ريتشي، رئيس عامّ اليسوعيّين، بعد ذلك بسنة في زنزانته في السجن.

رعى إقليمنضس الرابع عشر الرسّام رافائيل مِينْغز والپيرانيزي، ومنح المهماز الذهبيّ للموسيقيّ موزارْتْ الذي زار رومة في ١٧٧٠ ووضع صيغة جديدة لموسيقى مزمور **«ارحمني يا الله»** *(Miserere)* الذي كان قد وضعها أَلِيغري. وأسّس البابا المتحف الكليمانتيني بالمجموعات التي كانت بحوزته من الآثار.

دُفن في كنيسة الرسل القدّيسين، ونَقَش مدفنه كانُوفا.

٢٤٩ – بيّوس السادس (١٧٧٥-١٧٩٩)

بدأت حبريّة جِيُوفاني- أنجِيلو بْراسْكِي في أحسن الظروف الممكنة. بارع، ذكيّ، لطيف، بهيّ

الطلعة، بحيث كان الرومانيّون يقولون عنه «إنّه جميل الطلعة جمال «قدّيس»». ويصفه غُوتِه عندما كان في رومة بأنّه «أجمل صورة إنسان وأرفعها».

في ١٧٧٨، حصلت كاترين الروسيّة، حامية اليسوعيّين، من البابا سرًّا، على تخويل هؤلاء الرهبان بأن يتابعوا حياةً بشكل قانونيّ. وبعد بضعة أشهر، زار ملك السويد، غوستاف الثالث، الحبرَ الأعظم ووقّع قرارًا يعترف فيه للكاثوليك في مملكته بحرّيّة العبادة. في ١٧٧٦، أعلنت الولايات المتّحدة استقلالها وحصلت من البابا على المونسنيور كارُول، صديق واشنطن، أسقفًا على بلتيمور. في ١٧٧٥، وإذ كان بيّوس السادس يدرك الخطر الذي يتهدّد الكنيسة والمجتمع، أصدر براءةً يهاجم فيها النظريّات الفلسفيّة الشائعة آنذاك. وممّا يقوله في تلك البراءة إنّ الحرّيّة كما يتصوّرها هؤلاء الفلاسفة، خصوصًا تلاميذ رُوسُّو، تؤدّي إلى تفكّك الروابط التي تشدّ الناس بعضهم إلى بعض بدلًا من توثيقها. وقد جمعت **الموسوعة** التي نُشرت بين ١٧٥١ و١٧٧٢، جميع أفكار عصر الثورة: نقد الملكيّة من دون أدنى رحمة، الإلحاد، المذهب الفلسفيّ الحسّيّ الذي أطلقه الإنكليز، ومدح القرن الثامن عشر: عصر الأنوار والتقدّم، والليبراليّة الاقتصاديّة، ونقد الحضارة، والثناء على «الخير الوحشيّ» رمز حرّيّة طبيعيّة مزعومة تضمن استقلال الإنسان المطلق، والمساواة، ودرس الآلات التي بدأت بالعمل في البلدان الغربيّة دراسة مفصّلة. كانت **الموسوعة** مرآة العالم، لكنّها كانت أيضًا مجموعة عقيديّة تعجّ فيها المبادئ الهادفة إلى تنظيم الكون بموجب قواعد تناقض تمامًا مبادئ الكنيسة،

وتناهض، طبعًا، المَلَكيّة. إنّ عقيدة «الإرادة العامّة» التي أفصح عنها روسّو في كتبه، أي موافقة كلّ إنسان موافقةً واعيةً على القوانين التي تسود حياة المواطنين جميعًا، الإرادة العامّة هذه التي توازي، في الحقيقة، الفرديّة الخاصّة كتعبير منعزل في وسط العقد الاجتماعيّ الذي ارتضاه كلّ واحد، تحوّلت شيئًا فشيئًا لتصير المَثَل الأعلى لكلّ الأوساط الثوريّة. وكان الكتّاب والفنّانون قد مهّدوا لهذا الجوّ منذ أواخر القرن السابع عشر. فقد كتب بيار غاكسوت: «إنّ جمهوريّة الآداب التي كانت رمزًا في ١٧٢٠، صارت في ١٧٧٥ حقيقة». وكان بنجامين فرانكلين في باريس ينظّم نشاطات الماسونيّة بتقرير سيادة محفل الشرق الأكبر. وكان ڤولتير، وهِلفِتِيُوس، ولالانْد، وكُونْدُورسِيه، وشامْفُورْتْ يتردّدون على «محفل الأخوات التسع» (ربّات الفنّ التسع). وثورة ١٧٨٩، كانت أساسًا عمل المثقّفين ورجال الفكر، والموسوعيّين وتلاميذ روسّو، والمحافل التي أثار حماستها انتصار الحرّيّة في الولايات المتّحدة، وعمل دوائر كنسيّة وملكيّة لم تحسن معارضة خصومها. وجاء العلم ليتوّج أوهام الفلاسفة بالثقة التي كان يوحيها إلى الجميع والوعود المنطقيّة بتقدّمه. وكان الدين يظهر كأنّه ذكرى من الماضي محكوم عليه بالانهيار من تلقاء نفسه.

ولم تكن الحال بأحسن من تلك في النمسا، حيث كان يملك جوزف الثاني. فقد اتّخذ هذا الملك، بتأثير الأفكار الجديدة سلسلة تدابير بحقّ الكنيسة. ألغى التطوافات، أو، على الأقلّ، خفّض عددها، ومنع الرهبان من أن يتّصلوا برؤسائهم في الخارج، وأخضع نشر البراءات لموافقة الإمبراطور.

ورغبة من البابا بيّوس السادس في إصلاح الأمور، سافر إلى النمسا، فاستُقْبل استقبالًا حسنًا لكنّه لم يحقّق أيّ تغيير. فكلّ النزاعات التي سبّبها موقف جوزف الثاني، والتدابير التي كانت تأخذها كاترين في روسيا لصالح اليسوعيّين، ويأخذها غْرانْدُوق تُوسْكانا، وملك نابولي، ذهبت هباء في انفجار الثورة الكبير. إذ إنّ «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الذي صوّتت عليه الجمعيّة التأسيسيّة في ١٦ آب/أغسطس ١٧٨٩، صار الأساس العقيديّ لجميع التدابير التي كان على السلطات أن تتبنّاها ضدّ الكنيسة وضدّ الدين. فالثورة كانت دينًا بذاته، مؤلّفة، كما قال تْشِسْتِرْتُون، من «حقائق مسيحيّة في ثورة جنون»، ومثلها مثل الشيوعيّة بعد قرن ونصف قرن من ذلك التاريخ، ما كان يمكنها أن تتغاضى عن ديانة أخرى إلى جانبها تنافسها. إذ إنّ «حقّ الجماهير الأوّل» احتلّ مكان «حقّ الملوك الإلهيّ». في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٨٩ صودرت الأموال الكنسيّة لصالح الأمّة. في ١٣ شباط/فبراير ١٧٩٠ أُلغيت الأديار وحُلّت الرهبانيّات، لكنّ الرهبان تلقّوا تعويضًا. أُمِّمَت الكنيسة ولم تعد مرتبطة بروما. أُلْزِم الكهنة بأن يقسموا يمين الولاء للدستور المدنيّ. هدّد البابا بالحِرْم مَن لا ينكر علنًا هذا القَسَم. غادر السفير البابويّ باريس في ١٧٩١، سقطت المَلَكيّة في ١٧٩٢. إنفجرت في رومة اضطرابات حثّ عليها وشجّعها مبعوث العميل الفرنسيّ في نابولي، باسْفِيل الذي اغتيل في ١٧٩٣ وأُعلِن من ثمّ شهيد الحرّيّة. وصارت الدويلات البابويّة الملجأ الأخير للرجال الكنسيّين وللعلمانيّين الذين تضطهدهم الثورة. في ١٧٩٦ أطلقت حكومة الإدارة التي خلفت المؤتمر،

الجنرال نابوليون بُونابَرْت على إيطاليا. فبعد أن هزم
قوّاد المملكة في سردينيا، دخل بولونيا حيث وقّع
هدنة مع البابا في ٢٣ حزيران/يونيو ١٧٩٦. إحتلّت
الجمهوريّة الفرنسيّة بولونيا وفيرّارا. وفي ١٧٩٧،
اضطرّ البابا إلى أن يوقّع معاهدة تُولَنْتِينُو وبموجبها
يتنازل لفرنسا عن أڤينيون وعن مقاطعات أُخَر ويلتزم
بدفع ستّة وأربعين مليون ريال. وكي يتمكّن الأب
الأقدس من تسديد هذا الدين، فقد تخلّى البلاط،
وكبريات العائلات الرومانيّة عن الذهب الذي كان
بحوزتهم. وبعد معاهدة كَمْپُو فُورْمِيُو التي فُرِضَت
على النمساويّين المغلوبين، أنشأت فرنسا في شمال
إيطاليا جمهوريّة جنوب جبال الألب التي تراقب في
الواقع شبه الجزيرة الإيطاليّة كلّها حتّى حدود مملكة
الصقلّيّتين. حصلت اضطرابات في مدن متعدّدة وفي
روما أيضًا، وكان من الشعب الغاضب على
تجاوزات المحتلّين أن أجبر الفرنسيّين على
الانسحاب إلى سفارة فرنسا. وأصيب الجنرال ديفو
برصاصة قاتلة. وانتقامًا من هذه الانتفاضة، غادر
السفير الفرنسيّ روما، واحتلّت الجيوش الفرنسيّة،
بقيادة الجنرال برتييه، المدينة بعد ذلك ببضعة أيّام.
وفي ١٠ شباط/فبراير ١٧٩٨، رفع الفرنسيّون العلم
المثلّث الألوان، رمز فتوحاتهم الفكريّة والعسكريّة،
على برج قلعة سانْتْ-أَنْجْ. وبقيت «المسألة
الرومانيّة» مطروحة، أي هل الكنيسة تحتاج إلى
السلطة الزمنيّة لتمارس رسالتها الروحيّة؟ بعبارة
أخرى: هل يحتاج البابا إلى أراضٍ واسعة كالتي
يملك ليمارس في العالم ولايته الروحيّة؟ هذه
المسألة الرومانيّة غطّت المجادلات بشأنها القرن
التاسع عشر كلّه.

في ١٥ شباط/فبراير ١٩٧٨، وقّعت لجنة يعقوبيّة
وثيقةً تعلن استقلال الشعب الرومانيّ وسيادته. فأبلغ
الجنرال سرڤوني، حاكم روما العسكريّ، البابا
بيّوس السادس عزله من مهامه سيّدًا زمنيًّا. وتسلّم
مسؤوليّات الجمهوريّة الرومانيّة الجديدة حكومة من
سبعة قناصل. فاحتلّت الڤاتيكان قوّات بقيادة الجنرال
هالّرْ وفرضت على الحبر الأعظم الانسحاب من
قصره في مهلة ثلاثة أيّام. فغادر البابا روما إلى سيينا
تحاشيًا لأعمال العنف، وكان يشارف حال النزاع.
وفكّرت الحاشية الصغيرة في الالتجاء إلى البرتغال أو
إلى مالطة، لكنّها، بفعل الضغط الذي مارسته حكومة
الإدارة على كلّ حكومة تبدي استعدادًا لاستقبال
البابا، انسحبت إلى دير الكرتوسيّين في إيما، بالقرب
من فلورنسا، حيث نُقِل البابا إلى ڤالنسيا في جنوب
فرنسا تحت مراقبة الجيوش الفرنسيّة. وفي ٢٩ آب/
أغسطس ١٧٩٩، بعد أن سامح البابا أعداءَه وبارك
الجنس البشريّ، توفّي بيّوس السادس يحيطه عدد
قليل من الأوفياء الذين استمرّوا بجانبه. وهكذا ختم
حياته في المنفى الحاجّ الرسوليّ الذي تتكلّم عليه
تنبّؤات ملاخيا، ضحيّة الثورة. أمّا الجمهوريّة
الرومانيّة فسقطت بعد ذلك بسنة عندما غادرتها
الجيوش الفرنسيّة، وانتقلت إلى الإمبراطوريّة
النمساويّة الأراضي الواقعة بين پيسارو وروما. لكنّ
هذا الوضع ما كان ليدوم. فالجمهوريّة زالت في
فرنسا، وفي ٩ تشرين الثاني/نوڤمبر ١٧٩٩، بدأ
نابوليون مسيرته ليصير إمبراطورًا. وشهدت مرحلة
جديدة مأساويّة المجابهة بين الإمبراطور والبابا، إلّا
أنّ الإمبراطور هذه المرّة لم يكن من دم ألمانيّ، بل
من دم لاتينيّ، وعرشه قائم على ضفّة نهر السين.

كان البابا بيّوس السادس جديرًا بأرفع احترام بالرغم من أخطائه، وأشدّ هذه الأخطاء خطرًا الحفيديّة التي بلغت ذروتها في حبريّته بتعيينه كردينالًا ابن أخيه رَمُوالْدُو أونِسْتي بْراسْكِي الذي بنى لنفسه قصر براسكي الفخم في ساحة نافُونا في رومة، في زمن تقنينات اقتصاديّة واجبة. وواحد من أكبر المشاريع التي نُفِّذت في عهد حبريّته استصلاح «مستنقعات البُونْتان» وتنقيتها، بالرغم من أنّ الشعب استفاد قليلًا من هذا المشروع لأنّ البابا وزّع الأراضي المستصلحة على أفراد عائلته. في هذه الفترة كان غوته موجودًا في رومة قبل انفجار الثورة، فوضع كتابه **رحلة في إيطاليا** وكان يقيم في المدينة الخالدة، كذلك الرسّامة الألمانيّة إنجيليكا كُوفْمان، والفيلسوف هِرِدِرْ، والأميرة آن-ماري دي ڤايْمارْ. ومن الانطباعات التي سجّلتها هذه الطليعة من الفنّانين والكتّاب الألمان، انبثق حبّ الرومنطيقيّين ممّا وراء نهر الران، في ما بعد لإيطاليا، ولمعالمها الهندسيّة الرائعة، وذكريات العهد القديم فيها، ومناظرها الطبيعيّة الفريدة. كان كانُوڤا وداڤِيْد يعملان في الوقت نفسه في رومة. وكانوڤا هو الذي بنى ضريح بيّوس السادس، بعد موت الحبر الشهيد.

٢٥٠ - بيّوس السابع (١٨٠٠-١٨٢٣)

كانت حالة الكنيسة مفجعة عند موت بيّوس السادس. فدويلات البابا في الشمال تحتلّها النمسا، وفي الجنوب، بما فيه رومة، تحتلّها جيوش نابولي. وفي نهاية أيلول/ سبتمبر ١٧٩٩، تمكّن الكرادلة من الاجتماع في البندقيّة بحماية إمبراطور النمسا فرنسوا

الثاني الذي كان قد استولى على أراضي الجمهوريّة القديمة بعد معاهدة كَمْپو فُورْمِيُو. وفي الواقع، فقد كانت إحدى نتائج الحروب النابوليونيّة زوال دولة البندقيّة التي ما عادت إلى إيطاليا إلّا بعد قرن من ذلك التاريخ.

إجتمع مجلس الكرادلة المؤلَّف من أربعة وثلاثين كردينالًا برئاسة كُونْسالْفِي في كنيسة القدّيس جاورجيوس الكبرى. وبعد شهور عدّة من المناقشات انتصر حزب «الغيارى» وانتخب بابا في ٢٧ آذار/ مارس ١٨٠٠ برنابا كِيارامُونْتِي، أسقف إيمُولا. فكان أن جلس على عرش بطرس أحد الأحبار الأكثر شجاعة والأوفر قداسة في تاريخ الكرسيّ المقدّس الطويل، وفي مرحلة صعبة من مراحل الكنيسة والمسيحيّة عمومًا. ومع هذا، فقد رفضت النمسا أن تعيد إلى البابا الأراضي التي تخصّه. وعلى عكس ذلك، فقد عرضت نابولي أن تعيد الدولة البابويّة، والهدف من ذلك إنشاء دولة تكون صمّامًا في وسط إيطاليا، يحمي الصقلّيّين من مطامع النمسا الواضحة بالاستيلاء على شبه الجزيرة الإيطاليّة كلّها. وقد أجاز الإمبراطور، على مضض، عودة البابا بيّوس السابع إلى رومة، لكن أرغمه على الإبحار من البندقيّة إلى أنْكُون في مركب قديم، ومنعه من اجتياز الأراضي الإيطاليّة خوفًا من أن ينادي به الشعب ملكًا شرعيًّا. وفي ١٤ حزيران/ يونيو ١٨٠٠، ولدى نزول البابا من المركب بعد سفر دام اثنَي عشر يومًا، وصل نبأ انتصار نابوليون على النمساويّين في مارَنْغُو. وفي ٣ تمّوز/ يوليو، دخل بيّوس السابع رومة فاستقبله الشعب استقبال الظافرين وكان قد أرهقه الاحتلال النابوليتانيّ.

وبموجب معاهدة فلورنسا (١٨٠١)، أعيدت إلى البابا الأراضي التي كان قد احتلّها النابوليتانيّون، فاستطاعت روما أن تتنفّس الصعداء بحرّيّة. أمّا المناطق الإيطاليّة في الشمال، فما تنازل عنها نابوليون أبدًا.

طرح عدّة مؤرّخين مسألة موقف نابوليون إزاء الدين. فعندما استولى على مصر، أعلن القنصل الأوّل [نابوليون] أنّه مسلم. وعندما صمّم لاحقًا على الاستيلاء على آسيا، أعلن نيّته بأن يتصرّف تصرّف بوذيّ صالح. وبعد انتصاره في مارِنْغو، ولدى عودته إلى فرنسا، مرّ في ڤِرْتَشيللي حيث صرّح للكردينال مارتينيانا بما يلي: «أريد إقامة الدين في فرنسا. وأودّ أن أمحو صورة الكنيسة الأنغليكانيّة». فواضح أنّ المصالح الشخصيّة لمَن يصير إمبراطورًا في ما بعد سيطرت على وجدانه دائمًا، وأنّ الدين بنظره ما كان إلّا وسيلة ليحتفظ بالسلطة ويُحكم سيطرته على رعاياه. ما كان يهمّه أن يصنَّف كاثوليكيًّا، أو بوذيًّا، أو مُسلمًا أو اتّباع هذا الطقس أو ذلك. وهذا ما يفسّر موقفه المخالف لأصول الاحترام تجاه البابا، سوء إرادته في موضوع الأراضي التي تخصّ الكنيسة. والواقع، أنّ نابوليون كان متمّمًا للثورة الفرنسيّة، كما صار ستالين في ما بعد مكمّلًا للثورة الروسيّة. إنّه طاغية، سيّد على أمّة متعصّبة لأفكار ١٧٨٩، وعلى جيش قويّ، ينفّذ سياسته الشخصيّة، ويستخدم كلّ شيء، بلدًا، وشعبًا، ودينًا، لتحقيق طموحاته الشخصيّة.

على إثْر إنذار وُجِّه إلى بيّوس السابع، وفي عقب زيارة باريس من قِبَل الكردينال كونْسالْڤي، أمين سرّ الدولة، وقّعت معاهدة بين فرنسا والڤاتيكان في ١٥

تمّوز/يوليو ١٨٠١، أُقِرّ فيها أنّ الديانة الكاثوليكيّة هي ديانة أكثريّة الشعب الفرنسيّ وديانة القناصل(٥٣). وقد تناولت عدّة موادّ من المعاهدة وضع الإكليريكيّين في فرنسا، وأموال الكنيسة، ومهمّة الدولة إزاءها. كانت الحكومة تُسمّي الأساقفة، ويقوم البابا بتنصيبهم وفقًا للشروط المقرّرة في فرنسا قبل الثورة. وقد فُرِضت في جميع كنائس فرنسا تلاوة الصلاة التالية في أثناء القدّاس الإلهيّ: «إحفظ، يا رب، الجمهوريّة؛ احفظ، يا ربّ، القناصل». وما لبثت هذه الصيغة أن أُبدِلت فصارت: «إحفظ، يا رب، الإمبراطور». وبالرغم من أنّ المعاهدة التي وُقّعت في باريس كانت تنطوي على شروط قاسية، فإنّها وطّدت بوضوح سلطة الكنيسة وسلطة البابا، وصارت نموذجًا للمعاهدات التي أقامتها مع الكنيسة لاحقًا الأنظمة الثوريّة التي غيّرت وجه العالم والتي اعترفت لاحقًا، كما اعترف نابوليون بضرورة الدين وبأوّليّة الحبر الأعظم. لم يقبل الفلاسفة، أصدقاء الثورة، هذه المعاهدة بطيبة خاطر، لكنّ نابوليون كان على حقّ عندما قال: «إنّ الفلاسفة سيضحكون، لكنّ فرنسا ستباركني».

في ١٨٠٢، ظهر كتاب **عبقريّة المسيحيّة**، أهمّ أعمال شاتُوبْريان وأشهرها، ففتح بنفحة من روح الأزمنة الحديثة، سبق الرومنسيّة، طورًا جديدًا في تاريخ الثقافة الأوروبيّة. والملاحظ أنّ قسمًا كبيرًا من المدرسة الرومنسيّة كان مسيحيًّا، وسيوجّه

---

(٥٣) القناصل هنا بمعنى أعضاء المجلس الرئاسيّ الفرنسيّ الذي كان يتألّف من ثلاثة أعضاء يسمّى كلّ منهم قنصلًا، وكان أحدهم نابوليون الذي صار قنصلًا أوّل، ثمّ استقلّ بالسلطة فاتّخذ لقب إمبراطور.

جماعته، بعد تجاوزات الثورة، أنظارهم إلى المسيح في عالم متعطّش أكثر فأكثر إلى الحبّ والتفهّم. وجميع الحركات الإصلاحيّة في القرن التاسع عشر، الاجتماعيّة منها والسياسيّة، بما فيها الماركسيّة، حملت ختم العقيدة المسيحيّة الثوريّ الحقيقيّ.

في ١٨٠٢ عيّن نابوليون قنصلًا مدى الحياة، إلّا أنّه بعد ذلك بقليل حلم بإمبراطوريّة شارلمان وبمشروعه المثاليّ في توحيد أوروبّا، فأراد أن يكون إمبراطورًا. ومَثَلُه مَثَل كُولا دي رِينْزُو، فإنّ ذكرى الإمبراطوريّة الرومانيّة الأسطوريّة هي التي دفعته، في الحقيقة، إلى أن يخطو الخطوة الكبرى إلى السلطة العليا وإلى خسرانها. وبما أنّ الإمبراطوريّة لا يمكن إلّا أن تكون واحدة فقد ألغى نابوليون، في ١٨٠٦، الإمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة، واضطرّ آل هابْسْبُورْغ إلى أن يكتفوا بلقب إمبراطور. ولم تُثِر فكرة تتويج نابوليون إمبراطورًا على الفرنسيّين حماسة الجيش ولا حماسة الوزراء؛ غير أنّ الطاغية فرض إرادته، ووافق البابا على الاقتراح بذهابه إلى باريس ليتوّج السلطان الجديد. وفي الأوّل من كانون الأوّل/ ديسمبر ١٨٠٤، بارك السفير البابويّ زواج نابوليون وجوزفين اللذين كانا متزوّجَين مدنيًّا فقط، ولم يحضر حفلة الإكليل أيّ كاهن آخر أو شاهد. وكان نابوليون يفكّر في الطلاق ويُعدّ الحجج للحصول على إعلان بطلان زواجه الأوّل. في ٢ كانون الأوّل/ديسمبر، ووسط فخفخة باهرة واحتفال إمبراطوريّ حقيقيّ، دخل نابوليون كاتدرائيّة نُوتِرْدام، يتقدّم تاج شارلمان، وصولجانه، وسيفه. مسحَ البابا المليكين، إلّا أنّه حين استعدّ ليضع التاج على رأس نابوليون، انتزعه هذا من

يديه، وخلافًا للمراسم المقرّرة مسبقًا، توّج رأسه ثمّ توّج رأس جوزفين. وكان لهذه الحركة قوّة الرمز. فالإمبراطور ما كان يقرّ بأيّ سلطان في العالم، ولو روحيًّا، يسمو على سلطانه.

وما لبث أن انفجر صراع جديد بين الكنيسة والإمبراطوريّة بالرغم من الوعود التي أغدقها نابوليون. ففي ٢٦ أيّار/مايو ١٨٠٥، بعد عودة بيّوس السابع إلى رومة بقليل، تتوّج الإمبراطور، في ميلانو، ملكًا على إيطاليا، مثله مثل مَن كان معتادًا، هو، أن يدعوه «سَلَفي»، أي شارلمان. لم يحفل بما نصّت عليه المعاهدة بينه وبين الفاتيكان، فأدخل إيطاليا القانون المدنيّ الذي يسمح بالطلاق، وعيّن عدّة أساقفة رفض البابا أن يعترف بهم. إحتلّت البحريّة الفرنسيّة مرفأ أَنْكُونْ الذي كان يخصّ الدولة البابويّة. في السنة نفسها، هزم الإنكليز نابوليون في تْرافَلْغاز؛ وبدأ صراع جديد في العالم بين البرّ والبحر. وابتداء من تلك اللحظة صار همّ نابوليون الأكبر أن يجنّد جيوشًا في كلّ الأراضي التي يحتلّها ليستطيع محاربة الأعداء الكثيرين الذين يحيطون به. وجنّد متطوّعين حتّى في إيطاليا، لكنّ البابا عارض هذا التصرّف. أمّا الإمبراطور فما تراجع عن سياسته مبرهنًا أكثر فأكثر أنّه يعتبر البابا مجرّد تابع، فقد كتب له: «قداستك سيّد في رومة، لكن أنا هو الإمبراطور». فأجابه البابا: «لقد تمّ اختيارك، وتكريسك، وتتويجك، والاعتراف بك إمبراطورًا للفرنسيّين، وليس في رومة». وفيما كان سلطان البابوات الزمنيّ في أدنى درجة من الانحطاط، وبيّوس السابع يجد نفسه محاطًا بالجيوش الفرنسيّة في أوج عظمة نابوليون، فقد كان هذا البابا الشخص

الوحيد في أوروبّا الذي تجرّأ على مجابهة الطاغية.

في ١٨٠٧، احتلّ الفرنسيّون عددًا من الأراضي التابعة للبابا ومنها أنكون، فِرمُو، أوربينُو إلخ. وفي ١٨٠٨، احتلّ الجنرال مِيُولِّيس رومة، فانسحب بيّوس السابع إلى الكُويرِينال ورفض أن يهرب إلى نابولي. في ١٨٠٩، ضمّ الفرنسيّون أراضي الكنيسة وأُعلنت رومة «مدينة حرّة وإمبراطوريّة». فما بقي من ثمّ للبابا إلّا قصره وخُصِّص له دخلٌ سنويٌّ مقداره مليونا فرنك. وقد طبّق هذا القرار الإمبراطوريّ في ١٠ حزيران/يونيو ١٨٠٩. وفي الليلة التالية ظهرت على جدران المدينة الخالدة كتابات بالإيطاليّة، وأطلق بيّوس السابع براءته **كم يجب أن يذكر** *(Quam memorandum)* التي يحرم بها كلَّ مَن يرتكبون أعمال عنف بحقّ الكنيسة. لم يذكر اسم نابوليون صراحةً إلّا أنّ نيّة البابا كانت واضحة. فأصدر الإمبراطور أمره من ڤيينّا، حيث كان، بالقبض على البابا. وفي ليلة ٥ تمّوز/يوليو ١٨٠٩، دخل جنود بإمرة الجنرال راديه قصر الكويرينال وعرضوا على البابا وثيقة تلزمه بأن يرفع الحرم، فكان جواب البابا: «لا نستطيع، لا ينبغي لنا، لا نريد». وبعد أن بارك بيّوس السابع المدينة الخالدة، اقتيد في عربة إلى ساڤونا بالقرب من جنوى حيث بقي حتّى سنة ١٨١٢. واعتقل الكردينال پاكّا، أمين سرّ الدولة في قلعة فِنِيستْرِيللي، بالقرب من تورينو. وفي هذه العزلة ارتفع تقدير مقام الحبر الرومانيّ. لقد رفض مرارًا عديدة أن ينقل إلى باريس كرسيّ بطرس مقابل حرّيّته. وفي هذه الفترة، كانت السنين تمرّ ومجد الإمبراطور يتلاشى.

في مطلع السنة ١٨١٠، ارتكب الإمبراطور خطأً

جديدًا تجاه عقيدة الكنيسة وشرائعها التي كان قد التزم باحترامها. فقد طلب الطلاق من زواجه الأوّل بالاستناد إلى عيوب في الشكل كان قد أعدّها، هو نفسه. في الواقع، كان الإمبراطور يريد خليفة له، وما كانت جوزفين قادرة على إعطائه إيّاه. ففي الأوّل من نيسان/أبريل ١٨١٠، احتُفِل في باريس بزواج نابوليون وماري لويز النمساويّة. رفض ثلاثة عشر كردينالًا من ستّة وعشرين حضور الاحتفال احتجاجًا، وتمّ الزواج من دون أن يُستشار البابا مسبقًا. فوجّهت الدعوة إلى عقد مجمع وطنيّ غايته نزع آخر صلاحيّات للبابا، إلّا أنّ مقاومة الحبر الأعظم الذي كان يهيمن بروحه من منفاه في ساڤونا على المجمع المنعقد بعيدًا عنه، وسلوك العديد من الأساقفة أحبطت الاجتماعات والمحاولات بالرغم من تهديدات نابوليون. وفي ١٧ أيّار/مايو ١٨١٢، وفيما كان الإمبراطور يعدّ العدّة للحملة على روسيا، أمر بنقل البابا من ساڤونا إلى فُونْتِينْبْلُو. فنُقِل البابا وهو في حالة احتضار تقريبًا عبر جبال الألب (وقد مُسِح ذات يوم المسحة الأخيرة)، واضطرّ إلى أن يلازم الفراش عدّة شهور قبل أن يستعيد عافيته. وفي ١٩ كانون الثاني/يناير ١٨١٣، زاره نابوليون، ودامت اللقاءات خمسة أيّام على ما يروي ألفرد دي ڤِينْيي في كتابه **عبوديّةٌ وعظمةٌ عسكريّتان**. عامل نابوليون البابا معاملة حسنة لأنّه لم يَعُد بعد قاهر أوروبّا وسيّدها. بل توصّل إلى أن يحصل على توقيعه على معاهدة جديدة عُرِفت بمعاهدة فونتينبلو، وفيها يُقِرّ البابا بحقّ الإمبراطور في تسمية أساقفة في جميع أنحاء الإمبراطوريّة ما عدا بعض الحالات الاستثنائيّة. وبعد بضعة أيّام تراجع البابا بيّوس

السابع عن هذه التنازلات في رسالة أتبعها بمنشور بابويّ.

هُزِم نابوليون في لايبزيغ فدخل الخلفاء فرنسا. وفي فونتينبلو بالذات، حيث كان قد أراد إخضاع السلطة الروحيّة له إخضاعًا تامًّا، وقّع الإمبراطور تنازله عن العرش، في حين كان مجلس الشيوخ يعلن لويس الثامن عشر ملكًا على فرنسا. وقبل أيّام قليلة كان الإمبراطور قد سمح للبابا بالعودة إلى رومة وردّ إلى الكنيسة العديد من أراضيها. ويوم وصل الحبر الأعظم إلى بولونيا (٣١ آذار/مارس ١٨١٤)، كان الحلفاء يدخلون باريس. وفي ٢٤ أيّار/مايو كان بيّوس السابع يدخل رومة منتصرًا. أصدر مرسومًا بالعفو عن جميع الذين كانوا قد خانوه، وخصوصًا العائلات الأرستقراطيّة التي تعاونت مع الإمبراطور. فآل بُورْغيزي، ووالدة الإمبراطور، السيّدة لِيتِيسيا، والكردينال فِيش (Fesch) حصلوا على إذن بالإقامة في رومة. وبعد هزيمة نابوليون الثانية وفترة المئة يوم، تدخّل البابا لدى الحكومة الإنكليزيّة لصالح أسير جزيرة القدّيسة هيلانة. توفّي نابوليون في ٥ أيّار/مايو ١٨٢١، وتوفّي البابا في ٢٤ آب/أغسطس ١٨٢٣. وفي هذه الأثناء كان مؤتمر ڤيينّا قد أضفى مظهرًا جديدًا على أوروبّا.

نقش ضريح البابا الدنماركيّ تُورْوالدْسِن. ورسم صورته كلٌّ من جاك-لويس داڤيد وتوماس لاوْرَنْس. وقبل موت البابا ببضعة أيّام اندلع حريق فهدم باسيليكا القدّيس بولس على طريق أوسْتِيا.

٢٥١ - لاون الثاني عشر (١٨٢٣-١٨٢٩)

في الحقبة التي عقبت سلام ڤيينّا، استطاع بيّوس السابع أن يعيد تنظيم دويلاته ويوقّع معاهدات مع إنكلترا، وفرنسا، وباڤاريا إلخ... إلّا أنّ إعادة الأمراء إلى مقاطعاتهم في شبه الجزيرة، والبؤس والجوع اللذين اجتاحا الدويلات البابويّة ومملكة نابولي عدّة سنوات بعد ١٨١٤، أحدثت استياء عميقًا، خصوصًا لدى الذين كانوا قد تعاونوا مع الفرنسيّين وتأثّروا بأفكار الثورة. ورغبة من عامّة الشعب الإيطاليّ، وبنوع خاصّ من البورجوازيّة، في حماية أنفسهم من نظام الأمراء وسلطتهم المطلقة، فقد نظّموا جمعيّات أخويّة سياسيّة، وأنشأوا حركة انتشرت سريعًا في إيطاليا كلّها. شجّع الـ الكَرْبونـاري (Carbonari) والـغِـلْـفْ (Guelfes) الاعتداءات بدعم من الماسونيّة، وعقدوا اجتماعات سرّيّة، وتآمروا لإسقاط الطغاة. وكان الكردينال كونسالْڤِي قد اتّخذ تدابير قاسية ضدّ هذه الفئات، إلّا أنّ عدد أنصارها ما كان ينفكّ يزداد، وجميع الشبّان تقريبًا كانوا يحلمون بأفكار الكربوناريّة.

وهذه الحركة المعادية للكاثوليكيّة عمومًا، والتي كانت تقابلها نشاطات المحافل السرّيّة في بلدان أخرى أوروبّيّة، جابهتها بنجاح كبير النهضة الكاثوليكيّة بأشكالها المختلفة. فقد أعيد تكوين مدرسة نشر الإيمان، وسمح بيّوس السابع لليسوعيّين بالعودة في ١٨١٤، وكانت الرسالات ناشطة في جميع القارّات. وبين سنتي ١٨٠٢ و١٨٢١ نشر شاتوبريان، وجوزف دي مِيسْتِر، ولويس دي بونالْد أشهر مؤلّفاتهم التي تنطوي على دفاع حماسيّ عن الإيمان وعن الكنيسة. وكان جوزف دي ميستر،

بنوع خاصّ، قد نشر كتابه المشهور وعنونه: **البابا**.

وكانت ألمانيا تعيش في خضمّ الحركة الرومنسيّة بروح لا يميل عمومًا إلى المسيحيّة وحسب، بل إلى العودة إلى حضن الكنيسة. وتعاطف الكتّاب والفنّانين الألمان مع الإبداعات الجماليّة الإيطاليّة، ومع عمل الباباوات أضفى طابعًا خاصًّا على أعمالهم. لقد بدأ القرن الجديد مسيرته في ظلّ علامة مسيحيّة بعد عقود من الاضطهادات بدأتها الثورة وأعدّها فلاسفة القرن الثامن عشر. ففي **مذكّرات من وراء القبر** التي نُشِرت سنة ١٨٤٨، كتب شاتُوبريان: «إنّ المسيحيّة هي فكر المستقبل وفكر الحرّيّة الإنسانيّة».

تميّزت جلسات المجمع عقب وفاة بيّوس السابع بالصراع بين الغيارى، أي الكرادلة الحريصين على صيانة استقلال الكنيسة تجاه الأمراء مهما كان الثمن، وحزب التيجان الذي كان يمثّل نزعة أقلّ تصلّبًا في وجه تدخّل الملوك الأوروبيّين. وبعد جلسات عديدة ودورات اقتراع من دون نتيجة، انتُخِب الكردينال أنيبال دللا جِينغا بابا. في ١٨٢٤، نشر **الرسالة العامّة**، بتاريخ ٢٣ أيّار/مايو، بموضوع اللامبالاة الدينيّة، **والبراءة** بموضوع اليوبيل بتاريخ ٢٧ أيّار/مايو ١٨٢٥. والرسالة العامّة وثيقة مهمّة، لأنّها تعلن رسائل عامّة أخرى أطلقها باباوات لاحقون في المستقبل ضدّ الليبراليّة. وأشدّ هجوماته عنفًا كانت موجّهة ضدّ الماسونيّة التي تُعتَبر سبب اللامبالاة العصريّة إزاء الدين. أمّا يوبيل ١٨٢٥، الذي شنّ عليه أعداء الكنيسة جميعًا هجماتهم، فكان انتصارًا حقيقيًّا، وبرهنت رومة للعالم أنّ الثورات والهزائم إنّما رفعت من مكانتها.

كان المسيحيّة في جميع البلدان تثير صراعات، وجدالات، ومناظرات، ودفاعات حامية. ففي فرنسا استنفر كتاب لامِينّه **محاولة في اللامبالاة** كما استنفرت كتابات ميستر النفوس المسيحيّة الحقيقيّة على خطر الغاليكانيّة وخطر اللامبالاة الدينيّة. وفي ألمانيا، نشر جان - آدم مُوهْلِر كتابًا في وحدة الكنيسة، وهو يعتبر الوحدة المبدأ الوحيد الذي يحيي المجتمع المسيحيّ، في حين كان فريق من الكتّاب الشبّان والمفكّرين، في مونيخ، وعلى رأسهم برنتانو، وشلِينْغ، وغُورِيس، يقف ضدّ حلوليّة هِيغِل. وفي إيرلندا، دافع دانيال أوكونيل عن استقلال الكنيسة؛ وفي إنكلترا نفسها، كانت حركة أوكسفُورْد تمهّد الطريق لانبعاث كاثوليكيّ ولارتداد نيومان، الكردينال فيما بعد. وفي بلجيكا، وهي جزء من مملكة الأراضي المنخفضة التي يحكمها غليوم الأوّل، الملك الپروتستانتيّ، كان التذمّر عامًّا، وإنّما انتفض البلجيكيّون بسبب الدين في ١٨٣٠ وانفصلوا عن هولَنْدا لينشئوا مملكتهم الخاصّة. وفي بولونيا، انتفض الشعب على الطغيان الروسيّ في ١٨٣٠ أيضًا، إلّا أنّ القوزاق سحقوا الانتفاضة وعاد «النظام يسود فَرْصُوفِيا». وحصلت مشاهد مماثلة بسبب طرائق التدمير نفسها لغايات أمبرياليّة حصلت سنة ١٩٤٤ عندما قاست فرصوفيا ثانية الاستشهاد على أيدي خلفاء القياصرة وورثة حكمهم الاستبداديّ. وتدهورت علاقات رومة بإسبانيا لأنّ البابا، منذ استقلال البلدان الأميركيّة، كان يعيّن الأساقفة من دون أن يستشير البلاط في مدريد.

أمّا في الداخل، فكانت الدويلات الباباويّة فريسة

الاستياء والقمع. فأحد نوّاب البابا بنوع خاص، عاقب بشدّة مخالفات الشريعة. وأخضع اليهود إلى محاكم التفتيش. غير أنّ كثيرين منهم، وقد أرعبتهم التدابير المتّخذة بحقّهم، غادروا المدينة الخالدة. وألصقت قصائد تهكّميّة عديدة في أثناء الليل على تمثال پاشكينّو، الرمز الشعبيّ لعدم توافق الرومانيّين مع الحالة.

لم يكن لاون الثاني عشر بابا محبوبًا رغم إعلانه اليوبيل، ورغم الموقف الحازم الذي اتّخذه بوجه الملوك. لقد كان بابا «التحالف المقدّس» الذي أنشئ في ڤيينّا، وهدفه مساعدة الأمراء وإهمال حقوق الشعوب. لكن رغم أخطائه، ففضله الكبير أنّه استطاع أن يتفهّم حركة التجدّد الروحيّ في الحياة الكاثوليكيّة ويساعدها.

٢٥٢ - پيّوس الثامن (١٨٢٩-١٨٣٠)

فرنسوا - كزاڤيه كاستيليوني، أسقف مونتالتو، كان نابوليون قد سجنه في پاڤيا ومانتوا. عيّنه پيّوس السابع كردينالاً في ١٨١٦. نشر رسالة عامّة مسلمون متواضعون (*Traditi humilitati*) شجب فيها اللامبالاة الدينيّة ونشاطات الجمعيّات السرّيّة.

كانت سنة ١٨٣٠ مهمّة في التاريخ الأوروبّيّ، والبابا الذي وعى الأمر حضن مطالب الشعوب المقهورة في الإمبراطوريّات القائمة آنذاك: روسيا، والنمسا، وتركيا، تلك الشعوب التي كانت تطمح إلى الحرّيّة. إنتفضت بلجيكا للحصول على استقلالها، فساعدتها الكنيسة من دون شرط. ففيها قامت الثورة بمساعدة الكهنة والكاثوليك، وبرهن انتصار المتقفين للعالم أجمع أنّ القوى الأكثر

تقدّمًا يمكن أن تتحالف مع المؤسّسات الدينيّة لإنشاء دولة عصريّة حقًّا لا تتعارض فيها الليبراليّة مع الكثلكة. وصارت بلجيكا نموذجًا دستوريًّا حقيقيًّا لملكيّات جديدة كثيرة وُلدت في أوروبّا الوسطى والشرقيّة. كما صارت نموذجًا من نوع آخر للأمم من حيث إنّها وجدت صيغة لتعايش السياسة والدين.

كانت الشعوب الأوروبّيّة تعيش تحت وطأة الأنظمة التي خلقتها معاهدة ڤيينّا في ١٨١٤، تلك المعاهدة التي فرضتها القوى الرجعيّة. وفي ١٨٣٠، بدأت في فرنسا وإيطاليا خاصّة، الحركة التي محت ظلال ١٨١٤. على أنّ الهمّ الوحيد الذي أقلق حبريّة پيّوس الثامن، كان مشكلة الكاثوليكيّة الليبراليّة التي نادى بها لامينّه ودافع عنها وغايته من ذلك استخدام الحرّيّة لنشر الكثلكة في العالم وتحويل فرنسا مركزها الفكريّ، تاركًا لرومة أمر الاهتمام بالحفاظ على العقائد. وقد شجب غريغوريوس السادس عشر في ١٨٣٢ الكاثوليكيّة الليبراليّة.

وعانت بلدان أخرى مشاكل مماثلة ناتجة من الثورة التي انفجرت في باريس، ووضعت حدًّا لحكم شارل العاشر، ولكلّ المساوئ التي نجمت عن «إعادة الملكيّة» نتيجةً لسلام ڤيينّا. فإيطاليا كانت تتحرّك لتزيح نير الغرباء وتحقّق الوحدة التي تطمح إليها. إلّا أنّ الجمعيّات السرّيّة، للأسف، ما كانت تفصل مطمحها المثاليّ عن رغبتها في إفناء الكنيسة، ذلك أنّ الدولة البابويّة كانت تشكّل عائقًا في طريق الوحدة. وهذا ما يفسّر الكفاح المتصلّب القاسي الذي قاده الكَرْبُوناري (Carbonari) والماسونيّة ضدّ البابا والكنيسة، لأنّ سلطانها الزمنيّ يتعارض مع تحقيق مثالهما القوميّ.

منذ عهد الإصلاح المضادّ، حصل تغيّر ملحوظ في الكنيسة. فالباباوات كانوا مثالًا يحتذى في خلقيّتهم، والحفيديّة زالت من الوجود، وسياسة نابوليون جعلت من الأحبار الأعظمين شهداء جددًا للإيمان. وبدأت حقيقةٌ جديدة تسطع على العالم وهي أنّ المُثُل العليا التي علّمها المسيح يمكن أن تصلُحَ أساسًا للمجتمع الحديث، وأن تشكّل فلسفة وهدفًا اجتماعيًّا يتوافق توافقًا تامًّا مع مطامح البشر. وفضل الباباوات الذين جاؤوا لاحقًا، خصوصًا لاون الثالث عشر، أنّهم صاغوا التعليم الاجتماعيّ للمسيحيّة، وأيّدوا الحركات التي ظهرت شيئًا فشيئًا في جميع البلدان الغربيّة.

في ١٨٣٠، ظهر في باريس كتاب لامارتين **التناغمات الشعريّة والدينيّة**، وهو بيان حقيقيّ للرومنسيّة الشعريّة جعل من صاحبه أشهر شاعر في عصره. وفي ١٨٣١ ظهرت **أوراق الخريف** لڤيكتور هوغو. وكان ستاندال نشر في ١٨٣٠ **الأحمر والأسود**، كما أنّ ڤكتور هوغو كان قد عرض في السنة نفسها **هرناني**، وكتب **نُوتردام دي باريس** الذي يعتبر الذروة في الرومنسيّة. وكانت جورج صاند تبدأ سلسلة رواياتها. في حين كان ألفرد دي ڤيني وألفرد دي مُوسّيه يعدّان أو يطبعان بواكير قصائدهما. وكان إرث شاتوبريان غنيًّا، رائعًا. فالسنة ١٨٣٠، التي تواءَم فيها الثورة السياسيّة والأدب سجّلت مطلع نهضة فرنسيّة جديدة، فصارت فرنسا المركز الثقافيّ للروحانيّة الأوروبيّة، ومركز الحرّيّات والمطالب الاجتماعيّة. والتغيّر المهمّ الذي حصل منذ ثورة ١٧٨٩ ازداد أهمّيّة في مجرى القرن التاسع عشر، بل ظلَّ يهيمن على القرن العشرين. فالنزاعات لم

تعد مجالاتها في داخل عالم مسيحيّ، موحّد العقيدة والإيمان. فالقرن التاسع عشر كان يعاني نوعًا آخر من النزاع: إنّه تنازع بين المسيحيّة، أو بالأحرى الكنيسة، وقوى خارجيّة تتعارض مُثُلها تعارضًا تامًّا مع مُثُل الكنيسة. في العصر الوسيط، كان الإمبراطور والبابا ينتميان إلى المؤسّسة نفسها، كانا مسيحيّين يحلمان باستعادة الأراضي المقدّسة، ويعتبران رومة مركز العالم. فردريك الثاني، الإمبراطور الصقلّيّ، ولويس الرابع عشر، ملك فرنسا، السلطانان المقتنعان بصفتهما الإلهيّة، كانا مسيحيّين ومرتبطين، أقلّه روحيًّا، بوحدة مركزها رومة. أمّا القرن التاسع عشر، واستنادًا إلى التقليد العلمانيّ المرتكز على الثورة الفرنسيّة، فقد قطع التقليد. فالكنيسة والعالم العلمانيّ شكّلا حقلَيْن مميَّزين الواحد عن الآخر، بل معتقدَيْن متناقضَيْن يحاول كلٌّ منهما السيطرة على الآخر. وكانت ثورة ١٩١٧ الروسيّة ذروة هذا التطوّر المستقطب، وجهدت لتجعل من الشيوعيّة كنيسة جامعة جديدة، مركزًا لجميع النزعات المضادّة للمسيحيّة التي نشأت في عصر الأنوار. ورأت أوروبّا والعالم الغربيّ اندلاع حرب مدنيّة فكريّة (إيديولوجيّة) ودينيّة لمّا تصل بعد إلى نهايتها.

توفّي بيّوس الثامن الشيخ المريض بعد أن بقي حبرًا أعظم عشرين شهرًا. كانت تحثّه دائمًا في حياته روحٌ عالية همّها العدل والاستقامة الخلقيّة.

٢٥٣ - غريغوريوس السادس عشر (١٨٣١-١٨٤٦)

هو برتلماوس ألبِرتو كاپلّاري، نائب عامّ رهبانيّة

الكَمَلْدُول (Camaldules) التي أسّسها القدّيس رُومُوالْدُو في القرن الحادي عشر. تمّ انتخابه في وقت كانت إيطاليا تعاني فيه اضطرابًا من ثورة تتهدّدها، وفيما أوروبّا تتهدّدها حرب جديدة. فقد كانت فرنسا تحاول التفاهم مع إنكلترا لمواجهة كتلة الدول ذات نظام الحكم المطلق، أي بروسيا، والنمسا، وروسيا. كان هناك تيّاران يتصادمان: التيّار الليبراليّ الذي كان ملك فرنسا يناضل فيه؛ وتيّار الحكم المطلق الذي كان على البابا الجديد أن ينضمّ إليه حتمًا. وفي إيطاليا، كان التيّاران يتجابهان بأشدّ ضراوة منهما في بلد آخر، لأنّ هدف الليبراليّين (الكاربُوناري، والماسُون، والبوناپرْتيّين إلخ...) كان القضاء على سلطة البابا الزمنيّة، في حين كان الڤاتيكان يدافع، على قدر استطاعته، عن أراضيه التي ألهبتها نيران التمرّد. كان لويس نابوليون بونابرت، ابن أخي نابوليون الأوّل، وابن ملك هولندا إبّان الفترة النابوليونيّة، في إيطاليا، مثله مثل أخيه، شارل لويس، يشترك في المعارك إلى جانب الكاربوناري، لإرغام البابا على التنازل عن سلطانه الزمنيّ. إنفجرت الثورة في مودينا العام ١٨٣٠، وفي بولونيا العام ١٨٣١. إستدعى غريغوريوس السادس عشر النمساويّين فدخلوا بولونيا وقضوا على التمرّد. وتمّت الدعوة إلى مؤتمر يُعقد في رومة وتشترك فيه فرنسا، والنمسا، وبروسيا، وإنكلترا، وروسيا بغية وضع الأسس لإصلاح إداريّ وسياسيّ في الدويلات البابويّة، فاتُّخِذت بعض قرارات في هذا الموضوع، خصوصًا في المجالَيْن القضائيّ والإداريّ، إلّا أنّ السكّان في بولونيا وبعض المناطق الشماليّة لم يرضوا عن الأمر،

فانتفضوا وبدأوا النضال بوجه الكتائب السويسريّة التي جنّدها البابا حديثًا. فدخل النمساويّون بولونيا مرّة ثانية، فيما كانت المراكب الحربيّة الفرنسيّة تحتلّ مرفأ أنكون. فاستتبّ النظام بفضل البنادق النمساويّة، والفرنسيّة، والسويسريّة. فكان من المحتّم هذه المرّة إجراء إصلاح حقيقيّ من وحي مبادئ هذه المرحلة، ومن وحي رغبات الشعب وتطلّعاته. أمّا البابا، بتأثير من مترنيخ، فكان يشعر بنفور من كلّ ما يستذكر نظامًا دستوريًّا. لكنّ سياسة الأب الأقدس سارت في اتّجاه جديد منذ ١٨٣٦، عندما عهد غريغوريوس بأمانة سرّ الدولة إلى الكردينال لامبْرُوسكيني، وما كان من مؤيّدي الإصلاحات، بل ميّالًا إلى الاعتماد على النظام النمساويّ المطلق. فالباباويّة كانت تهدّد باتّخاذ موقف مؤيّد للأنظمة المطلقة ضدّ إرادة الشعوب، وبدت ميّالة إلى هذا الموقف سنة ١٨٣٢، عندما وجّه البابا، بإيحاء من لامبروسكيني، إلى الإكليرُس البولونيّ رسالة عامّة يذكّر فيها المتمرّدين بالعقيدة الكاثوليكيّة في موضوع الخضوع للسلطات القائمة شرعًا، ويندّد بالعصاة الذين هاجموا الحكّام. كانت نتيجة هذه الرسالة مؤلمة في بولونيا مثلها في العالم المتمدّن كلّه. فالثائرون البولونيّون كانوا قد انتفضوا على الطغيان الروسيّ، والأمراء الذين كان البابا يدافع عنهم كانوا جلّادين يُغرقون في الدم طموحات شعب بطل ذنبُه الوحيد نضالُه من أجل الحرّيّة. وأدرك غريغوريوس السادس عشر خطأه، وفي ١٨٤٢ أعلن تأييده الأمّة البولونيّة الشجاعة في رسالة أحدثت تأثيرًا عميقًا في أوروبّا. وبعد ثلاث سنوات، استغلّ فرصة زيارة القيصر نقولا الأوّل

روما فأفصح للطاغية الشابّ عن رأيه بالأحداث في
بولونيا، وقدّم إليه تقريرًا مفصّلًا عن الفظائع التي
يرتكبها الروس في هذا البلد. فغادر القيصر
الفاتيكان مضطربًا، ذليلًا. لقد كان ينتظر استقبالًا
مختلفًا.

وكان الوضع في إيطاليا يزداد خطورة. ففي
١٨٣١، ما إنْ خرج الشابّ جيُوزيّي ماتزيني من
سجن جنوى، حتّى أسّس في مرسيليا حيث التجأ،
منظّمة دعاها «إيطاليا الفتاة». وفي ١٨٣٤ عاد إلى
جنوى فأنشأ فيها «أوروبّا الفتاة». وغاية هاتين
المنظّمتين اللتين كان يدعمهما الكاربوناري
والماسونيّة، إنّما كان تشكيل «منظّمة شعوب دوليّة»
مناهضة لـ«مجموعة الملوك والحكّام الدوليّة».
فالحكومات المطلقة آنذاك القائمة في إسطمبول،
وسان بطرسبورغ، وفيينّا، وبرلين كانت تحتلّ
أراضي لا تخصّها. وكانت شعوب بكاملها
كالرومان، والصرب، والكرواتيّين، والبلغار،
والبولونيّين، والتشيكيّين، والسلوفاكيّين، والإيطاليّين
يعانون من الطغيان الأجنبيّ. وكان على هذه
الشعوب جميعًا، برأي ماتزيني، أن تعي كرامتها،
وحقّها، وحرّيّتها لتشكّل تحالفًا سرّيًّا غايته القضاء
على الطغاة. وحتّى تكون الانتفاضة فعّالة، يجب أن
تكون دوليّة. وعدوّ الشعب في إيطاليا، برأي
ماتزيني، كان الكنيسة، وكان بالتالي يحلم بالقضاء
عليها إلى الأبد، باسم ما كان يدعوه «الوحي
الدائم». فالله هو الشعب.

على أنّ الانتفاضات التي نشبت بناء على حضّ
ماتزيني المباشر فشلت، وأعدم الأمراءُ الذين
يدعمهم النمساويّون والبابا المتمرّدين رميًا

بالرصاص. فكان واجبًا تجربة خطّة أخرى. فعرض
فينشنتي جيُوبرتي، من تورينو، على الإيطاليّين نهجًا
جديدًا للحصول على الحرّيّة. فكان رأيه أنّ على
الوطنيّين أن يتجمّعوا حول الكنيسة. وفي كتاب
عنوانه **عبقريّة الإيطاليّين الخُلُقيّة والمدنيّة** (١٨٤٣)،
يشيد الكاهن التورينيّ بالعبقريّة الإيطاليّة التي أبدعت
الحضارة، كما يشيد بالبابويّة في الوقت نفسه،
ورسالتها أن تنشئ اتّحادًا إيطاليًّا يهدف إلى إدارة
العالم الجديد. وقد تجمّع حول هذه الفكرة، الأقلّ
تطرّفًا والأدنى خطورة من فكرة ماتزيني مَن كانوا
يوصفون بالغُلْف العصريّين (Néoguelfes). وبدأ
انبعاث الإيطاليّين يرتسم وفقًا لهذه المبادئ التي
صاغها جيوبرتي. فهاجمها اليسوعيّون حالًا وأثاروا
مناظرة ردّ جيوبرتي عليها بكتابه **اليسوعيّ العصريّ**
(١٨٤٨).

ورأى آخرون أنّ رئيس الاتّحاد الإيطاليّ الجديد
يجب أن يكون ملك سردينيا، شارل ألبر، لأنّه كان
الأمير الإيطاليّ الوحيد الذي يملك جيشًا قويًّا.
وكان قيصر بالْبُو، صاحب هذه الخطّة، الوحيد
الذي نجح، لأنّ إيطاليا لاحقًا، كسبت الشكل الذي
كان قد تنبّأ عنه في كتابه **آمال إيطاليا**، الذي نشر في
باريس العام ١٨٤٤. وهناك تيّارات أخرى كانت
تعترف للبابا أو تُنكر عليه الحقّ في الوجود، وتثير
في وجه الفاتيكان مشاكل صعبة الحلّ. من هذه
التيّارات: ليبراليّة كافُور المانْشِستريّة، الكاثوليكيّة
الليبراليّة المستوحاة من لامِينّه، لاكُورْدير
ومونتالامبير، «الجيبلينيّة» التي نادى بها دُورانْدُو
وأعلن ضرورة تقسيم إيطاليا ثلاثة أقسام: الشمال
للنمساويّين، الجنوب للبُورْبُون، ووسط إيطاليا

للبابا. ومن حضن الكنيسة نفسها، نهض رُوسْمِيني ليكشف «جراحات الكنيسة الخمسة» (١٨٣٢) وهي: الهوّة التي تفصل الإكليروس عن الشعب، وجهل الكهنة، وتفكّك وحدة الأساقفة، وتدخّل السلطة المدنيّة بتعيين الأساقفة، ووصايتها الطاغية على أموال الكنيسة. فبصوته، كما بصوت مانْزوني، مؤلّف الرواية الأوسع انتشارًا في إيطاليا في القرن التاسع عشر: **الخطيبان**، (وقد ظهرت طبعتها النهائيّة في ١٨٤٠-١٨٤٢)، أطلقَتْ فكرة جديدة وهي أنّ الكاثوليك أيضًا يرغبون في استقلال إيطاليا.

في أثناء هذه السنوات أيضًا ظهرت في الدنمارك كتب سُورين كِيرْكِغارْد، لكن لم يُعِرْها أحدٌ اهتمامًا في أوروبّا الغارقة في انشغالاتها السياسيّة.

وفي حين كانت الكثلكة والكنيسة في إيطاليا ضحيّتَي هجمات كثيرة، كانت الكثلكة تحقّق في إنكلترا تقدّمًا. ففي ١٨٤٧ أسّس نيومان مصلّى بيرْمِنْغهام (Oratoire de Birmingham)، كما أسّس هنري مانِنغ في ١٨٥٦ مُكرّسي القدّيس شارل. وقد عيّن البابا لاون الثالث عشر كلًّا منهما كردينالًا. أمّا ألمانيا، على العكس، فقد ظهرت فيها دلائل قوميّة كُلّيانيّة تحلم بخلق ديانة ألمانيّة، وفلسفة ألمانيّة، واقتصاد ألمانيّ. وظهر تفوّق الألمان واضحًا على الفلاسفة وعلى السياسيّين. وما لبثت نزاعات عدّة أن أبرزت الطابع التسلّطي لنظام برلين الذي كان هدفه الأعلى تحويل ألمانيا كلّها إلى «الدين القوميّ» أي البروتستانتيّة. وصارت جامعة بون مركز الدعاية الرسميّة الموجّهة إلى المناطق الغربيّة الأمينة للكنيسة التي يربطها بها رأس جسر هو جامعة كولونيا. كان الأستاذ هِرْمِسْ، في بون، قد أطلق عقيدته بالبرهان

العقلانيّ على وجود الله، وأنّ كلّ الحقائق المسيحيّة، بما فيها وجود الله، وإمكانيّة الوحي يمكن أن تُنشَأ على العقل. وأيّد بلاط برلين هذه العقيدة جاعلًا منها نوعًا من لاهوت الدولة، في حين كان غريغوريوس السادس يحرّم هذه التعاليم في رسالته العامّة **بينما الكلام المرير** (*Dum acerbissimas*) (١٨٣٥) معتبرًا إيّاها مناقضة للتقليد ومنبع ضلالات خطيرة. فنشر رئيس أساقفة كولونيا هذه الرسالة في أبرشيّته، ودعا الأساتذة إلى الالتزام بها. فهدّدته الحكومة المركزيّة، إلّا أنّه تمسّك بموقفه فسجن سنة ١٨٣٧ في قلعة مِنْدن (Minden). وبعد ذلك بسنة، أوقف أيضًا أسقف بُوزِن (Posen). فاحتجّ البابا حالًا وقدّم مذكّرة بهذا الموضوع إلى الممثّلين الديبلوماسيّين في رومة. فكان ردّ الرأي العامّ مؤيّدًا للكنيسة. بل إنّ الشعب في ألمانيا نفسها وقف بجانب رئيس الأساقفة المسجون، ونشر غُورّيس (Görres) كتابًا يشرح فيه خطاب البابا. وفي ١٨٤٠، مع وصول فردريك - غلْيوم إلى السلطة، عاد السلام الروحيّ إلى ألمانيا وأُطلِق سراح الأساقفة الموقوفين.

عرفت فرنسا مع لامِينّه نهضة كاثوليكيّة ناشطة. فقد طالما أعلن هذا المفكّر في جريدته **المستقبل** التي أسّسها في ١٨٣٠ ضرورة تحرير الشعوب، وتحقيق وحدتهم في اتّحاد يقوم بين الكاثوليك والليبراليّين، وفصل الكنيسة عن الدولة، وإنشاء جمعيّة الفقراء والكهنة. والحرّيّة في رأيه مرادفة للانسجام. كان لامِينّه مثل ماتزيني كاثوليكيّ. على أنّ اللغة العنيفة والآراء المخالفة في بعض المقالات حملت صاحب جريدة **المستقبل** نفسه على توقيفها

عن الصدور، وقرّر محرّروها الأساسيّون: لامينّه، ومونتالامبير، ولاكوردير أن يقابلوا البابا ليبرّروا أمامه موقفهم وفِكْرَويَّتهم. وفيما كان هؤلاء الكتّاب الفرنسيّون ينتظرون قرار اللجنة التي كُلِّفت دراسة قضيّتهم، أصدر البابا منشورًا يوصي فيه البولونيّين بتأدية الخضوع والطاعة. فأثار الأمرُ لامينّه أيّما إثارة، فغادر رومة ومضى إلى مونيخ ليلتقي أصدقاءه. وفي ١٥ آب/أغسطس ١٨٣٢، أصدر البابا رسالته العامّة: **أنظروا أنتم** *(Mirari vos)*: شجب فيها الليبراليّة من دون الإشارة إلى لامينّه وجريدته. وأعلن لامينّه عندئذ أنّه، بالرغم من هذه الرسالة العامّة، لا يتنازل عن رأي من آرائه، ونشر في ١٨٣٣ كتابه **كلام مؤمن**، الذي حُرِم بعد ذلك بقليل في الرسالة العامّة **وحدك أنت** *(Singulari vos)* فتمّ الانفصال النهائيّ، إذ تخلّى لامينّه عن النظام الكاثوليكيّ وتحالف مع الاشتراكيّين. ومات في ١٨٥٤ من دون أن يتصالح مع الكنيسة. على أنّ أصدقاءه لم يتّبعوا خطّه المتمرّد. فإنّ لويس فِيُّو (Veuillot) أنشأ في ١٨٣٤ جريدة **الكون** *(L'Univers)* التي سارت في خطّ لامينّه باعتدال أوفر. ويتّفق الجميع على أنّ لامينّه، بالرغم من خطأه الأخير، كان من أكثر مَن أسهموا في تجديد الحياة الكاثوليكيّة في فرنسا.

وأحد أفضال غريغوريوس السادس عشر الباقية التي لا تزول تشجيعه الرسالات في آسيا وإفريقيا، ونضاله ضدّ الاستعباد الذي كان ما يزال يقيّد ملايين من البشر. وقد أنشئ المتحفان الأتْرُوسْكي والمصريّ في عهد حبريّته في إطار المتاحف الڤاتيكانيّة الأخرى الكبيرة. أمّا أكبر خطأ حصل في

حبريّته، كما قال كاتب كاثوليكيّ، فإنّه سحق الثوريّين، وغفل عن الإصلاحات الضروريّة في الدويلات البابويّة المسَلَّم أمرها إلى الرجال الكنسيّين من دون غيرهم، سياسيًّا وإداريًّا، في قلب القرن التاسع عشر. فهذه المفارقة التاريخيّة التي لم تحسب حسابًا لمطالب العلمانيّين أفضت منطقيًّا إلى الأحداث التي أدّت إلى تحويل رومة عاصمة لدولة علمانيّة.

٢٥٤ - بيّوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)

لقد طبعت أحداثٌ ذات أهمّيّة سياسيّة وروحيّة عظمى أطولَ حبريّة في التاريخ، هي حبريّة جِيُوڤاني - مارِيّا ماسْتاي - فِيرِّيتّي: زوال سلطان البابوات الزمنيّ، وإنشاء مملكة إيطاليا، وإنشاء الإمبراطوريّة الألمانيّة، وشجب العلمانيّة الحديثة بإصدار **الدليل** *(Syllabus)*[٥٤]، والمجمع الڤاتيكانيّ المسكونيّ الأوّل الذي أعلن عصمة البابا.

وحقّق البشر تقدّمًا عظيمًا في عدّة مجالات: شقّ قناة السويس، وأنفاق جبال الألب وتدشينها؛ وأحدث الطبّ وعلم الكيمياء ثورة في الحياة اليوميّة؛ وأنجز پاستور اكتشافات أبانت عالم الجراثيم؛ وجاء المذهب الوضعيّ[٥٥] يؤكّد إيمانه الراسخ بالعلم الاختباريّ وبمستقبل البشريّة السعيد. لقد كان ذلك مطلع عصر العلم. أعلن الفلاسفة نهاية الأديان. كان نِيتْشه يؤكّد، مثله مثل سارْتر اليوم أنّ «الله قد مات». وثبّت أوغِيست كونْت،

---

(٥٤) **الدليل** أو الـ *Syllabus* هو الجدول الذي أُنزِلت فيه الأفكار المعاصرة التي اعتبرها البابا غير مقبولة من وجهة نظر الدين.

(٥٥) Le Positivisme.

وكارل ماركس، وداروين، وهيغل، ورينان استنتاجات فلاسفة القرن الثامن عشر «بأنّ الكتاب **(المقدّس)** كان على خطأ». وتبنّت الحكومة الليبراليّة، والماسونيّة، والاشتراكيّة، والعلمانيّة، والراديكاليّة عمومًا حتّى صارت هذه المذاهبُ العقائدَ الدينيّة الجديدة. ومع هذا، وبالرغم من الهزائم الظاهرة التي مُنِيَت بها الكثلكة والمسيحيّة عمومًا، فقد أعدّنا، في مجرى السنوات المأسويّة، المقاومة في العالم كلّه وخصوصًا في إيطاليا، حيث نهضت «معارضة كاثوليكيّة» قويّة تحافظ على العلاقات بين الدين والشعب، لتستعيد، شيئًا فشيئًا، المواقع المفقودة.

لقد دفعت بيّوس التاسع منذ البداية مقاصد ممتازة وميلُه إلى نوع من الليبراليّة، ربّما بفضل صداقته مع الكونت پازوليني المؤيّد للغولف الجدد (Néoguelfes)، فأصدر عفوًا عن المحكومين السياسيّين، فأثار بذلك موجة حماسة في إيطاليا كلّها، وخصوصًا في رومة، حيث أعلن الشعب حالًا تأييده إيّاه. وزاد الثقة بالبابا الجديد سلسلة من الإصلاحات والتجديدات الإداريّة: بناء سكك الحديد، تخفيف الضرائب الجمركيّة، تلطيف المراقبة على الصحف، إلخ... حتّى اعتبر مناصرًا لأفكار ماتْزيني وجِيُوبرتي. واستُقْبِلت هذه الإصلاحات بفرح في إيطاليا كلّها، إلّا أنّها سبَّبت استياءً لِمِتِرْنيخ الذي كان يخشى من خسران التعاطف القليل الذي كان النمساويّون ما يزالون يحظون به في إيطاليا، ومن أن يرى ثورة تجتاح الأراضي المحتلّة. أمّا فرنسا، وعلى العكس من مترنيخ، فقد ساعدت البابا في نزعته الإصلاحيّة هذه.

لكنّ إصلاح الدويلات الباباويّة لم يكن إلّا محاولة خجولة، فلم تَكْفِ لتهدئة العلمانيّين. وخلقت مناخًا سياسيًّا لمطالب الشعوب ثورةُ باريس التي اندلعت في ١٨٤٨ والتي تبعتها حركات مماثلة في جميع المناطق الأوروبيّة تقريبًا التي تهيمن عليها أنظمة تسلّطيّة مطلقة. إنهارت الملكيّة الفرنسيّة، وأرغم مِترنيخ على الاستقالة، واضطرّ الإمبراطور فرديناند الأوّل إلى التنازل عن العرش لصالح فرنسوا - جوزف الأوّل بتهديد من الثوّار النمساويّين - الهنغاريّين، وأعلن ملك پروسيا تشكيل حكومة دستوريّة، كما كان ملك سردينيا أصدر دستورًا ليبراليًّا: **القانون الأساسيّ** *(Statuto)*. وفي هذا الوقت، اجتاحت جيوش الپيمُونْت لومبارديًا التي كان يحتلّها النمساويّون. بعد ذلك بسنة تنازل شارل ألبير عن العرش بعد هزيمة في نوفار، وارتقى عرش سافُوا فكتور - عمّانوئيل الذي حقّق توحيد شبه الجزيرة. ودخل كونت كافور المسرح السياسيّ الأوروبيّ.

وفي ١٨٤٨ أيضًا، أصدر بيّوس التاسع «القانون الأساسيّ للحكومة الزمنيّة لدويلات الكنيسة المقدّسة» الذي لحظ تشكيل برلمان - مجلس نوّاب ومجلس شيوخ يتألّف من مجمع الكرادلة - لكنّ هذا الإصلاح من وحي الليبراليّة، لم يَرُق أيضًا للرعايا المتحمّسين لفكرة الوحدة، ولاشتراك الجيوش الباباويّة في الحرب ضدّ النمسا. غير أنّ البابا المشارك في الحرب حاول أن يعالج الأمور بتسميته مامِياني وزيرًا للداخليّة. على أنّ ماميانى اضطرّ إلى الاستقالة، فحلّ مكانه بِلِليغْرينُو روسيّ، في حين كانت الجيوش النمساويّة تحتلّ فِيرَّاري. في ١٥

تشرين الثاني/نوفمبر، وبينما كان روسّي متوجّهًا إلى البرلمان، اغتيل فاندلعت الثورة في رومة. واعتقلت الحكومة الجديدة، المعبّرة عن «النادي الشعبيّ» البابا بيّوس التاسع. على أنّ البابا تمكّن من الهرب بحماية سفير باڤاريا ومتنكّرًا بلباس كاهن عاديّ، والتجأ إلى أراضي نابولي، في غاييت، حيث مكث سبعة عشر شهرًا. وفي ليل ٨-٩ شباط/فبراير ١٨٤٩، أعلن المجلس الرومانيّ قطع العلاقة بالماضي، كما أعلن ولادة الجمهوريّة الرومانيّة، فكان ذلك انتصارًا لماتزيني. وفي فرنسا، انتُخب الأمير لويس نابوليون رئيسًا للجمهوريّة. ومن غاييت كان أمين سرّ الدولة أنطونيللي يطالب بتدخّل أجنبيّ لتُعادَ إلى البابا حقوقه. لكنّ المنافسة بين فرنسا من جهة، والنمسا والپيمونت من جهة ثانية بشأن المسألة الإيطاليّة، أخّرت بضعة أشهر قرارًا أوروبيًّا بهذا الموضوع، إلى أن أرسل الأمير نابوليون حملة عسكريّة نزلت في «المدينة القديمة» (تْشِيڤيتاڤِيكيا Civitavecchia) واحتلّت رومة، بعد أن لاقت مقاومة ضارية من الجمهوريّين وعلى رأسهم ماتزيني رئيس الحكومة الثلاثيّة الديمقراطيّة. وحمل انتصار اليمين الكاثوليكيّ في فرنسا نابوليون على التدخّل الحاسم لصالح البابا. وفي ١٥ تمّوز/يوليو، كان العلم البابويّ يرفرف ثانية على قلعة سانت-أنج. أمّا البابا فلم يرجع إلى رومة إلّا في ١٢ نيسان/أبريل ١٨٥٠، فاستقبله الشعب بمظاهر النصر، لأنّه كان يأمل المحافظة على حقوقه والحصول على إصلاحات ليبراليّة جديدة. لكنّ أنطونيللي الذي تميّز بتسلّطه، عارض تلك المطالب وحكم باستبداد.

في الشمال، كان كاڤور قد بدأ بتطبيق سياسته

الموجّهة خارجيًّا إلى هَزْم النمسا، وداخليًّا إلى هدف واحد وهو تحقيق الوحدة الإيطاليّة. بعد أن عُيّن الكونت كَمِيلُو بِنْسُو دي كاڤور وزيرًا للتجارة والصناعة في ١٨٥٠، حصل على رئاسة مجلس الوزراء في ١٨٥٢. حقّق في الپيمونت سلسلة من الإصلاحات الليبراليّة ولم يلبث أن نشب بينه وبين الكرسيّ الرسوليّ نزاع، لأنّه نزع من رجال الإكليرس الحقّ في التدريس وأمّم أموال الكنيسة. وفي ١٨٥٥، حرم البابا واضعي القوانين التي اعتُبِرت معادية للكثلكة. وظلّ كاڤور محرومًا حتّى وفاته. على أنّ رجال الدولة الإيطاليّ هذا استفاد من الوضع الجديد الذي خلقه تدخّل فرنسا وإنكلترا في روسيا، فأرسل حملة عسكريّة إلى القِرْم (Crimée) مؤلّفه من خمسة عشر ألف رجل، وحضر إلى مؤتمر باريس (١٨٥٦) ليجلس إلى جانب المنتصرين. وبدعم من نابوليون الثالث، المدافع عن سياسة القوميّات والشعوب اللاتينيّة، (في ١٨٥٩، دَعَم نابوليون توحيد الإمارتين الرومانيّتين، فالدَّاشِيا ومُولْداڤِيا ضدّ روسيا والنمسا)، حقّق كاڤور في باريس نجاحًا باهرًا: فقد طرح مسألة خروج الجيوش الأجنبيّة من إيطاليا.

أسّس كاڤور في تُورينُو «جمعيّة وطنيّة» رئيسها فارينا، وهو ثوريّ صقلّيّ لجأ إلى الپيمونت. حرّكت هذه «الجمعيّة» الدعاية من أجل وحدة شبه الجزيرة كلّها، وسدّدت ضربة قاضية لسياسة ماتزيني المرتكزة على الثورة والعنف. كانت «الجمعيّة» تعتمد على الپيمونت متّخذة لها تورينو مركزًا لمقاومة الإكليرس والنمساويّين. وغاريبالدي الذي كان قد اشترك في الدفاع عن رومة، وضع نفسه

يتصرّف كافور. وكان واضحًا منذ عودة كافور من باريس أنّ هدفه المباشر كان إنشاء تحالف ضدّ النمسا وطرد النمساويّين من إيطاليا بالسلاح. وتمّ تقرير الحملة الجديدة في المقابلة التي جرت بين كافور ونابوليون الثالث في پلومبيير (Plombières) العام ١٨٥٨. واندلعت الحرب بعد ذلك بسنة. هزم التحالف الفرنسيّ - الپيمونتي النمساويّين في معركتي سُولْفِرينُو وماجِنتا. وشنّ مناصرو الوحدة، بمساعدة «الجمعية الوطنيّة» وكافور، مساعدة قويّة، سلسلة من الانتفاضات في الدويلات البابويّة، وأعلنت بولونيا نيّتها الاتّحاد بالپيمونت.

لم تُرضِ الهدنة التي تمّ الاتّفاق عليها في فِيلّافرانْكا الپيمونتيّين. فاضطرّ كافور إلى الاستقالة بالرغم من أنّه حصل على لُومْبَرْدِيا. وفي ١٨٦٠ نزل غاريبالدي في صقلّيّة واحتلّ بالرمو على رأس بعثة عسكريّة موّلها الپيمون، ثمّ هاجم البرّ وقضى على مملكة الصقلّيّتين. قدم الپيمونتيّون من الشمال ونيّتهم الظاهرة تجنيب الدويلات البابويّة حدوث اضطرابات فيها، لكنّهم تقدّموا باتّجاه رومة. احتلّوا پِرُوزا وأنكُونا بعد مقاومة قاسية أبدتها جيوش البابا. واقترع المارش وأومبريا لصالح التحاقهما بالپيمونت. وفي ١٧ آذار/مارس ١٨٦١، أعلن برلمان تورينو ڤكتور - عمّانوئيل ملكًا على إيطاليا. إحتلّ الجيش الفرنسيّ رومة ليدافع عن البابا، إلّا أنّ أيّة قوّة أوروبيّة لم تتدخّل لتجابه تقدّم الپيمونتيّين في شبه الجزيرة. واستاء غاريبالدي من كافور الذي توقّف أمام رومة واحترم ما بقي من الدويلات البابويّة، فنظّم حملة على عاتقه ليستولي على المدينة الخالدة، لكنّه مُني بهزيمة على أيدي الپيمونتيّين في

أسْپْرُومُونْتي (١٨٦٢). وانتقلت الحكومة الإيطاليّة إلى فلورنسا التي صارت عاصمة المملكة الجديدة.

وكان الوضع مستقرًا إلى أن دخلت پروسيا الحرب ضدّ فرنسا، فكانت بذلك نهاية الإمبراطوريّة الثانية. وفرض بسمارك، خصم الكثلكة، الصلح في فرنكفورت (١٨٧١)، وسمح بتدخّل حكومة فلورنسا في «المسألة الرومانيّة». فاجتاحت جيوش ڤكتور - عمّانوئيل الدويلات البابويّة، فاستسلمت رومة في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٨٧٠. فأعلن عندئذ البابا بيّوس التاسع أمام الديبلوماسيّين المعتمدين في رومة: «منذ هذه اللحظة صار البابا أسيرًا لدى ڤكتور - عمّانوئيل». وعلى إثر الاستفتاء الذي أجري في ٢ تشرين الأوّل/أكتوبر، أصدر ملك إيطاليا المرسوم الآتي:

«**المادّة الأولى**: رومة والمقاطعات الرومانيّة جزء لا يتجزّأ من مملكة إيطاليا. **المادّة الثانية**: يحتفظ الحبر الأعظم بمقام ملك، وحصانته، وامتيازاته». فتلقّى البابا رسائل احتجاج من العالم أجمع، لكن لم تتدخّل أيّ دولة، ولم تقم بأيّ مسعى رسميّ ما عدا الإكوادور الذي أسمع رئيسها غَرْثِيا مُورِينُو «صوت العدالة المهانة».

في ١٣ أيّار/مايو ١٨٧١ صوّت البرلمان الإيطاليّ على «قانون الضمانات» الذي يتيح للبابا حقّ الانتفاع من قصر الڤاتيكان، وقصر لاتران، وكاستل غاندولفو، ويمنح هذه الأبنية الحصانة الدوليّة (Exterritorialité). وأُقِرّ أنّ شخص الحبر الأعظم «مُحرّم ومصون»، وأنّ الدولة الإيطاليّة تتعهّد بأن تصرف له دخلًا سنويًا مقداره ٣،٢٢٥،٠٠٠ لير معفيّة من الضرائب. وأُقِرّ للبابا أيضًا الحقّ في أن يبعث

بسفراء إلى الحكومات الأجنبيّة، وفي أن ينشئ على أراضيه مكاتب بريد وبرق. ولمّا كان القانون صادرًا عن جهة واحدة فقد أعلن بيّوس التاسع أنّه غير مقبول ورفضه في ١٥ أيّار/مايو ١٨٧١. وقد مرّت علاقات الڤاتيكان بإيطاليا بمرحلة من التردّد وعدم الاستقرار، ما انتهت إلّا في العام ١٩٢٩ لدى توقيع معاهدة لاتران. فالكنيسة إذ تجرّدت من مسؤوليّات الحكم الزمنيّ، دخلت في طور جديد من حياتها. على أنّ تأثيرها في القرن التاسع عشر ازداد رسوخًا بالرغم من النزاع الذي فصلها عن الدولة، وبالرغم المعارضة المتواصلة التي شنّها عليها في إيطاليا كلّها الحزب الليبراليّ والحزب الاشتراكيّ. فالكثلكة المرتكزة على سموّ المكانة المعنويّة لتعاليمها وإيمانها، وعلى قوّة أحبارها الروحيّة فقط، أعادت تنظيم نفسها بسرعة. «فالمعارضة الكاثوليكيّة» التي روى تاريخها الشجاع جِيُوڤانّي سپادُوليني، ما لبثت أن شكّلت إحدى أهمّ القوى في شبه الجزيرة الإيطاليّة، وأسمعت صوتها في البرلمان مع مطلع القرن العشرين، ثمّ ظهرت في ملء انبعاثها الروحيّ والسياسيّ بعد ١٩٤٥.

كيف استطاعت الكنيسة أن تصمد أمام هذا الهجوم المخيف؟ إنّ فقدانها السلطة الزمنيّة حرمها إمكانيّة التدخّل في الشؤون الأوروبيّة والدفاع عن حقوقها في إيطاليا. وهجمات الفلاسفة، والعلماء، والسياسيّين كانت تعزلها في عقائدها وطقوسها، وهي عقائد وطقوس تعتبرها النخبات الراديكاليّة خارجة عن زمانها. وحبريّة بيّوس التاسع كانت أصعب فترة في تاريخ الكنيسة، أصعب وأشدّ خطورة حتّى من حبريّة بيّوس السابع، لأنّ الثورة

الفرنسيّة ونابوليون لم يحدثا في النفوس أزمة كتلك التي أثارها التقدّم العلميّ في أواسط القرن التاسع عشر. كان أورْتيغا إي غاسّيت[٥٦] يقول إنّ رجل العلم هو بربريّ حديث، يعني أنّه يركّز على فكرة واحدة، وهو خال من حياة روحيّة. لقد استطاعت الكنيسة أن تقهر البرابرة في فجر العصر الوسيط وأن تجعل منهم كائنات بشريّة. وهذا ما تستمرّ في صنعه في الغرب منذ قرن ونصف قرن. وقد باشر البابا بيّوس التاسع حملة التنصير الجديدة هذه في عالم طغى عليه فرسان الإلحاد. وكان بالْمِس[٥٧] على حقّ عندما قال: «إنّ بيّوس التاسع كان، أوّل ما كان، رجل صلاة. ولهذا فلستُ بخائف إطلاقًا من نجاحه في نهاية المطاف. ماذا يمكن أن تفعل الثورة بإنسان متّحد بالله؟». وكلام بالْمِس هذا يعود إلى سنة ١٨٤٨، قُبَيل موته، يوم كان ماتزيني يعلن الجمهوريّة في رومة، والبابا يلجأ إلى غاييت.

في وسط الإعصار، العام ١٨٥٤، أعلن بيّوس التاسع عقيدة «الحبل بلا دنس» بعد أن استطلعَ رأيَ العالم المسيحيّ كلّه. وكان هذا المعتقد شائعًا ومقبولًا لدى الكهنة القانونيّين في ليون العام ١١٤٠، ثمّ لدى دُونْس سْكُوت[٥٨] والفرنسيسكان.

---

(٥٦) خوسيه أورْتِيغا إي غاسّيت، مفكّر إسبانيّ (١٨٨٣-١٩٥٥)، صاحب مذهب «الفكر الحيويّ»، ذو أثر في الكثيرين من الكتّاب الإسبان المحدثين. من مؤلّفاته: **تأمّلات في الكِخُوت، مسألة عصرنا، تمرّد الجماهير، ما هي الفلسفة؟**...

(٥٧) خايمي بالْمِسْ، كاهن وفيلسوف إسبانيّ (١٨١٠-١٨٤٨). من أشهر مؤلّفاته: **المعيار**، كتاب في النقد المعرفيّ؛ **والبروتستانتيّة مقارنة بالكثلكة في علاقاتها بالحضارة الأوروبيّة**.

(٥٨) جون دُونْسْ سْكُوتْ، لاهوتيّ وفيلسوف إنكليزيّ من الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة. لُقِّبَ بـ «المعلّم الثاقب الفكر»=

وقد أضفت البراءة **لا يوصف** (*Ineffabilis*) على هذا التعليم صفة العقيدة الإيمانيّة في فترة بدا وكأنّ العالم يبتعد عن الله.

بعد عشر سنوات، نشر البابا الرسالة العامّة **ما أكثر العناية** (*Quanta cura*) (٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٨٦٤) مرفقة بجدول أو **دليل** (*Syllabus*) جُمِعت فيه ضلالات العصر. وترافق صدور هذه الرسالة مع حصول أحداث خطيرة. ففي ١٨٦٣، سحق الروس مرّة جديدة البولونيّين، وهدموا مئات من الأديرة والكنائس الكاثوليكيّة، ونفوا الكهنة إلى سيبيريا وأحَلّوا مكانهم كهنة أرثوذكسيّين كانوا يرغمون الأهل على تعميد أولادهم بحسب طقس الكنيسة الشرقيّة. وفي ١٨٦٣ أيضًا نُشر كتاب **حياة يسوع** لمؤلّفه إرْنَسْت رينان. وظهرت الحاجة أكثر فأكثر لحصول تجمّع كاثوليكيّ وتصفية عامّة للأخطاء التي اجتاحت الأفكار والنفوس. وفي ١٨٦٤، وفي عقر دار الكثلكة، في الڤاتيكان، أهان السفير الروسيّ الحبر الأعظم لأنّه تجرّأ فدافع عن البولونيّين، فقطعت الكنيسة علاقاتها الديبلوماسيّة بالقيصر. فكان أن نُشر في هذا الوقت الرسالة العامّة **ما أكثر العناية، والدليل** الذي اشترك في تحريره لويس ڤِيّو (Louis Veuillot). فكانت رسالة بيّوس التاسع هذه، إلى جانب براءَة بونيفاقيوس الثامن **واحدة مقدّسة**، وبراءة إقليمنضس الحادي عشر **الابن الوحيد**، إحدى الوثائق البابويّة التي أحدثت أكبر اضطراب في ضمائر الكاثوليك وفي الرأي العامّ إجمالًا. شجب

= (١٢٦٦–١٣٠٨). إشتهر ببرهانه على عقيدة «الحبل بلا دنس» بكلمات ثلاث: «لاقَ (بالله)؛ وجاز؛ فصنع» (Decuit, licuit, fecit).

البابا الليبراليّة، والعقلانيّة، والطبيعيّة، والشيوعيّة، والاشتراكيّة. واحتجّ على إلغاء الرهبانيّات، وعلى التربية التي تفرضها الدولة، كما أعلن حرّيّة الإنسان. وحرم **الدليل** ثمانين ضلالًا في السياسة، والفلسفة، والدين. ولم تكن هذه الوثيقة معدّة للنشر، إلّا أنّه نُشِر بفعل بعض الظروف التي لم يُلْقَ الضوء عليها بعد. لقد اعتُبِرت إعلان حرب أطلقه البابا على المجتمع الحديث. وقد منع نشرها نابوليون الثالث والقيصر إسكندر الثاني، وڤكتور عمّانوئيل الثاني. أمّا أسقف أورليان، السيّد ديپانْلُو، وهو خطيب مشهور وصاحب جدل، فقد نشر كتيّبًا يشرح فيه حقيقة مغزى الرسالة وملحقها. وأعلن العديد من الليبراليّين الكاثوليك خضوعهم، وكذلك الأساقفة، باستثناء عميد كلّيّة اللاهوت في باريس المونسنيور ماريت. أمّا التفكير الاجتماعيّ الذي يظهر في الرسالة فقد أبرزه إميل كِيلّر في كتاب حَمَل ألبِرْت دي مين فيما بعد على تأسيس **الرسالة الاجتماعيّة**. وتعليم الكنيسة الاجتماعيّ الذي صاغه لاحقًا لاون الثالث عشر نجد ينابيعه في رسالة بيّوس التاسع **ما أكثر العناية**.

في هذه الحقبة عادت فشاعت صورة **رومة** فكرةً إمبراطوريّة وسياسيّة. فها هو ماتزيني يتحدّث عن «رومة الثالثة» الوثنيّة والجمهوريّة؛ وكان غاريبالْدِي يطمح إلى أن يجعل منها عاصمة الماسونيّة العالميّة، في حين كان الوطنيّون الإيطاليّون يرون في رومة العاصمة السياسيّة للمملكة الجديدة. في هذه الفترة دعا البابا بيّوس التاسع، ببراءته **الآب الأزليّ** (*Aeterni Patris*) (١٨٦٨)، إلى عقد مجمع مسكونيّ في رومة. وبعد بضعة أشهر بعث البابا

برسالته **السرّ الإلهيّ** (*Arcano divinae*) إلى أساقفة الشرق المنشقّين يدعوهم فيها إلى المجمع بهدف تحقيق الوحدة بين الكنائس. لكنّ مختلف الكنائس الشرقيّة التي تدين للسلطان الزمنيّ وهي أدوات القيصريّة في روسيا، فلم تُجب عن الدعوة. كما أنّ الرسالة التي وجّهها البابا إلى البروتستانت بدافع النيّة نفسها، لم تلقَ صدًى.

تألّفت في رومة سبع لجان لتدرس برنامج المجمع. وفي ٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٨٦٩، افتتح الحبر الأعظم المجمع المسكونيّ التاسع عشر. وقد أصدر هذا المجمع في ١٨٧٠ **دستورًا في الإيمان الكاثوليكيّ** أو **ابن الله**: يتضمّن عرضًا واضحًا لمبادئ الإيمان، ولعلاقات الإيمان بالعقل، وللوحي إلخ. وبعد مناقشات طويلة أعلن الدستور الصادر عن المجمع ومطلعه **الراعي الأزليّ** مبدأ عصمة الحبر الأعظم، ويقرّ له «بسلطة تشريعيّة كاملة وسامية على الكنيسة كلّها، ليس في الشؤون المتعلّقة بالإيمان والأخلاق وحسب، بل في تلك التي تتناول حكم الكنيسة الجامعة والمسلكيّة فيها». وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وبروسيا علّق المجمع جلساته وتأجّل لأيّام يعمّ فيها الهدوء.

لقد حصل تغيّر مهمّ عندئذ في قلب الكنيسة. لقد خيّبها السلاطين، واضطهدها الملوك، والأمراء وقادة الحروب في العصر الحديث، فتحوّلت مرّة جديدة إلى الشعب، فحُقّ لسپادوليني أن يتحدّث عن «بابويّة اشتراكيّة» صاغ مبادئها لاون الثالث عشر. كانت حكومات جميع البلدان تهاجم الكنيسة، وتمنع نشاطات المنظّمات الرهبانيّة، وتلغي الرهبانيّات وأديرتها، وتعارض نشر الرسائل البابويّة.

وكانت الماسونيّة، والاشتراكيّة، والشيوعيّة، والليبراليّة المتطرّفة تركّز هجماتها على الكنيسة، وقد أخذ هذا الصراع في ألمانيا المظاهر الدراميّة الأشدّ بسبب غيظ بسمارك على الكاثوليك واللاتين. فقد تبنّى العقيدة المادّيّة التي نادى بها ڤيرشوف مؤلّف كتاب **النضال من أجل الحضارة** ونقل المعركة إلى ساحة البرلمان. وقد خيّل مضمونًا لفترةٍ أنّ نوعًا من العنصريّة الدينيّة، البروتستانتيّة والجرمانيّة، تمثّلها ألمانيا وعلى رأسها مستشار برلين، يمكنها أن تحقّق النصر، خصوصًا أنّ بسمارك كان قد أزال بطل اللاتينيّة، نابوليون الثالث. لكن يعود الفضل إلى لاون الثالث عشر في كسب هذه المعركة التي شغلت طوال عشر سنوات ويزيد عقول الإمبراطوريّة الجديدة المحدَثة هذه.

في ٧ شباط/فبراير ١٨٧٨، قضى البابا صليب من صليب (*Crux de Cruce*) كما وصفته نبوّة ملاخي، بعد أن أعطى بركته الكرادلة والعالمَ الكاثوليكيّ أجمع. وبموته انتهت أطول حبريّة في التاريخ، وانتهت معها حقبة من أكثر حقب الكثلكة بطولةً ومأساويّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّه إبّان حبريّة بيّوس التاسع تأسّست في ١٨٦٠ جريدة **الأوسِّرڤاتوري رُومانُو**، وهي المنبر الرسميّ للكرسيّ الرسوليّ. وفي ٣/٩/٢٠٠٠ طُوِّب بيّوس التاسع على يد يوحنّا بولس الثاني.

٢٥٥ - لاون الثالث عشر (١٨٧٨-١٩٠٣)

نور من السماء خليفة صليب من صليب، بحسب نبوّة ملاخي، وهو أوّل بابا تمّ انتخابه بعد الاستيلاء

على روما وسقوط سلطة البابا الزمنيّة. كانت مهمّته من أصعب المهمّات.

يواكيم بيكّي وُلد في كَرْبِينِتُّو، بالقرب من أنيانّي، في ٢ آذار/مارس ١٨١٠. درس في فِيتِرْبُو وروما. أكسبه عاليَ الشهرة براعتُه الخطابيّة وسهولة نظمه الشعر باللاتينيّة. في ١٨٤٣، عيّنه غريغوريوس السادس عشر قاصدًا رسوليًّا في بْرُوكْسِيل. وفي ١٨٤٦ عيّن أسقفًا على بيرُوزا، ثمّ كردينالاً في ١٨٥٣. وما إنْ انتخب بابا حتّى أعلن: «أودّ أن أصنع سياسة عظيمة». في ١٨٧٨، نشر رسالته العامّة الأولى **أنّ فكر الله الذي لا يُدْرَك** (*Inscrutabili Dei consilio*) يؤكّد فيها أنّ حضارة تجرّد الكنيسة من تأثيرها الخيّر على المجتمع، وتفتح الطريق أمام حرّيّة «منفلتة ومنحرفة» ليست سوى حضارة مزيّفة، «كلمة باطلة فارغة من الحقيقة».

غير أنّ المشكلة الأكثر وعورة ودقّة كانت تلك التي تطرحها علاقات الكرسيّ الرسوليّ بالحكومة الإيطاليّة. فتجاه الموقف العدائيّ الذي اتّخذه رئيس الوزراء المتطرّف، كْرِسبي، تمسّك لاون الثالث عشر بموقف سَلَفه، فمنع الكاثوليك أن يشاركوا في الانتخابات التشريعيّة، ولم يسمح لهم إلّا بالاقتراع في الانتخابات البلديّة. فسياسة عدم المشاركة هذه - تفصح عنها العبارة المشهورة: «من غير المناسب» (Non expedit) - التي فُرِضَت على الكاثوليك منذ سقوط روما، استمرّت حتّى حبريّة بيّوس العاشر. لقد كانت مأساة الكاثوليك الإيطاليّين كبيرة: فهم يحبّون بلادهم، ويشاركون في نهضتها السياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، لكن القليلين في أوروبّا

تفهّموا أمرهم. وفي الواقع، فقد كان من الصعب على إيطاليّ أن يحبّ وأن ينظر بإعجاب إلى كيانَيْن متصادمَيْن وعدوَّيْن مثل الحكومة المدنيّة والكنيسة، وأن يبقى على هامش الحياة السياسيّة في وقت كان الراديكاليّون والاشتراكيّون يتناحرون بغضب شديد للوصول إلى السلطة. وما يفسّر تصرّف البابا خوفه من أن لا يتمكّن الكاثوليك من تأليف حزب على مستوى أهمّيّة الحزب الكاثوليكيّ في ألمانيا، وقناعته بأنّ من الأفضل انتظار فرصة تكون أكثر ملاءمة. وبما أنّ ملك إيطاليا الجديد، هُومْبِرْتُو الأوّل، لم ينعم بدعم البابا، فقد بذل كلّ مستطاع ليجمّع القوى المناهضة للكثلكة بوجه الكرسيّ الرسوليّ، واستغلّ جميع الفرص ليطلق الجماهير ضدّ البابا. فعندما نُقل جثمان البابا بيّوس التاسع من بازيليكا القدّيس بطرس إلى كنيسة القدّيس لورَنْزُو، انقضّت عصابات من المهووسين على الموكب، وقصدُها رميُ جثّة الحبر الأعظم في نهر التيبر. ويوم الاحتفال بالمئويّة السادسة «لصلاة الغروب الصقلّيّة» (١٨٨٢)، تظاهرت الجماهير ضدّ البابا بحجّة أنّ إقليمنضس الرابع كان قد أيّد عائلة أنجُو. وفتح موت غاريبالدي (٢ حزيران/يونيو ١٨٨٢) مجالاً لاضطرابات أخرى أثارتها الماسونيّة. على أنّ «المعارضة الكاثوليكيّة» كانت تتابع تنظيم نفسها في هذه الأثناء في جميع أنحاء شبه الجزيرة.

وكانت سنة ١٨٨٢ غنيّة بأحداث أخرى. فإيطاليا انضمّت إلى «التحالف الثلاثيّ» إلى جانب النمسا وألمانيا. لم يكن هذا التحالف طبيعيًّا لأنّه كان يفصل إيطاليا عن حليفتها الطبيعيّة، فرنسا، ويضعها إلى جانب عدوّها التقليديّ، النمسا. والحرب

العالميّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أظهرت ضعف هذا التحالف الثلاثيّ، وفي سخط لاون الثالث عشر على الضغط الذي كان يمارسه حكّام إيطاليا الغُواة، - استولت السلطة المدنيّة على أموال جمعيّة نشر الإيمان - قرّر مغادرة إيطاليا والانتفاء في مدينة تْرنْتُو، وهي إذ ذاك نمساويّة، أو في سالْزْبُورْغ. إلّا أنّه لم يلبث أن عزف عن هذا المشروع واندفع بزخم أوفر في النضال اليوميّ. وفي ١٨٨٩، قامت مظاهرات ضدّ الكاثوليك في رومة بحجّة تدشين نصب لجُورْدانُو بْرُونُو، وقد كان المتظاهرون يعتبرونه ضحيّة من ضحايا البابوات.

في ١٨٨٧ خلف الكردينال مارِيانُو رامْپُوللا في أمانة سرّ الدولة الكردينال جاكُوبِيني، فلاح أمل بفترة من الهدوء بين الكُويرينال والفاتيكان، غير أنّ موقف كْرِيسْپِي بدّد الآمال، ذلك أنّه لم ينثنِ عن قصده بأن ينزع من البابا أيّة رغبة في سلطة زمنيّة. في ١٨٩٠، نشر لاون الثالث عشر رسالة عامّة أخرى **إنّ الرفيع السامي** *(Tal alto)*، وفيها شجب مرّة أخرى الماسونيّة. ونشبت نزاعات جديدة مع الحكومة الإيطاليّة عقب سقوط حكم كريسپي نتيجة هزيمة الجيوش الإيطاليّة في الحبشة. وفي ١٨٩٨، أصدر خليفة كريسپي، المركيز رُودِيني، قرارًا بحلّ أربعة آلاف جمعيّة كاثوليكيّة وحمّل الكرسيّ الرسوليّ مسؤوليّة الاضطرابات في ميلانو، في حين أنّ المسؤوليّة كانت تقع على الحزب الاشتراكيّ المُنْشأ حديثًا. كانت الحركة العمّاليّة قد تجمّعت، العامَ ١٨٩١، في «حزب العمّال الإيطاليّين»؛ وانفصل هذا الحزب، في ١٨٩٢، عن الفوضويّين واتّخذ له بعد ذلك بسنة، في مؤتمر رِيجِيُو، اسم

«الحزب الاشتراكيّ». وقد نال هذا الحزب شهرة متنامية، ليس بفعل انتشار الصناعة في البلاد انتشارًا كثيفًا وحسب، بل أيضًا بسبب ظروف العمل التي لم تكن مثاليّة. إضافة إلى ذلك، ، فإنّ أساطير الانبعاث طغى عليها كسوف بسبب التجاوزات التي أتاها خلفاء كافُور. ففي إيطاليا كما في باقي القارّة، تحوّل الحزب الاشتراكيّ تدريجيًّا إلى منافس يَخشى أمرَه الليبراليّون والمحافظون من جهة، ودعاة الملكيّات المطلقة من جهة ثانية.

منذ أن كان لاون الثالث عشر قاصدًا رسوليًّا في بلجيكا، كان يعرف تمام المعرفة وضع العمّال. وفي ١٨٧٧، وهو إذ ذاك رئيس أساقفة پِرُوزا، نشر رسالة راعويّة هاجم فيها «استغلال الفقراء والضعفاء المعيب». وقبل البيان الشيوعيّ الذي نشره كارل ماركس بزمن طويل، فإنّ أسقف مايانس، كِيتْلِرْ، رفع صوته منددًا باستغلال العمّال في ألمانيا، واتّخذ الإكليرس الألمانيّ موقفًا مؤيّدًا لطبقة العمّال. وفي فرنسا هاجم أَلْبِرْت دي مِين ولاتُور دي پان شامْبلِي الظلم الاجتماعيّ. وفي رومة أُنشِئت «ندوة رومانيّة للدراسات الاجتماعيّة» ساعد على خلقها شخصيّات من العالم أجمع. في ١٨٨٤، رأى النور «اتّحاد فْرِيبُورْغ» برعاية أسقف جنيف، مونسنيور مِرْمِيُو، وغايته تجميع جهود الحركات الاجتماعيّة الأوروبيّة المختلفة. وقد تألّقت ثلاث جماعات، بنوع خاصّ، بنشاطها: جماعة فرنسا، ويديرها ألبرت مون؛ جماعة رومة، ويديرها الكردينال جاكوبيني؛ وجماعة فْرَنْكفورتْ، ويرعاها أمير لُوفْنْشْتاين. في ١٨٨٧، كانت المبادئ التي تشكّل عقيدة اتّحاد فريبورغ هي: التجمّع النقابيّ، كونه نظامًا دفاعيًّا عن مصالح

الطبقة العاملة، وحماية العامل حماية قانونيّة، وثبات الملكيّة الريفيّة. وقد عبّرت الحركة، في ١٨٨٨، عن رغبتها في أن ترى البابا يتولّى رئاستها. وقد قال أحدهم للبابا لاون الثالث عشر إنّ الأفكار الاجتماعيّة التي يدافع عنها الكاثوليك يعتبرها الكثيرون اشتراكيّة وبالتالي مَلومة. فكان ردّ البابا: «ليست هذه اشتراكيّة، إنّها مسيحيّة... فأعداؤكم لا يدرون إطلاقًا ما هو النظام الاجتماعيّ المسيحيّ... إنتظروا رسالتي العامّة المقبلة، فالبابا سيقول إنّ هناك نظامًا اجتماعيًا مسيحيًا». بهذه الكلمات أفصح البابا عن تبنّيه أحد التقاليد المسيحيّة الأكثر أصالة، أي الدفاع عن الفقراء، والمضطهدين، والضعفاء.

في ١٨٨٥، كانت قد نشأت في الولايات المتّحدة حركة مماثلة هي حركة «فرسان العمل» (Knights of Labour) بموافقة الأساقفة. وغاية هذا التنظيم شنّ حرب اجتماعيّة حقيقيّة لتُظهر علنًا ما إذا كان سيسيطر في الولايات المتّحدة الذهب أو الإنسان، الاحتكار أو الشعب. وقد تدخّل الكردينال جِيبُونز الأميركيّ، والكردينال مانِينْغ الإنكليزيّ لدى البابا كي لا يشجب هذه الحركة الشريفة، في حين ناهضها المصافّ الأسقفيّ الكنديّ. أمّا البابا فلم يشجبها، بل على العكس من ذلك، فإنّ الرسالة العامّة **الأمور الجديدة** (*Rerum novarum*) التي صدرت في ١٨٩١، وصيغت بروح تقليد الكنيسة الحقيقيّ، قدّمت إلى جميع الحركات المذكورة سابقًا تعليمًا أصيلًا، حتّى إنّها صارت منذئذ ميثاق العمل المسيحيّ.

لقد وفّرت رسالة البابا لاون الثالث عشر عناصر

جديدة للنقاش الاجتماعيّ الذي كان يخصّ العالم. فقد أعلنت، في المقام الأوّل، التساوي بين العامل وربّ العمل، تساويًا كما تحدّده العقيدة المسيحيّة، أي تساوي الناس المطلق أمام الله، أي الناس باعتبارهم أشخاصًا وليس الإنسانيّة المجرّدة أو باعتبارهم طبقات، وهي تجريدات عقليّة بإعلانها مبدأ المساواة تحوّل الناس إلى عبيد للحزب أو للدولة، أي ضحايا الأفكار والمستبدّين. وتذكّر رسالة **الأمور الجديدة** الناس، ثانيًا، بالضمير الإنسانيّ، وبحقّ العامل، وبحقّ جميع الناس بأن ينعموا بحياة روحيّة، تفوق حاجات الشغل وضروراته، والهمّ اليوميّ، والصراعات السياسيّة. وكانت عقيدة البابا الاجتماعيّة، ثالثًا، نقدًا غير مباشر للپروتستانتيّة وللكلڤينيّة، وهما سببا الرأسماليّة التي شجبتها الرسالة بقسوة، لأنّ الرأسماليّة تمثّل، في نظر الكنيسة مبدأ استغلال الإنسانِ أخاه، والفكرة المضطربة عن الحياة، وصراع الطبقات، والحرب، والتقدّم مهما كان الثمن، والعمل مقياسًا وحيدًا للعالم، عارضتها الكنيسة بأفكار السلام، والحبّ، والأخوّة، والمحبّة. فبدا واضحًا أنّ الكنيسة تجابه بتعليمها الليبراليّة الرأسماليّة كما تجابه الاشتراكيّة - الشيوعيّة التي تعتبرها دائمًا، بحسب ما يرى اليسوعيّون، امتدادًا لليبراليّة المنحطّة.

في ١٩٣١، قال البابا بيّوس الحادي عشر في رسالته العامّة **في السنة الأربعين** (*Quadragesimo anno*) عن رسالة **الأمور الجديدة**: «إنّ رسالة لاون الثالث عشر ظهرت، مع مرور الزمن، كالميثاق الكبير الذي يجب أن يكون أساس كلّ نشاط مسيحيّ في الموضوع الاجتماعيّ».

ساءت الحال في فرنسا في هذا الوقت. فقضيّة دْرَيفُوس التي بدأت في ١٨٩٤ بالحكم بالإعدام على الضابط اليهوديّ الذي اتُّهم بالخيانة، فجّرت جدالًا طويلًا وحاميًا بين المفكّرين وقسّمت الرأي العامّ إلى جبهتين متخاصمتين. فاليمين المناهض لدريفوس، كان يتجمّع حول شارل مُورَّاس الملكيّ النزعة، وحول ليون دُودِيه، وشارل بِيغِي، ومُوريس بارِّس وكتّاب آخرين عديدين الذين ساهمت وطنيّتهم في أن تسير فرنسا إلى النصر في ١٩١٨. وتجمّع اليسار حول المدافعين عن النقيب دريفوس: فأَمِيل زولا، وأناتُول فْرانسْ، ولاحقًا رُوجِيه مَرْتِين دي غار، وأنْدرِه جيد، - لأنّ المناظرات في «القضيّة» امتدّت إلى ما بعد الحرب العالميّة الأولى -، خلقوا جوًّا معاديًا للإكليرس ولا وطنيًّا استغلّته الشيوعيّة فيما بعد كما استغلّه عمومًا رجال الفكر اليساريّون. كان اليمين يدافع عن الوطن، فيما كان اليسار يقدح فيه ويذمّ. واليسوعيّون الذين التزموا الوقوف موقف المؤيّد للجيش، اتّهموا بأشنع الجرائم. وحاول البابا توحيد المعتدلين في الانتخابات، إلّا أنّ مشروعه سقط، وعزّز اليساريّون مواقعهم في انتخابات ١٨٩٨. واتّخذت تدابير قاسية بحقّ الكنيسة. ففي ١٩٠٠، حوكمت «رهبانيّة الانتقال»، وفي ١٩٠١ صدر «قانون الجمعيّات» الذي أرغم عدّة جمعيّات رهبانيّة على مغادرة البلاد. فرهبانيّة أخوات القدّيسة كُوليتْ التجأت إلى أسِّيز، واختارت جمعيّات أُخَر كثيرة طريق المنفى إزاء التدابير التي اتّخذتها حكومتا وَالْدِيك - رُوسُّو وكومْبْ.

وفي ألمانيا، تابع بِسْمارْك «الكفاح الثقافيّ» (Kulturkampf). والملاحظ أنّ هناك اتّصالًا واضحًا

بين موقف لوثير وتعليمه، وموقف كلٍّ من بسمارك وهِتْلِرْ وعقيدتهما. فالثلاثة أذكوا الروح الجرمانيّة، وعادوا رومة بصفتها كنيسة جامعة ومركزًا حضاريًّا، وأضفوا على الكنيسة الألمانيّة، عن قصد، طابعًا قوميًّا. واصطدم الثلاثة، في نشاطاتهم وفي جميع محاولاتهم بالكثلكة، فحاولوا إزالتها بكلّ الوسائل الممكنة. كان بسمارك يحلم بالوحدة الألمانيّة التي استطاع تحقيقها إثر انتصاره على النمسا في ١٨٦٦، وعلى فرنسا في ١٨٧١، كما كان يحلم بإمبراطوريّة عالميّة تكون ألمانيا على رأسها. وبسمارك مثل كلّ ديكتاتور تُسكره أحلام السيطرة العالميّة (كُولا دي رِينْزُو، نابوليون، هتلر، سْتالِين)، أخذ في حسبانه المسكونيّة الرومانيّة، وهذا ما حمله على إطلاق الحملة ضدّ الكثلكة. فبدافع نفوره من الشعوب اللاتينيّة، كان المستشار يقصد تدمير الكنيسة بهدف تدمير تلك الشعوب، وهذا واضح من كلامه: «عندما نقضي على الكثلكة، فلن تلبث الشعوب اللاتينيّة أن تزول».

كانت القوانين المعروفة بـ«قوانين أيّار/مايو» (١٨٧٣) ما تزال سارية المفعول، ولا تستطيع ألمانيا اتّخاذ مبادرة لمصالحة محتملة من دون أن تُلغى تلك القوانين. وبدافع قويّ من هذا الشعور، أجاب البابا لاون الثالث عشر عن رسالة وجّهها إليه الإمبراطور غليوم الأوّل في ١٨٧٨. وعليه، فإنّ بسمارك الذي اضطرّ شيئًا فشيئًا إلى أن يتفاوض مع الڤاتيكان نظرًا إلى النجاح الذي حقّقه الحزب الكاثوليكيّ في ألمانيا، وإلى مقاومة الأوساط الكاثوليكيّة جميعها، اضطرّ إلى تعديل «قوانين أيّار/مايو» وخفّف من تشدّدها، فاستطاع أن يعيد الحوار مع الكنيسة.

في ١٨٨٣، عرّج وليّ العهد الأمير فردريك على روما بعد زيارة إسبانيا وكانت له مقابلة مع البابا. كان بين ألمانيا وإسبانيا نزاع بشأن جزر كارولين: فألمانيا كانت قد احتلّت، في ١٨٨٥، جزيرة ياپ، وهي إحدى جزر الأرخبيل الذي تملكه إسبانيا. طلب الفريقان وساطة البابا، فوضع حدًّا لهذا النزاع وقضى في الوقت نفسه على «الكفاح الثقافيّ». وكان البابا قد اكتسب مكانة عالميّة، وألمانيا تحتاج إليه. جاء قانون ١٨٨٧ ليسمح بعودة الرهبان المطرودين إلى ألمانيا، فابتهج الكاثوليك الألمان أيّما ابتهاج. على أنّ علاقات الكرسيّ الرسوليّ ببرلين دخلت مرحلة جديدة من التوتّر عندما التقى كْرِيسْپِي بسْمارْكْ في ١٨٨٧ وثبّت صلاحيّة التحالف الثلاثيّ. وعرف أنّ بسمارك يدعم الوزير الإيطاليّ ويوافق على وجهة نظره في «المسألة الرومانيّة».

في ١٨٨٨، خلف فردريك الثالث غليوم الأوّل. على أنّ الإمبراطور الجديد لم يملك سوى بضعة أشهر بسبب المرض، فخلفه غليوم الثاني على عرش هُوهِنْزولِّرْن. وفي السنة ١٨٨٨ نفسها زار البابا. وفي ١٨٩٠، انسحب المستشار العجوز من الحياة السياسيّة، واستعدّت البلاد للسير «في اتّجاه جديد» كما قال الإمبراطور. ففي ١٨٩٣، ثمّ في ١٩٠٣، زار غليوم الثاني الڤاتيكان، فتحسّنت العلاقات تحسّنًا ملموسًا. وحقبة «الكفاح الثقافيّ» الذي خرجت منه الكثلكة في ألمانيا معزّزة، صارت من الماضي.

لقد كان لاون الثالث عشر رجلًا واسع الثقافة وشاعرًا إلى كونه سياسيًّا بارعًا. كان يحبّ دانْتِي وغالِيلِيُو، وأنشأ أوّل مرصد للنجوم في الڤاتيكان.

كان معجبًا بشعراء العصر القديم، وكتب قصائد باللاتينيّة وهو على فراش الموت. توفّي في ٢٠ تمّوز/يوليو ١٩٠٣ يحيط به الكرادلة. وقبل وفاته ببضعة أيّام، كان قد نشر في إحدى الجرائد في پيروزا قصيدة باللاتينيّة هذه خاتمتها:

«هوذا المسيحُ الرحوم،

أن تسأله مغفرةً عن ضلال،

فهو، بتواضع، يغفِر لك كلَّ هفوة»

٢٥٦ - بيّوس العاشر (١٩٠٣-١٩١٤)

جيوزِپّي سَرْتُو ولد في رِيزِي، من إقليم تْرِيڤِيز في ٢ حزيران/يونيو ١٨٣٥. كان أبوه ساعي بريد وأمّه تعمل قيّمة بياضات. عيّنه لاون الثالث عشر أسقفًا على مانْتُوا في ١٨٨٤، ثمّ كردينالًا في ١٨٩٣، وبطريركًا على البندقيّة. كثيرون كانوا يرون فيه خليفة للبابا لاون الثالث عشر، غير أنّه في أثناء انعقاد المجمع الانتخابيّ، فرضت شخصيّتان نفسهما على الكرادلة: الكردينال رامپُولّا، أمين سرّ الدولة الأسبق يدعمه الفرنسيّون والإسپان وجميع مَن كانوا يعتبرونه مكمّلًا سياسة البابا الأسبق؛ والكردينال أوريليا، يدعمه الكرادلة الألمان والنمساويّون وجميع مَن كانوا يرغبون في بابا يعارض نهج لاون الثالث عشر في القضايا الاجتماعيّة وفي المسائل السياسيّة. استُبْعِد الكردينال رامپُولّا بفعل النقض الذي أفصح عنه كردينال كراكُوڤيا باسم إمبراطور النمسا (وكان هذا آخر نقض يُمارَس في تاريخ مجامع الكرادلة لانتخاب البابا). عند ذاك قُدِّم ترشيح الكاردينال سَرْتو، فانتُخِب بأكثريّة خمسين صوتًا مقابل اثني عشر. اتّخذ شعارًا له: «تجديد كلّ

شيء بالمسيح»، وإعادة الطابع المسيحيّ للكون. واختار أمين سرّ للدولة الكردينال الإسبانيّ ميرّي دِل ڤال الذي كان أحد كبار أمناء سرّ الدولة في ذلك القرن.

أوّل ما انكبّ على تحقيقه من إصلاحات كان نظام انتخاب البابا نفسه. ففي الدستورَيْن اللذين أصدرهما: **وُكِلَ إلينا** *(Commissum nobis)*، ولدى **شغور الكرسيّ الرسوليّ** *(Vacante Sede Apostolica)*، حرَّم بيّوس العاشر، وهو الذي عرف تدخّل إمبراطور النمسا الذي تجاوز الحدّ، حقّ الرفض (الڤيتو Veto) الذي يستخدمه ممثّلو السلطة الزمنيّة.

لم تكن مهمّة البابا سهلة في مجال السياسة الدوليّة. فقد انتهت حبريّته في الوقت الذي انفجرت فيه الحرب في أوروبّا. وكانت الأوضاع في فرنسا، خصوصًا، متوتّرة. فحكومة كومْبْ الذي تؤيّده الماسونيّة ويؤيّده اشتراكيّو جُورِيس في حملة على الكاثوليك، كانت تحاول أن تستغلّ ما استطاعت قضيّة دْرِيفُوس، وخلق جوّ معادٍ في البلاد للإكليرُس وللعسكر. فلمناسبة تدشين نصب رِينانْ في قرية من مقاطعة برتاني، شَتَمَ الدين بعض أعضاء الحكومة وهم في حماية قوى الأمن التي كانت تجبهُ السكّان المؤمنين الأوفياء للكنيسة. وفي ١٩٠٤، صدر قانون يمنع على الجمعيّات الرهبانيّة امتهان التعليم. وعندما زار الرئيس لُوبيه، في نيسان/أبريل ١٩٠٤، ملك إيطاليا، استغلّت الماسونيّة المناسبة لتنظيم مظاهرات ضدّ البابا. وفي ٢٩ تمّوز/يوليو من السنة نفسها، قطع رئيس الوزراء الفرنسيّ العلاقات الديبلوماسيّة بين الجمهوريّة الثانية والكرسيّ الرسوليّ. وفي ١٩٠٥ عُرِض مشروع قانون ينصّ

على فصل الكنيسة عن الدولة، فوافق عليه المجلس النيابيّ في شهر كانون الأوّل/ ديسمبر. وأرِيسْتِيد بريانْد نفسه قدّم مشروع القانون هذا إلى مجلس النوّاب. وفي ١٩٠٦، حرم البابا هذا القانون باعتباره خرقًا للناموس الطبيعيّ وذلك برسالته العامّة **نحن بشدّة** *(Vehementer Nos)*.

كان الوضع في ألمانيا ما زال مؤاتيًا للكنيسة. وفي النمسا، كان رئيس بلديّة ڤيينّا، المسيحيّ الاجتماعيّ لويغِرْ، يناضل بشجاعة ضدّ الماسونيّة التي كانت تبذل جهودها لتضفي على البلاد توجّهًا مخالفًا للعقيدة المسيحيّة. وفي إيطاليا كان الكاثوليك قد نجحوا في تنظيم أنفسهم: فإذا بهم يشرفون على الجمعيّات الثقافيّة، والمصارف، والتعاونيّات، كما أنّ «العمل الكاثوليكيّ» كان يشكّل في البلاد جيشًا قويًّا يعمل للتوافق الاجتماعيّ. وفي ١٩٠٩، ألغى البابا المنشور **من غير المناسب** *(Non expedit)* وأباح للكاثوليك بأن يترشّحوا للانتخابات، فنجح اثنان وعشرون منهم في النيابة. وفي الانتخابات التي جرت سنة ١٩١٣، ارتفع الرقم إلى ٢٢٨، في حين كسب الاشتراكيّون أيضًا الكثير من الأصوات، وقد أثارت حميّتهم الحملة الصحافيّة التي شنّها مُوسُوليني في جريدته **إلى الأمام** *(Avanti)*. وظهر في الرأي العامّ الإيطاليّ تيّاران مختلفان: أحدهما اشتراكيّ، والآخر قوميّ يديره محازبو ألفرد أوريانو وتلاميذه، وهو كان قد نشر في ١٩٠٨ كتابه **الثورة المثاليّة** *(Rivolta Ideale)*، ومعهم كُورّاديني. وهذان الاتّجاهان السياسيّان كانا يعارضان الليبراليّة المنحطّة. وظهرت حركات فلسفيّة وأدبيّة جديدة أتت برياح منعشة إلى شبه الجزيرة.

فإنّ كْرُوتْشي، وجِنْتِيلي، ومارِينِتّي، والمستقبليّين، وبابيني ومعاونيه في مجلّته لِيُونارْدُو، جعلوا من إيطاليا أرضًا منفتحةً على جميع الأفكار الخَصْبة والإنسانيّة، فأعادوا وضع الثقافة الإيطاليّة في المستوى الذي كانت تستحقّه في إطار الروحانيّة الأوروبيّة. كان العالم يبدو وكأنّه يتطوّر باتّجاه أفكار تعارض المسيحيّة أكثر فأكثر. والكاثوليك أنفسهم كانوا حائرين وسط هذا البحر من التجارب، ومكانة العلم التي تنمو تدفع الكثيرين إلى لاأدريّة نضجت بفعل الاتّصال بالنزعات الفلسفيّة المختلفة السائدة. أمّا البابا بيّوس العاشر فقد أطلق، في ١٩٠٧، رسالته العامّة **رعاية قطيع الربّ** (*Pascendi Domini gregis*) ضدّ العصرانيّة بوجه عامّ. وقد عاقبت هذه الرسالة صراحة ضلالات الألمانيّ هِرْمان شِيل، والمحترم جورج تِيرِيل الإنكليزيّ، والأباتي لُوازِي الفرنسيّ، والقصّاص أنطونيو فُوغاتْزارو ورُومُولُو مورّي الإيطاليّين، إنقاذًا لسلامة العقيدة الصحيحة المهدّدة.

وفي النظام الاجتماعيّ، منح البابا بيّوس العاشر دعمه إنشاء تجمّعات متنوّعة حقّقت نجاحًا مباشرًا مثل: الاتّحاد الشعبيّ، وهدفه جمع شمل الكاثوليك أيًّا كانت الطبقة الاجتماعيّة التي ينتمون إليها؛ والاتّحاد الاقتصاديّ والاجتماعيّ؛ والاتّحاد الانتخابيّ، وهدفه إعداد الكاثوليك للنضال السياسيّ. وحدّدت مدرسة «بِرْغامُو» العقيدة الاجتماعيّة المسيحيّة وكمّلتها، وبرغامو مدينة بدأ يعمل فيها كاهن شابّ يُدعى أنْج-جوزف رونْكالِلي تحت إشراف معمّق ومشهور من الأسقف رادِيني-تِيدِيسْكِي. وكانت «الأسابيع الاجتماعيّة» تحقّق في

فرنسا نجاحًا واعدًا.

ووفاءً من بيّوس العاشر لشعاره، فقد كرّس قسمًا كبيرًا من نشاطه للرسالات خارج أوروبّا. وبدفع منه، تحرّرت الموسيقى الدينيّة من تأثيرات الموسيقى الدنيويّة التي داخلتها. وقد أعيد النظر في صلاة الكهنة، وصلوات الفرض اليوميّ، وعدّلت. وتألّفت لجنة لصياغة **مجموعة الحقّ القانونيّ** (*Codex juris canonici*) التي أصدرها في ١٩١٧ بندكتس الخامس عشر للتوفيق بين القانون والتشريع الكنسيّين والأوضاع الحديثة. فالبراءة **المشورة الحكيمة** (*Sapienti consilio*) الصادرة في ١٩٠٨، أعادت تنظيم الجمعيّات، والمحاكم، والمكاتب في الدوائر الرومانيّة. وعُقِدت مؤتمرات قُربانيّة في ١٩٠٤ و١٩١٤، والمؤتمر الأخير عقد في لورد عشيّة الحرب العالميّة الأولى.

منذ سنة ١٩١١، تنبّأ بيّوس العاشر بحصول النزاع. وعندما أغمض عينيه في ٢٠ آب/أغسطس ١٩١٤، كانت الحرب تزعزع أرض أوروبّا منذ ثلاثة أسابيع. لقد خصّص معاصر للبابا هذه الأسطر التي تلخّص بوضوح العمل الذي أتمّه أحد ألمع البابوات في تاريخ الكنيسة، فقال: «لا مبالغة في القول إنّ جوزف سَرْتُو، وهو ابن قرويّ وقيّمة بياضات، حقّق بمبادرة منه خاصّة، في نظام الكنيسة الكاثوليكيّة، تغييرات تفوق تلك التي حقّقها أيّ واحد من أسلافه منذ المجمع التريدنتينيّ».

في ٢٩ أيّار/مايو ١٩٥٤، أعلن بيّوس الثاني عشر قداسة البابا سَرْتُو، رسول الأزمنة الحديثة المتواضع والعبقريّ.

٢٥٧ - بندكتس الخامس عشر (١٩١٤-١٩٢٢)

جياكومو دِلّا كييزا ولد في جنوى ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٥٤. سيم كاهنًا سنة ١٨٧٨، ودخل، العام ١٨٨٢، جمعيّة الشؤون الكنسيّة في الفاتيكان ليعمل إلى جانب الكردينال رامپولاّ. وقد رافقه إلى مدريد حيث بقي من ١٨٨٣ حتّى ١٨٨٧. ثمّ انتقل إلى أمانة سرّ الدولة مساعدًا لكردينال ميرّي دِل ڤال. في ١٩٠٧، عيّنه بيّوس العاشر رئيس أساقفة على بولونيا. وانتخاب البابا في ١٩١٤ كان أوّل انتخاب لم يتدخّل فيه أيّ سلطان أجنبيّ، فطُبِّقت أوامر بيّوس العاشر بحذافيرها. ثمّ انتخاب البابا الجديد في ٣ أيلول/سبتمبر. كانت أوروبّا في حرب، فسارع الحبر الأعظم إلى وضع رسالة عامّة **حيث أوّلًا** (*Ubi primum*) وجّهها إلى كاثوليك العالم كلّه وخصّصها لإعادة السلام. وفي ١٣ تشرين الأوّل/أوكتوبر، عيّن بندكتس الخامس عشر أمين سرّ الدولة الكردينال غاسپارّي الذي كان قد أدار أعمال تجديد الحقّ القانونيّ بإيحاء من بيّوس العاشر. وكان البابا وأمين سرّ دولته وفيّين كلاهما في متابعة سياسة لاون الثالث عشر وأفكاره.

أظهر البابا للناس في رسالته العامّة **إلى المغبوطين** (*Ad Beatissimi*) أسباب الحرب الرئيسيّة الأربعة: عدم التفاهم بين الناس، واحتقار السلطة، والصراعات الجائرة بين الطبقات، والانجراف المفرط وراء الخيرات الزائلة. واستنادًا إلى الفكرة المسيحيّة في أنّ الحرب هي أسوأ الشرور التي قد تصيب البشريّة، فقد بذل بندكتس الخامس عشر كلّ ما استطاع بذله ليخفّف العذابات التي ولّدها نزاع

قسم العالم قسمَيْن متعاديَيْن. فقد بادر مرارًا عديدة إلى الاقتراح بتبادل الأسرى الذين لا يصلحون للخدمة، أو المصابين بجروح خطيرة، وتحرير المدنيّين. وقد أيّده في موقفه هذا ملك إسپانيا ألفونس الثالث عشر، فأخذ المتقاتلون اقتراحاته بعين الاعتبار. وقد أُنشئ مكتب معلومات عن الأسرى في الفاتيكان.

في ١٩١٦، بدأ الحديث عن السلام بين الدول المتحاربة، غير أنّ جميع المفاوضات الديلوماسيّة فشلت إلّا تلك التي دارت بين ألمانيا وروسيا، الدولتَيْن اللتين وقّعتا سلامًا منفردًا في بْرِسْت - لِيْتوفسك. كانت الثورة الشيوعيّة في مطلع اندلاعها في روسيا، وبدا أنّ ألمانيا حقّقت ضربة معلّم نظرًا إلى أنّ الثورة والسلام كانا نتيجة الدعم الذي قدّمه الألمان إلى لينين، بعد أن سهّلوا نقله من سويسرا إلى روسيا في عربة من رصاص. وفي الحقيقة، فإنّ ما سمّي بـ**عمليّة سْتالين** كان كارثة لألمانيا ولسائر العالم.

في السنة نفسها (١٩١٧)، دخلت الولايات المتّحدة الحرب إلى جانب فرنسا وإنكلترا. وفي أوّل آب/أغسطس ١٩١٧، نشر البابا **مذكّرة حبريّة حول السلام** يؤكّد فيها أنّ السلام يجب ألّا يكون «ابن العنف، بل ابن العقل». وكان قبيل ذلك قد عيّن أوجينيو پاتشلّي سفيرًا بابويًّا في مونيخ، مهمّته الدفاع عن السلام. ونجح الكردينال بالحصول على مقابلة إمبراطور ألمانيا، والمستشار بيتهمان - هولْڤيغ، وإمبراطور النمسا. إلّا أنّ بيتهمان - هولڤيغ سقط فحلّ محلّه ميكايليس، ممثّل الپروتستانت في هيئة الأركان، فانقطعت فجأة جهود

باتشلّي. وفي ٩ آب/أغسطس ١٩١٧، وجّه البابا إلى المتحاربين مذكّرة يعرض فيها أسس المناقشات. ومن أهمّ ما طرح فيها مسألة القبول بمبدأي الحقّ والعدل بدل القوّة المسلّحة، ونزع السلاح العامّ تدريجيًّا، وإنشاء هيئة تحكيم قادرة على معالجة المشاكل الدوليّة. وطُرِحت فيها مسألة إيجاد وسيلة منصفة لتسديد نفقات الحرب وتعويض الأضرار الناجمة عنها. إضافة إلى ذلك، فإنّ المذكّرة اقترحت سلسلة تدابير عمليّة لجلاء الجيوش وحلّ المشاكل المتّصلة بالأراضي المحتلّة والتي طُرِحت في السنوات الأخيرة.

لقد لقيَتْ هذه الوثيقة ترحيبًا حارًّا في ألمانيا وإنكلترا، وليس في فرنسا، لأنّ الانطباع ساد فيها بأنّ البابا يحاول أن يحابي الإمبراطوريّات المركزيّة. أمّا الرئيس وِلْسُون فقد ردّ على الحبر الأعظم بأنّه يقدّر جهوده، لكن من غير الممكن عقد سلام مع المسؤولين الألمان.

إنتهت الحرب بعد ذلك بسنة. وفي ١٩٢٠، وفي حين كانت جمعيّة الأمم تبدأ اجتماعاتها، نشر بندكتس الخامس عشر رسالته العامّة: **السلام، أروع مهمّة إلهيّة** *(Pacem, Dei munus pulcherrimum)*، بعد أن أشاد فيها بالوطنيّة مستوحيًا ذلك من حبّ المسيح نفسه مسقطَ رأسه، طالب، مرّة جديدة لذاته بوصفه حبرًا أعظم، بحقوق سلطان دولة رمزيّة لم تعترف به بها قطّ الحكومة الإيطاليّة. وأخطر نتيجة للأمر الواقع هذا، أنّ الكرسيّ الرسوليّ لم يستطع أن يشارك في أعمال جمعيّة الأمم بسبب معارضة المندوب الإيطاليّ، نيتّي. فقد أعلن هذا المندوب أنّ الكرسيّ المقدّس لم يعد دولة.

غير أنّ وضع الكنيسة في العالم كان قد تحسّن تحسّنًا ملموسًا. ففي ١٩٢١، أُعيدَت العلاقات بفرنسا؛ وببولونيا وإيرلندا، وهما بلدان كاثوليكيّان، استعادا استقلالهما؛ والتقاء الجمعيّات العمّاليّة الكاثوليكيّة في لاهاي، في ١٩٢٠، أظهر للجميع التطوّر الذي حقّقته هذه المجموعات في البلدان الأحد عشر المُمثّلة.

ولم تقتصر نشاطات البابا مع هذا على السياسة الدوليّة. ففي ١٩٢٠، أعلن جان دارك قدّيسة. وفي ١٩٢١ خصّص لدانتي رسالة مطلعها **في الشؤون الباهرة** *(In praeclara)*، لمناسبة المئويّة السادسة لموت الشاعر الفلورنسيّ، مستذكرًا الاتّصال المستمرّ الذي قام بين مؤلّف **الملهاة الإلهيّة** والكتب المقدّسة، ومُثنيًا على عمله كونه تعظيمًا ساميًا للعدل وللعناية الإلهيّة.

توفّي بندكتس الخامس عشر في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٢٢ في الڤاتيكان ضحيّة نزلة وافدة. وكانت كلماته الأخيرة: «إنّنا نقدّم حياتنا من أجل سلام العالم».

٢٥٨ - بيّوس الحادي عشر (١٩٢٢-١٩٣٩)

أكِيلِلي راتّي، وُلد في ٣١ أيّار/مايو ١٨٥٧ في ديزيو قرب ميلانو لعائلةٍ بورجوازيّة. كان والده صاحب معمل للحرير. درس في ميلانو وسيم كاهنًا سنة ١٨٧٩. في ١٩٠٧، عيّن مديرًا للمكتبة الإمبروزيانيّة في عاصمة لومبارديا، وفي ١٩١١، عيّنه بيّوس العاشر نائبًا لمدير المكتبة الڤاتيكانيّة التي تولّى مهمّة المدير فيها لاحقًا (١٩١٤).

كان رجل علم كرّس ذاته للدرس. نشر قبل

حبريّته عدّة دراسات تتناول تاريخ الكنيسة، والكتابات القديمة، وتاريخ الفنّ والأدب. واشتهر بأنّه من أكثر متسلّقي الجبال جرأة في أيّامه. ففي ١٨٨٩، كان أوّل مَن بلغ قمّة دِيفُور (Dufour) في سلسلة الجبل الورديّ، وهي مغامرة روى خبرها في مذكّراته. في ١٩١٩ عيّن قاصدًا رسوليًا في فَرْصُوفْيا فشغل هذا المنصب بلباقة تامّة، وعلى رأس الحكومة البولونيّة المارشال پِيلْسُودْسْكِي. في ١٩٢١، عيّن أسقفًا على ميلانو حيث لم يمكث إلّا خمسة أشهر ليصير بعدها خليفة بطرس. رأى فيه الكرادلة الأميركيّون شخصًا متّزنًا بشكل يثير الإعجاب، بسيطًا وعفويًّا، وكان معجبًا بدانتي ومانزوني، فلم ينقطع أبدًا عن الدرس والمطالعة. في رسالته العامّة الأولى **حيث مكنونات الله** (*Ubi arcana Dei*)، العام ١٩٢٢، وفيها يحدّد أسس العمل الكاثوليكي، يؤكّد أنّ الشرّ ناجم عن أنّ الله ويسوع المسيح قد أُبعِدا عن الناس، وأنّ الوسيلة الوحيدة لِتجدَ البشريّة السلام الحقيقيّ هي إعادة المسيح ملكًا. وهذا ما كان يجب أن ينكبَّ عليه العمل الكاثوليكيّ، هذه المؤسّسة الأساسيّة في الكنيسة. في ١٩٢٥، أنشأ البابا عيد المسيح الملك الذي يحتفل به في الأحد الأخير من تشرين الأوّل/أكتوبر.

كانت ريح جامحة تجتاح العالم. فالشيوعيّة التي انتصرت في روسيا كانت قد بدأت تحرّك النفوس الساذجة في أوروبّا كلّها. على أن تقدّم البولشفيك في روسيا كبحه پيلْسودسكي. وفي هنغاريا، كان نظام بيلا كوهْن قد زرع الرعب في أثناء العام ١٩١٩، إلّا أنّ الجيوش الرومانيّة سحقته في حرب

قصيرة دمويّة. وفي إيطاليا حيث أحدثت نتائج ما بعد الحرب استياءً كبيرًا، كان الشيوعيّون والاشتراكيّون يثيرون الاضطرابات باستمرار، والبلاد تعيش حالة رعب متواصل. وفي تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٢، بعد أن قام بَنِيتُو موسوليني بمسيرته إلى رومة، كلّفه الملك تشكيل الحكومة. وفي ١٩٢٦، باشر باروني، مستشار الحكومة، مفاوضات سرّيّة مع المحامي پاتْشِيللي، شقيق السفير البابويّ في برلين، فتوصّلا إلى وضع مشروع اتّفاق يضع حدًّا «للمسألة الرومانيّة» قائم على الأسس التالية:

- إعادة إنشاء دولة يمارس فيها البابا سيادته تُدعى حاضرة الڤاتيكان.
- توقيع اتّفاق ماليّ ومعاهدة.

وفي ١١ شباط/فبراير ١٩٢٩، وقّع الكردينال غاسْپارّي باسم الكرسيّ الرسوليّ، وبنيتو موسوليني باسم إيطاليا، الاتّفاقات الثلاثة في قصر لاتران:

١ - معاهدة سياسيّة أو ديبلوماسيّة تعترف بوجود دولة بابويّة قائمة على أربعة وأربعين هكتارًا تضمّ باسيليكا القدّيس بطرس، وقصر الڤاتيكان وحدائقه، والمتاحف والأبنية المختلفة القائمة في جواره.

٢ - تسمح الحكومة الإيطاليّة بإنشاء محطّة سكّة حديديّة متّصلة بخطّ ڤِيتِرْب.

٣ - إنشاء مكتب للبريد، والبرق، والهاتف، ومحطّة إذاعة.

أمّا خارج رومة، فقد اعتُبر كاسْتِلْ غانْدُولْفو، مقرّ البابا الصيفيّ، مُلحَقًا بالأراضي البابويّة، وكذلك فإنّ عدّة أبنية في رومة مثل مدرسة نشر

الإيمان، وباسيليكات مختلفة، ومراكز جمعيّات كبيرة نعمت بحصانة دوليّة. وأمّا الاتّفاق الماليّ فكانت غايته تقديم تعويض إلى الكرسيّ الرسوليّ عن الأضرار التي لحقت به من جرّاء تأميم الدولة الإيطاليّة أملاكًا بابويّة في العقود السابقة. ثمّ إنّ المعاهدة أعادت علاقات الكرسيّ الرسوليّ بالدولة إلى إطارها القانونيّ، وضمنت حرّيّة العبادة والولاية القضائيّة للكنيسة، وأمّنت استقلال الكنيسة ومساندة الحكومة إيّاها في كلّ ما له علاقة بإتمام رسالتها.

على أنّ الاصطدامات لم تلبث أن حصلت بين الدولة الجديدة الخاضعة لنظام استبداديّ والكرسيّ الرسوليّ. ففي الرسالة العامّة **ما كنّا بحاجة** *(Non abbiamo bisogno)* (١٩٣١) انتقد البابا الأفكار الفاشيّة مطابقًا بينها وبين النازيّة، والبولشفيّة، واليعقوبيّة، وفكرويّات أخرى مستوحاة من عبادة الدولة. وازدادت الأزمة حدّة في ١٩٣٨ عندما زار هتلر رومة، فغادر البابا الڤاتيكان رافضًا مقابلة الديكتاتور الألمانيّ الذي تهرّب من تنفيذ الاتّفاق الموقّع مع الكرسيّ الرسوليّ في ١٩٣٣، واتّخذ تدابير معادية للكنيسة الكاثوليكيّة في ألمانيا.

إنّ أهمّيّة رسائل البابا بيّوس الحادي عشر العامّة نابعة من أنّها تسلّط الضوء بقوّة على مشكلة توسّع الكنيسة، وأنّها حدّدت بحكمة عميقة أسباب الأزمة التي زعزعت العالم في هذه الحقبة، وانتهت لاحقًا بكارثة ١٩٣٩.

تناولت الرسالة العامّة **شؤون الكنيسة** *(Rerum Ecclesiae)* (١٩٢٦) الرسالات وإنشاء كنائس محلّيّة. وفي ١٩٢٥، أعيد طرح مسألة الوحدة مع الكنائس الشرقيّة. وفي مجرى السنة

اليوبيليّة، استذكر البابا المجمع النيقاويّ (٣٢٥). وأصدر في ١٩٢٨ الرسالة العامّة **نفوس البشر** *(Mortalium animos)* وجّه فيها إلى الكنائس المنفصلة نداءً مؤثّرًا للنظر في أمر إمكانيّة الوحدة. وفي ١٩٢٦، ثبّت بيّوس الحادي عشر شجب حركة شارل مُورّاس الفكرويّة والسياسيّة بوصفها حركة لاأدريّة، كما شجب صحيفته **العمل الفرنسيّ** *(L'Action Française)*، وكان البابا بيّوس العاشر قد سبق فحرمهما في ١٩١٤. وفي رسالته العامّة التي أصدرها بالألمانيّة **بقلق بالغ** *(Mit Brennender Sorge)*، أبرز الطابع الوثنيّ الذي يَسِم النازيّة، كما ندّد بالعنصريّة. وفي السنة ١٩٣٧، شجب الماركسيّة والشيوعيّة الملحدة في رسالته العامّة **الفادي الإلهيّ** *(Divini Redemptoris)*، وهاجم بشدّة عقيدة «مُنكري الله» (sans-Dieu). وفي رسالته **في ذكرى السنة الأربعين** *(Quadragesimo anno)* احتفالًا بمرور أربعين سنة على رسالة لاون الثالث عشر **الأمور الجديدة** *(Rerum novarum)*، توجّه البابا إلى العمّال وذكّرهم بما صنعته الكنيسة لمصلحة الشغّيلة، وجدّد شجب الشيوعيّة وختم خطابه بنداء من أجل «إقامة نظام اجتماعيّ يتوافق توافقًا تامًّا ووصايا الإنجيل».

أمّا في الخارج، فكان يُخال أنّ أعداء الكنيسة يوشكون أن يحقّقوا انتصارًا جديدًا. فالجبهة الشعبيّة تهيمن على فرنسا. وألمانيا تخضع لنظام يذكّر بالفظاعات في مطالع العصر الوسيط حين كان الوثنيّون يفتكون بمبعوثي رومة. وفي روسيا، على عهد سْتالين، بلغ اضطهاد المسيحيّة منتهى الشدّة. وفي إسبانيا، سيطرت الشيوعيّة على البلاد. لكنّ

حرب التحرير التي انطلقت سنة ١٩٣٦ وضعت حدًّا لسيطرة الرعب في شبه الجزيرة الإيبيريّة، حين قضت، في ١٩٣٩، على أدهى خطر هدّد البلاد إطلاقًا منذ حرب الاسترجاع (Reconquista). وكانت الكنيسة الإسبانيّة إحدى الضحايا التي ألحق بها أشدّ أنواع الاضطهاد مبعوثو الملحدين الذين كان الحبر الأعظم قد أفصح عن غضبه المحق عليهم. كانت أزمنة عصيبة تطلّ على العالم أجمع. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٣٨، توجّه بيّوس الحادي عشر، المريض، المنهَك، عبر الإذاعة إلى البشريّة، عشيّة محادثات مونيخ وأعلن تقديمه حياتَه ثمنًا للسلام، فارتعش العالم بأسره متأثّرًا من كلامه، إلّا أنّ حكّام الشعوب، بدافع المبادئ التي تدوس الإنسان وحقوقه الأساسيّة، كانت تحرّكهم خيالات سياساتهم وفكرويّاتهم المجرّدة، فأصمّوا آذانهم عن سماع هذه الرسالة. وبعد بضعة أشهر، في ١٠ شباط/فبراير ١٩٣٩، توفّي بيّوس الحادي عشر في الفاتيكان وهو يرسم بيده إشارة حركة تدلّ على إعطائه البركة.

٢٥٩ - بيّوس الثاني عشر (١٩٣٩-١٩٥٨)

لم ينعقد مجمع الكرادلة الانتخابيّ هذه المرّة إلّا بعد مضيّ خمسة عشر يومًا على وفاة البابا، بموجب ترتيب أقرّه بيّوس الحادي عشر بحيث يتاح للكرادلة القادمين من بلدان بعيدة أن يَصِلوا في وقت ملائم.

في ٢ آذار/مارس ١٩٣٩، انتخب الكرادلة أوجين پاتْشيللي بابا. أصلُه من رومة، وقد صادف انتخابه يوم عيد مولده الثالث والستّين.

تميّز المونسنيور پاتشللي منذ السنوات الأُوَل لسيامته الكهنوتيّة، حين عيّنه الكردينال غاسْپارّي مساعدًا له، بفصاحته، وبذاكرته العجيبة، وبموهبة إتقان اللغات. في ١٩١٧، والحرب العالميّة الأولى مضطرم أوارها، عيّنه بندكتس الخامس عشر سفيرًا بابويًّا في مونيخ ثمّ في برلين. وقّع معاهدة مع باڤاريا العام ١٩٢٤، ومعاهدة أخرى مع پروسيا في ١٩٢٩. وبعد اثنتي عشرة سنة قضاها في ألمانيا حيث ترك ذكرى لا تمحى، عاد إلى رومة فأنعم عليه بيّوس الحادي عشر برتبة الكرديناليّة. وفي ١٩٣٠، خلف الكردينال غاسپارّي في أمانة سرّ الدولة، فكان تعاونه مع البابا تامًّا، فذكّر المؤرّخين بالوحدة الروحيّة التي جمعت لاون الثالث عشر والكردينال رامپُولّا، وتلك التي سادت لاحقًا بين بيّوس العاشر والكردينال مِرّي دِل ڤال.

العام ١٩٣٤، مثّل پاتشيللي الحبر الأعظم في المؤتمر القربانيّ في بوِينُس أيْرِيس. والعام ١٩٣٥، اختتم في لورد يوبيل الفداء. والعام ١٩٣٦، استقبله الرئيس روزفلت في البيت الأبيض. والعام ١٩٣٧، كرّس في ليزيو الباسيليكا الجديدة المشادة على اسم القدّيسة تريز الطفل يسوع، وألقى في باريس خطابًا مأثورًا موضوعه: دعوة فرنسا المسيحيّة. والعام ١٩٣٨، ترأّس باسم البابا بيّوس الحادي عشر المؤتمر القربانيّ في بُودابِسْت.

تمّ تتويج بيّوس الثاني عشر في ١٢ آذار/مارس ١٩٣٩ في ظروف دقيقة حرجة. ففي الربيع المأسويّ هذا احتلّت الجيوش الألمانيّة تشيكوسلوڤاكيا. كان البابا قد بذل جهودًا جبّارة لاجتناب حرب جديدة، إلّا أنّ الكلمات التي أطلقها بيّوس الحادي عشر في

١٩٣٨ لم يُعِرْها أحد سمعًا: **«مخرّبون هم مَن يـريـدون الـحـروب»** (*Dissipa gentes quae bella volunt*). في ٢٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٩، زار ملك إيطاليا والملكة البابا في الڤاتيكان، فردّ لهما البابا بيّوس الثاني عشر الزيارة في كانون الثاني/يناير ١٩٤٠. وفي هذا الوقت، كانت الحرب قد اندلعت بين ألمانيا وبولونيا من جهة، وبين ألمانيا وفرنسا وإنكلترا من جهة أخرى. وبالرغم من وضع إيطاليا العضو في «المحور»، فقد بقيت على هامش النزاع. وكان البابا، مثله مثل ڤيكتور عمّانوئيل، يتمنّى أن يحافظ بلده على هذا الموقف. وعندما أعْلن في ٥ أيّار/مايو ١٩٤٠ القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ والقدّيسة كاترينا السيانيّة شفيعين لإيطاليا، إنّما كان يعبّر عن فرحه بالسلام الذي أنعم به الله على بلاده. غير أنّ ارتياح الحبر الأعظم هذا لم يكن إلّا عابرًا، لأنّ إيطاليا دخلت الحرب بعد أشهر من ذاك التاريخ، وتحوّل الڤاتيكان بفعل النزاع مدينة محاصرة، مطوّقة وسط بلد في حالة حرب. وراحت العلاقات بالعالم الخارجيّ تزداد صعوبة. وأحدثت مصاعب جديدة بين السلطة الروحيّة والسلطة الزمنيّة البرقيّات التي كان البابا يرسلها إلى ملوك بلجيكا، وهولندا، واللوكسمبورغ، وهي بلدان اجتاحها قادة هتلر وجيوشه. لكنّ شعب رومة أدرك، خصوصًا بعد ١٩٤٢، أنّ المدافع الحقيقيّ عن المدينة الخالدة إنّما هو البابا، مثله مثل البابوات زمن اجتياح البرابرة رومة. في ١٩ تمّوز/يوليو ١٩٤٣، قُصفت باسيليكا القدّيس لُورَنْزُو والحيّ المسمّى باسمه، وسقط الكثير من الضحايا بين السكّان، فخفّ بيّوس الثاني عشر إلى زيارة المنازل المهدّمة، وساعد

المحتاجين، وأعلن أنّه إذا استمرّ القصف، فسيقيم في أحياء رومة الفقيرة.

في ٨ أيلول/سبتمبر، وقّع الماريشال بادُوليُو الصلح مع الحلفاء الغربيّين إثر تسلّمه السلطة خليفة لموسوليني. وفي ١٩٤٤، تقدّمت جيوش الحلفاء في شبه الجزيرة واقتربت من رومة. فصرّح البابا أن ليس في نيّته أن يغادر المدينة التي كان يهدّدها الفريقان: الألمان والحلفاء.

ما كانت المعارك العنيفة لتوفّر إطلاقًا كنوز البلاد الفنيّة. وكان جبل كاسِينُو أحد أبرز الضحايا في جنون تلك المعارك التي تصارع فيها الحلفاء والألمان على أرض ليست أرضهم. وعاش سكّان رومة ساعات قلق مضنية، صوّرها تصويرًا رائعًا جِيُوزِيبِّي أونْغارِيتِّي في قصيدته **الألم**. وحصلت، أخيرًا، الأعجوبة: إنسحب الألمان من رومة فدخلها الحلفاء في حزيران/يونيو ١٩٤٣ ولم يحدثوا أدنى أذى، محترمين بذلك عاصمة العالم الكاثوليكيّ.

تجدر الإشارة إلى أنّ خصوم النظام الفاشِسْتِيّ، الكاثوليك والاشتراكيّين، كانوا قد وجدوا لهم ملجأ في الڤاتيكان إبّان الحرب. وكثير من اليهود استطاعوا إنقاذ حياتهم بفضل إيوائهم في الأديرة. وبعد الحرب، أتاح موقف الكنيسة النبيل، المستوحى من تقليد الرحمة والمحبّة الذي شهرت به، إنقاذ ضحايا أُخَر من الاضطهاد السياسيّ.

أنشأ الراعي الملائكيّ[٥٩] (Pastor Angelicus) عدّة منظّمات بقصد مساعدة الأسرى والمشرّدين، وتقديم أخبار ومعلومات إلى عائلات الجنود المفقودين.

---

(٥٩) هو اللقب الذي أُطلق على البابا بيّوس الثاني عشر.

عملت «الجنة الإغاثة الحبريّة»، بإشراف البابا المباشر، على تخفيف البؤس عن المنكوبين، وتابعت نشاطها في ما بعد الحرب، لأنّ تغافل السياسيّين كان يبقي عالقة المشاكل المؤلمة التي يعانيها اللاجئون، والأسرى، والمضطهدون.

في خضمّ ذلك الإعصار، وجّه بيّوس الثاني عشر إلى العالم المصاب بالجنون رسائل محبّة وسلام، أشهر تلك التي أذاعها في عيد الميلاد العام ١٩٣٩، و١٩٤١، و١٩٤٢؛ إذ إنّها تشكّل منتقيات حقيقيّة، مميّزة، من الحكمة المسيحيّة مطبّقة على عالم القانون الدوليّ.

عندما دخلت البشريّة العصر الذرّيّ، بذل بيّوس الثاني عشر ما استطاع من جهود لتحقيق الحدّ من انتشار الأسلحة، ولمنع التفجيرات الجهنّميّة التي يهدّد خطرها البشريّة، بل يهدّد كلّ أشكال الحياة. لقد عرف بيّوس الثاني عشر أن يذكّر مَن يمكنهم الإيمان بخلق عالم جديد وسعيد قائم على التقدّم التقنيّ والخيرات الأرضيّة وحدها من دون غيرها، بأنّ السلام والسعادة لا يتمّ الحصول عليهما إلّا باحترام كرامة الإنسان وحرّيّته. واتّبع الطريق الذي رسمه لاون الثالث عشر ومن بعده بيّوس الحادي عشر، فتوجّه إلى العمّال في كلّ مرّة لم تأخذ الحكومات حقوقهم بعين الاعتبار، أفي الشرق كان ذلك أم في الغرب، وساعد على إنشاء منظّمات عمّاليّة مشبعة بروح الإنجيل. حارب الشيوعيّة التي تدوس حقوق الإنسان، والتي لم يتأخّر أعوانها في البلدان التي احتلّتها الجيوش السوفياتيّة عن القبض على الأساقفة الكاثوليك، وعن إقفال الأديرة، والحدّ من نشاط الكنيسة أو حتّى إلغائه.

عرفت الكنيسة في حبريّة بيّوس الثاني عشر نموًّا عظيمًا، ليس في مجال الرسالات في البلدان الأفريقيّة والآسيويّة وحسب، بل أيضًا في المجالين الخلقيّ والروحيّ. فالطريق التي شقّها في القرن الماضي شاتوبريان ولامِينّه، سار فيها لاون بِلُوَا وشارل پيغي في فرنسا، ومانْزُوني ورُوسْمِيني في إيطاليا. وأثبت للأوروبّيين ارتداد أشخاص لامعين أنّ آمال أشهر المفكّرين والشعراء تتوارد لتتّجه إلى الكنيسة، وأنّ أجيال الأنوار وأجيال الإيمان الجامح بالتقدّم المادّيّ لم تُضعف العقيدة ولم تُبعد عن الإنجيل النفوس التي يشغل بالها خلاص البشريّة. إذ إنّ پُولْ كْلُودِيلْ، وفرنسيس جايْمسْ، وجاك ماريتان، وجورج بِرنانُوس، وفرنسوا مُورياك، ودانيال رُوپْس، وجُوليان غْرِين في فرنسا؛ وتْشِيسْتِرتون، وشارل مُورغان، وت.س. إلْيُوت، وغْراهام غْرِين في إنكلترا؛ وجيوڤاني پاپِيني، وجِيُوزِيّي أونغاريتّي، ونقولا ليزي في إيطاليا؛ وجِرْتْرُودْ فُونْ لي فُورْتْ، وورومانو غْوَارْدِينِي، وماكْسْ مِلّ في ألمانيا وفي النمسا، ونكتفي بذكر الأبرز منهم، أضفوا ألقًا مميّزًا على عصرنا وجعلوا الإنسان المسيحيّ، بفضل مواقفهم، طليعة البشريّة. وواضح أنّ الساحة لم تَفُتْها ضلالات ومحاولات لتحويل الدعوات والآمال إلى طريق السوء. فقد تصدّى بيّوس الثاني عشر للمبتدعين برسالته العامّة **الجنس البشريّ** (*Humani generis*) (١٩٥٠)؛ ونشر الحبر الحكيم هذا رسائل عامّة عديدة: **الجسد السرّيّ** (*Mystici corporis*) يتناول فيها العقيدة المسيحيّة: تعليمها، وشرائعها وطبيعتها. وتناول في **وسيط الله** (*Mediator Dei*) موضوع العبادة

والاحتفالات الدينيّة، والصوم القربانيّ، وتعديل
ليترجيا أسبوع الآلام، والموسيقى الدينيّة، والتعاليم
الأساسيّة في الليترجيا. وتناول في رسالته في ذهننا
(Menti nostrae) نشاط الإكليريكيّين الراعويّ
إلخ...

إنّ حصول بلدان عديدة على استقلالها بعد أن
كانت، حتّى ١٩٤٥، خاضعة لنظام استعماريّ،
حمل بيّوس الثاني عشر على تنظيم السلطة الكنسيّة
المحلّيّة فيها، وعلى تعيين عدد كبير من الكرادلة،
العام ١٩٤٦ و١٩٥٣، في البلدان التي انتشرت فيها
الرسالة المسيحيّة حديثًا. وقضيّة وحدة الكنائس
حملت البابا على أن يوجّه نظره شطرَ الكنائس
الشرقيّة، وإلى الكنيسة البروتستانتيّة وتحقيق خطوات
مهمّة في هذا السبيل. وكانت رسالة العلمانيّين من
اهتمامات هذا الحبر اليوميّة. فقد انعقد في رومة
العام ١٩٥١ و١٩٥٧ مؤتمران عالميّان كبيران حول
هذا الموضوع. وكثّف «العمل الكاثوليكيّ» نشاطه
بالتعاون مع السلطة الكنسيّة وأوكِلَت إليه مهمّات
جديدة خصوصًا الدفاع عن الكنيسة أكثر فأكثر في
عالمنا الحاضر.

وإحدى فضائل بيّوس الثاني عشر الواضحة دفاعه
عن فكرة توحيد أوروبّا، بقصد تحريك حضارة
مسيحيّة جديدة، وتسهيل الدفاع عن الأفكار التي
جعلت هذه القارّة مركز العالم والأمل في تحرّر
الشعوب. ولم ينسَ ما سمّاه «كنيسة الصمت»، تلك
القائمة في البلدان الواقعة وراء الستار الحديديّ،
والخاضعة لنظام كان يطبّقه القياصرة الوثنيّون على
المسيحيّين الأوائل.

كان بيّوس الثاني عشر الأكثر شعبيّة والأكثر

تحريكًا للجماهير بين الباباوات. لقد استقبل ألوفًا
وألوفًا من الأشخاص من ألوانٍ ومعتقدات شتّى.
وكان لكاتب هذه السطور الحظّ في أن يستقبله الحبر
الأعظم العام ١٩٤٥. كان رجلًا يفرض الإجلال
والاحترام. مظهره وحركاته توحي بالقداسة. تكاد
رجلاه لا تلامسان الأرض، وكأنّ نظرته تنفذ إلى
حقيقة لا يبلغ معرفتها سائر الناس. كلماته تبعث في
نفس مَن يسمعها رعشة، وتوفّر له قناعة بأنّ في
العالم إنسانًا يعلو على كلّ أنواع المظالم والأحقاد،
يفكّر ويعمل باسم البشريّة المتألّمة، المعذّبة حتّى
الاستشهاد. هذا الراعي الملائكيّ كان، بدون شكّ،
بابا قدّيسًا يوحي بذلك وجهه، وجه راهب من
القرون الوسطى، ويداه المرفوعتان دائمًا تستمطران
الرحمة. عندما كان يبسط ذراعيه على الجماهير من
شرفة القدّيس بطرس، فكأنّ ذراعيه امتداد بشريّ
للرواقَيْن اللذين شادهما بِرنيني في ساحة الباسيليكا،
رمزًا لحماية الله ولشركة البشر مع الله.

نَفِدَت قوى بيّوس الثاني عشر وأنهكه المرض،
فتوفّي ليل التاسع من تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٥٨
في مقرّه الصيفيّ في كاسْتِلْ غانْدُولْفُو.

٢٦٠ - يوحنّا الثالث والعشرون (١٩٥٨-١٩٦٣)

هو أنج-جوزف رُونْكاللي. وُلد في ٢٥ تشرين
الثاني/نوفمبر ١٨٨١ في سُوتّو إِل مُونْتِي، بالقرب
من بِرْغامُو، في مقاطعة كانت في ما مضى تابعة
للبندقيّة، وما زالت تحافظ في مظاهرها المعماريّة
وفي عادات أهلها على ذكرى المدينة العريقة.

يوحنّا الثالث والعشرون ينتمي إلى عائلة عمّاليّة

قديمة العهد، تعود أصولها إلى القرن الخامس عشر، عندما جاء مارْتينُو رونكاللي، الملقّب بمائيتينُو، من فاللي إيمانيا واستقرّ بالقرب من برغامو. ولا تزال محفوظة في باسيليكا القدّيس بطرس أعمال جميلة من ريشة بومارانتشِيُو، واسمه الحقيقيّ كْريستوف رونكاللي.

درس أنج-جوزف رونكاللي أوّلًا في برغامو، ثمّ في رومة إلى حيث ذهب طالبًا إكليريكيًّا العام ١٩٠٠ وصادف ذلك سنة اليوبيل، والبابا لاون الثالث عشر يحتفل بفجر القرن الجديد بأشعار نظمها باللاتينيّة. حين عُيّن المونسنيور جاك راديني-تَديشكي أسقفًا على برغامو في ١٩٠٥، اختار الكاهن الشابّ رونكاللي ليكون أمين سرّه، هو الذي أصبح أحد أبرز الأساقفة الإيطاليّين في حقبة نضال مرير بين الكنيسة والسلطة الزمنيّة. وتميّز نشاط الكنيسة في هذه المرحلة بكثافته وبخاصّة في الحقل الاجتماعيّ، كما أنّ أسقف برغامو برز بأعماله لمساعدة الذين يطالبون بشروط حياة أفضل ممّا كانوا عليه. فعندما أعلن عمّال رانيكا الإضراب بادر المطران راديني تديسكي إلى فتح اكتتاب ليوفّر لهم خبزهم اليوميّ.

بعد خمس سنوات من إنهاء رونكاللي دروسه في إكليريكيّة برغامو، عاد إليها ليدرّس علم الاجتماع وتاريخ الكنيسة. وفي أثناء السنوات التي قضاها في التعليم ألّف كتابَين: **الكردينال قيصر بارُونيو في المئويّة الثالثة لموته** (نشر في ١٩٠٨)، **وقائع زيارة القدّيس شارل بُورّوميُو الرسوليّة برغامو** يرسم فيه الفترة الأكثر تعبيرًا عن النهضة الدينيّة بعد المجمع التريدنتينيّ. وفي ١٩١٢، نشر محاضرة بعنوان

الرحمة العظمى، أبرز فيها قِدَم أعمال المساعدة في تاريخ الكنيسة والأصول الوسيطيّة للأعمال الخيريّة. ومن الأهمّيّة بمكان أن نشير إلى أنّ برغامو كانت أولى مدينة إيطاليّة عاد فيها الكاثوليك إلى الحياة السياسيّة من دون أن يأخذوا بالاعتبار الشعار الحبريّ «من غير المناسب» (Non expedit) الذي أطلق في عهد لاون الثالث عشر. فقد تقدّم إلى الانتخابات مرشّحان كاثوليكيّان في ١٩٠٤ ونجحا فيها. ووافق الفاتيكان على موقف الأسقف، كما أنّ مجلّة **الحضارة الكاثوليكيّة** المشهورة (*Civiltà Catholica*) برّرته كاتّفاق بين السلطة الكنسيّة المركزيّة والأساقفة. وبعد سنة من ذلك التاريخ أصدر البابا رسالة مطلعها قصدٌ ثابت (*Fermo proposito*) خوّل فيها الكاثوليك المشاركة في الانتخابات لإرسال نوّاب إلى البرلمان في رومة. كان الخضوع لشعار «من غير المناسب» حتّى ذلك الوقت تامًّا وقد ظهر بشكل مؤثّر لافت في ١٨٩٥ عندما بلغت نسبة المقاطعين الكاثوليك ٦٠٪ من المقترعين. وكان أحد أبطال التدخّل المطران تديسكي بمساعدة رونكاللي. وفي ١٩١٤ توفّي مطران برغامو بين ذراعي أمين سرّه الذي وضع عنه لاحقًا سيرة مفصّلة.

عندما دخلت إيطاليا الحرب، تطوّع الأباتي رونكاللي ومضى إلى الجبهة وحصل على رتبة رقيب. وعاد فيما بعد إلى مسقط رأسه حيث عُهِد إليه بإدارة الإكليريكيّين الروحيّة، وفي كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٠، استدعي إلى رومة. لقد كان بيّوس الحادي عشر يعدّ العدّة ليوبيل ١٩٢٥ وللمعرض الخاصّ بالرسالات فكلّف رونكاللي بتنظيمه.

في ١٩٢٤ أُرسِل رونكاللي إلى بلغاريا مدبّرًا رسوليًّا، فكانت مهمّته تنسيق نشاطات الكاثوليك البلغار، وانتقل من صوفيا إلى إسطمبول مكلّفًا بالمهمة نفسها، ثمّ إلى أثينا مندوبًا رسوليًّا. وفي أثناء الأوضاع المأسويّة في سنتي ١٩٤١ و١٩٤٢، وجد اليونانيّون، أمن الكاثوليك كانوا أم لم يكونوا، لدى رونكاللي مساعدة فاعلة ومستمرّة. لقد أرسل الفاتيكان أدوية وموادّ غذائيّة خفّفت من بؤس الشعب اليونانيّ الذي استطاع متابعة مقاومته البطوليّة.

في كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٤٤، عيّن بيّوس الثاني عشر رونكاللي سفيرًا بابويًّا في باريس، وكان، هو، مَن قدّم إلى الجنرال ديغول في الأوّل من كانون الثاني/يناير ١٩٤٥ التهاني باسم السلك الديبلوماسيّ. كان اليسار يسيطر على الحياة السياسيّة الفرنسيّة، والصحف تطالب برحيل سبعة وثمانين شخصًا: كرادلة، ومطارنة، ورؤساء أساقفة متّهمين بالتعامل. لكنّ تدخّل السفير البابويّ المباشر واللبق، حصر عدد غير المرغوب فيهم بثلاثة. وكان مطروحًا في فرنسا آنذاك مشكلتان خطيرتان: الأولى، مشكلة التعليم، لأنّ الشيوعيّين والراديكاليّين كانوا يناضلون من أجل تعليم علمانيّ حصريّ؛ والثانية، مشكلة الأسرى الألمان والمتعاونين معهم الموقوفين. أمّا مشكلة التعليم فقد حُلّت بطريقة ملائمة، بمعنى أنّ الكنيسة استطاعت أن تتمتّع بالاستقلال الضروريّ لمتابعة رسالتها الروحيّة والاجتماعيّة. أمّا المشكلة الثانية فكانت أكثر دقّة من تلك: فبعد نهاية الحرب بثلاث سنوات (١٩٤٨)، كان عدد الأسرى الألمان في فرنسا

(٢٦٠,٠٠٠) مئتين وستّين ألفًا. ولمّا لم تكن هناك بعدُ معاهدة سلام بين فرنسا وألمانيا، فكانت المشكلة تبدو غير قابلة للحلّ. كانت الولايات المتّحدة وإنكلترا قد أعادت، كلٌّ من جهتها، الأسرى إلى بلادهم. فوجّه الكرادلة والمطارنة الفرنسيّون في ٢٣ آذار/مارس ١٩٤٨ نداءً إلى الحكومة بإطلاق الأسرى، فما كان من الحكومة إلّا أن لبّت هذا النداء بروحٍ واقعيّة من الأخوّة الأوروبيّة.

ووُضِعَت براعة السفير رونكاللي الديبلوماسيّة ومشاعره الإنسانيّة موضع امتحان قاس، عندما هزّ فرنسا الجدل في موضوع «الكهنة العمّال». لم يكن هذا الاختبار جديدًا، فمنذ ما يزيد عن القرن عرفت فرنسا تقليدًا مشهورًا باسم «الرسالة العمّاليّة». على أنّ ما أثار شيئًا من النفور هو سلوك الأبّاتي غُودان الذي استغلّ الشيوعيّون، بكلّ أسف، نجاحَه وحوّلوه إلى مجرّد دعاية سياسيّة. لقد كانت فرنسا «بلد رسالة»، وعرف القاصد الرسوليّ أن يتصرّف تصرّف صاحب دعوة رسوليّة حقيقيّة. وكثيرون أدهشتهم العلاقات التي قامت بين رونكاللي، السفير البابويّ، وإدوار هِرْيُو، رئيس الحزب الراديكاليّ، وأحد أقوى محظيّي الماسونيّة. وفي ١٩٥٧، مات هريو ميتة مسيحيّة، فأحدث ذلك صدمة شديدة في الأوساط الراديكاليّة والملحدة، وبلغ الأمر مبلغ الحديث عن «مؤامرة ضدّ الجمهوريّة».

في كانون الثاني/يناير ١٩٥٣، وضع رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة، فَنْسان أوريُول، الرئيس الأسبق للحزب الاشتراكيّ، القبّعة الكردينالية على رأس المونسنيور رونكاللي، في صالون الإليزه الكبير،

بمقتضى البروتوكول الملحوظ في المعاهدة بين فرنسا والفاتيكان. وعندما استقبل الكردينال الجديد في دار السفارة رئيس أساقفة باريس المونسنيور فِلتان الذي جاء يهنّئه، قال رونكاللي: «كم كنت أتمنّى أن أكون كاهن رعيّة، وأنهي حياتي في أبرشيّة ما في بلادي!». وبعد وقت قصير غادر باريس إلى البندقيّة التي عيّن بطريركًا عليها. هناك زاره الرئيس أوريول، والكردينال فِلتان، والكردينال ڤيشِنْسْكي، المتقدّم في أساقفة بولونيا. وكان رونكاللي، إذا أتاحت له مهامّه، يسافر إلى لندن، أو فاطمة، أو سان جاك دي كُومْبُوسْتيلا في إسبانيا، وبنوع خاصّ إلى سوتّو إل مونتي ليتأمّل الأرض التي شهدت مولده والتي كان إخوته ما زالوا يعملون فيها. وفي البيت العائليّ القديم في هذه القرية، وأفراد العائلة مجتمعون حول الراديو، سُمِع ذات ليلة خريفيّة، صوت دافئ يأتيهم بنبأ غير منتظر: «أبشّركم بفرح عظيم». في ذلك اليوم، ٢٨ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٥٨، عرف العالم اسم البابا الجديد: إنّه «أنج-جوزف رونكاللي». وراح آل رونكاللي المجتمعون في المطبخ المضاء يبكون من الفرح. وما لبثت النيران أن اشتعلت في الحقول المجاورة للمنزل وفي مقاطعة برغامو كلّها. هكذا دخل التاريخ يوحنّا الثالث والعشرون، خليفة بطرس المائتان والستّون.

أصدر يوحنّا الثالث والعشرون رسالته العامّة الأولى **إلى كرسيّ بطرس** (*Ad Petri cathedram*) في ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٥٩، وفيها يؤكّد أنّ «مصدر كلّ الشرور التي تعذّب الأمم إنّما هو جهل الحقيقة، واحتقار الحقيقة، وتشويه الحقيقة تشويهًا متعمّدًا». وفي نضاله، مثله مثل أسلافه، من أجل

السلام، يعتقد البابا الجديد أنّ قوّة الأسلحة الحديثة نفسها يمكن أن تحوّل حربًا جديدة إلى مجزرة إنسانيّة لا حدود لها، وتسبّب للبشريّة تدميرًا شاملًا. وأمام هذا المشهد المريع، ومن دون أن ينسى الذين ما زالوا يتعذّبون في معسكرات الاعتقال وفي السجون ما وراء الستار الحديديّ، ومن دون أن يغفل عن اللاجئين السياسيّين إلى الغرب، يعلن البابا: «إذا لم تحقّق الأمم وحدة أخويّة، مؤسَّسَة إلزاميًّا على العدل، وتغذوها المحبّة، فإنّ الوضع في العالم سيزداد حتمًا خطورة. لذلك نطلب إلى الجميع، بإلحاح، وبنوع خاصّ إلى المسؤولين في الدول، أن يفكّروا في الأمر تفكيرًا جدّيًّا بحضرة الله، ديّاننا، ويستعملوا جميع الوسائل التي يمكن أن تتوافر لهم، ليعيدوا إلينا الوحدة التي لا غنى عنها».

وينبّه الحبر الأعظم إلى أنّ هذه الوحدة لا يمكن الحصول عليها ما لم يُعَدْ إقامة نظام الحرّيّة كاملًا: حرّيّة الأشخاص، وحرّيّة الأمم، وحرّيّة الدول والكنيسة. إنّ الذين يجورون على الآخرين فيحرمونهم حرّيّتهم، ولا يراعون صراخ الألم تطلقه الجماهير المكبّلة بالقيود، يصعب عليهم الإسهام في تحقيق هذه الوحدة.

وواحد من أهمّ المقاطع في هذه الرسالة العامّة ذاك الذي يتحدّث فيه البابا عن الدعوة إلى مجمع مسكونيّ. (تمّ الإعلان عن هذا المجمع في ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٥٩ فأحدث أملًا كبيرًا في العالم أجمع). تناولت الأبحاث في هذا المجمع شؤون الديانة، وتنمية الإيمان المسيحيّ، وتجديد الآداب لدى الشعب المسيحيّ، وتحديث الشرائع الكنسيّة. وقد توجّه البابا إلى غير الكاثوليك

فخاطبهم بقوله: «أيّها الإخوة والأبناء»، وعبّر عن الأمل بعودتهم إلى حضن الإيمان الحقيقيّ.

أمّا بشأن «الكنيسة المُضْطَهَدة»، فقد قال البابا أن ليس في نيّته أن يمسّ شعور أيّ كان، «بل من الضرورة أن نرعى حقوق قطيعنا، وهذا ما نسعى إليه بمطالبتنا بأن يضمن القانون حرّيّة الجميع. فالذين يدعمون الحقيقة، والعدل، واحترام الأفراد والدول، لا يقيّدون الحرّيّة أو يحصرونها، ولا يقيمون العراقيل في وجهها، ولا يلغونها، ولا يقصدون إلغاءَها. فلا يمكن، بالتالي، تحقيق الازدهار لأبناء دولة ما بالعنف، ولا بالإكراه يمارس على العقول والقلوب».

في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٥٩، اجتمعت لأوّل مرّة برئاسة قداسته اللجنة التحضيريّة للمجمع المسكونيّ.

ويوم عيد الميلاد في ١٩٦١، وقّع البابا يوحنّا الثالث والعشرون البراءة **الخلاص البشريّ** *(Humanae salutis)* ليعلن فيها للعالم تدشين المجمع المسكونيّ السنة التالية. وفي الواقع، ففي ١١ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٦٢، بدأ المجمع الڤاتيكانيّ الثاني في باسيليكا القدّيس بطرس مسيرته الطويلة.

لماذا الڤاتيكانيّ الثاني؟ لأنّ المجمع الذي انعقد في الڤاتيكان ٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٨٦٩ في عهد بيّوس التاسع وكان له أن يعلن عصمة البابا، انقطع في ٢٠ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٨٧٠ بسبب دخول قوّات البيِيمُونْت رومة. فانفتحت بذلك للكنيسة دورة جديدة من الاضطهادات، يقابلها دورة من

الانتصارات الروحيّة العميقة والبعيدة المغزى. فالڤاتيكانيّ الثاني، مثله مثل الڤاتيكانيّ الأوّل، وهو تكملة له، إنّما يتابع تقليد الكنيسة، وكما قال دانيال روبس في كتابه الڤاتيكانيّ الثاني، فإنّه «يستجيب مطالب حقبته استنادًا إلى خبرة الماضي».

في خطاب الافتتاح الذي ألقاه البابا في ١١ تشرين الأوّل رسم صورة المجمع المسكونيّ الجديد بهذه الكلمات:

«إنّ المشكلة الكبرى التي على الإنسان أن يحلّها، بعد عشرين قرنًا تقريبًا، ما زالت هي هي: إنّ يسوع المسيح هو دائمًا مركز التاريخ والحياة. والناس معه ومع كنيسته، وهم ينعمون بذلك بالخيرات التي تتألّف من النور، والعذوبة، والنظام، والسلام. وإلّا، إن عاشوا بعيدًا عنه، أو عملوا ضدّه ومكثوا عن قصد خارج الكنيسة، فتحصل الفوضى، والخشونة في العلاقات الإنسانيّة، وخطر حروب فتّاكة».

ويضيف البابا في مقطع آخر: «إنّ الكنيسة، باسترشادها بنور هذا المجمع - وهذا هو رجاؤنا - سترى ثرواتها الروحيّة تتنامى، وتستخرج طاقات جديدة، فتنظر إلى المستقبل بروح ساكن. وفي الواقع، فإنّ الكنيسة - ما إن تكتمل التصحيحات المناسبة وتُرسى أسس تعاون متبادل إرساءً حكيمًا - ستعمل كي يوجّه الناس، عائلات وشعوبًا، عقولهم توجيهًا حقيقيًّا إلى الخيرات العلويّة».

وارتسم همُّ البابا الكبير بهذه الكلمات من خطابه: «إنّ أكثر ما يهمّ في المجمع المسكونيّ، هو أن تُحفَظ وديعة العقيدة المسيحيّة المقدّسة، وتُعلَّم بطريقة أكثر فاعليّة».

إنّ النتائج الأُوَل التي يمكن استخراجها من المجمع الفاتيكانيّ الثاني تبدو هكذا مليئة بالرجاء. ففي كتاب أصدره الأب إيف كُونْغار بعنوان **المجمع يومًا بيوم** (باريس ١٩٦٣)، يؤكّد المؤلّف أنّ الإخوة المنفصلين لم يتمثّلوا، حتّى، في المجمع الفاتيكانيّ الأوّل لأنّ الظروف النفسيّة آنذاك «كان يطغى عليها التنافس والجدال، وليس الحوار». أمّا اليوم، فإنّ الظروف مختلفة تمامًا، «ليس لأنّه ملحوظ تقديم تنازلات في نقاط مرتبطة بالعقيدة: فالأرثوذكس والبروتستانت، مثلهم مثل الكاثوليك، ليسوا على استعداد لذلك، بل لأنّنا نتناول التعارضات العقيديّة ذاتها بعيدًا عن مستوى الجدال، وبشيء من الابتعاد التاريخيّ الذي يخفّف الكثير من النواتئ الجانبيّة، ونتناولها في مناخ جديد من الصلاة والصداقة، وبإرادة مشتركة لأن نبحث في كلّ شيء انطلاقًا من «المركز» ومن «الجوهريّ»، والكثير من لُبّه مشترك فيما بيننا».

وهكذا، فإنّ الفاتيكانيّ الثاني يشكّل الخطوة الأولى في العصور الحديثة نحو توحيد كنيسة المسيح.

في ٢٨ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٦٢، يوم عيد المسيح الملك، وفي حين كان المجمع يتابع مناقشاته في باسيليكا القدّيس بطرس، دُشّن في رومة في حرم الجامعة الغريغوريّة، معرض موضوعه «كنيسة الصمت»، يبرز وجود كنيسة تقاسي الاستشهاد وراء الستار الحديديّ.

وواضح أنّ بابا قضى سنوات عديدة من حياته في الشرق، واستطاع الاتّصال مباشرةً بمشاكل الكنيسة الشرقيّة، يتّخذ لديه موضوع إعادة توحيد الكنيسة

أهمّيّة عظمى، وأنّ مسألة «الكنيسة المُضطَهَدة» والشعوب المقهورة تستحقّ بنظره أن يُسلَّط الضوء عليها بضمير موجَع، كوجع الضمير الذي كان يعتري خليفة بطرس، فينطلق ليدافع عن المسيحيّة في مواجهة الأتراك الغزاة. ومنذئذ، فإنّ الظروف لم تتغيّر، كما لم تُصَبْ بوهن الصخرة التي بُنِيَت عليها كنيسة المسيح. والناس الطامحون اليوم إلى الحرّيّة يعرفون تمام المعرفة أنّ الحرّيّة لن ترفرف على العالم ثانية ما لم يعد العالم فيصير مسيحيًّا.

بعد نزاع تابعه العالم كلّه بخشوع، لفظ يوحنّا الثالث والعشرون نَفَسه الأخير يوم إثنين العنصرة ٣/٩/١٩٦٣. طوّبه البابا يوحنّا بولس الثاني في ٢٠٠٠.

٢٦١ - بولس السادس (١٩٦٣-١٩٧٨)

جيوڤاني-باتِيستا مُونتِينِي، كاردينال ميلانو، انتُخِب في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٦٣، والعالم كلّه في انتظار لاهف يدلّ، مرّة جديدة، على دور البابا في عالم اليوم، وعلى الأمل في رسالته، ليس في العالم الكاثوليكيّ فحسب.

ولد جيوڤاني في ٢٦ آب/أغسطس ١٨٩٧ في كونتشيزيو، بالقرب من بْرِيسشِيا. قَبِل سرّ العماد في ٣٠ آب/أغسطس، وهو تذكار وفاة القدّيسة تريز الطفل يسوع. والده، جِيُوزِجِيُو مونتيني الذي توفّي سنة ١٩٤٣، كان أحد مشجّعي الحركة الاجتماعيّة والسياسيّة، والثقافيّة الإيطاليّة. وأدار، طوال سنوات، الجريدة الكاثوليكيّة **مواطن بريسشيا** (*Il Cittadino di Brescia*). وكان كذلك معاونًا للسيّد لُوِيغي سْتُورْزُو، مؤسّس الحزب الشعبيّ الإيطاليّ،

الذي عاد إلى الوجود بعد الحرب العالميّة الثانية تحت اسم الديمقراطيّة الشعبيّة.

أتمّ البابا الجديد دروسه الثانويّة في مدرسة الآباء اليسوعيّين في بريسشيا. سيم كاهنًا سنة ١٩٢٠. غادر بريسشيا إلى رومة حيث تابع دراسته في الجامعة الرسميّة، والجامعة الغريغوريّة، وفي أكاديميّة الإكليريكيّين النبلاء. بعد فترة تمرّس في السفارة البابويّة في ڤرصوڤيا، شغل وظيفة مسجّل (Minutante) في أمانة سرّ الدولة البابويّة، وصار مرشدًا للشعبة الرومانيّة في الاتّحاد الجامعيّ الكاثوليكيّ الإيطاليّ، (F.U.C.I.) حيث أُتيح له أن يُفصح عن مواهبه في الخطابة والتنظيم. فمن خلال عمله هذا استطاع الأباتي مونتيني أن يتّصل بالشعب، ويتعرّف بؤسه، فتقرّب بأعمال المحبّة العديدة التي يقترن ذكرها بصورته، من الذين كانوا بحاجة إلى الكلمة الحلوة، وإلى المثل الصالح.

قَبْل أن يعيّن وكيلًا لأمين سرّ الدولة (١٩٣٧)، نشر الأباتي مونتيني ترجمة كتاب الأب لِيُونس دي غرانمِيزُون، **الديانة الشخصيّة**، ووضع له تمهيدًا رائعًا، **ومقدّمة لدراسة المسيح** تدلّ على فكر ثاقب، هي خلاصة الدروس التي كان قد ألقاها على الطلّاب الرومانيّين إبّان إقامته بينهم.

لم تمنعه وظيفته الجديدة من متابعة نشاطه المفضّل، أي ممارسة أعمال المحبّة، وإعطائه الفقراء كلّ ما يملك. وبصفته معاونًا مقرّبًا جدًّا من البابا الكبير بيّوس الثاني عشر، شارك المونسنيور مونتيني في الكثير الكثير من الأعمال التي اقترنت باسم الحبر الأعظم هذا. ونشاطه إبّان الحرب العالميّة أعدّه إعدادًا طبيعيًّا إلى الكرديناليّة، غير أنّ

الجميع فوجئوا حين أعلن البابا في ١٩٥٣ على مسمع العالم أنّ صاحبي السيادة مونتيني وتَرْديني زهدا في هذا الشرف. وفي آب/أغسطس ١٩٥٤ توفّي الكردينال شُوسْتِر، رئيس أساقفة ميلانو، فعيّن بيّوس الثاني عشر المونسنيور مونتيني كردينالًا على المدينة، وقد سيم في كنيسة القدّيس بطرس في ١٢ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٥٤. وحين دخل مونتيني حدود أبرشيّته أوقف سيّارته، فترجّل منها تحت المطر وقبّل الأرض التي وكلَ إليه أمرَها اللهُ والبابا. كان ذلك في ٤ كانون الثاني/يناير ١٩٥٥.

لا حاجة إلى وصف نشاطاته في ميلانو، فهي أشهر من أن تُعرَّف. لقد كان دائمًا حاضرًا بين المحرومين، شأنه في ذلك شأن بولس الخامس، وهمّه الكبير رعاية القرويّين الفقراء وتعليم الشعب التعليم الدينيّ، فجعل من ميلانو مركزًا للتربية والتبشير الدينيّ.

لقد كان الكردينال مونتيني وثيق الارتباط بكلّ جوارحه بفكرة المجمع، فكتب الأسطر النيّرة هذه في ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٥٩، عشيّة الإعلان عن انعقاده: «ينكشف التاريخ أمام أنظارنا بمشاهد فسيحة لقرون عدّة. إنّ المدينة المبنيّة على جبل، أي الكنيسة، ستكون محطّ أنظار الناس، وأفكارهم، واهتماماتهم. فهي تظهر مرّة جديدة، في نور بهيّ وسرّيّ، حارسة الكلام الإلهيّ ومصير البشر».

وبما أنّه اشترك اشتراكًا ناشطًا في الڤاتيكانيّ الثاني، فقد رأى من واجبه، منذ مطلع حبريّته، أن يوضح أهمّيّته، فكانت الكلمات المعبّرة هذه في رسالته الأولى بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو:

«إنّ أهمّ قسم من حبريّتنا ستشغله متابعة المجمع الڤاتيكانيّ الثاني المسكونيّ، فإليه يوجّه أنظارهم ذوو الإرادة الصالحة. إنّه العمل الأساسيّ الذي نعزم أن نخصّص له كلّ الطاقات التي منحنا إيّاها الربّ، كي تستطيع الكنيسة الكاثوليكيّة التي تشعّ في العالم كالراية المرفوعة فوق جميع الأمم القاصية (أشعيا ٥/٢٦)، أن تجذب إليها جميع الناس بجلال نظامها، بشباب روحها، بتجديد بناها، بتعدّد قواها الطالعة من كلّ قبيلة ولسان وأمّة (رؤيا ٥/٩)».

وحدة المسيحيّين جميعًا وسلام العالم، هاجسا يوحنّا الثالث والعشرين، تطبعان الخطاب الأوّل للبابا بولس السادس. «إنّنا بواسطة خدمتنا الحبريّة نودّ أن نتابع بكلّ عناية العمل العظيم الذي باشَرَه بأمل كبير وبطوالع سَعْد سلفنا يوحنّا الثالث والعشرون: تحقيق رغبة المسيح ليكونوا واحدًا (يوحنّا ١٧/٢٢)، هذه الوحدة التي ينتظرها الجميع بشوق، والتي بذل يسوع حياته من أجلها».

والذين يتألّمون من أجل المسيح واسمه، لم يغفل البابا عن ذكرهم في هذه الرسالة التي تشكّل برنامجًا كاملًا: «ونريد بنوع خاصّ، أن يشعر إخوتنا وأبناؤنا في المناطق التي تُمنَع الكنيسة فيها عن استعمال حقوقها، بأنّنا قريبون منهم. لقد دُعوا ليشاركوا عن قرب في حمل صليب المسيح، وأنّنا لواثقون بأنّه سيعقب تلك المعاناة فجر القيامة البهيّ. وسيتمكّنون أخيرًا من ممارسة وظيفتهم الراعويّة ممارسة كاملة، هذه الخدمة التي من طبيعة إنشائها تُزاوَل ليس لصالح الأفراد وحسب، بل لصالح البلدان التي يعيشون فيها».

وفي خطاب وجّهه إلى رجال السلك الديبلوماسيّ

في ٢٤ حزيران/يونيو، لم يتلكّأ بولس السادس من أن يبرز أهمّيّة الرسالة الدوليّة التي تقوم بها الكنيسة، الرسالة التي تجعل من الكرسيّ الرسوليّ الحَكَم الروحيّ بين الأمم: «تعلمون حقّ العلم أنّ الكرسيّ الرسوليّ ليس في نيّته التدخّل في الشؤون أو المصالح المنوطة بالسلطات الزمنيّة. إنّ ما تصبو إليه هو أن تشجّع في كلّ مكان الاعتراف ببعض مبادئ أساسيّة في الحضارة والإنسانيّة، تقوم الديانة الكاثوليكيّة على حراستها حراسة واعية، وتجهد لإدخالها في النفوس وفي المؤسّسات».

وعليه، فإنّ الحبريّة الجديدة هذه ظهرت مفعمة بالرجاء، بل باليقين، في وقت أدركت قعرَ الهوّة الحاجةُ إلى الوحدة والسلام، وإلى الحرّيّة والعدل، هناك حيث بدا أنّ الخوفَ حلَّ محلّه الانتظار. إنّ العالم الحديث عدوّ المسيح، يفتح عينين جديدتين على الحقائق الأزليّة، ووجود البابا بين الناس، مثله في العهود المجيدة التي عرفها الحبر الرومانيّ، صار حاجة كونيّة.

إلتفت بولس السادس إلى شؤون الكنيسة، فأنشأ مجمع الأساقفة ليعاون البابا بأكثر فاعليّة في سياسة إدارة الكنيسة، ونظّم الدوائر الڤاتيكانيّة (Curia)، وأنشأ المجلس الحبريّ للعلمانيّين، ولجنة عدالة وسلام، كما حدّد سنّ الخامسة والسبعين ليعتزل الأساقفة وأصحاب المراكز في الكنيسة مهامّهم، ودوّل الدوائر الڤاتيكانيّة منذ أن عيّن الكردينال ڤيّو (Villot) الفرنسيّ أمين سرّ الدولة. ومن أهمّ ما عمله في هذا المجال توسيعه مجلس الكرادلة، وتوزيعه بشكل مختلف تمامًا عمّا كان عليه، بحيث زاد عدده من خمسة وثمانين إلى مئة واثنين وثلاثين نصفهم

بدل ثلثهم من غير الأوروبيّين. وانعقدت في أثناء حبريّته مجامع أسقفيّة عدّة عنيت بإعادة النظر في الحقّ القانونيّ، وتعديل الطقوس، ودرس الزواجات المختلطة، وعلاقات الكرسيّ الرسوليّ بالمجالس الأسقفيّة، والتبشير في عالم اليوم، والتعليم الدينيّ...

ووجّه اهتمامه إلى المسكونيّة رغم إدراكه الصعوبات التي تواجهه. وكان حجّه إلى الأراضي المقدّسة (١٩٦٤) وتعانقه عناق الإخوة وبطريرك القسطنطينيّة أثيناغوراس خطوة أولى كبرى لا بدّ منها. إذ تمّ إسقاط الحرم بين رومة وبيزنطية (القسطنطينيّة) وقد كان قائمًا منذ الانفصال (١٠٥٤).

أسفاره: لفت الأنظار وأثار الاهتمام بأسفاره خارج إيطاليا، وهو أوّل بابا ينطلق إلى خارج الجزيرة. فإضافة إلى زيارته الأراضي المقدّسة، زار الهند (٢-٥/١٢/١٩٦٤) حيث رئس المؤتمر القرباني في بومباي، وحمل رسالة سلام، وندّد بالأوضاع الظالمة التي يعاني منها العالم الثالث. هناك قدّم إلى الأمّ تريزا سيّارته المكشوفة لتستغلّ مردود بيعها في مشاريعها الإنسانيّة.

وفي الأمم المتّحدة (٤/١٠/١٩٦٥) ألقى خطابًا تاريخيًّا ختمه بعبارة شهيرة بالفرنسيّة: «لن يكون بعضٌ ضدّ بعضٍ بعد اليوم أبدًا، أبدًا». وزار فاطمة (١٣/٥/١٩٦٧)؛ وفي تركيا ٢٢-٢٦/٧/١٩٦٧ التقى ثانية البطريرك أثيناغوراس. وحضر المؤتمر القرباني التاسع والثلاثين في كولومبيا (آب/أغسطس ١٩٦٨). وفي حزيران/يونيو ١٩٦٩، زار في جنيف مجلس الكنائس العالميّ ومنظّمة العمل الدوليّة.

وسافر في تمّوز/يوليو إلى أوغندا حيث دشّن المعبد المشاد لتكريم اثنين وعشرين شابًّا أوغنديًّا استشهدوا في ١٨٨٦، وأعلن، هو، قداستهم. وكان آخر أسفاره إلى الشرق الأقصى (٢٦/١١-٥/١٢/١٩٧٠) زار فيه داكا، ومانيلا، وجزر ساموا، وسيدني، وجاكَرتا، وهونغ كونغ.

وبولس السادس أوّل بابا يعلن قدّيستين: كاترين السيانيّة (١٣٤٧-١٣٨٠) وتريزا الأفيليّة (١٥١٥-١٥٨٢) معلّمتين في الكنيسة لسموّ تعاليمهما الروحيّة، وأصالتهما، وصحّتهما.

لم يكثر من إصدار الرسائل العامّة، بل توقّف عن ذلك بعد ١٩٦٨ تجنّبًا لاهتزازات وخضّات بين المفكّرين واللاهوتيّين، نظرًا إلى أنّ الرسالة العامّة لها طابع تعليميّ جامع، وتحاشيًا لتفسيرات غير دقيقة تتناولها وتسبّب ضيرًا.

كانت رسالته الأولى **إنّ كنيسته** (*Ecclesiam suam*) (٦/٨/١٩٦٤). رسم فيها طرق الكنيسة التي لخّصها بنفسه:

- **طريقًا روحيًّا**: إدراك الكنيسة نفسها ووعيها هذا الإدراك.
- **طريقًا أخلاقيًّا**: تجديد زهديّ، وسلوكيّ، وقانونيّ بما يتوافق مع ذلك الوعي، لتكون الكنيسة نقيّة، قدّيسة، قويّة، أصيلة.
- **طريقًا رسوليًّا**: بواسطة الحوار، أي الطريقة، والأسلوب، والفنّ التي يجب أن يطبع نشاطها في الخدمة.

وفي رسالته **سرّ الإيمان** (*Mysterium fidei*) (٣/٩/١٩٦٥) يؤكّد أنّ القربان ذبيحة، وفيه يتمّ التحوّل

الجوهريّ كما في العقيدة التقليديّة. ورسالته ترقّي **الشعوب** (*Populorum progressio*) (٢٦/٣/١٩٦٧) صارت من أهمّ الوثائق الاجتماعيّة في العصر الحديث، وما زال صداها يتردّد بين المفكّرين، وتعتبر دليلًا أساسيًّا أرادته الكنيسة لتوجيه تصرّف المسيحيّين في المجال الاجتماعيّ. ومن أهمّ ما فيها دعوة صريحة إلى التضامن بين البشر ونبذ القوميّات والعنصريّات التي تعيقه. وفي هذا الإطار تنزل الرسالة الرسوليّة **في حلول الذكرى الثمانين** (*Octogesimo adveniens*) لرسالة لاون العاشر **الأمور الجديدة** التي كانت منطلقًا ومرجعًا. فإلى جانب الموضوعات الاجتماعيّة الأساسيّة المعالجة في **ترقّي الشعوب**، يتناول بولس السادس شؤون البيئة، والبطالة، وخصوصًا لدى الشبّان، ووسائل الاتّصالات، والهجرة، والتمييز بأنواعه.

وكان حاضرًا في مهمّته التعليميّة موضوعات ذات بُعْدٍ كنسيّ جامع. ففي ما خصّ الكهنوت، أكّد شريعة البتوليّة في الكنيسة اللاتينيّة بمواجهة حملة قامت خصوصًا في هولندا ضدّ قرارات المجمع الفاتيكانيّ في هذا الموضوع.

وكان بولس السادس داعية فرح. ففي إرشاده **افرحوا بالربّ** (*Gaudete in Domino*) (٩/٥/١٩٧٥) يؤكّد أنّ جوهر الفرح المسيحيّ هو مشاركة روحانيّة بفرح المسيح الممجَّد، فرح إلهيّ وإنسانيّ معًا. ويقدّم نماذج في هذا الفرح ابتداء من العذراء مريم الفَرِحة، وسبب فرحنا، مرورًا بقدّيسي القرون الوسطى والعصر الحديث، خاتمًا بمثال فريد هو مثال مَكْسِيمِلِيان كولْبي (١٨٩٤-١٩٤١) الذي قدّم ذاته فدية في معتقل نازي، وقد أعلنه يوحنّا بولس

الثاني قدّيسًا (١٠/١٠/١٩٨٢) وحضر حفلة التقديس المُفْتَدى: فرنسيسك غايُوفِنْزِيك.

وفي شأن العائلة كان له اهتمام مميّز، وفيه أصدر الرسالة العامّة **الحياة البشريّة** (*Humanae vitae*)، وهي أهمّ وثيقة في تعليمه بموضوع العائلة، وتتناول تحديد النسل بوجه عامّ، واستخدام وسائل اصطناعيّة لذلك. وقد أثارت هذه الرسالة موجة من الاجتهادات والتفسيرات المتناقضة بحسب أذواق المفسّرين وأهوائهم. ويكمّل هذا الموضوع إعلان مجمع عقيدة الإيمان **بشأن الإجهاض المقصود** (*De aborto procurato*) (٨/١١/١٩٧٤) عندما قامت الحملات لتشريع الإجهاض في القوانين المدنيّة.

قاسى بولس السادس في حياته أمراضًا عدّة. وقد عكّر أيّامه الأخيرة حدثان في بلاده: إختطاف صديقه ألدو مورو وقتله (٩/٥/١٩٧٨)، ومصادقة البرلمان الإيطاليّ على قانون الإجهاض (٦/٦/١٩٧٨).

أصيب برئته فتوفّي في ٦ آب/أغسطس ١٩٧٨ وهو يتمتم «أبانا الذي في السماوات».

أقيمت حفلة الصلاة على جثمانه في ساحة القدّيس بطرس. وبحسب وصيّة البابا الوديع، المتواضع هذا، وضع جثمانه في تابوت خشبيّ عاديّ، ووضع التابوت على الأرض وقت الصلاة. وأتيح لبطريرك الموارنة الكردينال أنطونيوس خريش أن يرتّل مع مرافقيه الحاضرين صلاة وضع البخور بالسريانيّة بحسب الطقس المارونيّ.

ويبقى بولس السادس، الكردينال الأحمر كما وصفه بعضُهم لدفاعه عن حقوق العمّال والمظلومين، واحدًا من كبار الباباوات.

٢٦٢ – يوحنّا بولس الأوّل

مرّ هذا البابا مرور شهاب على كرسيّ بطرس. لم تدم حبريّته سوى ثلاثة وثلاثين يومًا. وهو أوّل بابا يحمل اسمًا مركّبًا: يوحنّا بولس، تكريمًا لسَلَفَيْه.

ألْبِينُو لُوتْشِياني ولد في ١٧ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٧ في عائلة متواضعة. (كان أبوه بنّاء، هاجر ليعمل في سويسرا وألمانيا). وُلِد ضعيف البنية حتّى إنّ القابلة عمّدته لحظة ولادته خوفًا من أن يقضي.

عندما دخل المدرسة الإكليريكيّة كتب له أبوه العامل القريب من الاشتراكيّة يقول: «آمل منك، عندما تصير كاهنًا، أن تقف إلى جانب الفقراء والعمّال، لأنّ المسيح كان قريبًا منهم».

سيم كاهنًا في ١٩٣٥. جعل همّه تعليم الدين، فصار في ١٩٤٩ مديرًا لمركز التعليم الدينيّ، ونشر كتاب تنشئة للمعلّمين بعنوان: **التعليم الدينيّ في فُتات**.

عيّنه يوحنّا الثالث والعشرون ورسمه أسقفًا (١٩٥٨) على فِتُورِيُو فِينِيتُو (Vittorio Veneto)، فعزّز المدرسة الإكليريكيّة، والحياة الرعويّة، وممارسة الرياضات الروحيّة لأبناء الرعايا، وخصوصًا للكهنة. (بعد موته نُشِرت له مجموعة تأمّلات لرياضة بعنوان: **السامريّ الصالح**).

في ١٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٦٩ عيّنه بولس السادس بطريركًا على البندقيّة، فكردينالًا في ١٩٧٣.

إهتمّ في عمله برعاية العاطلين عن العمل،

والمهمّشين، والمدمنين على الكحول، وخصوصًا الأطفال المعاقين الذين محضهم عطفًا خاصًّا. إشترك في جلسات المجمع الفاتيكانيّ كلّها «ليتعلّم أكثر منه ليعلّم».

إمتاز بفضائل ثلاث: المحبّة، والبساطة، والتواضع. وهكذا عندما أطلّ على المحتشدين في ساحة القدّيس بطرس بعد انتخابه بابا، اكتسب، منذ اللحظة الأولى، محبّتهم بابتسامته الوديعة. يضاف إلى ذلك أنّه كان رجل صلاة.

في المجمع الانتخابيّ إثر وفاة بولس السادس، انصبّت الأصوات فجأة على الكردينال لوتشياني، حتّى اعتبر غير واحد من كبارهم أنّ ذلك من عمل الروح. وما كان، هو، ليتصوّر أنّ العناية ستختاره، كما أعلن في الخطاب الذي ألقاه في اليوم التالي لانتخابه على المؤمنين المحتشدين في ساحة القدّيس بطرس.

لم يُتَح ليوحنّا بولس الأوّل الوقت الكافي ليتّخذ قرارات. على أنّ خطابه أمام الكرادلة (٣٠ آب/أغسطس ١٩٧٨) يوجز الخطوط الكبرى لبرنامج العمل الذي وضعه لنفسه، ويركّز على: تطبيق القرارات والأنظمة المجمعيّة، وترسيخ النظام الكنسيّ، وإتمام تعديلات الحقّ القانونيّ، وتشجيع أعمال الرسالات، ومتابعة الجهود في حقل العمل المسكونيّ، والمساهمة في تنشيط السلام في العالم.

والمقابلات العموميّة الأربع التي احتفل بها كانت مجالًا ليقوم فيها بوظيفته التعليميّة بكلام بسيط، واضح، يبلغ أفهام الجميع.

من الأحداث التي حصلت إبّان حبريّته القصيرة، تجدر الإشارة إلى موت نِيقُودِيمُوس، متروبوليت لنينغراد، في مكتبة البابا الخاصّة في أثناء استقباله إيّاه. وقال البابا عنه: «ما سمعتُ في حياتي قطّ كلامًا بشأن الكنيسة كذلك الذي سمعته منه، وأحفظه في قلبي».

يوم ٢٨ أيلول/سبتمبر كان يوم عمل مرهق للبابا. وصباح ٢٩ دخل عليه أمين سرّه الخاصّ ليجده ميتًا في غرفته، فأطلَع الكردينال ڤِيُو وطبيب البابا الخاصّ، الدكتور بُونْتْزُونِيتّي. واقتصر دور الطبيب على وضع الإفادة بحصول الوفاة. وضع جثمانه في تابوت بسيط من خشب ودفن في سرداب كنيسة القدّيس بطرس.

وصف الكردينال كُونْفالُونيِيري حبريّته بأنّها كانت «حوارًا مُحِبًّا بين أب وأبنائه».

٢٦٣ – يوحنّا بولس الثاني (١٦ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٧٨)

كارول ڤُويتِوا أصغر إخوة ثلاثة رُزِقهما كارول ڤُويتِوا وإميليا كازُورُوفسكا. ولد في ١٨ أيّار/مايو ١٩٢٠. بقي وحيدًا على قيد الحياة بعد أن خطف الموت أفراد العائلة واحدًا تلو الآخر، وكان آخرهم والده (١٩٤١) الذي يقرّ البابا بأنّه كان يعيش حياة مسيحيّة نموذجيّة بعد ترمّله، وقد علّمه الصلوات اللفظيّة، والتأمّل بالروح القدس.

أتقن لغات عديدة ومال باكرًا إلى الكتابة (مقالات، ترجمات، مسرحيّات). إشتهر في الجامعة بممارسته الصلاة وشعائر التقوى، ممّا دفع رفاقه إلى أن يرفعوا على مكتبه بطاقة سجّلوا عليها:

«كارلو ڤويتوا، قدّيس متمرّد!». ومن غرائب العناية أن يكون خيّاط، هو جان تِيرانُوفْسكِي، عاملًا حاسمًا في دعوة كارول الكهنوتيّة. فقد كان تيرانوفسكي بكلامه، ومثاله في التقوى المميّزة من موقعه الناشط في حركة «الورديّة الحيّة»، وبتعريفه كارول بمؤلّفات القدّيس يوحنّا الصليب، وتريزا الأڤيليّة، الحافز المباشر لاندفاع صديقه في هذا الطريق، ولسيره في خطّ زهديّ وتصوّفيّ جعله قريبًا جدًّا من مُصْلحَيْ الكرمل، والقدّيسَيْن، ومعلّمَيْ الكنيسة: يوحنّا وتريزا. وبعد أن سيم كاهنًا (الأوّل من تشرين الثاني/نوڤمبر ١٩٤٦)، تابع في رومة، في جامعة الآباء الدومنيكان (Angelicum)، دراساته العليا، وأعدّ أطروحة الدكتوراه بإشراف اللاهوتيّ الكبير، والزاهد المتصوّف أيضًا، الأب غارِيغُو – لاغرانْج حول القدّيس يوحنّا الصليب. وبعد عودته إلى بولونيا نشط في العمل الرعويّ، ودرّس الأخلاقيّات في جامعة ياغِيلِيُون (Jagellon)، ثمّ في جامعة لُوبْلين الكاثوليكيّة.

في ١٩٥٨ عيّن أسقفًا مساعدًا لمطران كراكوڤيا، فاهتمّ بالشبيبة وبالرعايا التي كان يزورها بتواتر، ويقضي في بعضٍ منها أيّامًا، أحيانًا. وإثر وفاة رئيس أساقفة كراكوف (بازياك Baziak) ثُبّت، هو، على ذلك الكرسيّ (٣٠ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٦٣). كان قد اشترك في جلسات المجمع الڤاتيكانيّ ولفت الأنظار بمداخلته الأولى، كما ازداد بروزه لاحقًا في الجلستين الثالثة والرابعة (١٩٦٤، ١٩٦٥)، وشارك في وضع تصميم الدستور الراعويّ **فرح ورجاء** في الكنيسة في عالم اليوم، وفي صياغة البيان **في الحرّيّة الدينيّة**.

عيّنه بولس السادس كردينالًا في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٦٧. وامتاز نشاطه في اتّجاهات ثلاثة: مارس وظيفته الكهنوتيّة الراعويّة التعليميّة بهمّة لا تكلّ؛ واستمرّ في أعماله التأليفيّة ومنها في هذه المرحلة كتابه **شخص وفعل** وكتابه الآخر **حبّ ومسؤوليّة** وكلاهما يؤلّفان نواة الأفكار الأساسيّة التي فصّلها لاحقًا في بعض رسائله البابويّة؛ ونشاطه الثالث وقوفه بشجاعة وحزم، وبلباقة أيضًا، بوجه سلطات النظام الشيوعيّ السائد في بلاده. يكفي أن نذكر إلحاحه فحصوله على إجازة ببناء كنيسة «نوفا هوتا» (Nowa Huta) في الحيّ الذي يحمل الاسم نفسه، والذي أراده النظام الحاكم أن يكون «مدينة اشتراكيّة» نموذجيّة. ووقوفه مدافعًا عن عمّال الموانئ في غدانسك (١٩٧٠) وتنديده بجوّ الرعب الضاغط في تلك الأحداث الدامية. فلا عجب أن يكنّ له بولس السادس تقديرًا مميّزًا بسبب تقارب مواقفهما. وقد عُرِف أنّ بولس السادس ضمّن رسالته **الحياة البشريّة** *(Humanae vitae)* الكثير ممّا أرسله ڤويتيلا من أفكار من كراكوڤيا؛ وقد استقبله أكثر من أيّ كردينال آخر لا يعمل رسميًّا في دوائر الڤاتيكان، واستدعي ليلقي مواعظ الرياضة الروحيّة التي شارك فيها البابا في ١٩٧٦، وقد نشرت تلك المواعظ فيما بعد في كتاب: **علامة تناقض**.

عندما استدعي الكرادلة لانتخاب خلف ليوحنّا بولس الأوّل، وكان موته المفاجئ بُعَيْد اعتلائه كرسيّ بطرس صدمة ذات وقع، أحدثوا، هم، صدمة من نوع آخر، ففاجأوا العالم باختيارهم كارول ڤويتيلا البولونيّ حبرًا أعظم. فكان هذا الاختيار علامة مميّزة على مسكونيّة الكنيسة. إنّه

أوّل بابا غير إيطاليّ منذ عدّة قرون. وقد تجاوب البابا الجديد مع النزعة المسكونيّة هذه بحمله رسالة المسيح إلى أقطار الدنيا، واتّصاله مباشرة بالقطيع عبر زياراته الرسوليّة التي شملت قارّات العالم الخمس. ويجمع المراقبون والمحلّلون على أنّه من أعظم شخصيّات عالم اليوم. ويمكن القول إنّ حبريّته من أهمّ ما عرف في تاريخ الكنيسة، ليس لأنّها أطول حبريّة في القرن العشرين وبين الحبريّات السبع الطوال وحسب، بل بفضل ما حقّقه في مجالات عديدة. فيوم ١٦ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٧٨ صار كارول ڤويتيلا الخليفة الجديد لبطرس، وحمل اسم يوحنّا بولس الثاني تكريمًا لذكرى سلفه المباشر. ولم يلبث أن انطلق البابا الجديد في مهامّه باتّجاهات متنوّعة. إهتمّ بتفسير المجمع الڤاتيكانيّ وعمل على تطبيقه أساسًا بواسطة الحقّ القانونيّ وبنشر **التعليم المسيحيّ** للكنيسة، ومجموعة الرسائل العامّة التي أصدرها وتناولت مختلف الموضوعات المرتبطة بتعاليم المجمع. ويثير عجب المراقب وإعجابه النشاط الذي لا يكلّ، فيظلّ يوحنّا بولس الثاني يبذله بالرغم من ثقل السنين والصعوبات الصحّيّة التي ناءَت به. ولأنّ هذه الحبريّة لم تتحوّل بعد مادّة تاريخيّة، بل هي في حياة قائمة وتطوّر مستمرّ، يكفي أن نشير إلى أبرز الخطوط التي تتّجه فيها. فإلى جانب الأسفار الرسوليّة الطابع والإنجيليّة الهدف التي أتت بثمار كثيرة وبثّت حميّة في الجماعات المسيحيّة التي نعمت بزيارة البابا، وإلى جانب إدارة شؤون الكنيسة وتمثيل دولة الڤاتيكان والاتّصالات المتعدّدة بقادة الشعوب وحكّام الدول، هناك ثلاثة محاور تبرز اندفاع الراعي الأوّل في

الكنيسة للعناية بشؤونها إتمامًا لرسالته التعليميّة والتقديسيّة. فقد عمد إلى عقد مجامع إقليميّة عدّة لتدارس شؤون الكنائس المحلّيّة مع رعاتها وأبنائها، في أميركا، وأفريقيا، وآسيا (لا يسعنا أن نغفل الإشارة بنوع خاصّ إلى زيارته لبنان لإعلان وثيقة السينودس: **رجاء جديد للبنان** - ١٠ أيّار/مايو ١٩٩٧). والمحور الثاني يتجلّى في عدد الذين أعلن قداستهم وهم كثر. والأهمّيّة الكبرى في ذلك ليس العدد فحسب، بل لأنّ هؤلاء «القدّيسين» الذين قدّمهم نماذج إلى الشعب المسيحيّ، ينتمون إلى قطاعات مختلفة في المجتمعات، وإلى دعوات وأوضاع ومِهَن متنوّعة. فمنهم راهبات ورهبان، وكهنة، وعلمانيّون؛ أغنياء وفقراء؛ مثقّفون ومفكّرون وغير مثقّفين، وعمّال؛ عازبون، ومتزوّجون، وأرامل؛ شيوخ وشبّان بل وأطفال. وإذا كان بيّوس الثاني عشر قد شقّ طريق القداسة أمام الأولاد بإعلانه دومنغو سافيو (١٨٤٢-١٨٥٧) قدّيسًا في ١٩٥٤، فقد أعلن يوحنّا بولس الثاني الفتاة التشيليّة لاورا ڤِكُونيا (١٨٩١-١٩٠٤) طوباويّة، وهناك عدد لا يُستهان به من الفتيات والفتيان تسير دعواهم في مرحلة متقدّمة. وتجدر الإشارة إلى أنّ البابا أعلن طوباويًّا أوّل شخص من جماعة الغَجَر (النَّوَر) هو ثِفِرِينُو خِيمِينيث مِيليا (Ceferino Giménez Mella) سقط شهيدًا في الحرب الأهليّة الإسبانيّة (١٩٣٦-١٩٣٩).

أمّا نشاطه التعليميّ فقد تجلّى بالعدد الوافر من الرسائل العامّة خصوصًا والبراءات والخطب الخاصّة في مناسبات معيّنة. وإذا كان لنا أن نذكر بعضها بنوع خاصّ فإنّما ذلك على سبيل المثال. ففي مطلع

حبريّته (١٥/٣/١٩٧٩) أصدر رسالته **مخلّص الإنسان** (*Redemptor hominis*)، **والعمل البشريّ** (*Laborem exercens*) (١٤/٩/١٩٨١) في الذكرى المئويّة لرسالة لاون الثالث عشر **الأمور الجديدة**، التي تتضمّن تكرارًا تعليم الكنيسة الاجتماعيّ بما فيه من تقدير لعمل الإنسان المساعِد على الخلق، وبالتالي فهو يفوق كلّ قيمة ماديّة. وفي ٢٥/٣/١٩٨٧ أصدر رسالته **والدة الفادي** (*Redemptoris Mater*) ومكانة مريم في الكنيسة ودورها في عمل الخلاص، **ورسالة الفادي** (*Redemptoris missio*) بشأن الرسالات؛ **وألَق الحقيقة** (*Veritatis splendor*) (٥/١٠/١٩٩٣)؛ **ونور الشرق** (*Orientale lumen*) (٢/٥/١٩٩٥)؛ **وإنجيل الحياة** (*Evangelium vitae*) (٣٠/٣/١٩٩٥) وفيها يؤكّد ما شدّد عليه في مناسبات عدّة بأنّ الحياة حقّ طبيعيّ مصون لا يجوز انتهاكه؛ ورسالته **ليكونوا واحدًا** (*Ut unum sint*) (٢٥/٥/١٩٩٥) التي يفصح فيها عن نزعته المسكونيّة، والرغبة في توحيد المسيحيّين تجاوبًا مع إرادة المسيح في صلاته: «... ليكونوا واحدًا»؛ **والإيمان والعقل** (*Fides et ratio*) التي يؤكّد فيها عدم تعارض الإيمان وحقائقه مع العقل واكتشافاته، وهو موضوع طالما كان مثار نقاش فلسفيّ منذ القرون الوسطى وفي العصر الحديث.

ونكتفي أيضًا بالإشارة إلى ثلاثة موضوعات كانت وما تزال همًّا ملازمًا ليوحنّا بولس الثاني.

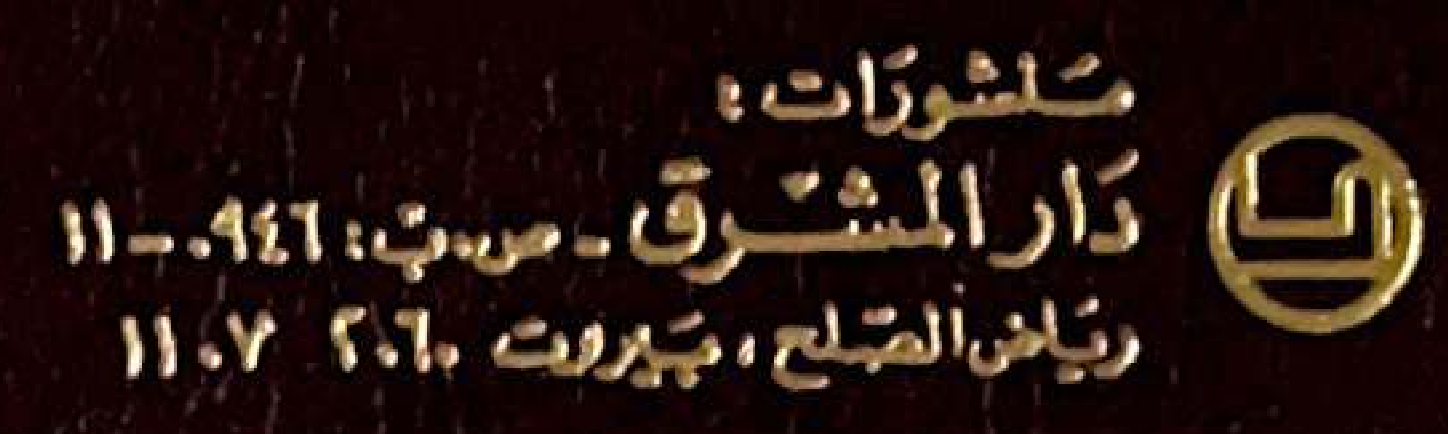
- إهتمامه بالشبيبة، علامة الحياة في المجتمع وأمل المستقبل. وما مؤتمرات الشبيبة التي تنظّمت في قارّات مختلفة وشارك فيها إلّا الدليل الواضح على حيويّة البابا وعلى تقديره قيمة الشبيبة، وهو

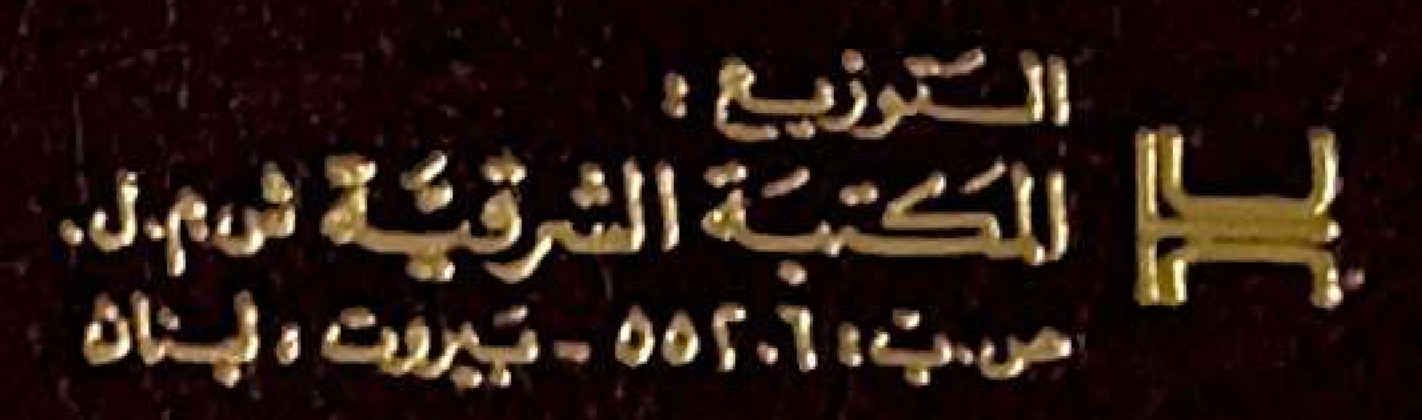
كان على موعد معهم في إيطاليا صيف العام (٢٠٠٠).

• وظهر البابا في كلّ لحظة داعية سلام وتفاهم بين الشعوب على اساس احترام الحقّ والعدل. ففي رسالة الميلاد ١٩٩٠، وحرب الخليج متّقدة، دعا إلى السلام واصفًا الحرب بأنّها «مغامرة لا عودة منها». ودعا إلى السلام الداخليّ في وطنه بولونيا، وعمل له. وحقّق التفاهم بقدر الممكن مع النظام الشيوعيّ في كوبا كاسْتْرُو، حيث دافع بحزم لَبِق عن حرّيّة المعتقد وممارسته في زيارته الراعويّة الأخيرة. وفي هذا المجال تندرج إقامة الڤاتيكان علاقات ديبلوماسيّة ببعض البلدان الجديدة التي نشأت إثر تفكّك الاتّحاد السوڤياتيّ الأسبق.

• ووحدة المسيحيّين شغله الشاغل وموضوع صلاته اليوميّة. وقد خطا يوحنّا بولس الثاني خطوات كبيرة باتّجاه الإخوة المنفصلين، ودنوا، هم، منه تقديرًا واحترامًا؛ وكانت لقاءات عديدة وتصريحات وبيانات مشتركة تفصح عن الرغبة الكامنة لدى الفريقين في التقارب، والتفاهم، والتحابّ...

حبريّة يوحنّا بولس الثاني كثيفة النشاط، وافرة الثمار، للكنيسة وللبشريّة جمعاء. والعناية الإلهيّة التي أنقذته من محاولتَي اغتيال (١٣/ ٥/ ١٩٨١ حين أطلقت عليه النار في ساحة القدّيس بطرس، وفي ١٣/ ٥/ ١٩٨٢ لدى زيارته عذراء فاطمة في ذكرى المحاولة الأولى) أعدّته، بلا شكّ، لشؤون عظيمة في تاريخ البشريّة والكنيسة، كما ظهر حتّى الآن.


منشورات:
دار المشرق - ص.ب: ٩٤٦-١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧


التوزيع:
المكتبة الشرقية ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان